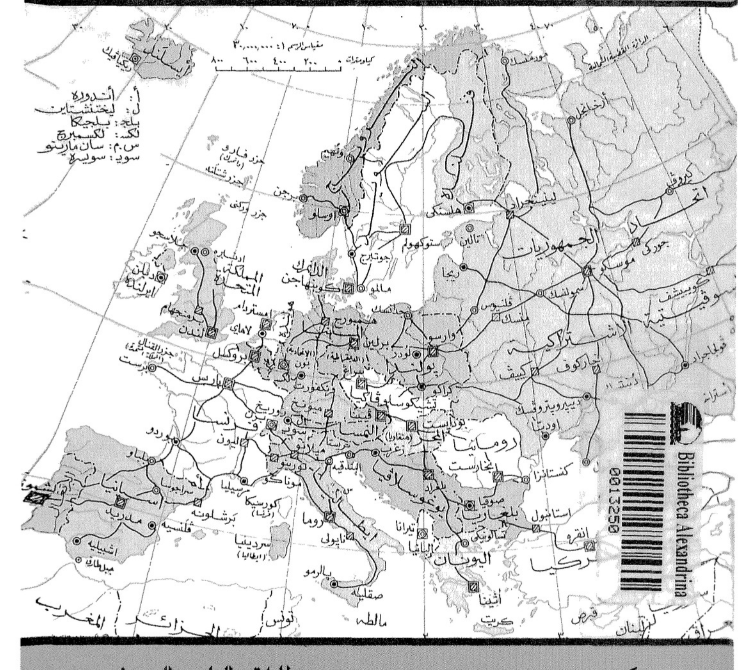
التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر

سيطرة أوربا على العالم



دكتور
جلال يحيى

الجزء الرابع

المكتب الجامعي الحديث
الأزاريطة – الاسكندرية
تليفاكس :٤٨٤٣٨٧٩

التاريخ الأوربي
الحديث والمعاصر

التـــاريخ الأوربى
الحديـــث والمعاصـــر

****

سيطرة أوربـا علي العالم

دكتور
جلال يحيى

المكتب الجامعي الحديث
الأزاريطة - الاسكندرية
تليفاكس :٤٨٤٣٨٧٩


المقدمة

مقدمة

يمتد التاريخ فترة تشتمل على عدة قرون ، وحدثت فيها آحداث هامة، غيرت طريقة عمل الإنسان ، وطريقة حياته فى المجتمع، وكذلك طريقة تفكيره، وأوصلته إلى أن يعيش فى الفترة المعاصرة، فى التاريخ المعاصر.

ولقد تعود أساتذة التاريخ الحديث أن يبدؤا شرح تاريخ هذه الفترة مع تاريخ القرن السادس عشر، وكانوا قد تعودا قبل ذلك، أن يقصروا تاريخ عصر النهضة اللأوربية على "حركة الإنسانيات"، عازفين عن شرح التغيرات الإجتماعية والإقتصادية التى كانت قد سبقتها. ومهدت لها؛ وكانت أساساً طبيعياً ومنطقياً لكل تغيير لاحق.

وإذا ماحاول الباحث أن يستكشف العوامل الإجتماعية والإقتصادية العميقة، التى أدت إلى تحول حياة العالم من العصور الوسطى إلى التاريخ الحديث ، فإنه سيجد نفسه بالضرورة يرجع إلى الوراء، زمنيا باحثاً عن الأصول الفعالة، فيعمل فى القرن الخامس عشر، ويصل حتى إلى القرن الرابع عشر، حيث يجد المعطيات الأولى الدالة على التغير ، أو التحول ، والتى تصلح أساساً صلباً لشرح تيارات التاريخ الحديث. وكان هذا هو خط السير الذى إنتهجته ، باحثاً عن الأسس الإقتصادية ، وتطور وسائل وعلاقات الإنتاج ، والنقل ، كأساس لتغيير شكل المجتمع ، وعلاقاته الطبقية ، وحتى يمكننا أن نصل بعد ذلك إلى شرح تطور البنيان الفوقى السياسى ، والنشاط الثقافى والفنى للإنسان ، هنا وهناك.

ولقد وجدت أن فترة "فجر" التاريخ الحديث تمثل مرحلة هامة من تاريخ البشرية فى تطورها عن حياة العصور الوسطى ، إلى الحياة فى التاريخ

الحـديث، وأن أسس هذه الفـتـرة ترجع إلى القـرن الرابع عـشـر، وحـتـى إلى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر؛ وأن مـن الضروري ربط عناصر هذه الفترة ببعضها، وفي شكل تحليلي وبنياني ؛ حتى يتمكن الدارس من مواصلة فهم الخطوط الأساسية للتاريخ عبر عصوره المختلفة.

كنا قـد قـسـمنا من قـبل هذه الفتـرة من الدراسة إلى ثلاث مـجلدات، عن "الفجر" ، وعن الفترة التي تصل "حتى الحرب العالمية الأولى، ثم عن "الفترة المعاصرة" منذ الحرب العالمية الأولى . ونضيف إليهـا الآن مـجلداً رابعاً عن "سيطرة أوربا وإستعمارها العالم".

* * *

وإذا كـانت الأصـول الأولى للتـاريخ الأوربي الحديث ترجع إلى فـتـرة نمو الرأسمالية ، وظهور المراكز التجارية ، وما تبع ذلك حركة الكشوف الجغرافية، وتغـيـيـر مـعـالم خريطة العـالم المعروفـة، من ثلاثة قـارات كـانت هي وحـدها المعـروفـة، فـإن ذلك قـد أسلم حكم العـالم كله لأوربـا ، وأخضع أوربا لسـيطرة وتفوق نفوذ دولة واحدة فيها ، هي إسبانيا.

ولكن الإنسان الأوربي كان لايزال يمر في مرحلة تطور وتغيير ، في طريقة معيشته وتفكيره، وحتى في نظرته إلى عقيدته ؛ الأمر الذي أدى إلى ظهور حركات الإصلاح الديني، وما تبعها من حروب دينية ، أعطت إسبانيا كذلك دور المدافع عن المذهب الكاثوليكي ، "والمحـافظ " على سلطة الكنيـسـة الكاثوليكية وسطوتها، في نفس الوقت الذي كـانت إسبانيا فـيـه على رأس القوى التي "غيرت" خريطة العالم وكانت إسبانيا تسير على سياسة "إحتكار" التجارة ، في الوقت الذي بنيت فيـه الأسس الأولى للتـاريخ الحديث على "نمو

الرأسمالية" وحرية التجارة. وهكذا وجدت إسبانيا نفسها فى تناقضات واضحة "إقتصادية" ، وسياسية ودينية ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه قوتها محدودة ، وضيعت جزءاً كبيراً من مواردها فى حروب القارة الأوروبية فيما وراء البحار.

وأدى ذلك إلى ظهور إنشقاقات وصراعات ، عنها ومعها ، فى ألمانيا؛ وقد أخذت شكلا دينيا ؛ وفى هولنداوقد أخذت شكل حركة إستقلال ؛ ومع إنجلترا من أجل السيطرة على البحار؛ ومع فرنسا ، من أجل منع تطويقها بمناطق الحكم والنفوذ الإسبانى من كل ناحية ، ونعنى ذلك أنه ظهر مبدأ " التوازن الدولى"، الذى ستحارب أوربا من آجله، وتعطى به عنصراً هاما من عناصر حياتها فى التاريخ الحديث، يكمل بقية العناصر التى تميز بها عصر التاريخ الحديث. وهكذا تكتمل فترة أصول التاريخ الأوربى الحديث، أو فترة فجر التاريخ الحديث مع نهاية القرن السادس عشر، وحين توقف نمو السيطرة الإسبانية على أوربا، مع إستقلال هولندا ، وهزيمة إنجلترا للأسطول الإسبانى "الأرمادا" ؛ ويبدأ التاريخ الحديث بكل صفاته ومميزاته ، منها التوازن ، مع القرن السابع عشر، وهو يمتد حتى الفترة التى نعيشها الآن، والتى تسمى بفترة التاريخ المعاصر.

ولقد مهدت للجزء الأول من الكتاب ، عن أصول التاريخ الأوربى الحديث ، أو عن فترة "الفجر" ، بتمهيد عن مميزات العصور الوسطى،.لإظهار مدى التغيرات التى ستحدث فيما بعد وقسمت هذا الجزء إلى أبواب: عن تفكك عالم العصور الوسطى فى الغرب؛ وعن التغيرات العميقة التى وقعت فى أوربا ؛ وعن زحف العثمانيين على جنوب شرقي أوربا، وفتحهم القسطنطينية؛ وعن ظهور النهضة الأوربية وإزدهارها ؛ وعن الكشوف

الجغرافية ؛ وعن الصراع فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ثم التوسع العثمانى فى الشرق الأدنى ؛ وأفردت باباً للإصلاح الدينى، وختمته بباب عن التغيرات فى غرب أوربا ، ووقف النمو الأسبانى ؛ الأمر الذى يوصلنا إلى مطلع القرن السابع عشر.

* * *

أما الجزء الثانى من الكتاب وهو الممتد زمنياً " حتى الحرب العالمية الأولى" ، فإنه يعالج أهم التغيرات التى حدثت فى فترة التاريخ الحديث ، منذ مطلع القرن السابع عشر، وحتى إعلان الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤. وهو يشرح الأحداث التاريخية التى وقعت فى هذه الفترة ، مع تحليلها ، ويحاول إستنباط أسبابها ونتائجها. كما أنه يحاول الرجوع إلى الأسباب الإقتصادية والإجتماعية؛ ويعمل كذلك على ربط الأحداث التى وقعت على القارة الأوربية ، بغيرها من الأحداث والتطورات التى وقعت فى بقية قارات العالم، وذلك تمهيداً للوصول إلى فترتنا "المعاصرة" والتى تتشابك فيها العوامل العالمية ، دون إعتبار القارة أو المحيط ؛ والتى هى موضوع الجزء الثالث من هذه المجموعة.

ولقد قسمت هذا الجزء الثانى من الكتاب إلى سبعة أبواب : خصصت الباب الأول منها للقرن السابع عشر، وعرضت فيه حرب الثلاثين عاماً، والثورة العظمى فى إنجلترا ، وتفوق فرنسا ونموها، وحرب الوراثة الإسبانية. ولقد شهد هذا القرن هزيمة إسبانيا وإنتهاء تفوقها ، مع صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ ؛ كما شهد تغيراً كبيراً فى إنجلترا ؛ وشهد تفوق فرنسا فى عهد لوى الرابع عشر، ونهاية هذه المرحلة مع صلح أو ترخت سنة ١٧١٢.

أما الباب الثانى فقد خصصته للقرن الثامن عشر، وعرضت فيه لأوضاع كل من فرنسا وإنجلترا، وكذلك أحوال كل من السويد وروسيا وبروسيا؛ وختمه بحرب الوراثة الأسبانية ، التى تطورت أحداثها الأخيرة إلى حرب السنوات السبع، التى فقدت فيها فرنسا مستعمراتها وإمبراطوريتها الإستعمارية الأولى، وخرجت منها إنجلترا منتصرة فى كل مكان ، وهو مايمثل عصر التفوق الإنجليزى فى العالم.

وأما الباب الثالث فقد خصصته للشركات الإستعمارية ، والإستعمار الأوربى وإمتداده فى العالم فى ذلك الوقت ، وعرضت فيه أمر ظهور الشركات الهولندية والبريطانية ، وكذلك الشركات الفرنسية ، وسيادة الروح التجارية فى عملياتها .

وأما الباب الرابع فقد خصصته لإستقلال الولايات المتحدة الأمريكية ونشوب تلك الثورة التى سيعلن فيها مهاجرون من الوطن الأم، ولأول مرة فى التاريخ الحديث، إستقلال مستعمراتهم عن هذا الوطن الأم، وإنشاء جمهورية إتحادية سيكون لها أخطر دور لعبته أى دولة ، وبخاصة فى القرن العشرين.

وخصصت الباب الخامس للثورة الفرنسية ، وعرضت فيه لأحوال فرنسا الإقتصادية والإجتماعية ، وخطوط الفكر والسياسة فيها قبيل نشوب الثورة، ثم عرضت لوصول البرجوازية للحكم فى فرنسا،. وما تلى ذلك من تكتل النظم الأوربية ضد الثورة ، والصراعات التى تمت بينها.

وخصصت الباب السادس للقرن السابع عشر، وعرضت فيه لنتائج مؤتمر فينا ، وعودة للحكم السابق إلى أوربا ، ولتحرر أمريكا اللاتينية وإعلان مبدأ منرو وكذلك لأزمات سنة ١٨٣٠. وهو يعالج كذلك الفترة التى تم فيها

بناء الدول العظمى ، ووصلت فيه قوة أوربا إلى أوجها. وشرحت فيه الوحدة الإيطالية ، والإتحاد الألمانى ، ونمو كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، واليابان ، وكذلك تفوق ألمانيا فى أوربا حتى سنة ١٨٩٥.

وخصصت الباب السابع والأخير من هذا المجلد الثانى الفترة التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى ، سنة ١٩١٤ ، وشرحت فيه التسلطيات وإتجاهاتها ، والصعوبات التى واجهت أوربا ، وكذلك التحالفات والتسابق الى التسليح ، ثم أزمة يوليو سنة ١٩١٤.

* * *

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وبعد "الفجر" والفترة التى تصل "حتى الحرب العالمية الأولى" فإنه يعالج "الفترة المعاصرة" أى منذ الحرب العالمية الأولى .

ويعتبر تاريخ العالم، أو التاريخ الأوربى فى الفترة المعاصرة، إمتداداً للتاريخ الحديث، وتكملة له. وإذا كان العرف قد جرى على إعتبار أن التاريخ الحديث يبدأ بسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين، أو بسقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين فى الأندلس، فى أيدى قوات فرديناند وإيزابلا، أو بحركة النهضة ، أو بالكشوف الجغرافية ، فإن التاريخ المعاصر يفتقر إلى وجود بداية ثابتة له، ذلك أن التاريخ المعاصر متحرك بتحرك المعاصرين له: فالتاريخ المعاصر ، منذ ثلاثين عاماً مثلا ، كان يبدأ بالحرب السبعينية بين بروسيا وفرنسا، وبينما يبدأ الآن بالحرب العالمية الأولى.

ومصادر التاريخ المعاصر تختلف عن مصادر التاريخ الحديث، خاصه وأن وثائق التاريخ الحديث قد أصبحت تحت تصرف الباحث التاريخى ، بينما

لايزال جزء هام من وثائق التاريخ المعاصر محجوب عن الإطلاع ، نتيجة لقرب أحداثة، وإستمرار العمل فى ملفاته، وبناء عدد ممن شارك فى صنع هذه الأحداث على قيد الحياة ، الأمر الذى يجبر المؤرخ الذى يعمل فى هذه الفترة على تعويض النقص الموجود فى الوثائق ، بزيادة الإعتماد على الأخبار ، وعلى التحليل ، ودون أن يسمح له ذلك بإتخاذ أحكام قاطعة ، وخاصة فى وقت زادت فيه الدعاية وتضاريت فيه التفسيرات ، تبعاً لإختلاف الايديولوجيات.

ولقد قسمت هذا الجزء الثالث من الكتاب ، والذى يعالج الفترة المعاصرة منذ الحرب العالمية الأولى ، إلى خمسة أبواب.

وخصصت الباب الأول من بينها للحرب العالمية الأولى ، وإستعرضت فيه أزمة يوليو سنة ١٩١٤ وإعلان الحرب ، وشرحت إمكانيات الدول المتحاربة، ثم ظروف الحرب الأوروبية حتى شهر فبراير سنة ١٩١٧ ، ودخول الولايات المتحدة الحرب وآثارها. وأنهيته بشرح الإنهيارات التى تمت ثم تسويات الصلح.

أما الباب الثانى فقد خصصته للفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وإستعرضت فيه ظروف العالم بعد الحرب العالمية الأولى، والسياسات القومية، والأزمة الإقتصادية العالمية، ثم فشل نظام الأمن الجماعى ، والحرب الأهلية الإسبانية ثم التوسع الألمانى فى وسط أوربا.

وأما الباب الثالث فقد خصصته للحرب العالمية الثانية، منذ أزمة سنة ١٩٣٩ وإعلان الحرب، والهزيمة الفرنسية، ثم مقاومة بريطانيا العظمى ، ونشأة التحالف الكبير والمحافظة عليه، حتى هزيمة دول المحور.

وأما الباب الرابع فقد خصصته للمشكلات العالمية بعد الحرب العالمية الثانية. وشرحت فيه ظروف العالم سنة ١٩٤٥، وفشل السلم بعد نهاية الحرب، ثم التعايش السلمى وأزمات ١٩٤٩-١٩٥٦، وكذلك الإتجاه الوطنى فى دول العالم الثالث، ونهاية النظم الإستعمارية، وظروف التوازن بين الشرق والغرب.

وأما الباب الخامس والأخير فى هذا الجزء الثالث فقد خصصته لتطور الدول العظمى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن ، مستعرضا الأوضاع فى فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، وإيطاليا وألمانيا واليابان ، وكذلك فى الدول الإشتراكية.

* * *

ويأتى بعد ذلك أمر المجلد الرابع من هذه المجموعة التى تعالج التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر ، وهو الخاص " بسيطرة أوربا وإستعمارها العالم" .
وهذا المجلد يظهر ، بوضوح ، على أنه يتوازى زمنيا ، مع المجلدات الثلاث الأولى. ولكنه قد خصص لنفسه موضوع علاقات أوربا ، فى تاريخها الحديث والمعاصر، بالقارات والشعوب الأخرى الموجودة فى العالم، وفى نفس الفترة الحديثة والمعاصرة فيعالج أمر سيطرة أوربا وإستعمارها العالم.

وهذه العلاقة ، وهى علاقة الإستعمار والسيطرة، كانت قد مرت بتطورات كثيرة ومتتالية ، طوال الفترات التاريخية المعروفة، وإرتبطت منذ نشأتها بموضوع إستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، أوثق إرتباط، بل لقد كان الإستغلال هدفا أساسيا من بين أهدافها ، ونتيجة حتمية لنجاح عملياتها . ولقد قامت بعمليات الأستعمار عناصر قوية ومغامرة، وتسلحت بأسلحة

تمكنها من فرض نفسها على غيرها، ومن إخضاعها لها، وإستغلال مواردها وإمكانياتها ، وتسخيرها لصالحها، حتى وإن أدى ذلك إلى تخلف هذه الشعوب الضعيفة أو المستضعفة . وكم من مرة تقرضت فيها النظم الإستعمارية، نتيجة لضعف العناصر القائمة عليها، أو نمو قوة العناصر الوطنية والكادحة ، وظهور اتجاهات معادية للإستعمار ، وحركات تحررية وأفكار ثورية ، هنا وهناك ، وإمتد ذلك عبر العصور ، حتى وقتنا الحاضر، والذى يمكننا أن نصفه ، دون مغالاة ، بأنه عصر نهاية الإستعمار ، أو عصر الإنهاء عليه وتصفيته.

ولقد قسمت هذا الجزء ، أو هذا المجلد ، إلى سبعة أبواب ، تحدثت فى أولها عن الإستعمار فى العصور القديمة، ومنذ بداية عمليات الإستعمار التى سجلها التاريخ فى الشرق الأدنى القديم ، حتى نشأة المراكز البحرية الأولى ثم نشأة الإمبراطوريات المنظمة فى فارس ومقدونيا ، وظهور الإستعمار الرومانى ، والنظم التى سارت عليها الإمبراطورية الرومانية . أما الباب الثانى فقد تحدثت فيه عن الإستعمار فى العصور الوسطى ، غزوات البرابرة وعمليات الفتح العربى والإسلامى ولقد إحتلت الحملات والحروب الصليبية مكانها فى هذا الباب، مع ماقامت به من عمليات فى الشرق الأدنى ، وما أنشأته من نظم وجماعات محاربة ومستعمرة . وتنتهى هذه الفترة التاريخية بظهور تحولات وتغيرات تاريخية وسياسية وإقتصادية هامة، سارت مع إزدهار التجارة وتزايد قيمة العملة ، مع المراكز البحرية، ومعرفة أهمية تجارة الشرق الأقصى ، ونشأة الجمهوريات التجارية فى جنوب أوربا وبدء عصر نمو الرأسمالية وسيطرتها.

وخصصت الباب الثالث لعصر النهضة وغزو أوربا للعالم ، وتوسعها فيه شرقا وغربا: فمن كريستوف كولومب إلى غزو الهند الغربية، وإكتشاف أمريكا ، والعمل على إستغلال موارد هذه القارة ، ونشأة تجارة تصدير العبيد إلى العالم الجديد للعمل فى المزارع. ومن رحلات البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح والوصول إلى المحيط الهندى والشرق، وعملهم على إستغلال الثروات وإحتكارها لأنفسهم.

وأما الباب الرابع فقد خصصته لعصر الشركات الإستعمارية . من هولندية وإنجليزية وفرنسية، ونظام عمل هذه الشركات ، ومناطق عملياتهم، وتأثيرهم على المناطق التى عملت فيها، وتأثيرها كذلك على الإقتصاد العالمى، وظهور الروح التجارية وسيطرتها.

وتحدثت فى الباب الخامس عن تأثير الفكر الجديد والثورات البرجوازية على النظام الإستعمارى . وبعد ظهور الفلاسفة المهدين وإتخاذهم موقفاً خاصا من الإستعمار فى القرن الثامن عشر، وقفت فرنسا موقفاً خاصاً تجاه فقدها لكندا . أما الولايات المتحدة فإنها قد نشأت نتيجة لإعلان الثورة الأمريكية، وإعلان الإستقلال عن إنجلترا . وختمت هذا الباب بشرح نتائج الثورة الفرنسية، والتغيرات التى وقعت فى أوربا فى عصر نابليون ، على النظام الإستعمارى، وخاصة فى أمريكا اللاتينية ، وظهور مبدأ منرو، فى أمريكا الشمالية.

أما الباب السادس، فقد خصصته للإمبراطوريات الجديدة، التى ظهرت مع التسلطية فى القرن التاسع عشر، وتقسيم العالم، وتغلغل الاستعمار فى إفريقية، والمحيط الهادى ، وظهور إمبريالية الولايات المتحدة .

وختمت الكتاب بالتحدث عن غروب الاستعمار الأوربى فى القرن العشرين، نتيجة لإنهيار الغرب وفقره، وظهور حركات الكفاح الوطنى والتحرر، ومحاولة الدول الإستعارية تطوير إستعمارها، وتغيير لون إستغلالها، وإحتفاظها بالميزات الإقتصادية ، حتى وإن كان ذلك يؤدى إلى الإحتفاظ بمعظم شعوب وسكان العالم فى حالة من التخلف واضحة.

وأرجو أن يقوم هذا الكتاب بسد نقص فى المكتبة العربية، وأن يفيد منه القارىء والدارس والباحث. وعلى الله قصد السبيل.

دكتور

جلال يحيى

الباب الأول

الإستعمار فى العصور القديمة

الفصل الأول

بداية الإستعمار

ظلت الأرض فى حاجة إلى من يقوم بإستعمارها طوال العصور التى خلت فيها من الإنسان. فكانت ميداناً للأسماك والزواحف ، ثم الفيلة والخيول، ثم الغزلان والقرده إلى أن ظهر الإنسان. ولقد أعمل الإنسان فكره وإيديه، وتمكن من أن يسلح نفسه بالنار وبالأسلحة البدائية، فاكتشف - شيئا فشيئا- أنه سيد هذه الأرض ، وعرف أنها تخضع له. وإنتقل الإنسان من مكان لآخر وشنت جماعات منه هجمات على جماعات أخرى،. وبدأت فكرة الاستعمار فى الظهور ، فما هى الأشكال الأولى لهذا الإستعمار؟ وفى أى منطقة ظهرت قبل غيرها ؟

(١) الاشكال الأولى للإستعمار:

لايمكننا أن ندعى أن إنتزاع الأقاليم الشاسعة من سيطرة الحيوانات المفترسة ، أو الطبيعة القاسية ، والسكن فيها أو إحتلالها، هو إستعمارلها، وخاصة فى فجر التاريخ ذلك أن تغير المناخ كان سبباً أساسياً أجبر الإنسان على الإنتقال من مكان لآخر . فإضطر الإنسان إلى ترك الغابات والألتجاء إلى الكهوف، كما إضطر إلى ترك الكهوف والإلتجاء إلى السهول وإضطر إلى ترك منطقة إزداد جفافها إلى منطقة مروية.

وحينما تحولت غابات شمال إفريقية إلى سفانا وتحولت السفانا إلى إقليم إستبس، هاجرت حيوانات الرعى صوب الشمال، وتبعتها الشعوب الأفريقية، وسكنت حوض البحر المتوسط. ولاشك أن أسباباً مماثلة أجبرت قبائل آسيا على الرحيل صوب أوربا وأمريكا، وعلى مراحل، وببطىء ، وفوق معابر

طبيعية هى البرازخ والأرخبيلات . فإنتشر الإنسان على القارات. أما أسباب هذه التحركات والهجرات فهى الحاجة إلى الماء وإلى الشمس،. وبالنسبة إلى جماعات الصيد، فهى تتبع الفريسة والبحث عن أرض ومناطق جديدة للصيد، وبالنسبة لجماعات الرعى فهى ضرورة العثور على مراعى جديدة لأغنام إفريقية وعجول آسيا. إن هذا الإنسان فى حركته وإنتقاله لايستعمر ، ولكنه ينتشر. ومن الضرورى أن يتوطن هذا الإنسان فى مكان معين ويبدأ فى فلاحته حتى يتحول إلى مستعمر[1].

وكانت درجة الإستقرار فى أمكانها الأولى نسبية إلى درجة بعيدة ، ذلك أن الإنسان لم يكن يعتمد على حراثه الأرض، وكان لايعرف استخدام الأسمدة، فاضطر ذلك إلى الإنتقال بحثاً عن أرض أخرى خصبة، بعد أن تجهد قطعة الأرض التى يقوم بفلاحتها . وكان التكاثر وزيادة الأولاد تجبره على توسيع رقعه أرضه، أو على إرسالهم لاستغلال قطع أخرى، فوجد نفسه، دون أن يشعر ، يقوم بعملية الأستعمار. وإذا كانت الأراضى الخصبة فى أيدى الغير، فليس معنى هذا أنه كان يقنع بما لديه . فنشأت الحرب من التنافس على أجود الأراضى وأصبح "الغازى" يستعمر الأراضى التى يستولى عليها بالقوة. أما المغلوب على أمره ، فكان ينتقل بدوره إلى أراضى جديدة، وفى مناطق أخرى.

ومع حروب القبائل مع بعضها بدأت عملية أخذ الأسرى وكان من المنطقى قتل هؤلاء الأسرى، ولكن سرعان مابدأ الغالب فى التفكير فى استغلالهم فى العمل، فظهرت العبودية والإسترقاق. وهذه الظاهرة الإجتماعية، مثلها مثل

(١) إن كلمة كولونيا Colonia اللاتينية تعنى مزرعة ، أى مسكن تحيط به أرض فلاحية.

الإستعمار ، لم تنتشر إلا فى عهد الزراعة، ولم تكن القبائل التى تعيش على الصيد أو جمع الطعام فى حاجة إليها، أما الزراعة فقد إستتبعت استغلال الأرض ، وإستغلال القوى البشرية الموجودة على الأرض، فى إستغلال الأرض نفسها.

وهكذا يمكننا القول بأن "الهجرة" كانت تعنى انتقال جماعة بشرية إلى أراضى خالية أو السكن فيها مع قبيلة متنقلة. ويمكن أن يكون الشعب المهاجر نفسه من الرحل، الذين يغيرون المنطقة التى يتنقلون فيها . أو من المتوطنين الذين يغيرون أماكن إقامتهم وهذه العملية بطيئة ، وقد تتم على مدى أجيال متعددة ؛ أو حتى على فترة قرون. وكان المهاجر فى أول الأمر ينتقل على رجليه، مستعينا ببعض دواب الحمل، وعبر طبيعة معادية ، وكان يسير بدون هدف محدد ، وإن كانت مجارى الأنهار، وتتبع قرص الشمس فى حركته اليومية صوب الغرب، قد عملت على توجيه خطواته.

أما "الغزو" فكان يمثل شكلا آخر لإنتقال الإنسان وذلك أن الهجرة كانت تنتهى بإحتلال سلمى، أما الغزاة فكانوا يتغلبون على مجتمعات مستقرة، وكان الغزو يعنى استخدام العنف والأسلحة. والإستيلاء على الممتلكات. ويضطر شعب الاقليم المهزوم إلى ترك إقليمه، وربما يهلك فى عملية الغزو: وقد يكون الفرق فى المعنى بين الهجرة والغزو بسيطاً للغاية، ويمكننا أن نصل من الظاهرة الأولى إلى الظاهرة الثانية، فنجد أن هؤلاء المهاجرين الذين يتوطنون سلمياً فى إحدى المناطق يقومون بالإستيلاء عنوة على منطقة ثانية مجاورة، أو نجد أن عملية الهجرة نفسها تتحول إلى عمليات غزو، كما يمكن للغزو أن يؤدى إلى عملية هجرة، بعد إستيلاء الغزاه على إحدى المناطق، وإجبارهم أهلها على الخروج ، والبحث عن موطن آخر لهم.

وعلى أى حال فلايمكننا أن نتحدث عن الهجرات والغزوات كعمليات استعمارية إلا إذا كانت عملية الاستعمار تأتى بعدها بالفعل. ويتطلب هذا من الغزاة أن يعملوا على سيادة السلم والأمن، وأن يتحول المحارب إلى مزارع. ويصعب علينا أن نفرق فى العصور التاريخية الأولى بين الغزو والإستعمار، وبين الغزاة والمستعمرين ، سواء استندنا فى ذلك إلى الأسباب أو الأشكال أو النتائج الخاصة بهذه الحركات. والمهم هو أنه يمكن "للهجرة" أن تتحول إلى عملية "غزو" إذا ما أخذت الجماعة المتنقلة شكل وتنظيم جيش، ويمكن "للغزو" أن يتحول إلى "إستعمار" إذا ماتبعت الجيش إدارة مستعدة لإستقلال البلاد المفتوحة.

ويمكننا أن نجد تشابهاً واضحاً بين عمليات الإنتقال البشرية فى الألف سنة الأولى من العصر التاريخى. أما أسبابها فهى مشتركة ومن أربعة أنواع:

فهناك الأسباب الطبيعية التى تتعلق بتغيرات المناخ، والمناطق الثلجية، وإمتداد مناطق الجفاف، والتى تتعلق بالحوادث المحلية من فيضانات الأنهار أو ثورة البراكين . وهناك الأسباب الديموجرافية التى قد تجبر جماعة يتزايد عددها على التفكير ففى ضيق المجال الذى تعيش فيه، وبالتالى على البحث عن "مجال حيوى" سواء أكان هذا المجال خاص بأعشاب الرعى، أو بحقوق الزراعة ، والمواد الأولية اللازمة لها.

وهناك الأسباب السيكولوجية التى قد تتعلق بالموت أو الفشل والتى قد تجعل القبيلة تفكر فى تغيير هذا المكان ، والأسباب التى قد تتعلق بحب المغامرة والأمل فى الحصول على ثروات جديدة . وسواء أكان الدافع هو الخوف أو القلق أو الطموح فالنتيجة واحدة، وهى أن الجماعة تتحرك. وأخيراً فهناك

الأسباب التقنية التى تتعلق بتطور وسائل النقل، من إستخدام المجداف إلى الشراع والقوارب فالسفن، ومن ترويض الحيوانات للركوب والنقل ، ومن إستخدام العجلات والعربات، ومن إكتشاف الطرق البرية والبحرية والرؤوس والمضايق التى تسمح بالعبور من بحر لآخر، والتيارات المائية التى تسهل سير السفن، والممرات التى تساعد على إجتياز سلاسل الجبال، ونجد أن الغزاة والمستعمرين كانوا يبدؤن رحلتهم عازمين مصممين وينتهون منها كمؤسسين لإمبراطوريات.

٢- مصر الفرعونية:

بدأ التاريخ القديم على ضفاف النيل، بعد أن استقر فيه سكان إقليم السفانا، فى العصر الحجرى المتوسط ، وتحولوا إلى مزارعين . ومع هذه الهجرات القادمة من الجنوب والشرق بدأوا استخدام المحراث وزراعة القمح والشعير والتيل، ثم استخدموا البرونز فى صناعة الحراب والخناجر. وبعد ذلك عرفوا الحديد والخيول من شعوب منطقة الشرق الأدنى القديم. وبعد قرنين من الخضوع لسيطرة وحكم الهكسوس، أفادت مصر من الحديد فى صناعة السهام ومن سرعة الخيول فى جر العجلات الحربية، وفى سهولة تحرك وحداتها المحاربة. وبعذ أن كانت مصر تعيش داخل حدودها ، نجد أنها قد تسلحت وإستعدت لغزو الأقاليم المجاورة.

وكانت الإدارة فى مصر القديمة قوية البنيان ، لها رئيس واخد، هو الملك، الذى كان يمثل فى نفس الوقت الإله والمالك لها، وتجتمع فى أيديه كل السلطات. وكانت الإدارة المركزية تتمثل فى قصر الملك، فنجد حوله الوزراء الذين كانوا يلقبون أنفسهم بفم المملك ولسانه وأعينه وآذانه، وتتوزع حولهم

المكاتب والإدارات المالية والمخازن التى يشرف عليها كتاب مهره، ومحاسبون ممتازون، وحراس أقوياء . وكان التنظيم العام يمثل حضارة جماهيرية، كما هو الحال فى معظم الامبراطوريات الأولى، ولم يكن للفرد فيها آية آهمية أمام الطبيعة المعادية القاسية، كما لم يكن فى وسع القبيلة وحدها أن تقوم بإستغلال إقتصاد مناطق شاسعة . وكان النيل هو مورد الحياة بمائه وفيضانه وطميه وكان من الضروري أن يفكر المصريون في شق الترع وتطهيرها وتوزيع المياه، واحتاجوا فى ذلك إلى تنظيم جماعى ، وتطلب هذا التنظيم بدوره وجود فرعون، ووجود إمبراطورية.

ولم تكن رغبة التوسع الإستعمارى هى الحافز الذى دفع الفراعنه إلى العمل على السيطرة على فلسطين وسوريا، بل لقد قام الفراعنة بهذه العملية بعد التخلص من الهكسوس، ولأسباب تتعلق بأمن البلاد. ونجد من بعدهم أن البطالمة ثم الجنرال بونابرت قد قاموا بعمليات حربية مماثلة، ولنفس الغرض ، إذ أن باب مصر الوحيد كان هو برزخ السويس ، وكان تحصين هذا الجانب يستتبع السيطرة على الأقاليم المجاورة. ولم يرسل الفراعنة قواتهم إلى سيناء من قبل، إلا لحماية عملية إستخراج النحاس؛ كما أن المصريين لم يصلوا إلى الأقاليم الساحلية من الشام إلا لشراء الأخشاب. أما أن فقد وصلوا اليها فى شكل غزاة، ولأسباب تتعلق بأمن بلادهم، بعد تحريرها من حكم الهكسوس. وكان النحاس والخشب من المواد الأولية اللازمة لمصر. ولقد أثر نقص الخشب فى مصر، على تطور مصر نفسها وعدم إنشائها اسطولا بحريا، وبالتالى على عدم توسعها فيما وراء البحار. وهكذا نجد أن الامبراطوريات المصرية كانت إمبراطوريات بريه.

ولقد إعتز الفراعنة بإنتصاراتهم وبغزواتهم فى أول الأمر، فأعتمدوا على قواتهم السودانية، وثبتوا أقدامهم فى هذه المناطق، معتمدين على القوة، ولم

يسمحوا بأية معارضة مادية أو معنوية. فنجد أن تحتمس الأول قد إفتخر أنه فتح الأقاليم التى جهلها الأجداد. ووصف وصوله إلى الفرات بأنه إكتشاف لم يصل إليه ملك من قبل، فأنتشر اسمه فى كل أرض. وأقسم به الأهالى فى كل إقليم، وأصبحت الأرض كلها تحت أقدامه، ونقش تحتمس الثالث على معبد الكرنك العبارات التى وجهها الإله آمون له بأنه منحه الأرض بطولها وعرضها ، وبأنه أمره بمد حكمه على البلاد، حتى تأتى كل الشعوب وتنحنى أمام "جلالته" . ولكن سرعان ما أكتشف الفراعنة أصول الإستعمار وقوانينه ونظمه، وظهروا وكأنهم قد أصبحوا أساتذة الأجيال التالية فى هذا الفن، فأصبح حكمهم العسكرى مقنعاً، وإعتمد على بعض الحاميات فى المواقع الاستراتيجية الهامة، وقدم الأهالى الجزئ الأكبر من جنود هذه الحاميات، بينما إقتصر دور المصريين على تدريبها وقيادتها . أما إدارة المناطق المفتوحة قد تركها الفراعنة فى أيدى الرؤوساء المحليين ، محترمين بذلك عاداتهم وقوانينهم ولغاتهم ودياناتهم. وظهرت هذه الأقاليم وكأنها خاضعة لمجرد "حماية" فرعونية، تعمل على استتباب السلم والنظام وتساعد على زيادة التبادل التجارى، وتفيد كل من سوريا وفلسطين. ولكن تلك السياسة لم تمنع الإمبراطورية من الإفادة من أهالى النوبا فى الجيش والإفادة من أخشاب وحيوانات وجلود وعاج هذه المنطقة ، ولم تمنعها من الإفادة من القمح والفواكه والزيوت والأنبذة والأخشاب الشامية ، التى كانت تصل إليها ، ومعها جزية هامة فى كل عام.

وكان الفرعون حاكماً مطلقاً ، يحكم شعباً يتساوى أفراده فى ضرورة العمل والإنتاج ، وفى علاقاتهم بالحاكم . وكان الفرعون يحضر إلى مصر أبناء رؤساء الاقاليم يخاطبون الفرعون بعد ذلك بأنهم خدام الملك، وكلاب

قصره، وأنهم يحرسون البلاد له، وكان القصر الفرعونى يرد عليهم أمرا إياهم بضرورة حراسة مدينة الملك التى يقومون بحكمها، ويحذرهم من أن قواته وعرباته فى أحسن حالة، وعلى أتم إستعداد ..... وحتى إذا كانت هذه العبارات هى مجرد أسلوب للتخاطب فى هذا العصر، فإن ذلك لاينفى أهمية الألقاب والسلطات التى منحها الفرعون لنفسه، أو النظرة التى كان ينظر بها إليه حكام الأقاليم الخاضعة. وحينما أعلنت بعض هذه الأقاليم الثورة فى عهد تحتمس الثالث، قام هذا الفرعون بالقضاء عليها، وعاد منها بالخيول والعربات والسهام والنساء والعجول والأوانى وبكميات وأعداد كبيرة.

وهذا المثل الأول للإستعمار سنجده يتكرر بعد ذلك عبر عصور مختلفة، ويظهر وكأنه حكم متحرر، إن كان فى حقيقته يحمل معنى الإستغلال والكبت، وتحتفظ فيه الدولة المحمية بحكم ذاتى ظاهرى، رغم أن مواردها الإقتصادية ونظمها وعلاقاتها السياسية تكون تحت إشراف الدولة الحامية.

٢- الشرق الأدنى القديم:

ظلت العلاقات ضعيفة، ولمدة أجيال طويلة، بين وادى النيل وبلاد ما بين النهرين، وساعد ذلك على تطور الحضارة فى كل من هذين المهدين، دون أن يتأثر هذا التطور فى عصوره الأولى، فى المنطقة الأولى، بالتطور الذى حدث فى المنطقة الثانية. وتعاقبت الشعوب وتنالت الإمبراطوريات فى المنطقة الممتدة من البحر الأسود إلى الخليج العربى ومن البحر المتوسط إلى البحر الأحمر دون أن يتمكن التاريخ من تحديد دور الاستعمار فى هذا الخليط من الشعوب والدول والإمبراطوريات.

وبينما كان النيل يعطى لمصر وحدتها وشخصيتها القومية، كانت منطقة الشرق الأدنى تمثل النقاء للقبائل النازلة من جبال القوقاز، مع تلك التي

تزحف من جوف الصحراء العربية، ومن العناصر الآتية من سواحل بحر إيجه أو من مرتفعات هضبة إيران. وكانوا فى مجموعهم يبحثون عن مناجم الذهب، ومناجم النحاس، والأراضى الخصبة فى بلاد النهرين. وسمح ذلك بنمو إمبراطوريات مزد هذه حول المدن، ومراكز الإستقرار والإنتاج. فنشأت سومر مرتكزة على أور، وأكاد على المدينة التى تحمل نفس الإسم، وحكمت بابل امبراطورية واسعة، وكذلك الحال بالنسبة لأمبراطورية الحيثيين وامبراطورية أشور. ثم أخذت كل من هذه الامبراطوريات فى التوسع، وفى كل إتجاه.

وكان تسلط سومر وامبرياليتها تسلطاً بيروقراطياً ، أشرف فيه الموظفون على استغلال الوديان : أما تسلط آكاد فكان يعتمد على الدين، ما دام الملك يعتبر الإله فى نفس الوقت الذى هو فيه ملك. أما تسلط بابل، الذى امتد من الخليج العربى حتى الشام، فكان يستند إلى الدين والى الادارة معاً، مادام يركز كل شيء فى " باب عيلو" أو باب الزب ، عاصمة الإمبراطورية وكان الملك هو المسؤول عن العدالة وعن النظام ، ويشرف إشرافاً تاماً على الأقاليم الخاضعة عن طريق موظفين يقوم بإختيارهم بنفسه، وينقلهم من إقليم لآخر، أو عن طريق امراء محليين . وكان الملك يمنح الجنود والموظفين إقطاعات زراعية، ومن الأملاك الملكية . أما تسلط الحيثيين فقد إمتد من منطقة الآناضول إلى منطقة السهول الجنوبية ، ومن البحر الأسود صوب الفرات . وكان فرسان تراقيا الأندوأوربيين قد فرضوا أنفسهم على مجموع الحيثبين، وكونوا قياداتهم العليا، وتمكنوا لمدة قرنين من إنشاء امبراطورية أرستقراطية وإقطاعية حاول الملك فيها أن يتشبه بفرعون مصر، دون أن يستند إلى نفس التشكيل الإجتماعى المنبسط الموجود فى مصر. وكان يعتمد على مجموعة من الفرسان، ويقوم باستغلال الأراضى ويزرع أعمال السخرة ويستلم

المحاصيل والموارد علاوة على الجزية التى يدفعها له عشرة ملوك تابعين .
وأما تسلط آشور فكان حربياً فى أساسه وأخضع منطقة كبيرة تمتد من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى واشتملت على مصر نفسها . وكان التنظيم فيها أقل مركزية من الإمبراطوريات التى ورثتها ، خاصة وأنها كانت قد إتسعت وإشتملت على قبائل غير مستقرة، وتحتفظ بالعادات الخشنة لأبناء الصحراء أو الجبال. فعمدت أشور إلى إخضاعهم بالقوة، والسيطرة عليهم بالخوف ، مادامت سلطتها الإدارية غير كافية ، أو معدماتها عن إدارة الإقاليم الأخرى غير ناضجة . فكان إستعمار آشور من أفظع الأشكال ، وحكم بالحرائق ، والتخريب والنهب والسبى والقتل. وكان ينقل الاهالى من منطقة إلى آخرى ، أو يقضى عليهم فى أماكنهم : فنجد أن الكدانيين يستقرون فى صيدا ، والأراميين فى بابل . وكان على كل شعب مغلوب أن يدفع جزية باهظة لأشور ، ويمد جيوشها بالرجال . وكان الكل يخشاها ويكرهها.

وبين هذه التحركات والتقلبات الإمبريالية نجد أن الساميين قد بدؤا فى الظهور فى التاريخ مع خروجهم من رمال الصحراء، واستعدادهم للوصول إلى السواحل السورية أو إلى مصر. وإعتزت احدى جماعاتهم بنفسها، وأصرت على أن يكون طموحها له لون إلهى . إنها جماعة العبرانيين التى تعتقد فى وجود إله واحد، والتى تعتقد أنه قد وعدها أرضاً تستعمرها حتى ينهى بذلك عهود تنقلها وتشردها. وتذكر كتبها المقدسة أن الله قد وضع آدم فى الجنة حتى يقوم بفلاحتها . وتذكر كذلك أنه قد طرده بعد خطيئة من الجنة حتى يقوم بفلاحة الأرض التى خلقه منها. فهى جماعة تأمل فلاحة الأرض، وتضعها أساساً لتطور الخلق، منذ بدء الخليقة ، وأملا لها فى الإستقرار ، وإن كانت عوامل أخرى- إجتماعية وإقتصادية - ستسمح لهم بالعمل فى

التجارة، فى الوقت الذى يستمر فيه المزارع فى تفليح الأرض، كما سنوى فيما بعد ، والمهم هو أن الفكر السياسى ، أو الدينى ، قد انتشر مع العمرانيين أو اليهود فى الوقت الذى انتشروا فيه فى منطقة الشرق الأدنى . وبعد ذلك جاءت قصة نوح، الذى أخذ معه زوجته وأولاده وزوجات أولاده ومن كل جنس اثنين ، وفى سفينته ، حتى يتمكن من استعمار الأرض كلها بعد نهاية الطوفان، وبأمر الله. وتستمر الأوامر اليهم مع ابراهيم لاستعمار الأراضى الممتدة من النيل إلى الفرات . ويطلب موسى من ربه أرضاً خصباً يعيشون فيها، ولكن الأراضى الخصبة لم تكن خاوية ، فتتوالى النبوءات بأن الله سينصر شعبه المختار ، فى كل ميدان ، وعلى كل شعب، ويحكمه على المالك والإمبراطوريات . أنه إستعمار وتسلط بأمر إلهى وعلى الشعب المشرد المتنقل أن يؤمن به، ويقوم بتنفيذه . ومع هذه الأوامر بدأ إعتزاز أبناء هذه الجماعة بشخصيتهم ، رغم ضعفهم ، وبدأت النزعة العنصرية الواضحة فى عقيدتهم وفى سياستهم الإستعمارية ورغم ذلك فلم يتمكنوا من تنفيذ هذه الأوامر الإلهية إلا بعد ثلاثة آلاف سنة، وفى منطقة صغيرة من فلسطين ، وفى ظروف خاصة.

٤ - الشعوب المتحركة والشعوب المستقرة:

إذا كانت بعض الشعوب والجماعات تعتقد أن عليها واجباً مقدساً لإستعمار العالم ؛ فإن غيرها تعيش راضية بحالها منطوية على نفسها قانعة بحظها. ومهما تعمقنا فى العصور التاريخية الأولى للصين فإننا نجد أن أهلها قد إستقروا فيها وعبدوا أرضهم وربطوا بينها وبين مقدسات معينة. وكان لكل إقليم إله ، وربما لكل جبل ولكل نهر ، وأثر ذلك فى إرتباط الصينيين بالأرض، وإرتباط الأرض بالمعتقدات.

والصينيون مزارعون منذ أقدم عصور التاريخ، وقاموا بقطع الغابات وتفليح الأرض مكانها ، كما قاموا بتجفيف المستنقعات وإستغلالها فى الزراعة. وهم صبورون مواظبون يعيشون مع فصول السنة، وما يتطلبه كل فصل من أعمال زراعية معينة. وفى نفس الوقت الذى تربط المعتقدات الصينيين بأرضهم ، تربطهم نفس المعتقدات بالأباء والأجداد . ولما كان الأموات يعتبرون دائماً على أنهم أعضاء فى الأسرة، فقد كان على الأحياء أن يحافظوا على قبورهم . ومنع ذلك الارتباط الصينيين من الهجرة . وكانت هذه المعتقدات تناسب شعبا مستقراً ولايرضى بالإستقرار بديلا، ولكنها ساعدت على تأكيد عزلة الصين عن غيرها، فأصبحت الصين تمثل عالما قائما بنفسه، وساعدت الصحارى فى الشمال والغرب على منع أى توسع فى الخارج أما فى الجنوب فإن الجبال المرتفعة كانت تسد الطريق، وكان المحيط فى الشرق يخيف هؤلاء المزارعين ، ولذلك فإن الإستعمار الصينى لن يحدث إلا فى الصين نفسها. ولكن الصين ستشهد مجيء جماعات اليها من أقاليم المراعى ، ويحاولون حظهم معها، ثم ستشهد بعد ذلك محاولات الأوربيين استعمارها. وليس معنى هذا لم يكن هناك استعمار صينى ، بل أن أهل الصين سيحاولون زيادة التوطن فى وديان الأنهار الكبيرة ، وإستغلال الاقاليم المتطرفة. وبدأت مجموعات من المتوطنين فى الإتجاه صوب الجنوب والنهر الأزرق بقيادة الشانج، وإزداد عدد الأهالى وظلت الصين دائما هى الصين.

أما الهند فكانت مختلفة قليلا من الصين. وإذا كانت جبال الهملايا تسد الطريق أمام الهنود صوب الشمال ، فإن المحيط لم يكن يخيفهم بنفس الدرجة التى كانت يخيق بها جيرانهم الصينيين ، ولذلك نجد أن الهنود يرتبطون بالأرض ، ولكن بعض بحارتهم يقومون بدراسة الرياح، ويتعلمون الطرق

المؤدية إلى الهند الصينية ، وإلى جزر التوابل . وقبل أن يذهب الهنود إلى بلاد أخرى ، نجد أن غيرهم قد أتى إليهم ، خاصة وأن سهول السند والكنج كانت أسهل دخولا على الجماعات الخارجية من منطقة النهر الأصفر ، كما أن الصلات كانت قد بدأت فى الوصل بين حضارة السند وحضارة مابين النهرين. ثم جاءت بعد ذلك غزوات الآريين ، الذين لم يكونوا إلا فرعا من فروع هذه الشعوب المتنقلة على ظهور الخيل ، بين القوقاز والبحر البلطى ، ومن بين الأورال والدانوب . وربما كانت هذه الجماعات الهندية الاوربية من أصل واحد ، ولكن الثابت أنها كانت تتكلم مجموعة من اللغات لها أصل واحد. وكانت قد تنقلت فى السهول وتمكنت من ترويض الخيل للركوب ولجر العربات . وكانوا من الرعاة الذين يحسبون ثرواتهم بعدد رؤوس قطعانهم أو خيولهم. ولكنهم كانوا يعرفون زراعة الارض وطحن الغلال . وبينما كانت القبائل السابقة لهم فى المنطقة تدفن موتاها، نجد أن الآريين يقومون بحرق جثثهم. وكانت عادة الدفن تربط الاحياء إلى جوار قبور الموتى، بينما سمحت عادة حرق الجثث بتحرير الاحياء ، وذلك بتمكينهم من حمل رماد الاباء معهم ، أو لدلالتها على قلة إهتمامهم بالأجساد . ومنذ اليوم الذى تعلم فيه الأريون ركوب الخيل وأستخدامها فى جر العربات ، نجد أنهم قد بدؤا فى الإنتقال والهجرة إلى آفاق جديدة.

أنهم الأريون فى الهند ، ويحضرون معهم نظمهم وحبهم للطبقات الإجتماعية التى تؤدى إلى ظهور الطوائف . فهناك رجال الدين والمحاربون والمزارعون من الآريين، وهم لايندمجون مع بقية الشعب ، غير الأرية: لكل طبقته وإمتيازاته.

أما فى الغرب فنجد أن جماعات هندية أوروبية أخرى قد واصلت حركتها ، واحتلت مناطق غير آهلة ، أو تغلغلت فى مناطق مسكونة ، وعاشت بين

أهلها أو أخذت منها مكانها بالعنف . فانتشرت فى سهول الروسيا ، وجاءت إلى مشارف بلاد النهرين ، وعرفت باسم الميديين والفرس، وإنتشرت فى آسيا الصغرى وأرهبت الحيثيين ، وذهبت إلى اليونان وإيطاليا وبقية أوربا ، وحتى المحيط الأطلسى ، وعرفت بأسماء الصقالبة والجرمان والقوط.

ولكن ، أهى هجرة؟ أو غزو ؟ أو إستعمار ؟ الواقع أن كلمة واحدة لايمكنها أن تدل على ظاهرة إنسانية ، إستمرت تعيش وتتفاعل مدة ألف سنة أو ألفين. لقد بدأت الحركة فى شكل هجرة ، ولكنها أخذت شكل غزو أن عدة غزوات . ولاشك فى أنها تتحول إلى إستعمار بالمعنى الحقيقى ، إذ أن العناصر الهندية الأوربية كانت منتشرة فى مساحات واسعة ، ولم يكن لهم " وطن أم" يحتفظون به، ولم يقوموا بإنشاء إمبراطورية منظمة . ورغم أنهم لم يستعمروا ، إلا أنهم كانوا أجداد المستعمرين فى العصور الحديثة . ولقد تركوا لأحفادهم الخيل ، وتركوا لهم فكرة عدم المساواة بين العناصر البشرية، وضرورة سيطرة القوى على الضعيف. وإذا كانت هذه الفكرة قد أدت إلى ظهور نظام الطوائف فى الهند ، فإنها كانت تساير نظام الأسرة عند اليونان والرومان ، والسلطة الأبوية المطلقة وخضوع الشعوب "الحليفة" للشعب المسيطر ، كما كانت تساير تقسيم المجتمع إلى طبقات ، وتقسيم الأعمال والحرف إلى نقابات ، وخضوع المرأة للرجل ، وخضوعهما سويا لله.

كانت هذه النظم الاجتماعية مواتية ومشجع ة على الإستعمار ، ذلك أن المستعمر كان فى حاجة إلى الاعتقاد فى أنه متفوق على المستعمر ، وفي حاجة إلى الشعوربالتفوق ، والإستناد إلى الطبقات . ولقد قام أحفاد الجماعات الهندية الأوربية بإستعمار العالم، وعلى هذه الأسس .

الفصل الثانى
المراكز البحرية

تحدثنا حتى الأن عن هجرات برية. ولكن سرعان مايظهر أن هناك طريقين ممكنين . وأن هناك الطرق البحرية ، علاوة على الطرق البرية، وأن السفينة وسيلة من وسائل الإنتقال ، وتختلف تماماً عن الخيول . فنرى أن البحارة فى هذا الطريق الجديد يأخذون مكان الجنود ، وأن التاجر يأخذ مكان المزارع . ونجد مستعمرات بعيدة منفصلة عن الوطن الأم. وفيما وراء البحار، تأخذ مكان الإقليم المجاورة للوطن الأم. والمنفصلة بها برياً . ويمكننا أن نقول أكثر من ذلك، أننا نجد بدلا من المؤسسات والمنشأت الرسمية، التى يخلقها ويديرها ويشرف عليها أحد الفراعنة أو الأباطره أو الملوك أو الدول، نجد بدلا عنها مؤسسات ومنشأت قد تكون خاصة ، وتقوم بها بعض الجماعات أو عدة من الأفراد ، ولحسابهم ، أو حتى لمجرد المغامرة ، والبحث عن مكاسب جديدة، وآفاق أوسع.

وفى نفس الوقت الذى تنشأ فيه الامبراطوريات البرية حول مصر وسومر وفى الصين، تنتشر الحضارات البحرية والتجارية ونجد أن أقدمها هى الحضارة الإيجية ، ومركزها كريت ، وسرعان مايأتى بعدها الفينيقيون ، وأبناء قرطاجة ، ثم اليونانيون.

١- تجار كريت:

وتظهر جزيرة كريت عند مدخل بحر إيجة كسفينة راسية تتجه مقدمتها نحو بلاد اليونان ، ومؤخرتها صوب أسيا الصغرى . ويوازى جانبها الساحل الإفريقى ، وتظهر فى مركز متوسط بين أوروبا وآسيا وإفريقية . ولقد

ساعدتها الطبيعة على أن يكون إتجاهها بحرياً بحكم موقعها ونظرا ، لوجود الغابات والأخشاب اللازمة لبناء السفن فيها، ولوجود مراسى وموانى طبيعية فيها، تساعد على حماية أساطيلها . وكانت سفن كريت تبلغ حوالى عشرين متراً فى الطول ، وتتوسطها سارية واحدة ، تحمل شراعين ، يساعدان على دفع السفينة بمجاديفها العشرة. ولقد تطورت هذه السفن مع الزمن ،و تزودت بسارتين أو ثلاثة ، وأصبحت ذات طوابق متعددة، وقام بالتجديف فيها حوالى الثلاثين ، يجلسون فى قاعها . ولم تكن هذه السفن مريحة أو مهيأة لأهالى البحار ، ولكنها كانت كافيه لنقل السلع، والتنقل من خليج إلى آخر.

ولقد تنقلت هذه السفن الكريتية من جزيرة لأخرى ، وعلى طول السواحل، وإجتذبتها البلاد المتحضرة فى الجنوب والشرق ، كما إجتذبتها الأقاليم الفقيرة والمتخلفة فى الشمال والغرب. وجد بحارة الكريت الثروات فى مصر، وفى سوريا التى بدأت تتعلم من مصر ، وفى طروادة ، التى إزدهرت الحياة فيها فى فترات مختلفة ، وأما الأقاليم الفقيرة فكانت تتمثل فى بلاد اليونان، والحوض الغربى للبحر المتوسط. ولم يهمل أبناء كريت أية منطقة ، فنزودوا من البلاد الفقيرة والمتخلفة بالمواد الأولية، وذهبوا لبيعها فى البلاد المتقدمة . وساعدت هذه العمليات على نمو روح المهاجرة عند أهالى كريت . نقلوا المعادن والأحجار الكريمة والعاج ، وأستبدلوها بالأوانى والحلى والأسلحة والمنسوجات، وأضافوا إلى ذلك منتجات بلادهم الأصلية من زيت ونبيذ . وعملهم كل ذلك استخدام الموازين والمقاييس والحساب ، علاوة على كونهم من البحارة . نقلوا إلى مصر أخشاب لبنان وإلى اليونان الفخار المصرى وعاج النوبة ، وإلى سردينيا نحاس قبرص. ووجدوا الفضة فى أسبانيا ، واشتروا منها القصدير الذى كان يصل إليها من بريطانيا . والذى كان لازماً لصناعة

البرونز، في بلاد الحوض الشرقى للبحر المتوسط. وإنتشرت سفنهم فى مراسى الشام واليونان والبحر الأدرياتى وصقلية وسردينيا والبليار ، ومنها إلى أسبانيا ، متنقلة من ميناء إلى آخر . وكان أبناء كريت يفضلورن إرساء سفنهم عند الجزر القريبة من الساحل ، بدلا من إرسائها على الساحل نفسه ، وفعلوا ذلك عند الجزيرة التى نشأت عليها صور فيما بعد ، وعند فاروس التى نشأت عندها بالإسكندرية ، وفى غيرها من الجزر الساحلية واتفقوا مع الحكام المحليين على ترك هذه الجزر لهم ، لتتزود منها سفنهم ، ولكى ينشئوا عليها مخازن لبضائعهم ، فنشأت بهذه الطريقة المراكز البحرية ، التى كانت الأساس فى نشأة المستعمرات.

ولكننا نجد أن أبناء كريت قد إحتلوا مناطق مختلفة على بعض السواحل الأخرى ، وأخضوعها لحكمهم . ومن أهم مستعمراتهم مايسين التى قامت بدورها بإنشاء مستعمرات أخرى . وكانت مايسين هى المستعمرة الناشئة التى زادت فيها الثروات بدرجة سريعة ، وتمكنت فى فترة ضعف الدولة الكريتية من الاستيلاء على عاصمتها ، فتغير تاريخ هذه المنطقة نتيجة لتغير مركز الثقل ، وتغير القيادة فيها.

٢- الفينيقيون:

ورث الفينيقيون أبناء بحر إيجه وتجار كريت على البحر ، وكانت سفنهم أكثر قوة من سفن أبناء كريت ، وكانت حوافها أكثر إرتفاعا ، وكانت من الداخل متسعة ، وأكثر عمقا ، ولها مقدمة ومؤخرة فى إرتفاع واحد . وكانت ثابتة على البحر، ولاتسير إلا بالشوارع هذه هى سفن الفينيقيين التجارية ، وأداة فتوحاتهم الإقتصادية وكان الفينيفيين علاوة على ذلك سفنا أخرى أكثر

رشاقة ، ولها سارية واحدة، وخمسين مجداف وتحلى مقدمتها رأس فرس ، وتستخدم فى الأستكشاف والحملات . وكانت معظم سفنهم مسلحه ، سواء أكانت تجارية أو حربية، ويمكنها قذف الأحجار والحراقات ، ويظهر من ذلك أن تجارة الفينيقيين كانت مستعدة لكل الطوارىء ، وأنها كانت مصممة على إتمام الصفقات ، بأى ثمن.

وساعد موقع فينيقيا المتوسط على سهولة الحصول على أخشاب أشجار الأرز من الجبل ،والقطران من البحر الميت ، والنحاس من قبرص ، والتيل اللازم للشراع من مصر. وكانت أنظار الفينيقيين مثل أنظار أبناء كريت ، تتجه صوب ذهب السودان وفضة أسبانيا ، وقصدير أوربا الشمالية ، وكانوا ينقلون هذا القصدير ، مع نحاس قبرص ، إلى مصر واليونان وآسيا. وكانت القوافل تأتى إلى إقليمهم محملة بالأصواف والأحجار الكريمة ، والتوابل والبخور ، وكانوا ينقلون هذه السلع ويبيعونها فى أقاليم أخرى ، ويشترون بدلها الزيت والقمح ، والعاج وريش النعام ، وحتى العنبر الذى كان يصل من منطقة البحر البلطى إلى البحر المتوسط، عبر الإدرياتى والبحر الأسود وتطلب تدوين حسابات هذه التجارة وطلبات المناطق المختلفة من الفينيقيين إختراع الأرقام والحروف. كما دفع حب الربح مع الرغبة فى المغامرة تجار صور وصيدا البحريين إلى الإستعمار . ولكنهم ساروا فى هذه الحركة بخطوات وئيدة ، فاستمروا فى عملية نقل البضائع على سفنهم ، وسيطروا على مراسى على الساحل الإفريقى للبحر المتوسط ، يبعد الواحد منها عن الآخر بحوالى ثلاثين أو أربعين كيلو متراً . وكانوا يتصلون بالأهالى إذا مارغبوا فى إقامة منشأت دائمة، ولكنهم كانوا يفضلون إنشاء مراكز تجارتهم البحرية فى الجزر الصغيرة القريبة من الساحل حتى يتمكنوا من الدفاع عنها.

وأصبحت هذه النقط ، قواعد بحرية ومراكز تجارية فى نفس الوقت. وكانوا يحصلون على موافقة الأهالى على إقامتهم فى هذه المراكز ، أو يفرضون أنفسهم عليهم بالقوة ، ويأخذون عدداً من الأهالى فى الأسر.

وساعد فقر صور وصيدا وبيروت ، وفقر ظهيرها ، علي إنتشار الفينيقيين فى معظم النقط الهامة حول البحر المتوسط ، مؤسسين قواعدهم البحرية ، ومراكزهم التجارية فى نفس الوقت . وصلوا إلى منطقة عدن ومنطقة قادس ، عند نهاية البحر الأحمر وآخر البحر المتوسط . وإنتشرت مراكزهم فى مالطة وصقلية وسردينيا وربما فى كورسيكا ، كما إنتشرت فى قبرص . وكانت أهم مستعمراتهم فى شمال إفريقيا هى ليكسوس ، قرب العرائش الحالية فى المغرب ، وقرطاجة ، أى المدينة الجديدة ، فى تونس الحالية . وجاءت الأساطير من بعد ، كى تشرح لنا أصل نشأة مدينة قرطاجة، ومن أشهرها تلك الأسطورة التى تروى خروج ملك صور مع أهله وممتلكاته هاربا من مدينته ووصوله إلى ذلك الخليج الإفريقى ، وعدم رغبة الأفارقة فى إعطائه قطعة أرض تزيد مساحة علي الأرض التى تحيط بجلد الثور . فما كان من الأمير الفينيقى إلا أن قص جلد الثور إلى شرائح رفيعة، مما سمح له بإحتلال قطعة أرض لابأس بمساحتها ، وكان هذا ، حسب هذه الأسطورة ، أصل نشأة قرطاجة التى دفنت رأس الثور مع رأس فرس فى أرضها ، رمزا إلى الصبر والجلد ، وإلى القوة والنشاط : وتعنى هذه الأسطورة أن قرطاجة لم تخضع لصور، مادام منشئوها قد جاءوا اليها مهاجرين . وليست هذه هى المرة الوحيدة التى تنشأ فيها المستعمرات بمهاجرين ، أو يقوم فارين من العقاب أو العذاب . ولكن قرطاجة قد إحتفظت بصلات اتحادية مع صور وأرسلت إلى معابدها الهدايا فى كل سنة.

وإزدهرت قرطاجة نتيجة لاستخدام الفينيقيين لها كقاعدة بحرية ومركزا تجاريا فى البحر المتوسط. وكان نظام الاستعمار الفينيقى ناجحاً فى قرطاجة وفى غيرها ، وإنتشرت المستعمرات الفينيقية فى كل مكان ويروى اليونانيون أن عدد هذه المستعمرات قد بلغ المائة فى ليبيا وحدها ، ولكنها كانت مستعمرات صغيرة ، وكان لكل مستعمرة منها إدارة خاصة ، وملك وراثى، يعاونه عدد من رجال الدين الأقوياء ، ومجلس من الحكماء .

ولقد استغلت فينيقيا مستعمراتها الصغيرة، ولم تفرض حكمها على مناطق واسعة . وكانت هذه المستعمرات هى نهاية طرق القوافل التى تتوغل فى الداخل، تشهد مجيء قوافل الأهالى محمله بالسلع . وكانت المستعمرات تعيش على فينيقيا، وكانت فينيقيا تعيش على مستعمراتها ، دون أن تفرض الواحدة منها نفسها على الأخرى ، فى ظل ذلك الترابط والتعاون ، بل التبادل التجارى المربح للطرفين. ، وظل الحال كذلك إلى أن وقعت صور فى أيدى الأشوريين ثم الفرس. فأصبحت فينيقيا مستعمرة بعد أن كانت رأس امبراطورية إستعمارية . وإنتهت بذلك الامبراطورية الثانية فيما وراء البحار . ولكن هذه المرة لم تفقد الامبراطورية مستعمراتها ، بل فقدت المستعمرات وطنها الأم.

٣-قرطاجة:

إذا كانت اليونانيون هم تلاميذ الفينيقيين، فإن أهالى قرطاجة كانوا أبناءهم. وكانت صور تنظر إلى قرطاجة على إنها فرع منها ، وهذا يدل على أن العلاقة قد تكون عاطفية أو معنوية بين المستعمرة والوطن الأم ، مادامت هناك صلات بين الأهالى وبين المصالح فى كل منهما ، ولاتكون مجرد علاقة

حكم أو تحكم أو استغلال فى كل الحالات . ونجد أن قرطاجة تعمل على تدعيم استقلالها بعد سقوط صور فى أيدى الأشورين ، رغم استمرارها فى دفع الجزية لصور. ولكنها راوغت فى إجابة طلب دارا وفى معاونته فى حربه ضد اليونان. ودل هذا على أنها قد أصبحت مستقلة. وعملت قرطاجة على تجميع المستعمرات الفينيقية السابقة حولها ، وساعدها على ذلك قوة أسطولها وكثرة عدد سفنه . ولكن بعض هذه المستعمرات رفضت الخضوع لقرطاجه ، مما أجبر هذه الأخيرة على البحث عن مستعمرات ومراكز جديدة، ومحاولة إنتزاع هذه المراكز من غيرها فأصبح عليها أن تكون على أتم إستعداد لمواصلة أعمالها التجارية ، وللقيام بعمليات بحرية وحربية فى نفس الوقت.

ولقد تمكنت قرطاجة من السيطرة على كل المراكز والمواقع البحرية فى شمال إفريقية، ومن ليبيا الحالية إلى تونس والجزائر وسواحل المغرب وعبر بوغاز جبل طارق وطنجة إلى المحيط الأطلسى وإنتهزت فرصة تهديد الأهالى لقادس وأرسلت معونة للدفاع عنها وبقيت فيها وإتخذتها مركزاً للسيطرة على سواحل شبه جزيرة ايبيريا المطلة على البحر المتوسط . وقامت قرطاجة بتأسيس مستعمرة فى ملقة وأخرى فى المرية، وأنشأت مستعمرات أخرى فى مينورقة. ورغم أن قرطاجة لم تتمكن من تثبيت أقدامها فى جزيرة كورسيكا ، التى كانت قريبة من إيطاليا ، إلا أنها تمكنت من إقامة مراكز لها فى سردينيا ، ونقلت إليها عددا من الأفارقة ، للعمل فى الزراعة وفى المناجم، وتحت إشرافها ، مما أدى إلى إعتصام معظم الأهالى بالجبال . وكذلك تمكنت قرطاجة من الابقاء على قواعدها فى سردينيا ، رغم التنافس الشديد بينها وبين اليونايين، الذين جاءوا الإستعمار الجزيرة من الشرق . وإحتفظت قرطاجة

ببعض المراكز والمواقع الهامة فى الجزر الصغيرة التى تفصل بين الحوضين الشرقى والغربى للبحر المتوسط ، وبشكل يسمح لها بالتفوق الواضح فى الحوض الغربى منه.

ونجد أن أبناء قرطاجة قد قاموا بعمليات استكشاف واسعة وبعيدة فى المحيط الأطلسى ، فسارت سفنهم مع أسبانيا والبرتغال شمالا حتى سواحل فرنسا الحالية. وسارت سفن هانو من قرطاجة ثم قادس عبر مضيق جبل طارق فى المحيط الأطلسى جنوبا صوب خط الأستواء . ولقد قام هانو بتأسيس المراكز على سواحل المغرب وريودى أورو والرأس الأخضر وغينيا والكاميرون . وكانت قرطاجة تسعى من وراء تأسيس هذه المراكز إلى المتاجرة مع الوطنيين عن طريق مبادلة كميات معينة من البضائع بكمية من البتر ، أو مبادلة السلع فى الأسواق بسن الفيل وجلود الحيوانات وزيت النخيل . وقد تتحول المستعمرة إلى مدينة حصينة لها أسوار ، وتخزن فيها البضائع وتقوم العمليات التجارية مع الأهالى فيها ، كما قد تقوم بعض سفن قرطاجة بالهجوم على الأهالى ، فى أى منطقة ، وتستولى على ماتشاء بالقوة.

وساعد التبادل التجارى وحاجة قرطاجة إلى مواد مصنوعة ، علاوة على حاجتها إلى صناعة الأسلحة ، على نشأة صناعة فيها . فبدأت فى صعد الحديد والنحاس، وصناعة الأسلحة والحلى ، ونحت الأحجار الكريمة ، وبناء السفن ، والغزل ، ثم نسج الأقمشة ، ولو أن هذه الصناعة لك تكن متقدمة على صناعة غيرها من بلدان البحر المتوسط. وربما كان هذا التخلف النسبى هو السبب الرئيسى فى إتباع قرطاجة سياسة "الحماية التجارية" وذلك بتحريمها على اليونانيين والرومانيين ، وعلى سفنهم الدخول فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، والمتاجرة مع شمال إفريقية أو سواحل أسبانيا ، وذلك فى

الوقت الذى إحتكرت لنفسها التجارة فى معادن إيبيريا وفرنسا وبريطانيا ، وتبر إفريقية السوداء ، الذى كان يصل مع القوافل إلى سواحل المحيط الأطلسى.

وكانت سياسة قرطاجة ، مثل سياسة غيرها من الدول الإستعمارية ، تتلخص فى الكسب من مستعمراتها ، أو بمعنى أدق سياسة استغلالها. فكانت تحتكر التجارة ، وتجمع الضرائب ، وتستغل القوى البشرية فى الإنتاج ، وفى المحافظة على تلك الامبراطورية. وكان الأهالى ينقسمون تبعاً لذلك، فى هذه الامبراطورية إلى نوعين : فنجد من ناحية ، المستعمرين أو المعمرين أو المستوطنين الذين ترسلهم قرطاجة كموظفين ، أو الذين يستوطون كتجار ، ونجد من ناحية أخرى الأهالى الذين يشبهون ، وضعهم القانونى وضع الرعايا ، لا المواطنين ، والذين يستخدمون فى أعمال السخرة وفى الجيوش . وإذا كان هؤلاء الرعايا لايقاسون من وضعهم ، فقد كانوا ، على الأقل لايحبون السادة المسيطرين الآتين من طرف قرطاجة. ولم يحاول رجال قرطاجة التوغل فى داخل البلاد ، بل إكتفوا بالسيطرة ، وذلك عن طريق الإحتكار التجارى الذى انقلب فى حالات معينة إلى حصار اقتصادى لمنطقة أو لأخرى ، ولإجبارها على الخضوع لقرطاجة أو التحالف أو التعاون معها ، وتحت سيطرتها ولقد أدت هذه السياسة مع مضى الوقت ، إلى سيطرة قرطاجة على إقليمي تونس وقسطنطية الحاليين، ووصل نفوذها إلى مشارف إقليم فزان وتبسة ، وأخذ آهالى نوميديا فى دفع الجزية لها. وساعدت هذه السياسة على تأمين قرطاجة نفسها من هجمات البربر المحيطين لها ، كما ساعدت على تموين قرطاجة بالمواد الغذائية اللازمة لها. وإذا كان البربر قد تعاموا من قبل رعى البهائم والأغنام وزراعة الفول والحبوب، فإن معمرى قرطاجة قد علموهم زراعة

العنب، والإعتناء بأشجار الزيتون والرمان والتين، وحراثة الأرض ، وتخزين الحبوب، وجمع شمع العسل، وتقليم أشجار الموالح،

تعهد قرطاجة بعدم توسعها فيما وراء نهر الأيبر. ولكنها إكتشفت عدم سهولة إستمرار التعايش السلمى مع قرطاجة ، خاصة وأن وجود هانيبال على رأسها، وتجنيده للأهالى وإستخدامه قوات كبيرة من المرتزقة ، لم تكن بوادر سلم بالنسبة لروما ، فبدأت روما بالحرب حتى تمنع قرطاجة من التمكن من تهديدها.

والطريف فى قصة هذا الكفاح ، هو أن الرومان ، وهم من الفلاحين ، كانوا قد انتصروا على أبناء قرطاجة بحرياً، وأن بحارة قرطاجة قد اثبتوا أنهم جنود بريون ، لهم قيمتهم الحربية . وأخذت قرطاجة فى الزحف صوب روما، وعلى ممتلكاتها ، مطوقة بذلك البحر المتوسط ، ومحاولة الاستيلاء على روما من الخلف. وسار هانيبال من قرطاجة؛ فى جنوب فرنسا، وعمل على شراء الأهالى فى هذه المنطقة، ثم عبر جبال الألب ، ووصل إلى إيطاليا وهدد روما. وإستخدمت روما نفس تكتيك هانيبال ؛ وذلك بالسير فى شبه جزيرة ايبيريا ، والاستيلاء على قرطاجة وقادس ، وبإثارة رؤساء البربر فى شمال إفريقية . وتمكنت فى موقعة زاما من هزيمة هانيبال . فإنهارت امبراطورية قرطاجة ونظمها بضربة واحدة. ونزعت روما سلاحها وخربتها من مستعمراتها وجيشها وسفنها وتحولت قرطاجة إلى مدينة ضعيفة ، بعد أن كانت قد حكمت نصف حوض البحر المتوسط، ولم تعد لها أية مستعمرات سوى ظهير بسيط ، وبعض المراكز التجارية فى إفريقية الغربية. وأصبحت عليها، علاوة على ذلك، أن تدافع عن نفسها ضد هجمات أهالى البربر، المحيطين بها.

وكانت إمبراطورية قرطاجة قد اتسعت مما سهل عملية إضعافها، ولم تكن حكومتها قد أصبحت قادرة على الدفاع عنها ، وعجز التجار ، رغم كل ما اتصفوا به من حذق ومكر، عن الوقوف فى وجه جنود روما. وانتهت إمبراطورية قرطاجة بنفس الطريقة التى انتهت بها إمبراطورية كريت، والإمبراطورية الفينيقية ، إذ أنها قد فسدت من الرأس.

٤- اليونانيون:

فى الوقت الذى ظهرت فيه قرطاجة ونمت وتوسعت فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، كانت هناك قوة أخرى ، ودولة بحرية ، عملت على إستعمار الحوض ابهذا البحر. وعلينا أن نرجع إلى الوراء لفتره عدة قرون ، حتى نتمكن من معرفة أصول هذا التوسع ، وهذا الإستعمار.

ولم تكن اليونان فى أصلها سوى أمة تعمل على رعى الأغنام والمواشى وفى بلاد وجزر فقيرة. ودفع فقر البلاد الأهالى إلى الحركة، وإمتلأت أساطير اليونان القديمة بقصص الغزو والأسر والهجرة ، التى تثبت حب اليونايين للمغامرات ، وإعطائهم هذه الصفة لآلهتهم أنفسهم . ولما كان البحر يحيط بالأراضى اليونانية أو يفصل بينها وبين بعضها ، فقد كان مصير اليونانيين على الماء، أو فيما وراء البحار.

وهكذا تحول شعب من الرعاة إلى جماعات من البحارة، الذين تطوروا مع الظروف ، الى قراصنة أو تجار . فنجدهم قد خاطروا وذهبوا للإقامة فيما وراء البحار، وتحولوا إلى معمرين أو مستعمرين ، وكان فى وسعهم أن يصبحوا أساتذة فى الإستعمار ، لو لم يعيشوا متفرقين فى بلادهم ، وفى جزرهم وفى الأراضى الجديدة التى ذهبوا اليها ، حتى آلهتهم كانت متفرقة، ومتنافسة،

ويحارب بعضها البعض ، وحتى أمام الأخطار الخارجية . ولم يسمح لهم ذلك بتكوين امبراطورية استعمارية قوية ، رغم أنهم تمكنوا من إنشاء بعض المدن وبعض المستعمرات ، التى كانت لها نفس الثقافة ، ونفس النظم ونفس الفوضى ، والروح الإنفصالية السائدة فى بلاد اليونان نفسها.

وكان السبب الأول فى خروج اليونايين من بلادهم هو هجرات العناصر الهند وأوربية وإحتلالها أحسن الأراضى الزراعية ، فخرجت أعداد من اليونايين إلى آسيا الصغرى ، وإلى كريت ورودس ، وأسست مدنا يونانية فى هذه المناطق. ومع تزايد السكان داخل المدن اليونانية بعد بضعة قرون ، قامت جماعات جديدة بالهجرة للبحث عن أراضى جديدة . وأقوات لها فى مناطق أخرى ، خاصة وأن الأراضى الزراعية كانت صغيرة ، والسهول نادرة، ومجارى المياه ضحلة ، والإنتاج الزراعى بسيط ، والأفواة متكاثرة ، والأقلية المحاربة تحتفظ بأجود الأراضى وأوسعها ، والعمال الزراعيين فى وضع يضطرهم إلى الهجرة والبحث عن مناطق أخرى . ويمكننا أن نضيف الظروف السياسية عاملا مكملا للظروف الديموجرافية والظروف الإجتماعية فى عملية الهجرة والإنتشار . ذلك أن الغزاة كانوا يطردون المنهزمين ، وإستمر الصراع بين الطغاة والبلاه ، وبين الغنى والفقير . وكانت الحروب الداخلية ظاهرة واضحة فى تاريخ اليونان وكثيراً ما إنتهت هذه الحروب بأن يقرر المهزومين نفى أنفسهم عن بلادهم . وأخيراً فإن حب اليونايين للبحر قد ساعد على حركتهم ، وعلى تحولهم إلى مستعمرين وإلى تجار فيما وراء البحار فكانت العملية فى واقع الأمر تتلخص فى البحث عن أقوات جديدة عجزوا عن العثور عليها فى بلادهم . وعن المواد الأولية اللازمة لصناعاتهم فكانوا فى حاجة إلى قمح صقلية ونبيذ ترافيا وأخشاب سوريا ، وأصواب أوروبا ، وتيل مصر ، وجلود

ليبيا ، ورصاص رودس ونحاس قبرص وقصدير المناطق الشمالية ، وعاج إفريقية . كما كانوا فى حاجة إلى أسواق يبيعون فيها مصنوعاتهم الحديدية والفخارية والسجاجيد . وكانت عملية السيطرة على هذه الأسواق ضرورية للتصدير والتسويق ، وضروية بالتالى لعملية إستيراد المواد الأولية اللازمة للصناعة . فما أن بدأ ضعف الفينيقيين حتى أخذ اليونانيون مكانهم فى نشاطهم البحرى والتجارى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وفى نفس الوقت الذى أخذ فيها أبناء قرطاجة مكان الفينيقيين فى الحوض الغربى منه.

ولقد سيطر اليونانيون على طرق المواصلات والمراكز الاستراتيجية ، حتى يتمكنوا من السيطرة على الأسواق ومراكز الاستغلال . فإحتفظوا بمضيق مسينا والبوسفور والدردنيل . وكان يمكنهم فرض الضرائب على التجارة والسلع التى تمر من هذه النقط. أو احتكار المرور فيها . وأقاموا نقطاً ومراكزاً على طول الطرق ، وتحولت بالتالى إلى أسواق للبيع والشراء ، واشتملت على مخازن السلع. فنمت عملية التوسع والاستعمار التجارى ، جنبا إلى جنب مع نمو التوسع والاستعمار الفلاحى . وأصبح اليونانيون يشبهون فى هذه العملية أبناء كريت وفينقيا وقرطاجة.

وكان البحر معروفا لليونايين ، سواء فى هدوئه أو فى هياجه ، وإمتلأت أساطيرهم بالروايات عنه . أما سفنهم فكانت تشبه في أول الأمر سفن الفينيقيين، ثم أدخلت كورنثا عليهم بعض التعديلات ، فوضعت المجدفين على ثلاث صفوف فى سفن حمولتها مائة طن، ويمكنها أن تحمل مائتى رجل منهم مائة وخمسين من المجدفين وكان طول هذه السفن ٣٥ متراً وعرضها أربعة أمتار وغاطها متراً وعشرون سنتيمترا ، ولها خمسة اشرع ويمكنها أن تسير بسرعة تسعة عقد (أى تسعة أميال بحرية فى الساعة). ودخل التطور،

مع الزمن على هذا النوع من السفن، فوصل عدد صفوف المجدفين إلى ثمانية ثم عشرة . أما السفن التجارية فكانت أكثر إتساعا ، وتسير بالشراع ، ويمكنها أن تحمل مائتين وخمسين طنا ، وتسير بسرعة سبع عقد ، ويمكنها ، عند الضرورة ، أن تسير فى أعالى البحار.

وإذا كانت السفن هى أداة البحارة . فإن النقود هى أداة التجار، وكان اليونانيون هم مخترعوها . وكان اليونانيون فى بداية تاريخهم ، وكشعوب رعوية يدفعون ثمن مشترياتهم بعدد من الأغنام أو البهائم أو القطعان. ثم إستخدموا منتجاتهم ، من قدور وأوانى برونزية ، وسيلة للمقايضة ، ولكنهم سرعان ماشعروا بحاجتهم إلى وسيلة جديدة وعملية ، وخاصة بعد أن تحولوا إلى البحر ، وإتسعت الأسواق أمامهم ، وإبتعدت عنهم . وظهرت بعض القطع المعدنية فى بعض المدن اليونانية فى آسيا الصغرى ، وتعود الأهالى على إستخدامها ، ثم صكت أيونيا وليديا قطعاً معدنية ، خلطت فيها الذهب والفضة. أما المدن الأخرى ، التى حذت حذوها ، فلم تصك إلا القطع الفضية ، مثل أثينا التى صكت قطعا قيمتها أربعة درخمات. ولقد إنتشرت هذه القطع الفضية بتوعيها فى كل الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وأصبحت تمثل ثورة فى نظام الملكية، وتحولا من الملكية العقارية - كأساس للثروة إلى الرأسمالية ، وهزت الإقطاعيين وإمتيازاتهم وفتحت باب العمل أمام طبقة تجارية نشطة متوسطة ، متنقلة مخاطرة . وإستخدم التجار النقود، التى سهلت العمليات التجارية والأتصال ، وأصبحت بذلك وسيلة لنقل الأراء والحضارة الهيلينية ، مثلها فى ذلك مثل الأسلحة - ووسيلة للتغلغل والإستعمار.

وبعد السفن والنقود، التى كانت وسائل مادية تساعد على التوسع، إحتاج اليونانيون إلى دافع معنوى ، فأشركوا معهم آلهتهم فى مشروعاتهم التجارية والبحرية والاستعمارية. ولذلك فإن اليونانيين قد قاموا بطقوس معينة عند إنشائهم لمستعمراتهم ، ونسبوا إنشاء هذه المستعمرات إلى شخصيات مقدسة، فكانوا يشعلون النار فى وطنهم ويحملون شعلة منها إلى مستعمراتهم ، ويحافظون عليها مشتعلة حتي يعملوا على إطالة عمر النار فى الوطن الأم. أما مؤسس المستعمرة فكان فردا من أفراد إحدى الأسر الدينية فى المدينة الأصلية ، وكان يقوم بطقوس معينة عند إنشائه للمستعمرة، تشبه الطقوس التى عملت عند إنشاء المدينة الأم . وكان يتحول بعد موته ويرتفع إلى مصاف الآلهة.

ولقد كان نفس هذه الصلات موجودة بين قرطاجة وصور ، كما قام هانو بنقل المقدسات التى أرشدته إلى مراكز الإستعمار حول إفريقية فى المحيط الأطلسى ، وظل هذا العامل مؤثرا فى كل التاريخ القديم حتى عصر روما، التى أبلغ الرهبان فيها دائما أوامر الألهة بتأسيس المستعمرات . وكان اليونانيون يستشيرون نبوءة دلف، قبل ركوبهم سفنهم ، وعزمهم على تأسيس مستعمرات جديدة.

ولكننا نلاحظ من ناحية أخرى . أن العوامل أو الروابط السياسية كانت ضعيفة فى حركة الاستعمار اليونانى ، وأن هذه المستعمرات كانت تشكل بنفسها دولا كاملة ومستقلة ، وكانت حرة فى علاقتها مع المدينة الأصلية، وكثيراً ماكانت تفوقها قوة. وإذا ماتحالفت معها، فإن هذا التحالف كان يقوم بين طرفين حرين ومتساويين. ولكن الروابط الدينية كانت الأساس ، إذ كانوا يشعلون نفس النار، ويعبدون نفس الألهة ، وكانت هذه الروابط أقوى من

روابط الخضوع ، وكانت المستعمرة ترسل ممثليها إلى اللعاب الأولمبية ، وسفاراتها الى الأعياد المقدسة فى الوطن الأم وترسل الجزية الى معابده ، وتساعده عسكريا عند الأخطار ، وتطلب منه المعونة عندما تهددها قوة أخرى . وكانت المستعمرة تحتفظ بلغة الوطن الأم وبكتابته وتقاليده، وبدافع من الولاء أكثر من دافع المصلحة . وأصبح العامل الدينى أساساً لروابط فكرية ومالية وفنية وعسكرية.

وهذا النظام من الإستعمار اليونانى ، الذى نشأ نتيجة لهجرة بعض اليونانيين، والذى اعتمد على النزعة الدينية عندهم، كان يترك لكل مستعمرة الحرية فى وضع دستورها وقوانينها وصك عملتها ، وكان المعمرون فى ظله يخضعون كمواطنين لقوانين دولتهم الجديدة، لالقوانين المدينة الأم. وكن أثينا أنشأت نظاما آخر للإستعمار، بعد فترة من الزمن ، وكان لايعتمد على الهجرة ، بل على تهجير بعض المواطنين ، الذين يقع الإختيار عليهم بالقرعة ، وإرسالهم إلى أقاليم تم فتحها وضمها إلى الوطن الأم، وتوزيع الأراضى الزراعية عليهم . وكان المواطن فى هذه الحالة يحتفظ بحقوقه فى دولته الأصلية ، وتظل المستعمرة خاضعة لهذه الدولة الأم . ولكن هذا النظام لم يظهر ولم ينتشر إلا نتيجة لزيادة ضغط الفرس على التوسع اليونانى فى آسيا الصغرى ، وضغط قرطاجة والرومان على الاستعمار اليونانى فى أوربا، وساعد عليه ضعف العامل الدينى والشعور بالحاجة إلى عامل آخر يحل محله فى التوحيد بين اليونانيين . وكان هذا العامل الجديد هو العامل السياسى . ولقد مرت قرون عديدة قبل أن يستقر هذا النوع الجديد من الإستعمار، مما يسمح لنا بالقول بأن إستقلال المستعمرة عن الوطن الأم، كان هو، القاعدة فى الاستعمار اليونانى ، وأن هذه النزعة إلى الحرية، وبالتالى إلى الإنفصال ، قد

أضعفت اليونانيين أمام القوى المنافسة لهم، والمتوسعة إستعمارياً فى نفس عصرهم، والتى كانت تتوسع فى إتجاه مضاد لهم.

٥- المستعمرات اليونانية:

حينما بدأ الدوريون فى الضغط على سكان بلاد اليونان ، إضطر هؤلاء إلى الخروج والتوجه إلى الجزر وإلى آسيا ، فخرجوا من تساليا وأقاموا فى ليسبوس والسواحل الأسيوية المجاورة والتى نشأت فيها أزمير فيما بعد ، وخرج غيرهم من إقليم آثينا ، وأقاموا فى خيوس وساموس ، وهاجر آخرون، ومن بينهم بعض الدرويون ، فيما بعد ، وأقاموا فى ردوس . ولقد مزجت هذه المستعمرات بين فكرة استقلالها ، وبين فكرة أصلها المشترك فهى مستعمرات حرة، مستقلة ، ولكنها يونانية.

ولقد إزدهرت المستعمرات اليونانية فى آسيا إلى درجة أنها أخذت بعدها فى إنشاء مستعمرات أخرى لها ، وذلك فى الوقت الذى بدأت فيه موجات يونانية أخرى فى الخروج من بلاد ما ، باحثة عن أراضى جديدة، وفى أوربا هذه المرة. وإتجهت أنظار اليونانيين إلى الغرب ، وخاصة تلك المنطقة الواقعة فى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية ، والتى يكاد كعب الحذاء الإيطالى فيها يجاور بلاد اليونان، والتى يشبه مناخها مناخ اليونان تمام الشبه وكان من السهل على اليونانيين عبور خليج أوترانت ، خاصة وأنهم إتخذوا من جزيرة كورفو محطة لهم فى منتصف الطريق . فعبروا شبه الجزيرة عند قاعدتها ، وأقاموا أمام مدين فى إيشيا ، التى تسمح للبحارة الأجانب بالإتصال بالأهالى بسهولة، وكانت جزيرة قريبة من الساحل بشكل يسهل الوصول إليه، وبعيدة عنه بدرجة تسمح بالدفاع عنها بسهولة، صغيرة بحيث تكفى بعض المعمرين، وكبيرة بالدرجة التى تسمح بإعطائهم مايلزمهم من غذاء.

وبدأ اليونانيون علاقاتهم مع السواحل الإيطالية ، وتزايد ، مع الزمن، عدد مستعمراتهم عليها. وكانت هذه المستعمرات اليونانية فى إيطاليا تجارية وزراعية فى نفس الوقت، وكانت تمون اليونان بالحبوب والخشب والمعادن، وتصرف لها الأوانى والأقمشة والأدوات المصنوعة . ولقد جاء اليونانيون إلى هذة المناطق ومعهم آلهتهم وثقافتهم وطرق معيشتهم بشكل أعطى لوناً واحداً أو موحداً للمناطق التى أقاموا فيها. ولكن هذه الإمبراطورية من المستعمرات اليونانية كانت ضعيفة ، إذ أنها كانت لاتحتل إلا بضعة أجزاء من الشريط الساحلى حول المراكز التى تجمعوا فيها . أما داخلية البلاد فقد بقيت ، فى مجموعها فى أيدى السكان الأصليين . ولم يكن عدد اليونانيين أو قوتهم تسمح لهم بالتحكم الكامل فى كل المنطقة ، وإن كانوا قد احتفظوا قبل كل شيء بالمراكز الاستراتيجية الهامة، وخاصة المسيطرة على خليج مسينا.

أما فى صقلية فنجد أن اليونانيين يضغطون على الفينيقيين وأبناء قرطاجة، ويقيمون عند سفح جبل إتنا. وإنتشرت قراصنتهم فى المياه القريبة، وأقام غيرهم فى سرياقوس وسيطروا على الأهالى فى منطقتها ، وحولوهم إلى تابعين ونزلوا بهم الجزيرة إلى مستوى العبيد. ولقد إنتشرت المستعمرات اليونانية فى هذه الجزيرة بسرعة ، وأثر ذلك على أبناء قرطاجة الذين تحصنوا فى بالرمو، وعلى الأهالى الذين ابتعدوا عن الساحل ، وإن كانوا قد احتفظوا بعلاقات ودية مع الغزاة البحريين ، فتاجروا مع أبناء قرطاجة ، وقبلوا آلهة اليونان.

ولقد اعتمد اليونانيون على مراكزهم ومستعمراتهم فى إيطاليا وصقلية وحاولوا الإنتشار جهة الغرب . ويروى لنا التاريخ قصة كولاوس الذى وصلت سفنه إلى جنوب أسبانيا، وعاد منها بحمولة كبيرة من الفضة . وسار غيره

فى نفس الإتجاه ، ولكنهم اضطروا إلى ترك ملقة، بعد أن طردهم منها أبناء قرطاجة، وواصلوا السير صوب الشمال وخليج ليون، وأسسوا مستعمرة مساليا التى تحولت فيما بعد إلى مرسيليا الحالية. ونمت هذه المستعمرة بسرعة وخاصة بعد أن وصل أليها كثير من المهاجرين اليونانيين، الذين فروا من مستعمرات آسيا الصغرى نتيجة لزحف الفرس، وسيطرت مسانيا على المستعمرات الأخرى التى نشأت فى أماكن أرل وأنتيب ونيس وموناكو وبرشلونة الحالية.

ورغم أن قرطاجة كانت تحرم نزول اليونايين إلى شمال إفريقية، إلا أن ليبيا كانت بعيدة عن رقابة قرطاجة . ولكن السواحل الليبية كانت قاحلة مما يثبط عزائم اليونانيين ، فجاءت نبوءة دلف آمرة لهم باستعمارها ، ومهددة إياهم فى حالة الرفض. وكانت هناك أسبابا سياسية واضحة لهذه النبوءة ، التى هدفت فى حقيقة الأمر إلى سد الطريق أمام توسع أبناء قرطاجة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط. فهى نبوءة تخدم التيارات السياسية، وبالتالى ، التيارات الإقتصادية العامة فى المنطقة. وبدأ اليونانيون فى الإقامة فى بعض النقط الساحلية فى ليبيا ، واتصلوا بالقوافل الآتية من الواحات الداخلية. وإذا كانت أراضى برقة لاتنتج الكثير من الكروم والزيوت والحبوب ، فقد كانت صالحة للرعى ، ولتربية الخيول.

ولم يكن من السهل على التجار والبحارة اليونانيين السيطرة على مصر، ولها حكومتها وفرعونها: إلا أن الزبائن المصريين كانوا يستحقون عناية خاصة. فبدأ اليونانيون بإنشاء أحد المراكز ، ثم تمكنوا من الإفادة من أحوال مصر الداخلية ، وعمل عدد منهم كجنود مرتزقة فى خدمة الفراعنة ، وأقاموا فى معسكر خاص بهم فى منف. وجاء التجار بعد الجنود، وإنتشروا فى

الدلتا ، وتمكنوا من إنشاء مستعمرة لهم فى نقراطيس ، على الفرع الغربى للنيل وإمتلأت هذه المستعمرة بالنشاط والحركة والأسواق وبيوت اللهو ، وكان المصريون يجدون فيها مايلزمهم من نبيذ وزيوت وأوراني وأسلحة ولهو، ويبيعون فيها بعض الحبوب وأوراق البردى.

ولم يتمكن اليونانيون من إقامة المستعمرات على الساحل السورى إلا فى هذا الجزء القريب من قبرص . ولكن مستعمراتهم تكاثرت بشكل واضح قرب الوردنيل وفى شمال بحر إيجه الذى امتلأ بالجزر القريبة من الساحل وعلى سواحل البحر الأسود . واشتملت المضايق نفسها على تسعين مستعمرة يونانية، كانت أهمها أيو كينوس التى تحولت فيما بعد إلى بيزنطة ، ثم القسطنطينية . أما البحر الأسود فقد إزدهرت فيه المستعمرات اليونانية عند مصب نهر الدانوب ومصب الدنيستر، ومصب الدنيبر، وفى القرم ، وعند آزوف والدونيتس ، وعند سفح جبال القوفاز وفى مكان سينوب.

وهكذا نجد أن العالم اليونانى ، أو مجموع المستعمرات اليونانية ، قد إنتشرت من بحر إيجه إلى اسبانيا والقوقاز ، وتركز على قارات أوربا وإفريقية وآسيا ولكنه لم يتوغل صوب الداخل، بل اكتفى بواجهة بحرية على السواحل، وتعمها بعض المراكز والمستعمرات . وكانت علاقة اليونانيين بالأهالى ، فى الغالب ، هى علاقة لجنس الأسمى بالجنس الأدنى ، أو علاقة الرئيس بالمرؤوس ، والمتحضرو بالمتوحش المتبربر. وكثيرا ماكانت علاقة اليونانيين بالأهالى تصل إلى حد الإشتباك ، كما حدث فى برقة، أما فى صقلية فإن مجيء اليونانيين قد دفع الأهالى صوب داخل الجزيرة. وأخضعهم فى منطقة سرياقوس لحكمه ، وإستبعدهم ، وسمح لنفسه بالإستيلاء على الأراضى المنتجة . وكان اليونانيون يقسمون شعوب العالم إلى يونانيين و

برابرة ، وذكر أفلاطون أنه من الطبيعى أن يطيع البرابرة سادتهم اليونانيين أما أرسطو فقد شرح أن الطبيعة قد قسمت العالم إلى أولئك الذين يأمرون ، ويمكنهم بحكمتهم أن يتصرفوا فى كل شىء ، وأولئك الذين يطيعون ، والذين لايمكنهم أن يشاركوا فى المصلحة العامة إلا بخدمات بدنية . أنه نفس تقسيم العالم إلى سادة وعبيد ، خاصة، وأن أرسطو قد أصر على أنه لايمكن للبرابرة أن يظهروا مايدل على سموهم الطبيعى ، وعلى أن مجتماعتهم تتألف من عبيد ، ومن الجنسين . وكان فلاسفة اليونان ، فى ذلك ، من أنصار الطبقات، ومن دعاة الاستعمار. ويظهر ذلك واضحا حينما يشرح أرسطو أن الحرب هى وسيلة طبيعية، وأنها تستخدم ضد هؤلاء الذين ولدوا لكى يطيعوا ، والذين يرفضون القيام بذلك.

وكان اليونانيون يؤمنون بهذا التمييز العنصرى ويستندون إلى أنهم قد آتوا بالحضارة والمدنية للمناطق والجماعات المتبربرة ، وإلى أن الاستعمار اليونانى بالتالى هو نعمه لهذه الشعوب. ألم يخرجها من الظلمات ويشركها فى حضارة لامثيل لها فى العالم؟ وكان اليونانيون قد أحضروا معهم ، إلى مستعمراتهم ، فن الكتابة ، والنقود والرفاهية ، والمعرفة والجمال والثروة ، وهى فى نظرهم لاتقارن بما يحصلون عليه من بعض المواد الأولية.

ولقد أفادت المستعمرات اليونانية من ذلك، وتعلمت بعضها من التفوق على سادتهم فى اليونان، وخاصة فى الازدهار المادى وفى القوة. وكانت مواردهم كبيرة ، وسكانهم أقل كثافة . فصدروا المواد الأولية وبكثرة ، وفى صالح ميزانهم التجارى . وأدى ذلك إلى إزدهار فى المستعمرات ، ساعد بالتالى على نمو العلوم والفنون والآداب فيها. وأعطت تارنت للمدنية فيثاغورس ، كما أعطت سرياقوس أرشميدس . وما زالت آثار بعض

المستعمرات اليونانية تبهرنا بنفس درجة الآثار فى اليونان نفسها ولقد إزدهرت هذه المستعمرات ، بثرواتها ، ومنتجات أرضها ، وبصناعاتها ، وزاد العمران فيها ، وأدى ذلك إلى زيادة أهميتها السياسية. ومع زيادة الثروة إزدادات درجة الرفاهية، وأصبح اللهو من صلب حياة الأهالى فى هذه المستعمرات . ولكها ظلت مراكز للإشعاع ، فإنتشرت حولها الثقافة وكذلك قطع العملة ، ووصلت إليها المواد الأولية والمعادن. ولكن اليونانيين كانوا يحتفظون لأنفسهم بأهم شيء من هذه العملية ، وهى السيطرة عليها ، والحصول على الغلة. ورغم أن المستعمرات اليونانية كانت تعيش فى إستقلال عن بعضها . وتحت لواء الحرية ، إلا أنها كانت تتمتع بشخصية فردية ، وكثيراً ماقامت إحدى هذه المستعمرات بالهجوم على مستعمرة أخرى، وسيطرت عليها وأدخلتها فى نطاق نظامها الاستغلالى . وكانت كل مستعمرة ، فى داخلها ، تشتمل على صراع بين الأحزاب ، وبين الطبقات . فالكل يحاول السيطرة ، وبالتالى يحاول الإستغلال .

ولقد حاولت بعض المدن أن تسيطر على جزء ، إن لم يكن على كل العالم اليونانى ، ولكن هذا الإتجاه التسلطى أو الإمبريالى ، كان يصطدم بالفردية اليونانية ، ولايتمكن من المعيشة لفترة طويلة . ويمكننا أن نذكر منها محاولات أثينا ، ثم اسبرطه وطيبة ثم سرياقوس.

وكان تهديد الفرس قد ساعد على تكوين جامعة إتحادية هلينية، وأصبحت أثينا هى رأس هذه الجامعة بعد إنسحاب إسبرطة منها ، فجمعت حولها المدن البحرية ، وأصبحت لها القيادة السياسية والعسكرية . وكان لهذه الجامعة خزانة عامة، تدفع فيها كل من المدن المتحدة نصيبها ، ولها مجلس فيدرالى ، يشارك فيه مندوبوا المدن، ويصوتون بالمساواة. وكان هدف هذه

الجامعة هى التمكن من محاربة الفرس، ولكن أثينا أبقت على هذه المنظقة بعد إنتهاء الخطر الفارسى . وأصرت على ضرورة دفع المهن لأنصبتها فى الخزانة، التى نقلتها من ديلوس إلى أثينا ، وأنزلت درجة المدن المتحدة إلى مصاف الدول التابعة لها، بعد أن اختفى المجلس الفيديرالى . فأصبحت آثينا تتصرف فى ميزانية الإتحاد بالشكل الذى يحلولها. ولقد قامت أثينا بدور رأس الإمبراطورية، رغم أنها كانت ديمقراطية ، وأجبرت المدن الأخرى على البقاء فى هذه المنظقة ، وعاتبت ناكسوس ثم ساموس حينما حاولت الإنفصال عنها. وقسمت هذا العالم إلى خمس أقاليم تحت سيطرتها ، وأرسلت أثينا مندوبيها وقضاتها إلى هذه المدن، وحرتها بذلك من سيادتها القضائية ، كما أجبرتها على دفع أنصبتها ، واستخدمت هذه الأموال فى الإنفاق على الأعياد والاحتفالات ، وحرمت عليها صك العملة وفرضت عليها إستخدام النقود الأثينية . وأجبرت أثينا هذه المدن على إعطاء الأراضى لأهالى " العاصمة" فتحول بذلك عدد كبير من الملاك القدماء إلى مزارعين ، وإصبح عليهم دفع إيجار عن أرضهم ، للسادة الجدل. وكان ذلك يؤثر على حقوق المدن التى لايسمح " للأجانب" بتملك الأراضى ، وكان فى نفس الوقت يرفع من قيمة أبناء أثينا المقيمين فى ثاسوس أوليسبوس. وكانت أثينا فى الواقع تحاول توحيد اليونان ، ولكنها عملت على إلغاء حقوق المدن مع إحتفاظها بحقوقها هى ، وتدعيمها ، وعلى حساب غيرها، أكثر من قبل فعمل ذلك على إثارة الأهالى ، وتمكنت كورنتا ثم اسبرطة من الإستقلال ، وأدى ذلك إلى تفكك الإمبراطورية الآثينية ، التى لم تعش إلا أربعين سنة . وحاولت أثينا بعد ذلك أن تعود إلى فكرة الوحدة من جديد ، وبدون جنود ومندوبين ، ولكن الامبراطورية الجديدة تفككت بسرعة.

وقامت اسبرطة بعد ذلك بتجربتها ، وإعتمدت فى ذلك على إتحاد فيدرالى كان يجمع بعض المدن حولها ، فى شكل تحالف عسكرى وسياسى مع إحترام كل منها للإستقلال المحلى للأخرين . وكان التصويت فى مجلسه بالأغلبية ، إلا فى حالة تدخل الآلهة أو الأبطال . وأعلنت اسبرطة إستقلال المدن الخاضعة لأثينا ، وسيطرت على الحركة الجديدة، وعينت المندوبين وأقامت الحاميات وأنشأت نظام حكم الأقلية (الأوليجاركية) . ولكن المدن اليونانية كانت تحاول الإحتفاظ بإستقلالها وبحقوقها . وكان فى وسع اسبرطة أن ترسل الحاميات وتطلب المشاركة فى النفقات ، ولكن فرض سيطرتها السياسية كان صعباً ، ولم تتمكن من ممارسة هذه السيطرة، ،لفترة سنوات ، إلا بمساعدة الفرس . ورفضت أثينا الإعتراف بهذه الزعامة ، وخرجت طيبة منها ، فكان الفشل من جديد.

أما السيطرة الطيبية فكانت ضحلة وجاءت بعد إنتصار هذه المدينة على اسبرطة ، وإدعائها وراثتها لها. ولم يستمر الاتحاد الذى أنشأته إلا لمدة سنوات.

وكانت كل هذه المحاولات قد تناست المستعمرات والمدن اليونانيه الواقعة فيما وراء البحار، ودل هذا على ضعف الصلات الدينية بينهم، ونمو المستعمرات بشكل يمنع اليونايين من السيطرة عليها، ولقد حاولت مساليا إنشاء إمبراطورية أو اتحاد حولها، وقامت سرياقوس بنفس الدور ونجحت فيه إلى درجة أبعد من مرسيليا . وفرضت سرياقوس نفوذا على عدد كبير من المدن والمستعمرات اليونانية فى صقلية وفى إيطاليا ، ولكنها كانت امبراطورية ضعيفة ، مثلها فى ذلك مثل امبراطوريات أثينا واسبرطه وطيبة، إذ أنها كانت تعتمد ، مثلهم، على شخصية من الشخصيات الفذة الكبيرة ،

كان هؤلاء القادة يسيرون فى اتجاه مضاد لطبيعة الأشياء ، ولطبيعة اليونايين أنفسهم ، وكانت مشروعاتهم تتفكك وتنهار غالباً مع إختفائهم.

وظلت المدينة هى الأساس ، والوحدة السياسية ، فى العالم اليونانى . وإعتمد الاستعمار اليونانى على المعرفة والتجارة أكثر من استنادة إلى الحقوق والقوانين وحمل فى نفس الوقت عناصر ضعفه ونهايته ، مادام يعتمد على الفردية ، وعلى الطبقية. وكانت الامبراطوريات البرية تحيط به من كل جانب فهناك الفرس، والمعدونيين والرومان . ووصل اليونانيون إلى مرحلة تسمح لهم بالإنتقال إلى مستوى المستعمرين ، بعد أن فشلوا فى إتمام دورهم كمستعمرين.

الفصل الثالث

الامبراطوريات المنظمة

إذا كانت الشعوب البحرية قد قامت، في العصور القديمة بانشاء المراكز البحرية والتجارية علي طول السواحل، وقامت بعملية الإستعمار، بدون خطة منظمة لها، فإن شعوباً أخري قد قامت في نفس الوقت بالإتجاه صوب البر، وأنشأت مستعمرات متماسكة ومترابطة الأقاليم. ولقد قاموا فعلا بأستعمار يمكننا أن نسميه بأستعمار الدولة، ودعموا نظامه بسلطة مركزية، وباخضاع المناطق المفتوحة لهم إخضاعاً تاما. والإستعمار هنا مرسوم، وتنظيم هذه الإمبراطوريات مرتبط بفن الحكم والسياسة. ويمكننا أن نأخذ لهذا اللون من الإستعمار أمثلة من الإمبراطوريات الفارسية، والأمبراطورية المقدونية وأمبراطوريات الشرق الأقصي القديم.

١- الامبراطورية الفارسية:

بدأت الأمبراطورية الفارسية من هضبة إيران التي كانت موطناً للميديين والفرس في نفس الوقت. ولقد أفاد الميديون من ضعف الإمبراطورية الأشورية وتفككها وأستولوا علي أعالي وادي الفرات، والتفوا، من الشمال، حول ما بقي من امبراطورية بابل. وبعد أن وصل أحد أمراء الفرس إلي عرش الميدين، إهتزت بابل وإهتزت معها كل آسيا الداخلية، وتمكن الفرس، في مدة ثلث قرن، من إنشاء امبراطورية كبيرة، امتدت في الغرب إلي الدانوب وإلي برقة، وفي الشرق حتي السند. وقام بهذه العملية ثلاثة ملوك فارسيون هم كيروز وأبنه قمبيز وأبن عمه دارا.

ولقد إعتمد التوسع الفارسي - إلي درجة جيدة - علي التفوق الحربي، وظهر هذا التفوق في قوة الضرب بالأسهم وفي سرعة الحركة بوحدات راكبة، وخاصة علي الجمال. كما أعتمد علي السياسة التي أنتهجها الفرس، بأعطائهم أنفسهم شخصية المحررين للشعوب التي حاولوا إخضاعها، فأعادوا الجماعات التي قامت آشور بنقلها من مناطقها، إلي أقاليمها الأصلية، وخلصوا اليهود من الأسر البابيلوني فظهروا وكأنهم يعملون للسلم، بعد فظائع الآشوريين.

وتتالت خطوات ومراحل الغزو الفارسي بسرعة: فاستولي كيروز علي كل آسيا الصغري، بما فيها المدن اليونانية الساحلية المطلة علي بحر إيجة، ثم أسرع شرقاً حتي الحدود الهند، وعاد واستولي علي بابل. أما قمبيز فإنه قد هاجم مصر وإستولي عليها، وأخضع اليونانيين المقيمين في برقة، وسار مع النيل حتي الشلال الثالث. وأما دارا فإنه قد أخضع الثورات المحلية، ثم عبر الدرفيل ، وسار حتي السواحل الشمالية للبحر الأسود، مستوليا علي تراقيا وفارضاً حمايته علي مقدونيا، ثم أرسل حملة إلي بلاد السند، فامتدت الأقاليم الخاضعة له علي طول خمسة آلاف كيلو مترا، وإشتملت علي ثلاثة ملايين كيلو متراً مربعاً، من البحر الأسود وبحر قزوين إلي بحر عمان والبحر الأحمر، وأصبح ملكاً علي الميديين، وإمبراطوراً علي بابل وفرعوناً علي مصر. لقد أصبح ملك الملوك ومستعمر المستعمرين.

وأخذت المملكة الفارسية في تنظيم مملكاتها، فظهر أن الفتوح والغزوات العسكرية كانت وسيلة، لا غاية. وصدرت الأوامر إلي كل الملوك بالحضور

وتقديم فروض الطاعة والولاء لملك الفرس، وتقبيل أقدامه. كما صدرت إليهم الأوامر بدفع الجزية، وإرسال الرجال للخدمة في الجيوش. ودفعت المدن اليونانية «هدايا» كانت فارس تحدد قيمتها. وأرسل كيروز مندوبين عنه إلي الأقاليم الخاصة، يمثلونه فيها، ويشرفون علي النظام والعدالة والمالية. وحاولت فارس ألا كل السلطات في أيدي هؤلاء المندوبين، خاصة وأنهم كانوا يمتازون بإنتسابهم لأسر كبيرة، أو كانوا حتي من الأسرة المالكة، ويمكن لمنصبهم أن يصبح وراثيا من بعدهم. فأرسلت إلي جوارهم رئيساً عسكرياً لقيادة الجنود، ومندوباً عن الدولة، لكي يشرف علي رجال الأمن، فأصبح كل من هؤلاء الثلاثة يراقب الآخرين ويتصل بالبلاط، ويقوم البلاط بالإتصال بالمندوبين الملكيين، وبارسال المفتش.

وكان ملك فارس هو القمة لهذا النظام الإقطاعي، وكان ملكا مطلقاً وكان الرئيس الأعلي للقضاء، والقائد الأعلي للقوات. وكانت له قصور وحدائق ومنتزهات مليئة بالطيور وحيوانات الصيد. وكان الحرس الملكي يبلغ عشرة آلاف رجل من الميديين والفرس، وذلك للدفاع عن شخص الملك. ولكن الملك كان يعتمد علي قوات مسلحة كبيرة لإخضاع الامبراطورية. فبلغ عدد الجيش ما يزيد علي ميلون ونصف مليون مقاتل، من بينهم فرسان السهوب وراكبي الجمال من العرب، وله عربات حربية أما الأسطول فقد بلغت عدد سفنه الحربية مائتين وألف.

واعتمدت الإمبراطورية الفارسية علي الطرق لتدعيم الإتصال بين الأقاليم، والوصول بالتالي إلي الإتحاد والسيطرة. وكان أشهرها ذلك الطريق

الممتد من قرب المضايق إلي شمال الخليج الفارسي، والذي بلغ طوله ٢٤ كيلو متراً، أي ما يوازي شهرين متتاليين من السير علي الأقدام. وكان هذا الطريق يمر في السهول وعلي الجبال، وبنيت علي طوله القلاع ومراكز الراحة وتبديل الخيول وكان هذا الطريق، مع الطرق الثانوية العديدة، يسهل إتصال الملك بمندوبيه في الاقاليم، ويسهل الاتصال التجاري بين الشرق والغرب. ويكفينا إثباتاً لذلك وصول طاووس الهند في ذلك العصر إلي بلاد اليونان. وسهلت الإمبراطورية الفارسية كذلك الإتصال البحري بين أقاليمها، فأفادت من أحد فروع النيل، وإحدي الترع، لتسيير السفن بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، وبالتالي إلي الخليج العربي والمحيط الهندي. وحاولت الامبراطورية العمل علي زيادة التقارب بين الاقاليم باتخاذ الإيرانية لغة رسمية والآرامية لغة للتجارة، وبتوحيد المقاييس والموازين، وعملت علي تعميم استخدام عملة ذهبية تحمل رسم داراً حاملاً للقوس، وبلغت قيمتها عشرين مثقالاً من الفضة.

وكانت الإمبراطورية الفارسية، بطريقة نموها وطبيعة تشكيلها، تظهر علي أنها تفضل الإتحاد علي الوحدة، اتحاداً تقبله الشعوب المختلفة التي وضعتها داخل الإمبراطورية، وكانت الإمبراطورية تسير علي هذه السياسة، في «الظروف السعيدة». فنجد أن كيروز يعفو عن الملك الذين عزلهم، وأن قمبيز يترك حكومة مصر لأحد المصريين، ويترك أسرة كيليكيا القديمة في إقليمها، ويترك المدن اليونانية ذاتياً واضحاً. ويترك لبعض الممالك حكوماتها بعد إعلان خضوعاً.

وحاول دارا أن يكسب الاهالي، فتحاشي تخريب المدن ونقل السكان منطقة لأخري، وسوي بين رعاياه في الحقوق. وترك لكل اقليم عادته وتقاليده وموظيفه، وحتي آلهته. وكان هذه سياسة حكيمة من الفرس، الذين قبلوا تعدد الآلة في الاقاليم، رغم أن «المتعلمين» منهم كانوا قد أعتادوا عبادة إله واحد، هو الخالق، والعادل. ولكن هذه السياسة لم تستمر لفترة طويلة. فنجد أن دارا يلغي عند عودته من أثيوبيا تعدد الآله في مصر، ويحطم تماثيل العجل أبيس، وغيرها من التماثيل، ويأمر بإقفال المعابد. وإستمر خلفاؤه في تطبيق هذه السياسة، وخاصة في بابل ويظهر من هذا أن تحرر الفرس لم يكن إلا ستارا رقيقا، ولم يستمر لفترة طويلة، وكان يخفي في نفس الوقت روح التحكم والطغيان. وسرعان ما أثبت التاريخ أن الفارسيين قد حطموا المدن وكبتوا الأهالي، وبكل قسوة عند إعلانهم الثورة، وحتي إذا كان الفرس قد أعلنوا المساواة بين كل الرعايا، فأنهم كانوا يحتفظون لأنفسهم بإمتيازات خاصة، فكانوا يقصرون علي أنفسهم حق تقلد الوظائف الكبيرة، وكانوا لا يدفعون أية ضرائب، في الوقت الذي ثقلت فيه هذه الضرائب علي كاهل الأهالي. ولقد بلغت قيمة الجزية التي يرسلها مندوبوا الملك إلي العاصمة ما قيمته ٣٥٠ طناً من الفضة سنويا، وهي قيمة لم تتمكن أي دولة أخري من جمعها في السنة. ويمكننا أن نضيف إلي ذلك الهدايا النوعية من خيول ونبيذ وملح وحبوب وبخور وكلاب صيد وتبر. وحتي الخصيان والصبية والفتيات، علاوة علي سن الفيل والأبنوس، حسب إنتاج كل إقليم. وكانت الإمبراطورية تقوم بتخزين الأموال في عصمتها، حتي أن الأسكندر المقدوني قد إستولي

عند إستيلائه عليها علي ما يزن - ٤٦ طن من سبائل الفضة، أي ما يوازي جزية ثلاثة عشر عاما من أقاليم الإمبرطورية الفارسية كلها.

ولكن الإمبراطورية الفارسية أخذت في الضعف وبسرعة، ورغم غناها وتكدس الأموال في خزائنها. وكان إتساعها سبباً أساسياً في ضعفها، فاستولي المندوبون الملكيون علي السلطة في أقاليمهم، بعد عهد دارا، وفسد الحكم، وتفكك الجيش، وإنهارت الأخلاق. وخضع البلاط لمؤمرات الحريم، وبخاصة مع إزدياد عدد زوجات الملك، وبالتالي تزايد المنافسة لوصول الأبناء إلي العرش.

وتزايدت الهزائم علي مر الأيام. وإذا كان قمبيز قد تراجع عن مهاجمة قرطاجة وعن فتح النوبة، وكاد دارا أن يهزم في اليونان، فإن مقاومة اليونانيين كانت مذلة للامبراطورية الفارسية، وإضطر ملك الفرس إلي أن يضع تكتيكا خاصا، بعد ماراثون وسلامين، لكي يفرض نفوذه علي المدن الهلينية. وسرعان مانشبت الثورة في مصر وقبرص وفينيقا، وتمكنت تراقيا والهند من الخروج عن حكم الفارسيين، وأعلن عدد من المندوبين الملكيين ثورتهم علي عاصمة الإمبراطورية، التي تمكنت من الاحتفاظ بالأساسي، والقريب، من الأقاليم.

وكانت الإمبراطورية الفارسية، التي نشأت في فترة ثلاثين عاما، قد عاشت لمدة قرنين، ولكنها عاشت كجثة متحللة تنفصل عظامها عن بعضها عند أول صدمة، وإنهارت في مجموعها أمام الاسكندر.

٢- الامبراطورية المقدونية:

نشأت مقدونيا في شمال بلاد اليونان التي تنازعت مدنها السلطة، وتنافست فيما بينها، ونشأت في منطقة فقيرة، قل فيها الحرث والرعي، وعجزت عن إطعام الأهالي، الذين نظر إليهم الأهالي بقية اليونانيين علي أنهم من المتبربرين. ولقد نجحت مقدونيا من الحصول علي إستقلالها بعد أن تخلصت من سيطرة الفرس. ونجح الملك فيليب في توحيدها، والقضاء علي الفوضي والانقسامات الداخلية الموجودة فيها. وكان شابا قويا جريئاً، إرتقي العرش وعمره ثلاثة وعشرون سنة، وظل يحكم مقدونيا لفترة مماثلة. ونجح في فرض نفسه علي بلاد اليونان، ووضع أسس الإمبراطورية المقدونية، ولقد وضع خطته علي أساس تقوية مملكته، ثم توحيد بلاد اليونان، فالقضاء علي الامبراطورية الفارسية. ونجح في المرحلتين الأولتين، وأتم إبنه الباقي، وأكثر من الباقي.

بدأ فيليب بتحويل مقدونيا إلي دولة قوية، فاخضع الرؤساء الإقطاعيين، ووزع الأراضي علي القبائل المستقلة لتوطينهم، واتخذهم أساساً لتزويد جيشه بالرجال. ولم يعتمد فيليب علي الجنود المرتزقة، بل فرض الخدمة العسكرية علي هؤلاء المزارعيين وأنشأ بذلك جيشاً ثابتاً مرتبطا بالدولة، ومرتبطاً بفلاحة الأرض، ومرتبطاً بشخصه. وإستخدام النبلاء في قوة الفرسان، وظل هذا الجيش بمشاته وفرسانه أداة فعالة، ولمدة قرنين. وأستغل فيليب مناجم الفضة والذهب، وضرب عملة خاصة به، نافس بها العملات الأخري الموجودة، ودفع بها مرتبات وإشتري بها ما يلزمه، كما إشتري بها الحلفاء في المناطق المجاورة.

ويدأ فيليب بتأمين دولته من العناصر المتبربرة الساكنة في الشمال، ومد حدود مملكته إلي الدانوب والبحر الأسود، ثم إستعد لغزو العالم اليوناني وتمت هذه العملية في فترة وجيزة. هي أثني عشر سنة. وكانت تكفيه بعض الذرائع للتدخل، وبعض العمليات الدبلوماسية، ثم معركة فاصلة. لفرض نفسه. فأصبح سيداً علي بلاد اليونان، ووضع حامياته في النقط الاستراتيجية الهامة التي تسيطر عليها، وتمنع هجوم الفرس عليها. وجمع مندوبي المدن في كورنثا، وأجبرهم علي إنشاء جامعة إتحادية، عقدت الصلح، وعقدت محالفة دفاعية هجومية معه وظلت المدن اليونانية المشتركة في هذه الجامعة الإتحادية حرة مستقلة، ولكن بشروط معينة ذلك أنها تعهدت بعدم تغيير دستورها، أو تقسيم أرضها، أو تحرير العبيد فيها، أو إلغاء الديون كما أنها إتفقت علي إختيار فيليب منفذاً فيديداليا لقرارات مجلسها، أي رئيساً لها، فأصبحت حرياتها وإستقلالها نسبية. في حقيقة الأمر. وهكذا نجح ملك مقدونيا في الوصول إلي توحيد اليونان، وبعد السيف، بعد أن كانت كل من أسبرطة، وأثينا وطيبة قد فشلت في ذلك. وأصبح فيليب هو المحرك لهذا الإتحاد الذي قرر إعلان الحرب علي الفرس، وجندت كل مدينة قوية حربية، أو أسطولاً بحريا، ووضعها تحت قيادة ملك مقدونيا، ولعبت شخصية فيليب، مع توجيه الأنظار إلي خطر الفرس الخارجي، ومع رفع الروح المعنوية، وإلقاء الشعارات الخاصة بتحرير المدن اليونانية في أسيا الصغري - لعبت دوراً كبيراً في توحيد اليونانيين وكانت فترة ثورية في تاريخ اليونان والعالم، بما في ذلك من نظم وأفكار سياسية، وأحوال إقتصادية. وقتل فيها فيليب وأعطي ذلك

فرصة قصيرة للأمبراطورية الفارسية، في الوقت الذي زادت فيه درجة الغليان في اليونان.

وتولي الاسكندر عرش أبيه. وتدل قصة ركوبه الفرس الجامح، التي رواها بلوتارك، وتعليق والده علي ذلك بأن مقدونيا واليونان لن تكون كافية له، علي وجود دعاية خاصة في هذا العصر، توجه الأنظار إلي ضرورة التوسع تحت هذه القيادة، والخروج عن محيط العالم اليوناني، أي إلي ضرورة الإستعمار. وكان الإسكندر جندياً، إمتاز بصلابة عوده وحبه للحرب، في نفس الوقت الذي إمتاز فيه بثقافته اليونانية، وقضي علي أخطار البرابرة وعلي الحركات الإنفصالية، ثم أسرع بعبور الدردنيل، وبدأ المعارك والانتصارات وخضعت له آسيا الصغري، وأسرع ملك الفرس بطلب الصلح، وقدم للاسكندر الهدايا والأقاليم، ومنحه إبنته كزوجة، وإبنه كرهينة. ولكن الإسكندر لم يكتفي بذلك، إذ كانت أهدافه فيما وراء آسيا الصغري فاستمرت الغزوات والفتوحات معه ثمانية سنوات، وإشتلمت علي الشام ومصر وبابل والفرس وبلاد الميديين، ثم وصلت إلي الهند بعد إجتياز نهر السند. ولكن إنهاك الهنود للقواد إضطرهم إلي العودة.

وكان الإسكندر رجل دولة، ولم تكن حركته مجرد هجرة أو غزو بدون نتيجة ثابتة، بل حركة إستعمار واضحة فكان يترك الجرحي والمصابين في محطات ثابتة علي الطريق، ويحولهم إلي المزارعين ومتوطنين. وكان يجبر القبائل علي التوطن في مناطق معينة، بعد أن يهزمهم في الحرب. وكانت الخضرة والحبوب تسير زاحفة علي نفس الخط الذي يسير عليه، إذا كان يعمر

ويصلح ويصدر الأوامر بضرورة الزراعة والإنتاج والإستقلال. وربما كان الإسكندر يقاسي من شعوره بأن اليونانيين ينظرون إلي أهالي مقدونيا علي أنهم من المتبربرين، فعامل الشعوب علي أنها متساوية، وفتح صفوف جيشه للميديين ولكل الشعوب التي «حررها» من حكم الفرس، رغم أنهم دخلوا هذه الصفوف كجنود، وظلت القيادات في أيدي اليونانيين. وشجع الإسكندر زواج جنوده وضباطه بنساء من الأهالي، في الأقاليم التي فتحها، وضرب المثل لذلك، وإحتفل بزواج عشرة آلاف من رجاله بنساء من جنوب الفرس، خاصة وأن طبيعة حياة الجنود، وطول مدة غيبتهم عن بلادهم، كانت تدفعه إلي إنتهاج هذه السياسة. ولكن، هل يغير زواج عشرة آلاف من حياة شعوب؟ وكذلك نجد أن الإسكندر في الميدان الإداري يعين مندوبا مقدونيا عنه في الفرس؛ ومندوبين فارسيين علي مصر وبابل. ولكنه إضطر إلي الاحتفاظ ببعض الملوك المحليين والرؤساء علي مناطقهم، وإضطر كذلك إلي ترك مفتشين - من المقدونيين - إلي جوارهم، للاشراف علي المالية وشئون الجند. فهل هذه هي الوحدة؟ إن الاسكندر لم يعلن نفسه إمبراطوراً لهذا العالم؛ بل إحتفظ بالألقاب الإقليمية، وجمعها كلها لنفسه، فهو ملك مقدونيا وحامي اليونان، وخليفة الفراعنة، وملك الفرس. وكان يرتدي الملابس التقليدية لكل إقليم بعد أن يفتحه، ويعامل بعض الملوك علي أنهم ملوك. فكانت إمبراطورية عبارة عن مجموعة إتحادية للدول السابقة لها، أو الخاضعة له، أو الموضوعة تحت حمايته. وكان الاسكندر يحكم بالكرم، وبمساعدة الجميع، لا بالخوف والإرهاب وكان في وسع هذه السياسة أن تستمر مادامت قبضته

الحديدية موجودة، ولكنها هيأت الجو لتغيرات أساسية عند موت الإسكندر.

وكان الاسكندر متحرراً مع الآلهة كما كان متحرراً مع الشعوب، فقبل كل الآلهة، وعبدها، وقدم الذبائح لها، ووصل به الحال إلي أن أعلن علاقته بها، حتي يدعم نفوذه علي إمبراطوريته، فانتشرت الإشاعات عن أصله، وعن المعجزات التي صاحبت مولده، وعن تحدثه مع آلهة أمام صور وفي واحة سيوة. وكان يستخدم وسائل أكثر واقعية لتدعيم هذا النفوذ، فكان يقتل بعض القواد أو كبار الموظفين حتي يتخلص منهم، ولأسباب تتعلق بالدولة، وكان يأمر بإباده المدن التي تقاومه، ويبيع كل سكانها. ولكنه كان يردف ذلك بالتسامح، ورد الإعتبار، والمنح، حتي يظهر وكأنه فوق مستوي الرجال.

وعلينا أن نعترف بعظمة الإسكندر من الناحية السياسية، رغم تغيره وتقلبه بين العظمة والضعف، والتسامح والوحشية، ذلك أنه قد عرف بأن نظام المدن الحرة في اليونان كان يساعد علي تنافسها وضعفها، وأن وقت الإنفصال قد إنتهي، وأن الإمبراطورية يجب أن تجمع شمل الجميع وكان يرغب في أن يصبح جميع الرجال مواطنون، وفي دولة واحدة، ولهم نفس نظام المعيشة، كما لو كانت الإنسانية كلها تشبه قطيعاً واحداً يرعي في أرض مشتركة، علي حد قول بلوتارك وجاء التطبيق بشكل جعل من العالم كله مستعمرة مقدونية، إنتشرت فيها اللغة والنظم والأفكار والحضارة اليونانية.

وكانت النتائج هامة، فنجد من الناحية الإقتصادية أن مقدونيا الفقيرة قد أغنت العالم القديم وقت سيطرتها عليه، بعد أن أستولي الاسكندر علي كنوز

وأموال الفرس المكدسة، ودفعها في الأسواق: ٤٦٠٠ طن من الفضة في خزانة ملك الفرس، علاوة علي الكميات الموجودة في خزائن نواب الملك في الأقاليم وفي الهند، وسبعمائة طن قيمة الجزية السنوية، التي تكدست لمدة عدة سنوات في خزانة الدولة. وأخرج الاسكندر هذه القطع والسبائك والحلي، ودفع بها ديون جنوده، وأعطي منها الهدايا والمنح. فساعد ذلك علي حركتها، وأستغلالها، ودورتها، وقيام المشروعات وتوسعت التجارة والاقتصاد خارج أسوار المدن، وكان الاسكندر قد أحضر معه عدداً من المهندسين إلي آسيا، فبنيت المواني، وشقت الطرق وحفرت الترع، وأصبح كل من الدجلة والفرات صالح للملاحة، ورويت الوديان وبنيت المعابد.

أما من الناحية الاجتماعية فنجد أن جزء كبيراً من الأهالي قد تحول من سكان للبوادي والسهول إلي سكان للمدن التي بنيت في هذا العصر، ودل ذلك علي تحول عدد من الأهالي من الانتاج الزراعي إلي العمل في التجارة. وينسب التاريخ إلي الاسكندر إنشاء سبعين مدينة علي طول الطريق الذي سار فيه. وكان بعضها عبارة عن حصون في مواقع إستراتيجية، وفيها الحاميات، وبعضها مدنا تجارية أو أدارية في مواقع متوسطة، أو مراكز للراحة علي الطريق، أو لتوطين عدد من الأهالي الرحلي. ولكنها أصبحت كلها مراكز لإشعاع الثقافة وإنتشار الحضارة اليونانية.

وهكذا نجد أن الاسكندر قد أتخذ وسيلتين للاستعمار: الأولي هي الامبراطورية التي تجمع داخلها كل الأقاليم وتوحد بينها. والثانية هي المراكز المتفرقة، والتي يجمع فيها المتوطنين في مراكز معينة: وسيلة سياسية ووسيلة

عملية، سياسة المجموع التي تدفع الأقاليم إلي الاتحاد أو الوحدة بدفعها صوب الداخل، وسياسة توسع نقط ومراكز، وإضاعفها فيما حولها. وسنجد أن روما ستتخذ نفس الوسيلتين، وتستخدمها سويا كذلك. ولكننا سنجد أن المدن هي التي تبقي بعد موت الاسكندر، في الوقت الذي تتصدع فيه الامبراطورية، وتنقسم علي نفسها.

لقد حاول عدد من قواد الاسكندر الحصول علي أكبر نصيب من امبراطوريته بعد موته، وأنتشرت الثورات، وحركات العصيان، والفوضي والحروب الأهلية والمعارك والقتل، وظهرت ثلاث دول مكان هذه الامبراطورية وظلت اليونان مركزاً للاشعاع بهذه الحكومات الثلاث، وبذلك العدد من اليونانيين الذين تركوا بلادهم الأصلية، وأخذوا في الهجرة إلي هذا العالم الذي وحده الاسكندر، باحثين عن الثروة أو جريا وراء المغامرات. ونشأت مدن يونانية حقيقية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وكانت لها مجالسها التقليدية وأمتيازاتها ومعاهدها ومسارحها، ومناظراتها الفلسفية والسياسية. وأخذت الثقافة «الهلينية» في الإنتشار وفي التوسع والتغلغل، وقامت بدور الاستعمار الثقافي والحضاري.

وحصلت بعض «المدن» في مصر وسوريا علي إمتيازات المدن الحرة في اليونان، وتحولت بعض المراكز والمواقع العسكرية المقدونية إلي مدن أخري. وتمكنت هذه المدن من القيام بنشاط تجاري هام، في داخلها وفي المنطقة المحيطة بها، وظهر أن اليونانيين قد سيطيروا تماما علي النشاط التجاري في بلاد الامبراطوريات الشرقية.

ولقد زرع اليونانيون أشجار الزيتون في آسيا الصغري، وكذلك الكروم، وأدخلوا الماشية في أفريقية، وجاءوا معهم بعملتهم وبلغتهم التي إنتشرت بسرعة. ولقد عملت بعض الطبقات في سوريا ومصر علي التزود من الثقافة الهيلينية، وأرسلت أبناءها إلي المدارس اليونانية، وحاولت بذلك أن تصل إلي مستوي «المواطنين» أما مجموع الأهالي فقد ظل بعيداً عن التأثر باليونانيين؛ وكانوا أغلبية، ونظروا إلي اليونانيين علي أنهم أقلية، فظلت الحضارة اليونانية في واقع الأمر سطحية في المناطق التي دخلت إليها. ولقد كان الفلاح في مصريثن تحت ثقل أعباء النظام الإقتصادي، وثقل الضرائب، فحاول التخلص من النفوذ اليوناني سواء بالهرب منه إلي المعابد والمناطق المائية، أو بالثورات. وأدي هذا إلي التقليل من نجاح اليونانيين فإذا كان اليونانيون قد نجحوا في التغلغل في المدن والسيطرة عليها، فقد فشلوا في الدخول إلي البادية والأرياف ولكن علينا أن نعترف بأن اليونانيين قد نجحوا في تحويل عملية الإستعمار، من عملية تتلخص في الإحتلال والأستعباد، إلي عملية تهدف إلي الوحدة أو التوحيد بين الشعوب، ومنذ عهد الإسكندر، وأن كانت قد أدت إلي ظهور طبقات جديدة، داخل البنيان الجديد. عملت علي استقلال بقية الأهالي، ومن الناحية التجارية «الرأسمالية»، بعد أن كان الإستغلال يتعلق بالأرض، وبزراعي الأرض.

وظلت الثقافة اليونانية منتشرة في المنطقة حتي إستيلاء الرومان عليها.

الشرق الأقصي:

كان تأثير الإسكندر علي الهند تأثيراً بسيطاً. إقتصر علي بعض المراكز

التجارية التي أنشأها في وادي السند، وبعض الموانى التي بناها، ولكن الهند حاولت أن تخرج من حالة التفكك والإنفصال التي عاشت فيها، والوصول إلي إنشاء إمبراطورية موحدة، متأثرة في ذلك بنظم الفرس ثم بنظم المقدونيين.

كانت العوامل الجغرافية تساعد علي تفكك الهند من الناحية السياسية، خاصة وأن الأنهار تسير فيها بين الشرق والغرب، ثم تأتي منطقة صحراوية تفصل شمال عن الجنوب.، وكان سكان شمال الهند من الآريين، بينما نجد سكان الجنوب من الدرافيديين. وكانت النظم الإجتماعية والدينية تقسم الأهالي إلي طوائف وطبقات محددة، وتساعد علي التفكك والإنفصال بين أبناء المنطقة الواحدة. فهناك البراهمة، أو رجال الدين، ثم طبقة النبلاء ورجال الحرب، ثم الطبقة الثالثة من الآريين الذين يعملون في الزراعة والتجارة، ثم طبقة من غير الآريين، وهم الذين يقومون بالأعمال اليدوية. ونشأت عن هذه الطبقات طوائف متعددة، إزدادت مع الزمن وأصبحت وراثية ومقفلة، من حيث الزواج والعمل والإتصال بأبناء الطوائف الأخري، أو حتي تناول طعام لمسوه بأيديهم في بعض الحالات. وكان هذا البناء الإجتماعي يتعارض مع الإتصال بالخارج، وبالتالي مع الإستعمار، كما يتعارض الوحدة أو حتي الإتحاد داخل الهند نفسها.

وظل الحال كذلك في الهند، التي إنقسمت إلي إمارات وممالك متحاربة متطاحنة، إلي أن ظهر شاندرا جوبتا الذي كان قد إتصل بالإسكندر عند نهر السند، ثم أعلن الثورة علي الحاميات اليونانية في المنطقة بعد انسحاب المقدونيين. ولقد تمكن من إنشاء مملكة له علي وادي السند ووادي الكنج.

وإستمر إبنه في توسيع هذه المملكة التي إشتلمت علي كل الهند في عهد حفيدة أسوكا. وإشتلمت هذه الإمبراطورية علي المملكة الأم، التي تحتوي عاصمة الإمبرطور وقصره، علاوة علي أقاليم يديرها نواب بإسمه، وأقاليم يديرها أمراؤها الخاضعون له، ويمثله فيها مندوبون له. وعملت هذه الأدارة، مستندة إلي الجيش وقوات الأمن، علي تدعيم نفوذ الملك في جميع أنحاء الامبراطورية، كما عملت علي التوحيد بين الأقاليم وبعضها، وعملت علي جمع الضرائب ومراقبة الأثمان وضرب العملة وصيانة الطرق، والمحافظة علي أمن التجارة والمدن، وزيادة إحتياطي الذهب في الخزائن العامة.

ولقد إستخدم أسوكا العامل الديني وسيلة لتوحيد الهند، والإبقاء علي هذه الوحدة لمدة أطول من مجرد عملية إدارية أو سياسية. وساعده علي ذلك أنه إعتنق نفسه المذهب البوذي، ودون أن يترك مذهب البراهمة. وأخذ أسوكا في نشر هذا المذهب في جميع أنحاء الهند، وبخاصة مبادئ الحب والعدل والسلام، وأمر رجال الطوائف باحترامها، وظل يحترم البراهمة لأنه منهم، ولكنه نشر مبادئ البوذيين، لكي يزيد من سعادة الهنود، وبينما كانت نظرية البراهمة نظرية تعتز بالشخصية وتفصل بين أتباعها وغيرهم، وكانت للبوذية صفة عالمية. ودعا أسوكا الهند إلي التوسع، في الوقت الذي وجهها فيه صوب البوذية فانتشر الدعاة البوذيين في التركستان الصينية والصين وكامبودج وأنام وجزر التوابل، وتغلغل وراءهم التجار ثم الغزاة. فاستمر هنود البنجاب ومنطقة آسيا الوسطي، وإزدهرت البوذية في التبت والصين واليابان، وجاوة رغم عدم توسعها في الهند نفسها. وتغلغلت التجارة الهندية في

سومطرة وجارة، وكل جزر التوابل. ومما لا شك فيه أن التحركات الديموجرافية قد ساعدت علي خروج عدد من الهنود من بلادهم كما أن ثروات بلاد وجزر الشرق الأقصي قد أغرت الهنود بالذهاب اليها، ولكن نشاط البوذيين كان قد مهد الطريق أمامهم. وكان نمو البوذية حول الهند يتطلب نموها في الهند نفسها، كقاعدة تستند إليها، كما أن عملية هدم الطبقات الإجتماعية والطوائف في الهند لم تكن سهلة، وغير ممكنة، بمجرد الوعظ والإرشاد، ونشر المبادئ الجديدة، وأثر هذا في الهند بمجرد موت أسوكا: إذ سرعان ما إنتشرت فيها الإضطرابات والفتن والثورات وتحطمت الامبراطورية.

أما في بلاد الأرض الصفراء، فإن مملكة الصين قد قامت بدور توحيد الأهالي وإنشاء إمبراطورية، وإعطاء إسمها لها، بعد أن إستخدمت في هذه العملية كل الوسائل الممكنة، من حرب وسياسة، ومحاصرة وضم، وبعد حكم شي هوانج تي سادت الفوضي في بلاد الصين، ولكن لفترة قصيرة، إذ أن ليوبانج تمكن علي رأس جماعة من المغامرين من الاستيلاء علي السلطة، وإعادة الإمبراطورية، مؤسساً لها أسرة جديدة هي أسرة الهان، التي حكمت البلاد مدة أربعة قرون. ولقد عمل ملوك هذه الأسرة علي زيادة سلطانهم، والقضاء علي امتيازات الإقطاعيين، وإبعاد العناصر المتبربرة عن الصين وبعد أن وصلت الإمبراطورية الصينية إلي وادي النهر الأصفر، ووادي النهر الأزرق إمتدت شمال إلي حق كوريا، وجنوبا إلي فيتنام، وغربا حتي هضبة بامير، ولم تعوقها إلا صحراء منغوليا وهضبة التبت.

وتذكر لنا الروايات أن أحد الحكام قد ذاق طعم البرتقال، وأن حاكماً آخر رأي الخيزران، فأمر كل منهما بالإستيلاء علي الأقليم المنتج لهذه السلعة. ولكن الأمر يبدو أكثر عمقاً إذ أنه يرتبط بالعوامل الديموجرافية والسياسية، علاوة علي إرتباطه بالعوامل الإقتصادية، ذلك أن تزايد السكان وضعف إستغلال الأراضي دفع الصين إلي ضرورة البحث عن ميدان التوسع في المناطق المحيطة بها ، خاصة وأن هذه المناطق كانت تسكنها عناصر متبربرة متنقلة، تغير علي الصين من وقت لآخر. فنجد أن الصين قد أخذت في بناء سورها العظيم في الشمال، في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، ووطنت إلي جواره قبائل الهان حتي تتمكن من الدفاع عن نفسها. وعلمت الصين في الجنوب علي ضم العناصر المهددة لها، وحاولت صهرهم مع الأهالي. أما في الشرق فأنها قد سيطرت علي المنطقة المنتجة والمصدرة للحرير. ولقد إستخدم الصينيون القسوة الفائقة في إنشائهم لإمبراطوريتهم، وكانت معاركهم تنتمي بأهرامات من رؤوس القتلي، مكدسة علي بعضها. وكانت الصين تجند الأهالي، وتنقل السكان من مناطقهم، وتجبرهم علي التوطن في مناطق جديدة، وإستعمارها ، فكانت قوات المزارعين تسير وراء الجيوش، وأثبتت الصين بذلك أن لها سياسة منظمة للتهجير والتوطين والإستغلال، كما حدث في منطقة كانتون. ولكن الصين كانت أكثر تسامحاً في مناطق أحري، وحاولت بذلك ضم الأهالي وهضمهم علي مدي طويل: فأحترمت عادات الأهالي وتقاليدهم ولغاتهم، كما هو الحال في كل من كوريا وفيتنام، ولكنها قدمت لهم الجند لفلاحة الأراضي، والضباط لملاحظة المزارع، والموظفين لمراقبة

المتوطنين الجدد. وكانت الصين هي التي تقسم الأراضي وتنظم عمليات الري وتشق الطرق والترع.

وربط ملوك الصين بين مبادئ كنفشيوز، التي نادت باحترام الذات وإحترام الغير، وبين نظرية «الدولة» في الداخل، وبينها وبين نظرية التسلط الأمبريالي في الخارج. فنادوا بخضوع كل الأهالي للامبراطور، وخضوع الإمبراطور للسماء. ويمكن بالطبع إستخدام القسوة لإخضاع الأهالي للامبراطور. وهكذا نجد أن أمبراطورية الهان قد نشرت مبادئ الدولة المرتبطة بمبادئ كنفشيوز مع ما تتطلبها من تنظيم إداري. وبعد عدة قرون، إنتشرت الفساد في البلاد، بعد أن غرق في الرفاهية والملذات، وضعفت سلطته، وإنكمشت عن الأقاليم النائية.

٤- الامبراطوريات في مجموعها:

نلاحظ مما سبق أن هجرات العناصر الأندو أوربية قد أثرت وغيرت من وجه التاريخ في الألف سنة السابقة للميلاد، وهي الفترة التي شهدت الإمبراطوريات الأولي، سواء أكانت هذه الإمبراطوريات بحرية أو برية.

ولقد إضطرنا منهج العرض إلي التحدث عنها منفصلة عن بعضها، وكل منها بعد الأخري رغم أن التاريخ مشترك في هذه الفترة وفي هذا الجزء من العالم القديم. ذلك أن الدول الإستعمارية كانت تطمع في نفس الموانى ونفس الوديان ونفس الطرق فمن الذي يمكنه السيطرة علي نحاس قبرص أو فضه أسبانيا أو قمح صقلية؟ وربما كانت قرطاجة متحالفة مع الفرس ضد اليونان. ويروي لنا التاريخ أن سرياقوس قد حاربت أبناء قرطاجة في نفس الوقت الذي حاربت فيه اليونان الفرس في معركة سلامين.

والمهم هو أن منتجات الصين كانت تسير غربا إلي العالم اليوناني الروماني عبر طريق عرف فيما بعد بإسم طريق «الحرير» من النهر الأصفر إلي هضبة البامير، حيث تقابل قوافل أخري تأتي من الغرب وتحمل سن الفيل الهندي وسجاجيد فارس وبخور البلاد العربية. وكان التجار يبادلون سلعهم في هذا المكان، ثم تستمر قوافل الحرير في سيرها غربا إلي الجنوب من بحر قوزين، وتعبر الدجلة والفرات وتصل إلي أنطاكية، ومنها إلي كل موانئ البحر المتوسط. وكان سكان البحر المتوسط يشترون كميات كبيرة من حرير الصين. وإضطر ذلك التجار إلي إرسال سلعهم إلي الغرب عن طريق ثان، بحري، يبدأ من مواني الصين، سواء في تونكن أو كوشنشين، ويسير حول شبه جزيرة ملقا، وحول الهند وبلاد العرب إلي المواني المصرية الواقعة علي البحر الأحمر. وكان هذا الطريق ينقل حرير الصين وأقطان الهند إلي الاسكندرية، التي تقوم بتوزيعها علي تجار ومواني البحر المتوسط.

وأصبح هذا الطريق الثاني البحري، يعرف بعد ذلك بإسم طريق التوابل. ومعني إستخدام هذا الطريق البحري بسفن صغيرة، هو أن البحاره قد درسوا الرياح الموسمية، وبدءوا في تنظيم رحلاتهم علي أساس الإقلاع صوب الشرق في أشهر يوليو وأغسطس وسبتمبر، والإقلاع صوب الغرب في أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير وفبراير.

ونلاحظ بشكل عام مما سبق أن الموطن الأصلي للامبراطوريات كان متواضعاً وفقيراً، مثل صور وكريت وقرطاجة وأثينا، أو حتي إقليم الفرس وإقليم مقدونيا. وكانوا يستعمرون بلاداً أخري مكونة، ويبدؤن بقاعدة،

يشترونها أو يغتصبونها، ثم يقومون باستغلال منتجات الإقليم المجاور وأبنائه، ويفرضون أنفسهم عليهم، أو يقضون عليهم، أن تطلب الأمر ذلك. أما العلاقة بين المستعمرين والمستعمرة فكانت تختلف من الإستقلال شبه التام، إلي الإتحاد، إلي الخضوع، وكانت تختلف من التعاون إلي التحكم. وكانت هناك صفات مشتركة لتألية رأس الدولة في مصر وبابل وحتي مقدونيا، ونظم مشتركة في حكم الأقاليم، عن طريق تقسيم السلطة بين حاكم مدني، وقائد عسكري ومراقب مالي، كل منهم يراقب الآخرين، ويضمن عدم أستقلالهم بحكم الإقليم.

أما أهداف الإستعمار فكانت السيطرة بكل ما تحمله من معني، وكانت هذه السيطرة إقتصادية، ووضح ذلك في إستعمار كريت والفينيقيين وأبناء قرطاجة واليونان، أو سياسية، كما هو الحال في إستعمار آشور والفرس ومقدونيا والصين، وقد تكون هذه السيطرة دينية. ولكن الاستغلال الإقتصادي كان أساسا في كل هذه العمليات، حتي ولو لفترة الغزو والحروب السابقة للاستعمار، مع ما يصحبها من قتل وسلب ونهب. وكان المستعمر هو الذي يحصل علي الربح بتهجير الأهالي من المناطق الفقيرة التي تسكنها، وبالتالي بالتخفيف من حدة الضغط الديموجرافي لديه، وبمساعدته الأهالي علي الحصول علي أرض زراعية جديدة، كثيراً ما يكون قد إغتصبها لهم من الشعوب المغلوبة، وبتحسينه لميزانه التجاري نتيجة لتصديره منتجاته المصنوعة إلي هذه المستعمرات، وبزيادة الثروة في أيدي الوطن الأم، نتيجة لورود الضرائب والفدية والجزيات إليها. ولكن عملية الإستعمار، مثلها في

ذلك مثل كل عملية، يمكننا أن تكون خاسرة للدولة المستعمرة، إذا ما خسرت فيها كثيراً من الأرواح، وإذا ما عملت علي توزيع قوي الدولة وإمكانياتها، وبالتالي إذا ما ساعدت علي إضعافها.

وكانت الشعوب تخشي الاستعمار، خاصة وأنه كان يمثل أمامها الخضوع السياسي والاستبعاد والإرهاب والاستغلال والكبت، وكانت الشعوب في مناهضتها للاستعمار، عاملاً أساسيا في القضاء عليه، وقوة رئيسية مميتة له. أما التنافس بين دولتين إستعماريتين فكان في حقيقة الأمر لا يقضي علي الإستعمار، بل ينقل المستعمرة من سيطرة دولة الي سيطرة دولة اخري، ويغير الدولة المستقلة دون أن يقضي علي عملية الاستغلال، سواء أكانت إقتصادية أو بشرية، أو سياسية أو معنوية.

ولقد عاشت معظم هذه الامبراطوريات فترات تاريخية تتراوح بين قرن أو قرنين، وخمسة قرون أو ستة، وكانت الامبراطورية المقدونية أقلها عمراً، إذ أنها لم تعش إلا فترة أربعة وثلاثين عاما، من أول إنتصارات فيليب حتي موت الاسكندر.

وأخيراً فإن معظم الامبراطوريات في العصور القديمة قد أنتهت بسقوط عاصمتها، أو فساد رأسها، أو وفاته، ولم تنته بتفكك المستعمرات من حول الوطن الأم.

الفصل الرابع
الاستعمار الرومانى

استمرت أسباب الإستعمار ودوافعه ، ونظمه ووسائله مع روما كما كانت عليه من قبل . ولكنا نلاحظ أن الإستعمار الرومانى كان فريداً من نوعه من حيث قوته وطول المدة الى عاشها ، حتى تظهر إلى جواره كل التجارب الاستعمارية السابقة ، وعدد كبير من التجارب الاستعمارية اللاحقة ، بسيطة للغاية . ونلاحظ كذلك أن موطن هذه الامبراطورية كان صغيراً وفقيراً ، لايزيد عن قرية روما ، التى تقع على نهر التيير القليل الأهمية ، رغم أن الإجيال التالية قد أعطته من الأهمية أكثر مما يستحق ، وربطت بين نشأته وقصص وخرافات متعددة ، وجعلت منه مركز العالم وكانت روما إحدى المستعمرات فى أولى الأمر ، ولكنها تحررت وتمكنت من فرض سيطرتها على المستعمرات الأخرى فى إقليم "لانيوم" ، فى وسط شبه الجزيرة الايطالية وإزداد توسع روما على مضى الأيام ، وعاشت إمبراطوريتها مايقرب من آلف سنة، أنفقت القرون الستة الأولى منها فى إنشاء هذه الإمبراطورية ، والأربعة قرون التالية فى محاولتها الأحتفاظ بها. فما هى خطوات التوسع الرومانى ، ووسائله؟ وما هى أهداف روما ، ونظمها الامبراطورية؟ ومساؤها ومحاسنها ؟

١- خطوط التوسع:

لايشتمل تاريخ روما فى الستة قرون الأولى على أعمال خارقة للعادة بل نجد أن كل الشيوخ العنيديين، والقواد المتطلعين للمعارك ، والأمراء

الديماجوجين قد شاركوا فى إنشاء هذه الامبراطورية ، وأن الجمهورية قد بدأت العملية ، لكى تسلمها إلى الامبراطورية . وكانت روما تعيش لكى تحارب ، وتحارب لكى تعيش فى نفس الوقت . واستمرت فى النمو والاتساع ، بعد إقليم لاينوم، لكى تشمل كل شبه الجزيرة الايطالية ، ثم حوض البحر المتوسط وظلت دائما كما كانت روما.

وأفادت روما فى أول الأمر من المشكلات الناشئة بين جيرانها اللاتينيين وحاولت كسبهم كحلفاء ، أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو القضاء عليهم. وإتجهت روما إلى إتروريا ، وإلى تسكانيا ، ثم إتجهت صوب جنوب شبه الجزيرة ، وحاربت فيها عدة حروب ،و فشل فيها اليونانيون فى الثبات أمام الرومانيين ، واتسعت روما حتى اشتملت على كل شبه الجزيرة الايطالية.

وأخذت العمليات الرومانية وقتها ، إذ كانت ممتدة على قرون عدة، وكانت روما تواصلها بعناد وصبر ، رغم ماقد يعترضها من صعوبات أو فشل ، أو مشكلات داخلية.

وتوسعت روما فى منطقة وادي بو، ثم عبرت البحر الادرياتى الى البلقان متجهة صوب اليونان . كما أفادت من ترك قرطاجة لكورسيكا وسردينيا ، فاحتلتهما . أما فى صقلية ، فإن نفوذ وسلطة قرطاجة كانا موجودين ، وعرفت روما أن قرطاجة منافسة لها فى سياستها وتوسعها ، وإن عليها-عاجلا أو أجلا - أن تحطمها قبل أن تقوم قرطاجة بتحطيمها هى وبدأت الحروب البونية[1] بين روما وقرطاجة فى صقلية ، وامتدت لفترة ١١٨ سنة ، وإمتلأت بالحقد المتبادل والمستمر ، أكثر من استمرار المعارك الحربية .

(١) أنظر ص ٤٣ - ٤٦ .

وكانت حروبا استعمارية ، رغم أن أساسها كان "وجود" الطرفين المتحاربين نفسها. وأنتصرت روما وورثت امبراطورية واسعة . اضطرتها إلى العمل خارج حدود شبه الجزيرة الايطالية : فقد كانت هناك صقلية ، وفيها سرياقوس حليفة قرطاجة ، وهناك اسبانيا البونية التى استولى شيبيو عليها ، وجزء من شمال إفريقية يحيط بقرطاجة المنهزمة ، ولم يكن فى وسع روما ترك مثل هذا الميراث ، وإضطرت إلي القيام بعمليات حربية جديدة ضد الأهالى الثائدين ، حتى تضمن ملكيتها لهذه الأقاليم.

وكان فى وسع روما أن توقف توسعها عند ذلك الحد . ولكن طبيعة نشأتها وتكوينها ، العوامل الداخلية فيها، والخارجية المحيطة بها ، دفعتها إلى الإستمرار فى التوسع فنجد أن عدداً من الأمراء والملوك يوصون ، قبل موتهم ، بضم ممالكهم لروما ، كما نجد شعوبا مهددة تطلب مساعدة روما لها فى أبعاد المعتدين عنها ، ولاشك أنهم كانوا يقدرون معنى هذه الخطوة وماتحمله من نتائج لهم. كما أن روما نفسها قد أستخدمت نفس الطريقة كوسيلة دعائية لتبرير تدخلها فى منطقة أو أخرى فوصلت روما بهذه الطريقة إلى برقة وليبيا . كما وصلت إلى البحر الأسود وحاولت استخدامها لضم مصر وفلسطين . والمهم هو أن قوة روما ونفوذها جعل الملوك يحاولون التقرب إليها، وأعطوها بذلك ذرائع أو أسباب استندت إليها فى تدخلها وفى توسعها.

ولقد طلب اليونانيون فى مرسيليا من مجلس الشيوخ الرومانى مرتين مساعدتهم ضد جماعات الصقلب ، وقامت روما بالدفاع عنهم ، ودفع الخطر

عن مـدينتـهم ولكن الرومـانيين لم يخـرجـوا من مـرسـيليـا فى المرة الثـانيـة وإتخذوها قاعدة لإقليم جديد يصل بين إيطاليا وأقاليمها الجديدة فى شبه جزيرة أبيريا ، وكذلك الحال مع أحد رؤساء البربر الذى حاول الإستيلاء على نوميديا (شمال إفريقية) بمساعدة روما ، فلقد ساعدته روما وحصلت على مزايا فى المنطقة بعد ذلك ، وطلبت مصر من بومبى القضاء على إحدى الثورات ، ثم قام قيصر بالقضاء على ثورة الاسكندرية ، قبل أن تلقى بكليوباترة بنفسها فى أحضان أنطونيو، ولم تتمكن مصر من الهرب من روما . وطلبت غاليا (فرنسا الحالية) من قيصر مساعدتها ضد بعض قبائل البرابرة ، فساعدها ، ولم تخرج غاليا من العالم الروماني قبل عدة قرون وطلب أبناء فلسطين تدخل روما ، ودخلت فلسطين فى نطاق الدولة الرومانية.

وهكذا بنت روما إمبواطوريتها ، ولم تقاوم غاليا إلا لمدة ثمان سنوات وتقدمت روما إلى اليونان على أنها ستعيد الحريات الهلينية ، وكان هذا الموقف يعنى الابقاء على الفرقة، والانشقاق الداخلى ، والذى لم يكن فى وسع أى أحد – سوى الاستعمار الرومانى – أن يقضى عليها . ولعب ماريوس دور الجمهورى ، وسيلا دور الأوليجاركى ، وتركت الفرائس نفسها تقع فى المصيدة ، الواحدة بعد الأخرى ولقد إنتصر بومبى وهو يحتفظ بالأوضاع القانونية ، وإنتصر قيصر وهو يتفاداها . والمهم هو أن الثورات كانت تنتهى ، وأن روما كانت تضيف الأقاليم إلى الإمبراطورية الرومانية.

وحينما بدأ أغسطس سلطته المطلقة كان من الممكن اعتبارا أن العالم الرومانى قد تم إنشاؤه ، رغم أنه كان يحتاج إلى تنظيف بعض الجيوب وضم

بعض المناطق الموجودة تحت الحماية ، والوصول بالحدود الشمالية إلى نهر الدانوب ، ومد سلطة روما على كل سواحل إفريقية من الإسكندرية إلى طنجة. وأوصى أغسطس خلفاءه بعدم توسيع الإمبراطورية أكثر من ذلك. ولكننا نجد أن الأباطرة يحملون نسور روما إلى أبعد من ذلك ، فيقوم كلوديوس بغزو الجزر البريطانية ، التى كانت قيصر قد أوضح معالم الطرق المؤدية إليها ، وعبرت قوات تراجان الدانوب ، ونزلت مع الفرات وإستولت على أرمينينيا وآشور ومابين النهرين ، وأوصلت حدود روما إلى الخليج الفارسى . فأصبحت إمبراطورية هذه المدينة الخالدة تمتد من بحر الشمال إلى رمال الصحراء . ومن المحيط الأطلسى إلى المحيط الهندى.

ولقد إستمرت عملية التوسع مدة ستة قرون . فكيف نجحت روما فيها ؟ وأى الوسائل إستخدمت؟

(٢) وسائل الغزو والاحتلال:

لقد إستندت روما إلى وسائل ثلاث ، وهى الجنود ، والسفن ، والدبلوماسية، وتمكنت بها من غزو العالم.

وكانت أول وسيلة وأهمها هى الجنود وكان أبناء روما قد تعودوا شن الغارات على غيرهم قبل أن يعملوا فى الجيش ويدافعوا عن أنفسهم . وكانوا من الفلاحين ويعرفون قيمة الأرض ومستعدون للتضحية من أجل الحصول عليها وإساعمارها . ولم يخدم فى الجيش ، فى أول الأمر ، سوى المواطنين ، وأصحاب الأملاك من بينهم . وكانوا يعتبرون أنهم سيدافعون عن روما بقدر مايمتلكوه فيها . وكان هذا سببا فى عدم تجنيدهم للفقراء ، وإستخدامهم

الأغنياء كفرسان . وكانوا جميعاً قد تعودوا حياة الخشونة ، وتمرنوا على المعيشة فى الهواء الطلق مع عملهم فى الحقول والزراعة . وبمضى الوقت تمكنوا من التوفيق بين الفلاحة والحرب.

وزادت حاجات روما مع نموها ، واضطرت فى عهد ماريوس إلى استخدام طبقة العمال فى الجيش ، فى الوقت الذى أخذت فيه طبقة الملاك فى التهرب عن الخدمة العسكرية . وأصبح التجنيد بعد ذلك عملا مستمرا فى عهد الامبراطور أغسطس ، ووصلت مدته إلى ستة عشر سنة للحرس البريتورى ، وعشرين للفرق التى تضم كل المواطنين ، وخمسة وعشرين للفرق الإحتياطية . وأصبح على أبناء روما ، الذين تجندوا فى سن العشرين ، أن يبقوا فى الجيش حتى مايقرب من سن الأربعين ، فكانوا يقضون بذلك جزءا هاما من حياتهم "تحت السلاح" . وكان هذا الجيش أداة عسكرية وسياسية هامة فى أيدى القياصرة، كما كان فى نفس الوقت أداة للإستعمار . فكانوا بعد المعارك يهتمون بالأراضى ، وبالحقول ويبنون المدن ويشقون الطرق التى تستخدمها روما فى إستغلال المناطق الخاضعة وكانت اللاتينية هى لغتهم ، أو لغة أغلبيتهم ، وكانوا ينقلونها معهم فى المناطق التى يذهبون إليها ، ويعلمونها للأهالى ، ويساهمون بذلك فى تطوير الامبراطورية ، واعطائها خاصتها الرومانية.

أما الأسطول فقد كان وسيلة هامة من وسائل الغزو الرومانى ، وأن كان أقل أهمية من الجيش حقيقة أن روما لم تكن على الساحل مثل صور وقرطاجة ، كما أن شبه الجزيرة الإيطالية نفسها كانت تتوغل فى البحر ،

بعكس الحال فى اليونان ، حيث تتوغل المياه داخل الأرض ، ولكن الصراع مع قرطاجة وتصميم روما على إمبراطورية قرطاجة البحرية ، جعلها تهتم بقواتها البحرية وبإنشاء السفن وإستخدام العبيد والفقراء فى التجديف. وسارت روما على هذا المنهج بتصميم، حتى تمكنت من إنشاء أسطول قوى، تمكن من هزيمة أسطول قرطاجة .

واستخدمت روما الدبلوماسية وسيلة ثالثة تعتمد عليها فى التوسع والغزو، وإستغلت فى ذلك المكر والخداع ، والتغلغل السياسى، والحكمة والتأنى ، حتى تصل إلى أهدافها ، وتحصل على نتائج مؤكدة ، وبأقل خسائر ممكنه . فإنتهزت فرص قيام نزاع على مناطق مختلفة بين دولتين ، لكى تقوم هى بضم هذه المناطق، كما فسرت المادة التى تنص على تنازل قرطاجة لها عن الجزر الواقعة بين صقلية وإيطاليا ، بعد الحرب اليونانية الأولى ، على أنها تعنى جزيرتي سردينيا وكورسيكا ، وقامت بالإستيلاء عليهما. وكانت مصالحها هى التى تملى عليها الإحتفاظ بالمعاهدات أو إيجاد ذريعة لإلغائها . وكانت صداقة روما مخيفة ، إذ أنها كانت تمهد للحماية ، وبالتالى للضم وقامت روما بتحويل مملكة كبادوشيا إلى مقاطعة رومانية ، رغم أن ملكها كان صديقا لها . وإنتهزت فرصة مقتل ملك تراقيا وضمت إقليمه للامبراطورية ، رغم أنه كان تحت حمايتها ، وضمت موريتانيا رغم أن ملكها كان "حليفا" لروما ، وكانت روما سخية بعد ذلك فى منح الألقاب والأسماء الطنانة للمدن والأقاليم ، فهذه عاصمة ، وهذه المدينة الأولى فى آسيا ، مما جعل هذه المدن تعتقد فى أنها مهمة ، وأنها حرة . ولكن روما كانت دائما

تنشىء حزبا موالياً لها فى الداخل، يقوم بعملية الصراع، حتى يحرر المدينة من طغيان الحاكم وفساده ، وعند نجاح هذه الحرب ، تقع المدينة تحت سيطرة روما وإستغلالها ، وفى الوقت الذى تعتقد فيه أنها قد تحررت.

ولم تكن روما متسرعة فى تطبيق سياستها ، بل كانت تعدد على الوقت وتنتظر نضج الثمرة . وكثيرا ماكانت ترفض ضم أحد الأقاليم أو غزوها إذا كان هذا الأقليم بعيدا عنها، أو كانت إدارته تكلفها الأموال أو الرجال. وهكذا رفضت روما ضم نوميديا بعد إنتصارها عليها ، حتى لاتتحمل الكثير من المسئولية، ورفضت ضم مدن برقة. وإكتفت بالإستيلاء على ممتلكات ملكها السابق ووزعت الاقليم على رؤساء قبائل البربد ، نظير تعهدهم بدفع جزية سنوية لها، وتركت مناطق جرمانية كبيرة واكتفت بالراين حداً لتوسعها وإستغلالها، وأمرت بإخلاءها بين النهرين وآشور بعد أن تأكدت من خطر الأهالى وصعوبة ضمهم . وكان السبب الأساسى لهذا التمهل السياسى والحكمة هو الإقتصاد ، إذ أن روما كانت تحاول الأقتصادفى أموالها ، وأرواح رجالها ، حتى تكون العملية مربحة لها، أى تعود عليها بالدخل أكثر مما تنفقه عليها ، وهو أساس العمليات الإستقلالة الناجحة.

وكان دور الإحتلال يأتى بعد دور الغزو ،و الذى أعتبرته روما وسيلة للتنظيم والأستقرار والاستغلال . وإستخدمت روما وسيلتين هامتين للإحتلال : الأولى هى إنشاء المدن، والثانية هى إنشاء الطرق.

أما المدن فقد نشأت فى غالبيتها فى شكل المعسكرات[1] التى أقامها الجند فى المواقع الاستراتيجية الهامة، أو حول أبراج الحراسة والحصون ، والتى

لاتزال كثير من أسماء المدن تحمل مايدل على أصل نشأتها بهذه الطريقة[٢] ونشأت مدن أخرى بمرسوم امبراطورى منح بعض المواطنين الرومانيين أرضا فى إقليم مفتوح ، وإستخدمت روما هذه الطريقة لتوطين بعض عناصر الفقراء بعيداً عنها ، وللتخلص بهذه الطريقة منهم، أو لتوطين بعض قدماء المحاربين الذين بلغوا سن الخامسة والأربعين ، فأقطعتهم قطعا من الأرض ، عليها أحد المنازل ، واشترطت عليهم عدم التصرف فيها قبل مضى عشرين سنة. وكانت المدن الناشئة بهذه الكيفية تسمى مستعمرة ، وهى تنشأ بأمر السلطات العامة وتحت إشرافها ، وكان على الإقليم أن يرحب بقدوم الجماعة الجديدة ، سواء أكان ذلك للإقامة فى المدينة المحتلة ، أو فى مدينة جديدة مجاورة لها. ولقد أنشأت الجمهورية الرومانية مثل هذه المستعمرات فى أنحاء كثيرة من شبه الجزيرة الإيطالية ، أما القياصرة فقد أنشأوا مدناً جديدة أو مستعمرات بجوار المدن الأصلية فى جميع أنحاء الإمبراطورية، كما هو الحال فى ليون ونين وتمجاد وجميلة. ولايزال بعضها يحمل اسم "المستعمرة" مثل لنكولن فى إنجلترا وكولونيا على نهر الراين . وكانت هذه المستعمرات أوالمدن عبارة عن قلاع قرب الحدود ، يسكنها جماعة من قدماء المحاربين . وكانت كذلك مراكز زراعية وإدارية وتجارية، تقام فيها الأسواق ، وتجمع فيها الضرائب ، وتنتشر منها اللغة اللاتينية ، والعادات والتقاليد الرومانية . كما كانت مراكز للراحة على الطرق ، تبدل فيها الخيول، ويستريح فيها المسافرون.

وكذلك استخدمت روما الطرق وسيلة من وسائل الإستعمار . وإذا كانت هى مراكز إحتلال، فإن الطريق كان وسيلة إتصال مستمرة . وأنشأت روما

الطرق على خطوط مستقيمة ، ورصفتها بالاحجار أو الصخور ، وزودتها بعلامات للمسافة ، ومراكز لراحة المسافرين وخيولهم . وأنشأت روما شبكة الطرق فيها على أساس إمبراطورى ، إذ كان عدداً كبيراً من هذه الطرق يبدأ من العاصمة ويتوغل فى القارة الأوربية ، وكان غيرها يدور حول البحر الإدرياتى ويصل إلى أثينا ، أو يصل بين مصب الراين ومصب الدانوب .، أما فى آسيا فقد إمتدت الطرق من المضايق ، حتى جبال القوقاز ، مارة إلى جانب سواحل البحر الأسود ، وإمتدت غيرها إلى إنطاكية إلى صور إلى غزة فمصر. وأما فى أفريقيا فقد إمتدت إلى جوار الساحل من مصر إلى برقة ثم إلى قرطاجة وشرشال ، ثم إبتعدت عن الساحل قليلا لكى تواصل إمتدادها إلى طنجة و وليلى . وإمتدت طرق أخرى حتى غدامس ، وسارت غيرها إلى جوار النيل . وكانت لبعض هذه الطرق أهمية استراتيجية ، ولكنها كانت كلها ذات أهمية اقتصادية هامة . فكانت توزع المنتجات ، وتجعل من روما مركز العالم ، وأهم مخزن فيه ، وتمد المدن الناشئة عليها بما يلزمها ، وتساعد على استمرار نموها وإزدهارها ، وتحولها إلى عواصم، كما هو الحال مع ليون ومع إنطاكية . وأخيراً قد ربطت هذه الطرق روما بالتجارة العالمية ، ووصلت بينها وبين بلاد «العنبد» ، وسواحل البحر البلطى ، كما ربطت بينها وبين بلاد الحرير فى الصين.

وهكذا نجد أن روما قد اعتمدت فى استعمارها على الجيوش التى تغزو وتحتل ، وعلى المحاربين الذين يتحولون الى مزارعين أو تجار بعد تركهم الجيش، استخدمت سياسة خاصة للافادة من المواقف المعينة، ولكنها لم

تتراجع عن إنشاء المدن وشق الطرق. واستخدمت روما امكانيات ضخمة فى استعمارها، وكان الأزدهار الناتج ازدهارا كبيرا كذلك.

(٣) الاهداف:

اذا ما تتبعنا مجرد تاريخ غزوات الرومان وفتوحاتهم ، لإعتقدنا أن هدفهم لم يكن إلا طموح القائمين على أمر الدولة، والحقيقة أنه لايمكننا استبعاد العامل الشخصى ، والبحث عن المجد وأكاليل الغار، من المشروعات الرومانية ، سواء أكان ذلك فى عهد القناصل أو عهود القياصرة . ولكن هناك عوامل أخرى جماعية ، كانت تدفع مجموع الرومان فى هذا الطريق . وكانت هذه العوامل سياسية، ومالية ، واقتصادية.

أما العوامل السياسية فقد ظهرت فى أول الأمر أمام الأخطار الأجنبية، ومع ضرورة الكفاح من أجل البقاء . فلم يكن فى وسع روما أن تتراجع أمام قرطاجة ، وكان من الضرورى أن يقضى أحد الخصمين على الآخر . وتمكنت روما من الإنتصار فى ذلك الصراع وورثت مستعمرات قرطاجة . وكان هناك أمن الدولة، ولم يكن فى وسع روما أن تترك العصابات تدور فى مناطقها المتطرفة، ولا القراصنة يتعرضون لسفنها . وكان هذا هو السبب الذى اضطر أغسطس الى القيام بحملة إثيوبيا، والذى إضطره إلى تعيين حكام فى شمال إفريقية لترويض القبائل غير الخاضعة ، ودفع من يرفض التوطن منهم فى مناطق معينة إلى داخل الصحراء . وكانت هناك أخطار قبائل البرابرة من جرمان وصقلب، والتى دفعت روما إلى العمل فى مناطق الراين والدانوب ، وإلى العمل فى الجزر البريطانية حتى تدافع بذلك عن مراكزها فى غاليا.

ويظهر من ذلك أن روما كانت تقرم بالهجوم لكى تدافع عن نفسها وأقاليمها ، أى أن إمبرياليتها هى امبرالية دفاعية ، فتغطى غاليا ببريطانيا ،و وتوميديا بموريتانيا ، وسوريا بما بين النهرين، ولكن كل من هذه" الأغطية" أصبح يحتاج إلى غطاء جديد بمضى الوقت ، وأصبح كل غزو يتطلب غزو آخر.

وأما العوامل المالية والأرباح فتظهر واضحة فى عصر الجمهورية . فلم يكن هناك نصر بدون أسلاب ، ولاإخضاع بدون إستلام للجزية. ولقد شهد عصر الجمهورية علاوة علي ذلك إزدهار نوع من الرأسمالية القائمة على الأستغلال الإستعماري، ومرتبطة به، وبشكل يسمح لنا بالقول بأن الإستعمار الرومانى قد أنشأ الرأسمالية ، وأن الرأسمالية الرومانية كانت فى حاجة إلى الإستعمار.

ولقد تحولت الثروات من عقارية إلى مالية مع ظهور النقود وإزدهار التجارة ومع النشاط الإستعمارى . ووجد الرومان فى دولتهم النامية فرصا للأعمال، من توريد ، إلى استصلاح الأراضى ، ومشروعات إستغلال المناجم، إلى الأشغال العمومية وإلتزامات جمع الضرائب . وكانت هذه الأعمال تزيد فى غالب الأحيان من مقدرة شخص واحد. فتكونت الشركات المساهمة ، أو ذات الأنصبة، والتى كانت تسمى بالشركات العامة ، والتى لم تتراجع عن إستغلال الأقاليم. وأصبحت هذه الشركات تجمع العشور على القمح فى صقلية ، والضرائب على الشمع فى سردينيا وجميع الضرائب فى آسيا . وقامت ببناء القناطر ، وشق الطرق، وإنشاء القصور والمعابد ، وأقرضت

الأقاليم المفتوحة حتى تتمكن من دفع الغرامة الحربية وحصلت على أرباح ، فى هذه العملية الأخيرة ، وصلت إلى ٤٨٪ . وحاولت هذه الشركات الحصول على الأرباح ، بأى شكل ، وإستغلت فى ذلك المستعمرات. ولم يكن فى وسع حكام الأقاليم التدخل فى مثل هذه العمليات ، التى كانت مركزة فى أيدى رجال الأعمال فى روما نفسها ، وكان بعض الحكام قد استدانوا حتى يتمكنوا من الحصول على مناصبهم ، فاحتاجوا إلى الإتفاق مع هذه الشركات حتى يتمكنوا من دفع ديونهم ، ولقد حاول بعض المشرعين تحديد هذه العمليات الاستغلالية الفاضحة، فحرمت روما على أعضاء مجلس الشيوخ ، وأبنائهم ، تملك سفن تزيد حمولتها على تسعة أطنان ، وحرمت عليهم العمل فى التجارة ، ولكن العمليات إستمرت ، وبأسماء مستعارة، وعمل سيلا على إستخلاص عملية جمع الضرائب من أيدى الفرسان، ولكنهم حصلوا على عمليات رأسمالية ، وفى مناطق مختلفة . وإستمر الحال كذلك حتي عهد أغسطس الذى تمكن من ضرب الشركات الرأسمالية ضربة شديدة ، وذلك بتأميمه للمناجم، وبحصره عملية جمع الضرائب فى أيدى الدولة. ، فاضطرت رؤوس الأموال إلى البحث عن عمليات فى ميادين أخرى . وأصبحت المستعمرات ملكا للدولة وأخيرا ، فهناك العوامل الإقتصادية . ولقد كانت روما فى حاجة إلى الأراضى والمنتجات علاوة على حاجتها إلى الأرباح، وإحتاجت إليها فى أول نموها للتنفيس عن السكان المتزايدين بسرعة، وفى أرض فقيرة، وأحتاجت اليها كلما طالب العمال فى روما بضرورة إيجاد عمل لهم ، ولإبعاد المهزومين فى الحروب فاستخدمت العاطلين والمهجرين فى تعمير مستعمراتها ، ومع

الزمن زاد إحتياج روما إلى المنتجات وإلى الفاخر منها ، فاحتاجت إلى الإستعمار والإستغلال بعد عمليات الغزو والقمح.

وكانت إيطاليا شرهة إلى درجة كبيرة ، وكانت أراض شاسعة قد تحولت من زراعة الحبوب إلى زراعة الكروم التى تتطلب عملا أبسط ، ومجهوداً أقل ، فاحتجزت روما لنفسها قمح صقلية وإفريقية وغاليا ومنطقة المضايق. وإستوردت روما الجبن من غاليا ، والأسماك المملحة من أسبانيا ، والتمر والتين من آسيا الصغرى وسوريا وقبرص وإفريقية والعسل من اليونان ، والخضروات والفواكه من قرطاجة . أما الأغنياء فكانوا يطلبون الأصداف من بوردو والطاووس من ساموس.

وكانت روما تحتاج كذلك الى المواد الأولية الموجودة فى امبراطوريتها مثل الذهب الموجود فى مقدونيا وتراقيا وجزر بحر إيجه وأسبانيا وغاليا وبريطانيا ودلماسيا ، ومثل الفضة الموجودة فى أسبانيا وسردينيا وغاليا والنحاس الموجود فى قبرص ومقدونيا وأسبانيا ، والرصاص الموحود فى افريقية وكيليكيا وبريطانيا ، علاوة على الحديد والرخام والجرانيت والفخار الموجود فى جميع أنحاء الامبراطورية . وكانت المناجم قد أصبحت ملكاً امبراطورياً ، واستغلتها روما فى إنشاء القصور والمعابد وتجميلها.

وكانت روما تطلب من أقاليمها تزويدها بالمنتجات المحلية ، مثل التيل من غاليا وفينيقية ، والأصواف من اليونان وأسبانيا ، والأقمشة الموشاه من سوريا ومصر. أما اليونان فكانت تزودها بالروائح والصحف الفنية.

وكانت روما قد تعلمت من الشرق الرفاهية والفخامة والإستمتاع ، وإستغلت الإمبراطورية كلها، حتى تتمكن من العيش فى هذا المستوى ، وكانت تبيع أسرى الحرب فى عهد الجمهورية كعبيد ، وبلغت أعدادهم فى سوق ديلوس مايقرب من عشرة آلاف فى اليوم ، وإستغلتهم فى العمل والإنتاج بدلا من العمال العاديين. أما فى عهد الإمبراطورية فكانت تحضر العبيد من غاليا والشرق وإستغلتهم كقوة منتجة ، وأيضا ككتاب وشعراء وموسيقيين فى القصور الكبيرة، وأحاط الأغنياء أنفسهم بهم ، كما يحيطون أنفسهم بالعاج الأفريقى وجلود مابين النهرين وأحضر الأباطرة الأسود من إفريقية ، والتماسيح من أعالى النيل، وأصبحوا يقتنون السجاجيد الموشاة واللألىء والتماثيل النادرة ، بعد أن عاش أجدادهم فى بساطة متناهية . ولايمكننا القول بأن روما كانت تحاول أن تعيش فى هذا العصر ، بل لقد تطورت وأصبحت ترغب فى العيش فى الرفاهية. لقد أصبحت روما تأكل وتشرب وتتسلى وتستهلك ، وأصبحت فى حاجة إلى امبراطوريتها لرفاهيتها وللذاتها ولإستمرارها فى الإفراط فى هذه الرفاهية والملذات.

(٤) الإمبراطورية:

بلغت مساحة الإمبراطورية الرومانية أربعة ملايين كيلو متراً مربعاً، وإمتدت على طول خمسة آلاف كيلو متر ، من شمال اسكتلندا إلى إثيوبيا ، أو من السواحل الأطلسية لموريتانيا حتى القوقاز ، وكانت حدودها هى بحر الشمال والخط الواصل بين الراين والدانوب ثم البحر الأسود والقوقاز ثم فارس والخليج العربى وجزيرة العرب ثم الصحراء الكبرى وبلغ عدد سكانها ثمانين

مليونا منهم سبعة فى إيطاليا و ٣٥ فى أوربا و ٢٢ فى آسيا وستة عشر مليونا فى إفريقية. وكان هذا العدد يمثل أكثر من ربع سكان العالم فى ذلك الوقت . وبلغ عدد سكان مدينة روما مليون نسمة، وكذلك الإسكندرية، وبلغ عدد سكان إنطاكية سبعمائة ألف وسكان قرطاجة نصف مليون.

وكانت هذه الإمبراطورية تشرف على كل سواحل البحر المتوسط وتسيطر على كل جزره والمضايق المؤدية إليه، حتى حق للرومانيين فى ذلك العصر أن يلقبوه بأنه بحرهم MARE Nostrum.

وإنقسمت الامبراطورية فى عصر إزدهارها إلى خمسين إقليما حول روما وإيطاليا ، وكان أقدمها هو إقليم صقلية الذى استولت عليه فى الحرب البونية الأولى ، ثم إقليم كورسيكا وسردينيا ، وبعد ذلك بقية الأقاليم التى غزاها الرومان، سواء فى أوربا أو آسيا أو افريقية . وأهتمت روما بمناطق الحدود الطبيعية ، من محيطات وبحار وأنهار وجبال وصحارى ، على غيرها من الحدود ، ولكنها اضطرت إلى الدفاع عن امبراطوريتها فى منطقة الراين والدانوب بإنشائها لطريق حربى ، ثم دعمته بإقامة التحصينات من جذوع الأشجار، ثم من الأحجار، وبنت القلاع والأبراج على طول هذا الخط . وعملت روما على توطين بعض أهالى غاليا وبريطانيا وراء هذه التحصينات للدفاع عنها وفرضت ضريبة العشور على محصولاتهم الزراعية فى نفس الوقت . واضطرت روما الى انشاء خطوط حدود محصنة كذلك فى بريطانيا. أما بقية الحدود الطبيعية فقد أنشأت روما عليها أبراج المراقبة ، والخنادق فى بعض الجهات ، وحسب طبيعة الأرض ودل هذا على أن غزاة روما قد تحولوا الى

مدافعين عن امبراطوريتهم وأن ناشرى فكرة " الوحدة العالمية" ، وأن كانت تحت ظل روما. قد تحولوا الى محافظين . ووزعت روما فرقها العسكرية على هذه الحدود ولم تترك داخل الإمبراطورية إلا عدداً بسيطاً من الجند ، وذلك نتيجة لخوفها من القبائل الجرمانية، ومن بدو الصحراء ، ومن الأثيوبيين ومن بربر شمال إفريقية، ولم يمنع ذلك روما من إرسال بعض حملات الإستطلاع والإستشكاف إلى ماوراء هذه الحدود ، وخاصة إلى جزر هبريدة ،و إلى الصحراء الكبرى ، ولكن روما لم تحاول مد سلطتها الى هذه المناطق ، وانتظرت مجيء قوافل الأهالى اليها ، محملة بريش النعام وسن الفيل الإفريقى أو حرير الصين.

ولقد تطورت نظم الحكم الرومانى ، أو علاقة الرومانيين بالشعوب الخاضعة لهم، مع مرور الزمن . فنجد أن روما فرضت سلطتها فى أول الأمر على رعاياها ، كأطفال لم يبلغوا بعد سن الرشد . وكانت هذه السلطة مطلقة، ولكنها ضعفت ، وأصبحت كل ايطاليا تحكم الأمبراطورية ، ثم أصبحت أقاليم الامبراطورية متحدة مع بعضها ، وعلى قدم المساواة ، وأصبح كل سكان الإمبراطورية من الرومان. وأصبح أبناء روما يمثلون أقلية فى الامبراطورية التى تحمل إسمهم.

فلقد كانت جمهورية روما فى أول الأمر جمهورية ارستقراطية ، يحكمها الملاك وأبناء الأسر، بمجلس الشيوخ ، ويتحكمون فى "الجماهير " أو " الشعب" الذى كان عليه أن يعمل ويطيع . ونظمت روما نفس الوضع بالنسبة للشعوب المغلوبة التى خضعت لها. وأعتمدت على الأحزاب الارستقراطية ضد

الإتجاهات والقوى الشعبية، وفصلت بين الرومانيين وبقية سكان الامبراطورية. وقصرت الحقوق الرومانية على تلك الفئة المنتسبة الى أحد قبائل روما القديمة، وجعلت أبناءها يتمتعون بهذه الحقوق فى أى منطقة من الإمبراطورية يقيمون فيها. أما بقية سكان الإمبراطورية فكانوا "رعايا" لايتمتعون بحق التصويت ، أو حق إمتلاك الأراضى الرومانية، أو حتى حق الزواج بالرومانيين ، وكانوا يدفعون الضرائب ويعاملون معاملة خاصة فى الجيش ويحصلرن من الأسلاب والغنائم على أنصبة أقل من أنصبة الرومانيين . ولقد دفعت هذه التفرقة أبناء المدن الداخلة فى نطاق الإمبراطورية إلى محاولة الوصول إلى مرتبة الرومانيين ، حتى يتمتعوا بإمتيازاتهم المعنوية والسياسية والإقتصادية، دفعتهم إلى المطالبة بهذه الوضعية ودعتهم إلى الكفاح من أجل الوحدة أو الاتحاد مع أبناء الدولة الغازية . وإضطرت روما إلى إعطاء الحقوق السياسية لكل اللاتينيين ، ثم إضطرت إلى معاملة كل سكان إيطاليا على أنهم من الرومانيين نتيجة لضغطهم عليها، وفى فترة حروبها مع الخارج ، وحاجتها إليهم فى هذه الحروب إنها رغبة المحكومين فى الحصول على إمتياز الحكام والإتحاد معهم ، ولكنها تحمل فى نفس الوقت معنى رغبتهم فى فرض أنفسهم على غيرهم من أبناء المناطق الأخرى والتمتع فيها بالإمتيازات التى منحها الرومان لأنفسهم فى إيطاليا نفسها فى أول الأمر . ونظمت روما العملية ، ودعمت مركزها بقصرها على من له ثلاثة أبناء أو من يبنى سفينة لها حمولة معينة أو من يستورد القمح إلى روما ، فأرتفع عدد المواطنين الذين هم فى سن حمل السلاح من ثلاثمائة ألف بعد الحرب البونية الثانية إلى ثلاثة أضعاف هذا

العدد ، بعد إعطاء الحقوق الرومانية لأبناء إيطاليا ، ثم وصل إلى أربعة ملايين فى عهد قيصر وخمسة ملايين فى عهد أغسطس وستة ملايين فى عهد كلوديوس . ثم إمتدت هذه الحقوق إلى سكان صقلية ثم سردينيا وأسبانيا ثم غاليا وتحول الجميع الى رومانيين فى عهد كراكالا . وأصبح هذا التطور يعنى إلغاء النظرة السابقة التى تفرق بين الغازى والمهزوم ، فالكل سواء ، ومن الجزر البريطانية الى مابين النهرين ، وإن كانت سلطة خاصة قد أخذت فى النمو فوقهم، هى سلطة القياصرة وبعد أن كانت الأرستقراطية تعتمد على مجلس الشيوخ في حكم غيرها ، أصبح الأمر بحكم الشعب.

وانقسمت الأقاليم فى الامبراطورية تبعا لذلك إلى أقاليم خاضعة لمجلس الشيوخ ، مثل صقلية وإفريقية ، وأقاليم امبراطورية مثل غاليا وسوريا التى تحتاج إلى بقاء قوات فيها ، وأقاليم ملكا خاصا للأمير ، مثل مصر التى كانت لها تقاليد ملكية قديمة. وأصبح لكل نوع من هذه الأقاليم خزانة خاصة بها ، تجمع فيها الضرائب . وسمح هذا بإزدياد سلطة القيصر، الذى اعتمد على موارد مصر وامكانياتها المالية، وتضاءل فى نفس الوقت نفوذ مجلس الشيوخ نتيجة لقلة امكانياته . وأفاد القيصر من نشوب الثورات فى الأقاليم، فكان يرسل إليها قواته ثم يعمل على إبقاء هذه القوات فى الأقاليم وتحويل وضعيتها الى ملكيته القيصرية . وقامت خزانته بتقديم المعونة لخزانة الأقاليم الخاضعة لمجلس الشيوخ ثم سيطرت عليها . وفى الوقت الذى كان فيه لمجلس الشيوخ الحق فى اصدار النقود النحاسية ، احتفظ القيصر لنفسه بحق ضرب القطع الذهبية . ووصل الحال بأعضاء مجلس الشيوخ الى اعفائهم

من حضور الجلسات ، مع إحتفاظهم بألقابهم الفخرية . فأصبح الأمر كله فى يد الأمبراطور ، وتركزت فى شخصه كل السلطات من تشريعية وقضائية وإدارية ومالية . ومع إمتداد حدود روما إلى حدود الإمبراطورية أصبح الامبراطور يعيش كما يحلوله فى أى اقليم من أقاليمها ، ونجد أن تراجان الذى ولد فى أسبانيا قد قضى نصف مدة حكمه على الحدود ، ومات فى آسيا ، كما نجد أن هادريان الذى ولد كذلك فى أسبانيا ، قد قضى عشر سنوات فى التفتيش على الأقاليم . وجاء الوقت الذى أصبح فيه أباطرة روما من أبناء الأقاليم ، وأصبحوا يتركون روما ويعيشورن فى مدن أو مناطق ، حتى يمكننا القول بأن الإمبراطورية قد استعمرت بدورها روما.

وتذهب بعض النظريات الى وصف روما بالتحرر لدرجة تنفى عنها وعن اميراطوريتها فكرة الاستعمار . ولكن هذه النظريات خاطئة كل الخطأ ، خاصة وأن روما قد إحتفظت للأرستقراطيين بالحقوق والامتيازات وعلى حساب غيرهم ، ولم تمد هذه الحقوق والامتيازات الى كل اللاتينين (سكان إقليم لاتيوم) إلا نتيجة للضغط وأمام امكانية سيطرة الجميع على مناطق جديدة ، وشعوب أخرى . واستمر الحال على هذا المنوال حتى امتد إلى كل الإمبراطورية . وحتى فى المرحلة نجد أن نمو سلطة القيصر وامتدا نفوذه قد ساعد على ايجاد "طبقة" من الموظفين الخاضعين له فى الأقاليم. وكانت لهذه الطبقة سلطاتها وامتيازاتها التى تفصل بينها وبين "المواطنين" وبشكل واضح . وأما عن تحرر روما وعدم فرضها لغتها على الأهالى فإنها كانت تعلم أن لغتها ستنتشر مع الزمن ، ومع رجال الفرق العسكرية ، ومع عملية توطين قدماء

المحاربين فى كل مكان . والواقع أن روما والإمبراطورية الرومانية كانت تحاول الأحتفاظ بسلطاتها وامتيازاتها حتى الوقت الذى تضطر فيه الظروف الى التسليم بمطالب وبإتجاهات الأغلبية ، وكانت هذه "المرونة" هى التى تسمح لها بالتشكل بشكل جديد . حسب الظروف الجديدة، ويظهر هذا واضحا حتى فى الأضطهاد الذى ذاقه المسيحيون الأوائل والذين اعتبرتهم روما فى أول الأمر من "الخوارج" الذين يرفضون عبادة الإمبراطور ويفضلون عليها عبادة الخالق ومن المخربين الذين يسوون بين العبد والحر ، ومن "الثوار الذين يكافحون ضد الإستعمار. ولكن مرونة روما هى التى جعلتها تتخذ المسيحية دينا رسميا لها فيما بعد ، وسمحت بذلك لنفسها بفترة أخرى من الحياة . وأن "نظام" المسيحية نفسه قد تطور وتأثر بإنشاء الكنيسة وبعلاقاتها بالقيصر، وعلاقاتها وسلطاتها ونفوذها على الأهالى.

(٥)الاحتضار:

ولقد تأثرت روما نفسها بالتطور الناتج عن اتساع الامبراطورية وعن تفاعل العناصر والعوامل مع بعضها فى داخلها . فأدى إتساع أقاليمها ، وهى منتجة للقمح ، إلى إنخفاض أسعاره فى روما نفسها ، وتحول الأراضى الرومانية إلى زراعة الكروم والزيتون وتربية المواشى والبهائم وكان هذا التحول يحتاج إلى رؤوس أموال ، فاختفت الملكيات الصغيرة أمام الملكيات الكبيرة، وحدثت هجرة من الريف إلى المدن وتحول عدد كبير من أبناء الريف إلى "طبقة عمال" وإحتاجت إيطاليا إلى منتجات إمبراطوريتها ، وعاشت عليها ، وجاءت هذه المنتجات لكى تنافس منتجات إيطاليا نفسها ، ومن حيث النوع

والسعر مثل الأنبذة والزيوت والفواكه وكان بعض المنتجات مصنوعة ، مثل الأقمشة والتحف ، وتفوقت على مصنوعات إيطاليا ، وفى الوقت الذى قلت فيه رغبة الرومانيين فى الإنتاج ، وأخذوا فى معيشة الترف ، وإحتاجوا للكماليات.

وكانت الحروب الرومانية من المساوىء الواضحة لهذه الأمبراطورية مع ما إشتملت عليه من قسوة وتخريب ، وسبى وسلب ونهب ، وما تبعتها من غرامات حربية ، ثم جزية وضرائب : وجاءت بعد ذلك مساوىء حكام الأقاليم وجمعهم تحف الاقليم وكل ماخف حمله وإرتفع ثمنه ، ونقلهم إياه إلى روما ، كما حدث فى صقلية ، فى عهد الجمهورية وكانت روما هى التى تقرر قيمة الضرائب ، وكانت غاليا مرتفعة وثقيلة على كاهل الأهالى فى الأقاليم ، كما كان الحال مع مصر ، ولقد أمرت روما بتقليع الكروم فى غاليا حتى لاتنافس أنبذتها ، وحولت كل سكان بيتين إلى العبودية ، نتيجة لعدم دفعهم ديونهم للإمبراطورية ، وضغطت على مرسيليا مستندة إلى أنها فضلت بومبى على قيصر . وكانت الامبراطورية هى التى تستغل المناجم والمعادن فى كل الأقاليم ، وبطريقة إستغلالية واحتكارية . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك العلاقة السياسية بين الرومان وأبناء الأقاليم ، وسيطرتهم عليهم ، حتى أن العرب والبربر والجرمان والأيدلنديين قد قاوموا الحكم الرومانى ، ورفضوا فكرة التحول إلى رومانيين ، كما أن أسبانيا قد كافحت لمدة قرنين ، وبحرب عصابات شبه مستمرة ، قبل أن تستقر الأحوال بها . ولكن أمامنا مثل غاليا التى إنصهرت فى البوتقة الرومانية كما أن ثروة الأقاليم كانت تساعدها على

الإستمرار فى التصدير لروما . وفى صالح ميزانها التجارى ، معوضة بذلك الغرامات الحربية والضرائب التى تدفعها . وأخيراً فإن روما لم تكتنز الثروات، بل قامت بإنفاق دخلها على إنشاء الامبراطورية ، بطرقها ومدنها وقناطرها ومعابدها ، مما يسمح بالقول بأن جزءاً كبيراً من ضرائب الأقاليم قد عادت اليها فى شكل مشروعات للإنشاء والتعمير.

ولقد قامت الامبراطورية الرومانية بإستصلاح الأراضى واستغلالها ، وساعدت على استغلال المعادن وإنتظار المصنوعات ، وساعدت كذلك على إزدياد التبادل التجارى بين الأقاليم وبعضها ، وبينها وبين المناطق الواقعة خارج الامبراطورية . وإمتد العمران إلى مناطق نائية ، ولاتزال مواقع الحفائر الرمانية تشهد بذلك، كما تشهد بوجود حضارة متقدمة فى هذه المدن المزودة بالمياه والمجارى والتدفئة الصناعية والحمامات والمسارح، ولقد أعطت روما لأبنائها الأمن والنظام والقانون ، وإن كانت قد أخذت عن الشرق ، فإنها قد أعطت للغرب ، وتمكنت من صبغ جزء كبير منه بالصبغة الرومانية.

وأخذ الضعف يدب فى جسد هذه الإمبراطورية ، بعد أن بدأ من الرأس. وكانت القيصرية قد نشأت دون التعرض لنظام الجمهورية أو التفكير فى إلغائها ، ودون أن تكون هذه القيصرية وراثية ، فتدخلت القوات لحل هذه المشكلة وساعد ذلك على التنافس بين القواد وحاولت روما توزيع السلطة بين قيصرين ، كل على اقليم ، وأدى ذلك إلى زيادة عدد القياصرة ، وانقسام الامبراطورية . وجاءت البيروقراطية ، كمرض جديد يفتك فى جسد الدولة ، وتحولت السلطة الى توجيه ، وتعددت الإدارات ، ومجالس الدراسة، واللجان

التنفيذية ، وأخذ الموظفون فى مراقبة بعضهم البعض ، مابين سلطات مدنية ، وسلطات عسكرية ، وشرطة وجواسيس . وتدخلت الدولة فى النقابات وجعلتها وراثية ، كما تدخلت فى الأسعار وشلت العمليات الإقتصادية . وإذا كان عدد العبيد قد قل فى الإمبراطورية ، فإن التحكم الإدارى قد هدد بتحويل المواطنين جميعاً الى عبيد له. وبعد إنهيار الإرستقراطية الأولى فى عهد الجمهورية ، ظهرت ارستقراطية جديدة حربية ، كانت توصل الأباطرة الى الحكم . ولم تخضع القوات لحكام الأقاليم بل للقواد ، وأخذ التجنيد شكلا إقليميا . ولم تعد الفرق مدرسة تنصهر فيها العناصر غير الرومانية مع أبناء روما، بل أصبحت مدرسة تسمح بنشوء قوميات أخرى ، ومحلية ، فى داخلها . ومهدت الرفاهية وكثرة الأموال مع الفراغ السبيل أما الكسل وعيشة اللهو والفساد.

وظهرت نزعة معادية للإستعمار عند " المثقفين" فى روما، فحكموا على قسوة الرومان وجشعهم ، ونادى غيرهم بالسلام وضرورة " نزع السلاح" وفضحوا نزعات القياصرة الاستبدادية وتصرفاتهم الشخصية ، وندموا على توسع روما فيما وراء صقلية وافريقية ، أو حتى فيها ، وهاجموا الاستعمار الرومانى فى مجموعه، متسائلين عما إذا كانت الشعوب التى خضعت لروما قد عرفت يوما ماترتكبه روما نفسها ، وفى مدينتها ، من جرائم. وجاء انتصار المسيحية لكى يقضى على الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن تركت روما عباداتها السابقة واعترفت بأخطائها ، وكانت فكرة المسيحية تزيد فى "عالميتها" على الفكرة الرومانية ، كما كانت تحمل معنى القضاء على

الاستثمار وعلى التفرقة العنصرية، مادام الكل سواء . وحكمت روما بإعتناقها المسيحية ، على مجدها الإمبراطورى الذى دام عشرة قرون. ورغم ذلك فقد بقيت الإمبراطورية الرومانية ، مستندة إلى مجدها السالف ولكن الثورات زادت فى الأقاليم ، نتيجة لتحكم الحكام وإستغلالهم لنفوذهم وسلطاتهم . أو نتيجة لظهور المسيحية وإضطهاد معتنقيها . ثم جاءت غزوات قبائل البرابرة وضغطهم على حدود الدولة ثم توغلهم فيها . وإضطرت الامبراطورية إلى إقطاعهم بعض الأراضى ، للإقامة فيها وإستغلالها. ولكن ضغط هذه القبائل تزايد على الدولة ، التى لم تكن لها القوة اللازمة لوقفه، وطالت مدة إحتضار الإمبراطورية ، وهى تتفكك إقليما بعد إقليم . وإنتهت روما ، ولكن فكرة "الامبراطورية الرومانية" ظلت قائمة فى بيزنطة وعند القوط ، وفى بريطانيا ، وظهرت فيما بعد مع شرلمان.

وكانت الإمبراطورية الرومانية أطول الامبراطوريات الاستعمارية عمراً، وإذا كانت اليونان قد أتخذت "الحرية" شعاراً لحركتها ، فإن روما قد علمت غيرها معنى "الوحدة" وإحتفظت لها كثير من مستعمراتها وأقاليمها السابقة بذكرى مجدها.

الباب الثانى

الإستعمار فى العصور الوسطى

الفصل الخامس
البرابرة

يسهل المتحدث في تاريخ الإستعمار أن يتجاهل خمسة قرون أو أكثر؛ بعد سقوط روما، قبل أن يواصل شرح عمليات الإستعمار، ويمكنه أن يستند في ذلك إلي التقهقر المادي والمعنوي الذي أصاب العالم في ذلك الوقت. ولكنه يصعب علي الباحث المدقق أن يتجاهل تماماً دور هذه الشعوب الجديدة، التي تحولت من التنقل إلي التوطن، والتي غيرت شكل تاريخ العالم بما أنشأته من إمبراطوريات. حقيقة أن عملية تنقلهم كانت تشبه الهجرة أو الغزو أكثر من شبهها بعملية الاستعمار. وكان بعض هؤلاء الغزاة يهدمون أكثر مما يبنون، ولكن بعض عناصرهم إرتبطت بالأرض، وتوطنت، وأخذت في العمل في الفلاحة، فتحولت بذلك إلي مجموعات من المتوطنين أو المستعمرين. كما أن بعض امبراطورياتهم عاشت لفترة طويلة، وأدت خدمات جليلة للمدينة. وقد تظهر عمليات البرابرة، بعد الإمبراطورية الرومانية، وكأنها مشوهة، ولكن روما نفسها بدأت تاريخها بعض عناصر البرابرة. وإذا كان من الضروري أن يشعر المستعمر بتفوق علي الأهالي الذين يقوم باستعمارهم، فلقد كانت قبائل الهرن والمجر من الفرسان، وإستخدام العرب الجياد المطهمة، وقام النورمنديون بغارات بحرية علي السواحل، ثم استمروا في تنقلهم بعد ذلك علي ظهور الخيل. وهذا التفوق في ركوب الخيل يعود بنا ألفي سنة إلي الوراء، أي إلي الفترة التي ظهرت فيها العناص الهندو أوربية وكان الحصان قد أعطي للانسان أول وسيلة للاستعمار ولكن التوطن حول الفرسان إلي مشاه، كما هو الحال في عصور اليونان والرومان ومع غزوات البرابراة زادت أهمية الخيل، وظلت هذه الأهمية موجودة حتي عصر المعارك المنظمة في

العصور الحديثة، مما يسمح لنا بالقول وبدون خطأ كبير، بأن الشعوب المتنقلة تستخدم الخيل في إستعمارها، أما العناصر المتوطنة فتستعمر كمشاه.

ولقد انتقلت عناصر البرابرة ومثلها في ذلك مثل الهجرات الهندو أوروبية، من الشرق إلي الغرب، متتبعة في ذلك حركة قرص الشمس اليومية. وجاء بعضها من وسط أوربا والبعض الآخر من وسط آسيا. وكانت قبائلهم لا تزيد علي مائة ألف، بما فيها من نساء وأطفال وشيوخ، بشكل لا يسمح بوجود أكثر من بضعة عشرات آلاف من المقاتلين فيها. ولكنهم كانوا يأتون علي دفعات وفي شكل موجات، مما يحول الغزوات الصغيرة إلي غزوات ديموجرافية وإنتصرت جماعات صغيرة من البرابرة علي إمبراطوريات كبيرة، ورجع ذلك إلي ضعف هذه الإمبراطوريات مادياً ومعنوياً. فلقد كانوا من الفرسان والبحارة في وقت قلت فيه الخيول والسفن في الإمبراطورية الرومانية، وعملت المسيحية علي تغيير مثلها ومعنوياتها. ونشأ عن هذه الغزوات شعور بالفوضي وعدم الاستقرار، وضعفت النظم الإدارية، وكذلك النشاط التجاري في المدن التي كانت مهددة بالهجوم أو السلب والنهب والحرائق، فقل الإنتاج وإعتمد علي الزراعة، وتحول الإستعمار من عمليات مركزة في المدن في عصور اليونان والرومان، إلي عمليات مرتبطة بالأرض، كما كان في أول الأمر.

١- الجرمان:

لقد بدأت العمليات الخاصة بغزوات البرابرة بزحف قبائل الهون عبر أقاليم الإستبس، وزحزحتها لقبائل الآلان والسويف والقوط الغربيين والشرقيين.

ودفعت قبائل الآلان والسويف أمامها الوندال، وقبل أن تستقر في شرق شبه جزيرة ايبيريا. وجنوبها، زحزحت قبائل الساكسون والإنجليز والفرنجة واليورجنديين. فهاجرت قبائل الساكسون والانجليز إلي بريطانيا مزحزحة أمامها البريتون، أما البورجنديون فقد تركوا وادي الراين إلي سافوا، ودخلت قبائل الفونجة في شمال غاليا. وبدأت قبائل القوط الغربية مغامراتها في تسكانيا، أما قبائل القوط الشرقية فقد انتقلت ونتيجة للضغط الواقع عليها، من البلقان إلي إقليم البندقية وميلان، ثم سارت في شبه الجزيرة الإيطالية ونهبت روما ثم عبرت جبال الألب وسارت في أكويتانيا، ودفعت أمامها الوندال الذين استقروا في أسبانيا. وأنفتح الطريق أمام الوندال في إفريقية. فوصلوا إلي قرطاجة، وتشعبوا منها في صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار.

لقد إستمرت هذه العملية من بداية زحف قبائل الهون، لمدة قرن واحد، وعندما إنتهت في أواسط القرن الخامس كانت القبائل الجرمانية قد احتلت كل أوربا، ولم تبق منها إلا أجزاء صغيرة في أيدي الصقلب وأيدي الهون، وفي بيزنطة التي حاولت الاحتفاظ بما تبقي من الامبراطورية الرومانية. وتنالوت الموجات علي الأراضي الرومانية، كما تعاقبت بعض الأجيال، وكأنها كانت تمهد لإعطاء صبغة جرمانية للرومان، أو صبغة رومانية للجرمان. ولقد احتفظ هؤلاء الغزاة استقلالهم وبرؤسائهم وقوانينهم، وحصلوا علي الأراضي الزراعية لفلاحتها. أو للعمل فيها، كلما وجدت أراضي خالية من السكان: ولكن الضرورة حتمت اقتسام الأرض بينهم وبين الأهالي الموجودين عليها، في حالة عدم وجود أرض خالية. وكانت العادة هي إحتفاظ أبناء الاقليم بثلثي أرضهم وإعطاء الثلث للوافدين عليهم. وكانت هذه العملية تستمر بعد مجئ موجات

جديدة من الوافدين، وإن كانت النسبة قد اختلفت من إقليم إلي آخر فنجد أن الفرنجة قد اكتفوا بمصادرة الاملاك الامبراطورية في غاليا، وذلك بسبب قلة عددهم، أما في إيطاليا فان اللومبارديين قد صادروا الأملاك الامبراطورية وأملاك الكنيسة علاوة علي ثلث غلة الأراضي الزراعية التي كان علي الرومانيين أن يقدموها لهم، أما البورجنديون فقد طالبوا بنصف الأراضي الزراعية الموجودة في أيدي الأهالي، وطالب القوط في غاليا وإسبانيا بثلثي الأراضي الزراعية، وقام الوندال في إفريقية بالإحتفاظ بملكية كل الأراضي الزراعية، ولم يتركوا للاهالي إلا حرية الاختيار بين الهجرة أو البقاء في خدمة الغزاة.

ولقد تمكنت هذه الحفنة من الرجال، والذين لم يصل عددهم إلي أكثر من نصف مليون، وتجاه شعوب الإمبراطورية الرومانية، التي بلغت ثمانين مليونا، من السيطرة ومن فرض نفسها، وتكوين ممالك أعطوها أسماءهم: فأصبحت بلاد الفرنجة تسمي فرنسا، وبلاد الساكسون تسمي إسكس وويسكس وسسكس، ونشأ اسم انجلترا من كلمة الانجليز، وكتالاينا من كلمتي القوط والآلان، والاندلس من كلمة فاندالوسيا، أي بلاد الواندال، كما أعطي اللومبارديون إسمهم للمنطقة وكذلك البورجنديون، ورغم ذلك فأننا نجد أن قسما كبيراً من الجرمان قد اصطبغوا بصبغة رومانية، في الوقت الذي لم يتأثر فيه أبناء الامبراطورية الرومانية السابقة بالصبغة الجرمانية لحد بعيد، وبدأ البرابرة في استخدام ألفاظ لاتينية كثيرة في لغاتهم، وكتبوا وثائقهم باللغة اللاتينية ثم اعتنقوا المسيحية.

ولقد ترك البرابرة الأهالي يعيشون في المناطق التي دخلوا إليها حسب عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم، وبقيت الأنظمة الرومانية المتعلقة بالزراعة

موجودة، رغم اندثار الأنظمة الرومانية الخاصة بالمدن. وظلت «الفيلا» هي الوحدة الأساسية في الإقتصاد، كخلية شبة مستقلة تعيش علي مواردها، وتشتمل علي الحدادين والغزالين والنجارين، واحتفظت لنفسها بالمباني والغابات والمراعي وبعض الأراضي الزراعية، ووزعت الباقي علي الفلاحين وهم المعمرين. وكان هذا النظام وسطا بين «الحرية» و«العبودية». لأن الفلاح كان رجلا حراً، ولكنه كان يعتبر جزء من المزرعة في نفس الوقت. وكانت روما قد ربطت في نظمها وضرائبها بين الرجال والأرض حتي يسهل عليها القيام بعمليات الاحصاء وحتي تمنع الهجرة من الريف إلي المدن، وبالتالي خراب المزارع. وفي ظل هذه النظم تحول البرابرة إلي معمرين وتحول غيرهم إلي سادة وعلينا ألا نأخذ هذا النظام علي أنه نظام استعماري، ولكنه يعتبر مثلا من أمثلة تحول المجتمع وتطوره، من العصر الروماني إلي عصر الإقطاع، بما يحمله ذلك من عودة نشوء الطبقات ونمو امتيازات السادة، وزيادة استغلالها للقوي العاملة معها ولها.

وبدأ اندماج المحتلين مع الخاضعين، مع رغبة البرابرة في التمدن، وساعد ذلك علي تركيز الأوضاع في هذه المناطق، فنجد أن الفرنجة قد يتمكنوا من الوصول إلي نوع من الوحدة في غاليا، كما أن القوط قد اندمجوا مع مجموع الاسبانيين عن طريق التزواج والخضوع للقوانين الرومانية، وأخذ اللومبارديون يرتدون الملابس الرومانية. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الوندال الذين استمروا في فرض أنفسهم كغزاة، وعذبوا الكاثوليك، وعزلوا أنفسهم عن البربر والرومانيين في افريقية، وأجبروهم علي كراهيتهم.

كان هذا هو الإستعمار الجرماني الذي امتاز بالمؤتمرات في القصور وبقتل الأقارب وبالحروب الداخلية، فقل الاستقرار السياسي، وتقهقر الاقتصاد،

واندثرت الفنون، كما تقهقر العالم من المعابد الفخمة إلي داحل الأكواخ، واختفت النقود وشحت، وعادت المقايضة إلي الظهور.

٢- مشروعات لامبراطوريات:

ومع تحدثنا عن البرابرة وإستمرار تنقلهم من مكان لآخر، علينا ألا ننسي تلك الإمبراطوريات التي تمكنت من البقاء لفترة طويلة، مثل الإمبراطورية، البيزنطية، أو التي نشأت لفترة مؤقتة، وإرتبطت بشخص منشئها، مثل شرلمان وأوتو، أو بأسرة كبيرة مثل الساسانيين. وكانت هذه محاولات بسيطة للاحتفاظ بالنظام وسط جو من الفوضي، وبالعمار والاستعمار في مناطق لم تمتد اليها البربرية.

أما بيزنطة فقد ورثت روما واعتبرت نفسها حارسة المبادئ الامبراطورية، والمحافظة علي اللغة اللاتينية، لغتها الرسمية، وعلي العملة الذهبية، والقانون الروماني، الذي كتبته وشرحته وطورت فيه، وحاملة لواء المسيحية، ولكن بشرط إعتبار الامبراطور مختاراً من الله وقامت بيزنطة بدورها ومدت في عمر الامبراطورية وأعادت تكوينها ولو بشكل جزئي وتمكن جستنيان من أن يضيف إلي البلقان ومقاطعات آسيا ومصر، وإيطاليا بعد إعادة غزوها، ثم صقلية وسردينيا وكورسيكا ودلماشيا وسواحل افريقية وجنوب أسبانيا. أما هرقل فقد حارب الفرس. ولكن هذه الإنتصارات كانت مؤقتة. وإنحصرت الامبراطورية بعد ذلك في القسطنطينية، واستعدت للدفاع عن نفسها بدلا من أن تقوم بالهجوم. وكان في وسعها أن تحافظ علي «الفكرة» الامبراطورية، لا علي الإمبراطورية نفسها.

وورثت بيزنطة كذلك الشرق، بكل ما فيه من عادات وتقاليد وعظمة وإحتفالات وسلطة بيروقراطية مطلقة، علاوة علي الثقافة الهلينية.

وسارت بيزنطة في نظام إستعمارها علي أساس المقاطعات الخاضعة لتسلسل إداري ثابت. وكانت توجه الاقتصاد، وتشرف علي الاسعار، وتسيطر علي الصناعة والحرف، وتنقل الأهالي من إقليم لآخر. وكان من حظها أنها تمكنت من الاحتفاظ لفترة طويلة باحتكار التجارة العالمية مع فارس والشرق، وكانت تصدر لهم الدقيق وتستورد التوابل والسكر والحرير والقطن واللؤلؤ والاحجار الكريمة، حتي أصبحت أكبر مركز للتجارة، وأضمحلت أمامها أهمية كل من الأسكندرية وانطاكية. وعرفت بيزنطة دود القز، وأخذت في تربيته، وزادت الثروات فيها نتيجة لإحتكارها للتجارة العالمية، وسمح لها ذلك بدفع الجزية، أو التخلص من تهديد البرابرة المحيطين بها.

ولقد حاولت دولة أخري في الغرب، أن تحمل مشعل روما وشعارها، ورغم أنها كانت نفسها ضعيفة. وكانت هذه هي مملكة الفرنجة التي حاولت إنشاء امبراطورية، في عهد شارل العظيم، أو شارلمان. وكان هذا الملك قد تمكن من توسيع رقعة الأقاليم الخاضعة له، وانتهز فرصة مساعدته للبابا وضم مملكة للومبارديين في إيطاليا، وسارت قواته حتي برشلونه، وغزت جيوشه ما وراء الراين ووصلت إلي الألب، وإعتبر أن العناصر السلافية خاضعة له، ولم يكن في وسع البابا أن يرفض أي طلب له، فتوجه، وأصبح شارلمان امبراطور الرومانيين. وتمكن من الاستيلاء علي البندقية، وأجبر بيزنطة علي الاعتراف بلقبه، رغم أنه لم يكن له من الوسائل التي تسمح له بالإبقاء علي هذه «الامبراطورية». ولقد كان شخص الامبراطور هو العامل الوحيد الذي بنيت حوله الامبراطورية. وكان شارلمان يحكم من عاصمته آخن، أو أكس لاشابيل،

كحاكم مطلق مستنع، فكان يرسل مفتشين عموميين للاقاليم لجمع الشكاوي والإشراف علي الأمن والنظام، رغم أن الإدارة نفسها كانت بدائية، وغير كافية، وتشتمل علي كثير من المتناقضات، خاصة وأن أحداً لم يكن يعرف الممثل الحقيقي للسلطة، وهل هو الموظف العلماني، أو الموظف المسيحي، النبيل المسئول عن إدارة الإقليم، أو الاسقف الذي يصدر المراسيم ويشرف علي تنفيذها وكان كل شئ يبدأ من الامبراطور، وكل شئ يعود إليه. ولكن البناء الإمبراطوري كان ينقصه كثيراً من التوازن. فلقد كانت كل من اكوتيانيا ولومبارديا مملكة تحت حكم أحد أبنائه، وكانت أقاليم أخري تخضع لدوق أو لكونت أو لرؤساء عسكريين، في الوقت الذي ظلت فيه روما ودولة القديس بطرس في أيدي البابا، ودون أن تعرف إلي أي حد قد أصبح البابا خاضعا للامبراطور، أو موضوعا تحت حمايته. وكان كل اقليم يعيش في واقع الأمر بنفسه ولنفسه، ودون أن يرتبط بغيره، وله أوضاع إقتصادية خاصة به وكان نظام ولاية العرش عند الفرنجة عقبة في سبيل استمرار الامبراطورية ووحدتها، خاصة وأنهم كانوا يقسمون الملك بين أبناء الملك بعد وفاته، ولم يكن في وسع شارلمان أن يغير من هذا التقليد. وبعد وفاة إبني شارلمان ورث ابنه الثالث التاج الامبراطوري وحالو لوي الناسك أن يؤكد أن الامبراطورية واحدة، ولا تنقسم، ولن تنقسم. وكان يحلم بإمبراطورية متحدة، لها دين واحد وتخضع لسلطة واحدة. ولكن هذا الحلم كان قصير المدي، إذ سرعان ماثار عليه أبناؤه، واستندوا في ذلك إلي تقاليد الفرنجة، وإلي مصالحهم، وطالبوا بنصيبهم من الميراث، وعزلوه مرتين حتي تخلي عن أحلامه. وساد الانقسام عند موته، وتفككت الامبراطورية وظهرت دول أخري فوق أنقاضها.

ولقـد بقي لقب الامبـراطور الرومـاني، مـا دام كل ملك كـارلوني أو لومبـاردي كان يطمع فيـه. وعمل أوتو دوق ساكس بعد تتويجة ملكا علي جرمانيا علي الحصول عليه، فضم الاقاليم، وعين أقاربه دوقات، وعين معارفه في مناصب الأسـاقفة، ثم تدخل في فرنسا، وسـار إلي إيطاليا، وتوج نفسه ملكا، ثم دخل روما فرسمه البابا امبراطورا. فعادت الامبراطورية الرومانية من جديد، ولكن بالإسم فقط، وأصبحت تعرف بالامبراطورية المقدسة، ثم بالامبراطورية المقدسة الرومانية الجرمانية، وإن كانت لا تستحق إلا صفتها الجرمانية فقط، ولكنها كانت تحاول أن تكون مقدسة ورومانية، وذلك باستنادها إلي الاساقفة في ألمانيا. وبإستنادها إلي البابا خارج ألمانيا. وكان في وسع الإمبراطور أن يستريح إلي الأساقفة ما دامت مناصبهم غير وراثية، وكان من الممكن الحصول علي أساقفة مرتين إذا ما أحسن إختيارهم، ولذلك فإن الامبراطور كان يرغب في الحصول علي سلطة اختيارهم وتعيينهم. وكان هذا يدفعه إلي محاولة السيطرة علي روما، ويدفع خلفاءه إلي محاولة التدخل في الفاتيكان.فنشأت الخلافات بين الأباطرة والباباوات.

وكان من الممكن تجاهل هذه التطورات التاريخية للامبراطورية المقدسة عند التحدث عن الإستعمار، إلا أنها كانت تحمل معها قصة دفع البولنديين إلي ما وراء نهر الأودر، وكانت هذه الامبراطورية هي التي فرضت سيادتها علي بوهيميا، وضمت مملكة بورجنديا، وكلها عمليات استعمارية. ووصل الحال إلي «إدماج» شبه جزيرة إيطاليا كما كان قيصر بفعل تماما مع أي اقليم يستعمره. وتحدث المؤرخون عن الاخاء والمساواة في عهد فردريك وبرباروسا، ولكن الأخاء الجرماني كان مفروضا بالخوف والأرهاب وظل اللقلب الامبراطوري بالانتخاب نتيجة لاصرار كل من البابا وفرنسا علي هذا النظام،

فتحول هذه اللقب من إسرة إلي أخري، وبشكل ساعد علي بقاء الفرضي، بصفة شبه مستمرة، في ألمانيا، وكانت الامبراطورية خيالية أكثر منها فعلية في معظم الأوقات، وكانت لا تحتفظ من الامبراطورية إلا باسم، وغالبا ما كانت في صراع مع الكرسي البابوي كما كانت إقطاعية أكثر منها امبراطورية، وجرمانية أكثر منها رومانية وهكذا استمرت روما في الغرب وفي الشرق، ولكن في هيئة «كاريكاتير»، وتمكن جستنيان وشارلمان وبرباروسا من غزو الأقاليم، ولكنهم فشلوا في إعادة روما إلي الحياة، بعد أن فشلوا في معرفة سر الوحدة وسر التنظيم المستمر.

وإذا إتجهنا صوب الشرق لوجدنا أن أحد أحفاد ساسان قد تمكن من الاستيلاء علي كل فارس وتمكن من تأسيس الدولة الساسانية التي أنشأت إمبراطورية ضخمة امتدت من القوقاز إلي بلاد العرب ومن الفرات حتي السند. واعتبر ملك الملوك نفسه خليفة دارا وعاش في قصور فخمة تحيط بها الحدائق التي تجمع داخلها النعام والغزلان والأسود والطاووس. وكانت الامبراطورية تنقسم إلي أربعة أقاليم، علي رأس كل منها نائب للملك، وينقسم كل إقليم بدوره إلي مقاطعات، وعلي رأس كل منها حاكم، كما كان لكل قرية رئيس، ومن النبلاء. وكانت الدولة الساسانية تتحكم وتوجه وتعتمد علي الجاسوسية، وتحكم عن طريق بيروقراطية، تسمي الدواوين[1] وكانت تراقب الزقاليم عن طريق إدارة للبريد خاصة بمراسلات الدولة، علي ظهور الخيل أو الجمال أو علي الاقدام، وتستخدم طرقا متزودة بأماكن للنزول وللراحة لتوصيل الخطابات والموظفين والتقارير. وكانت الضرائب مرتفعة، أولها علي الرؤوس. والثانية علي المقارات، وتصل إلي ثلث المحصول أو نصفه.

(١) أصل الكلمة تعني حجرة تحيط بها الوسائد.

وكان علي الفلاح أن يترك الثمار علي الأشجار والغلة في السنابل في الحقول إلي أن يمر جامعوا الضرائب، حتي ولو تعرضت للتلف. ولم يكن من حق أي فرد أن يناقش نسبة الضرائب التي يفرضها الملك. وكان الشعب ينقسم إلي طبقات أربع: رجال الدين من المجوس، والمحاربين، وموظفي المكاتب، والباقين من الفلاحين والتجار وأصحاب الحرف واستخدام الساسانيون عادة نقل القبائل أو الاسري من إقليم، وتوطينهم في اقليم آخر، وهو من نظم الاستعمار المعروفة.

وكانت فارس دولة غنية بما تنتجه من أنسجة موشاة ومن سجاجيد، كما كانت التجارة بين الصين وبيزنطة تمر عبر بلادها. ولكنها كانت ضعيفة في نفس الوقت، خاصة وأن الملك كان إنتخابياً في آل سلسان. فانتشرت المؤامرات والقتل والاغتيال حول العرش وعاشت امبراطورية فارس أربعة قرون ونصف قرن بعظمتها وثروتها وكنوزها، ولكنها بلغت مرحلة واضحة من الضعف والهزل، وقت الغزوات العربية، ولم تصمد في الميدان.

٣- الغزو العربي والحضارة الاسلامية:

إذا نظرنا إلي حالة الامبراطوريات في العالم في أواسط القرن السابع الميلادي لوجدنا امبراطورية الصين قوية، ويمكنها أن تقاوم الغزو الخارجي، أما الهند وفارس فكانت امبراطوريات قد وصلت إلي مرحلة من النضوج تسمح بجنيها، وأما بيزنطة فلم تكن إلا ستاراً يخفي وراءه الضعف، وأما ممالك غرب أوربا فكانت تمتاز بحيوية. فكان في وسع العرب أن ينتشروا في كل إتجاه، دون أن يجدوا مقاومة فعالة، إلا في الشرق الأقصي، حيث كان في وسع امبراطورية الصين وقف هجومهم، وفي أقصي الغرب حيث تمكن الفرنجة بالعمل من وقف هذا الإنتشار والتوسع.

ويدخل تاريخ الاستعمار عمليات الغزو العربية في نطاقه، ويستند في ذلك إلي الأحوال الإقتصادية والاجتماعية التي سادت شبه جزيرة العرب في أواسط القرن السابع الميلادي، وتسلح العرب بأسلحة مادية ومعنوية جديدة، وخروجهم من بلادهم الفقيرة نسبياً، صوب الفرس، وبيزنطة وللغرب، أي صوب أقاليم غنية ومزدهرة. وهذه النظرة السطحية تشوه التاريخ، وتدل علي ضحالة في فهمه وفهم الأوضاع الاقتصادية والإجتماعية السائدة في العالم في ذلك الوقت. ويمكننا أن نقول أن انتشار العروبة والإسلام كان عبارة عن هدم للاستعمار القائم في العالم في ذلك الوقت، والمجئ بمبادئ اجتماعية وإقتصادية جديدة، ونشرها بشكل ثوري في الأقاليم المحيطة بالعالم العربي، وإن كان احتكاك العرب بأهالي هذه المنطقة ونظمهم قد أثر في العرب، وعمل علي تثبيت وتركيز حركتهم، ثم تطورها مع الزمن، ونتيجة لعوامل داخلية وخارجية خاصة بهذه الأقاليم، مما يصل بنا وبهم إلي المرحلة التي تهم تاريخ الاستعمار، وتهم دراسي نمو ونشوء الطبقات الإجتماعية.

وكانت أحوال بلاد العرب قبل الاسلام معروفة بالفوضي والانقسام وحب الثأر، وكان المجتمع فقيراً نسبياً، رغم اشتغال العرب بنقل التجارة إلي اليمن في الجنوب. وإلي الشام في الشمال، مسهمين بذلك في تسهيل التجارة العالمية، ومستفيدين منها. وكان أبناء القبائل يعتزون بسحبهم ونسبهم علي غيرهم، ويرفعون أنفسهم بذلك عن مستوي الآخرين، كما كان التجار يمتازون بالجشع وبأخذ الربا وبالتحكم في السلع وبالتالي في المستهلكين: فجاء الاسلام معلنا مبادئ جديدة، تتلخص في المساواة والديمقراطية، والعدالة الإجتماعية والاشتراكية، والوحدة بل والعالمية. ونظم العلاقة بين الفرد والفرد والسيد والعبد، والمرأة والزوج، فكون من العرب قوة هائلة، وكلفهم بنشر هذه

المبادئ في كل مكان، وبهدم القيصرية والطبقية، والقضاء علي الفردية والتحكم، والاستغلال والتعنت والأصنام وعبادة الشخصية. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وليس لعربي علي عجمي فضل إلا بالتقوي. ولذلك فإن ظهور الاسلام كان ثورة، بل ومن أكبر الثورات الاجتماعية التي ظهرت في العالم، وبدأ بعقيدة، وكان علي هذه العقيدة أن تنتشر فيما حولها، وكان من اللازم إيجاد قوة مادية للدفاع عن هذه الثورة، ونشرها في كل مكان. وفي هذا ما يسقط النظرية التي تستند إلي فقر الجزيرة العربية، وانتشار الخضرة والازدهار في الأقاليم المحيطة بها، لكي تدعي خروج العرب اليها للاستيلاء علي ما فيها من ثروات، بل أن تحول العرب إلي مكافحين ثوريين بظهور الاسلام، وطبيعة الإسلام العالمية، ومعرفة العرب بأحوال الانهيار والاستغلال والتحكم والطغيان الموجودة في الأقاليم المحيطة بهم هو الذي دفعهم إلي نشر مبادئهم الثورية في هذه المناطق. وجاء تطور نظم الحكم العربية في هذه الأقاليم فيما بعد. ونتيجة للاحتكاك بعوامل داخلية وخارجية في هذه الأقاليم، وتطور العناصر الاسلامية علي مرور الزمن، في هذه الأجواء الجديدة التي ذهبوا اليها، وعاشوا فيها.

ولقد نشأت الجمهورية العربية الاسلامية الأولي في المدينة، مع هجرة الرسول، وتحولت بعد ذلك إلي مكة، ورأينا الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، مسلمين قانتين ودفع الأغنياء ما في أموالهم من حق للسائل والمحروم، واستمر إمتداد هذه «الثورة الاجتماعية العالمية» حتي إشتملت علي شبه الجزيرة قبل وفاة الرسول وساعدت أحوال الأقاليم المحيطة علي سهولة الغزو الاسلامي، وباعداد بسيطة من المقاتلين، فلقد كانت الانقسامات الدينية علي أشدها في بيزنطة، وكانت امبراطورية الفرس في حالة انهيار. فبدأ

العـرب ببـلاد الرافـدين وانتـزعـوها من حكم الفـرس ثم واصلوا عـملهم إلي الغـرب. في الشـام، وانتـزعـوها مـن البـيزنـطيين، وسـقطت في أيديهم دمـشق وصور وبيت المقدس وبابل، كما اتجهوا إلي فارس وانهو حكم الساسانيين، ولم تقـاومهم مـصر، التي كـانت تئن تحت تحكم وطغـيـان بيزنطة واستـغـلالها، ولا سواحل برقـة وسواحل البحر الأحمر: ونوغل العـرب في آسـيـا الصـغـري حتي تفـايس، واستعـانوا بالأساطيل المصرية والسورية للوصول إلي قبرص ورودس وجـزر بحر إيجـه. وأن كـانوا قـد فـشلوا في دخـول بيـزنطة. وأفـاد العـرب من الفـرقـة الموجودة بين العـناصـر التـركـيـة في آسـيـا الوسطي فـوصلوا إلي كـابل وسـمـرقند وتفـتـحت أمـامـهم أبواب الهند بما فـيـهـا من إنقسـام وطوائف، وإن كـانت امـبـراطورية الصين قـد تمكنت مـن الصـمـود في قـاشـغـار عند مـدخل الواحات التي يمر فيها طريق قوافل الحرير وأما في الغرب فأن الغزو الإسلامي قـد استـمر بعد تونس وتأسيس القيـروان، وإن كان البربر قـد قاومـوهم في أول الزمـر ووصل للعرب إلي طنجة والمحـيط الأصلسي، «بحـر الظلمات» وحـتي وادي سوس وإمتدت غزوات العـرب بعد ذلك إلي شبه جزيرة ايبـيـريا، وبعد طريف، قـاد طارق بن زياد خمسـة آلاف رجل، ومـعظمهم من البـربر، وسـار بهم في أسبـانيا، معطيـاً اسمه لجبل طارق، وهزم القـوط، ودخل قـرطبـة وطليطلة. وتوغل العرب فيـما وراء جبال البرانس مع سواحل البحر المتوسط وتقدموا في وادي الرون، ثم تـوغلوا فـيـمـا وراءها مع سـواحل المحيط الأطلسي واسـتـولوا علي بوردو ووصلوا إلي مابين بواتية وتور. ولكن زحفهم توقف في هذا الاتجاه بعد مـوقـعـتـهم مع قـوات شـارل مارتيل من الفرنجة. ولم تؤثر مـواقف الفرنجة والصين وبيـزنـطة علي حيـوية العـرب، بـل استـمـروا في تهـديدهـم للغـرب، وفي توسـعـهم صـوب الجنوب والشـرق مع تغلغـلهم في داخل الأقـاليم التي قـامـوا

بغزوها؛ فانتشرت السفن العربية في البحر المتوسط وهددت مرسيليا وروما وهاجمت كورسيكا وسردينا وسيطرت علي صقلية واحتلت باري وعبر الإسلام الصحراء ووصل إلي إمبراطورية غانا القديمة وإلي مالي. وسار العرب جنوبا في النوبة، وسيطروا علي سواحل افريقية الشرقية، وأنشئوا المراكز التجارية والبنادر في مقديشو وممبسة وبمبا وزنجبار وكلوة وجزر القمر ووصلوا حتي موزمبيق وسوفاله وأخذت القوافل تسير من هذه المراكز صوب مراكز أخري ومخازن موجودة في داخل القارة، وحملت التبر والعاج والابنوس وريش النعام إلي الساحل. ولقد وصل العرب إلي مدغشقر واندمجوا مع الأهالي، كما زاد عدد السلطات الاسلامية في شمال الهند، وسارت سفن العرب في المحيط الهندي مع الرياح الموسمية، ووصلت إلي سيام وماليزيا وميناثي هانوي وكانتون الحاليتين. وأقام العرب المراكز التجارية في خليج البنغال وسومطرة وجارة وملقة، وعلي أسس تجارية ثابتة. وأصبح العرب يوردرن لبلاط بغداد الحرير والتوابل من الشرق الأقصي، والعبيد وسن الفيل وريش النعام من إفريقية، والأحجار الكريمة واللآلئ من الفرس والخليج الفارسي.

ولقد إمتدت هذه الأمبراطورية من خليج جاسكونيا إلي بحر قروين، ومن موزمبيق إلي البحر الأسود، ومن السنغال إلي بلاد التوابل، وعلي طول سبعة آلاف كيلو متر بين الشمال والجنوب، وخمسة عشر آلف كليو متر بين اشرق والغرب ولكن هل يمكننا أن نسميها امبراطورية؟ وهل هي عسكرية أو تجارية أو دينية؟ وهل كانت تهدف إلي الحكم والتحكم أو إلي الاستغلال أو إلي إرشاد الناس إلي دين الله الحنيف؟ لقد كانت هذه الامبراطورية ذات صبغة عسكرية غالبة في الغرب. وصبغة تجارية غالبة في الشرق، وكانت في مجموعها ذات أيديولوجية واحدة، وهي الاسلام.

وكانت وسائل الاسلام فعالة فلقد إعتمد علي عناصر مكافحة، ومسلحة بالاسلام؛ كأيديولوجية ثورية، علاوة علي مهارتهم في ركوب الخيل وأعمال الفروسية، ومهارتهم في إستخدام السيوف وإطلاق السهام. ولم تكن أعدادهم كبيرة في أول الأمر، وأن كانت الصفوف مفتوحة دائماً لكل من يعتنق الاسلام، ويرغب في الجهاد من أجله، حتي نجد أن جيوش العرب في الأندلس كانت في غالبيتها تتكون من أبناء البربر في شمال إفريقية، وهم الذين أصبحوا من أشد جنود الاسلام غيرة عليه. وأصبح العرب يكونون قيادات لهذه الجيوش، وإستقر كثير منهم في المناطق المفتوحة وتحولوا مع الزمن إلي أرستقراطية محاربه، أو حاكمة. أو متفقهة في الدين.

وأغري الإسلام بعدالته وسماحته وبساطته، كدين للفطرة، كثيراً من أبناء الأقاليم المفتوحة علي الدخول فيه، فكانوا يعفون من ضرائب الرؤوس، ويتحملون واجب الحرب والجهاد. وكان القرآن قد نزل عربيا، فتعلم الأهالي لغة الضاد وانتشرت العروبة مع انتشار الإسلام. ولم يكن الإسلام يعترف بالتفرقة العنصرية ويرفض أي فضل لعربي علي عجمي إلا بالتقوي، ورغم احترامه لأهل الذمة وضعهم تحت حمايته، إلا أنه سمح بالتزاوج من نسائهم، فزاد الاندماج بين العرب وغيرهم، وزادت أعداد المسلمين، وانتشرت اللغة العربية.

وإذا كان الرومان قد حددوا أشكال الحكم، وتركوا الديانات، فإن الاسلام قد أصر علي العقيدة وترك للأهالي الحرية في إختيار أشكال الحكم التي تناسبهم، علي أساس ألا تتعرض هذه الأشكال مع العقيدة ولم يحدد الرسول شكل هذه الدولة ولم يعين خلفا له. فساعد ذلك، مع اختلاف الأقاليم المفتوحة وتباين العناصر والعوامل والمصالح الموجودة فيها، علي تعدد أشكال

الحكومات وعلي انتقال العاصمة من مكة إلي دمشق، ومنها إلي بغداد، وظهور عاصمة وخلافه ثانية في الأندلس والمغرب، وكان نفوذ العرب مسيطرا في «مملكة»، دمشق، ولكن سلطة الوالي والشعوب غير العربية زادت في «امبراطورية» بغداد. ورغم عوامل الوحدة بين أقاليم الدولة، فإن ظهور شخصيات قوية، واستخدام قوي عسكرية خاصة في الأقاليم قد ساعد علي تبلور وحدات خاصة شبه مستقلة داخل الدولة، وبالتالي قد ساعد علي ظهور إمارات وسلطنات مستقلة، رغم اعترافها بالخلافة وكانت الخلافات قد ظهرت منذ عهد الخلافاء الراشدين حول اختيار رأس الدولة، وانقسم المسلمون إلي اتجاهات ثلاثة، يمني يطالب بضرورة كونه من أهل بيت الرسول، معتزين في ذلك بالـ [illegible] والنسب أي بالدماء الشريفة، ووسط يفضله من أهل الجماعة، أي من الارستقراطية التجارية التي كانت تسيطر علي الحجاز وصاحبت الرسول، ويساري لا يفرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوي إنها اتجاهات الشيعة والسنة والخوارج، وتشبه إلي حد ما اتجاهات الاقطاع، البرجوازية والاتجاه الشعبي في العصور الحديثة، ولكن دون أن تكون متطابقة معه. وأثرت هذه الاتجاهات علي الدول الاسلامية التي نشأت فيما بعد، وعلي علاقة كل منها بالقوي الإسلامية وغير الإسلامية المحيطة بها، والمتفاعلة معها.

ولا يمكن لأحد أن يتناسي المحققات الحضارية لإنتشار العروبة والاسلام في هذه المنطقة الهائلة من العالم. لقد ورث الاسلام امبراطوريات الروم والبيزنطيين والفرس، ولكن المسلمون تعلموا ما وجدوا في هذه المناطق ثم هضموه وزادوا عليه، وأسلموه للأجيال التالية، ونقلوه إلي الغرب الذي أقاد بدوره منه، في عصر النهضة.

حقيقة أن قرطاجة ووليلي قد تهدمت أو أهملت، ولكن العرب بنوا القيروان والفسطاط والقاهرة وفارس ومراكش وبغداد؛ وجميع البنادر المنتشرة

علي سواحل افريقية الشرقية. وحقيقة ثانية هي أن العرب لم يعملوا في الزراعة، ولكنهم اهتموا بالتجارة مع وسط افريقية، ومع الشرق الأقصي وغرب أوربا، وبنوا المدن والمراكز التجارية. وأثرت الأقاليم الاسلامية من هذا التبادل والنشاط التجاري إلي حد كبير. ونقل العرب الورق من الفرس والصين عن طريق دمشق وبغداد إلي غرب أوربا. كما أفادوا من حديد الهند، وحرير بيزنطة والصين، وأغنام افريقية وحقيقة ثالثة هي أن العرب قد أخذوا الارقام من الهند، وأنهم أفادوا من علوم اليونان، ولكنهم أصبحوا أساتذة العالم في العصور الوسطي في الرياضيات والجبر وحساب المثلثات والفيزياء والطب والفلك والكيمياء. وكذلك فعل العرب في الفلسفة، والأدب والموسيقي وفن المعمار، ولكنهم وصلوا إلي هضم كل ذلك، والاضافة إليه وإخراجه بأشكال وخطوط وأنغام جديدة، تدل علي وجود حضارة وتراث، وجب علي الانسانية أن تفخر بها، وتعتز بدور العرب فيها. ولولاها لتأخر ظهور عصر النهضة في أوربا، وتأخر بالتالي وصول العالم إلي المرحلة التي وصل إليها الآن.

٤- امبراطورية الشمال:

أخذت إحدي الامبراطوريات في النمو في شمال أوربا في الوقت الذي كان فيه العرب ينتشرون في جنوبها. وكانت عناصر الشمال لا تشبه العرب، إذ أنهم كانوا من البحارة، وتحولوا في بعض الظروف إلي فرسان، أما العرب فكانوا من الفرسان ولم يركبوا البحر إلا عند الضرورة، كما أن العرب كانوا يعملون علي نشر الاسلام، دون أن يتحولوا عن دينهم، أما العناصر الشمالية فقد تركت نفسها، وهي غازية، تتحول إلي المسيحية، دين المناطق التي توسعت فيها.

وهذه العناصر الشمالية كانت من أصل جرماني، وجاءت من البلاد الاسكندنافية علي سفنها، وكانوا يسمون الفيكنج، أي رجال الخليج، إذ أن حياتهم كانت مرتبطة بالخلجان، التي أعتبروها مدنا وقواعد لهم، كما اعتبروا سفنهم الراسية فيها منازل لهم.

ولا نعرف حتي الآن الأسباب التي دفعتهم إلي الخروج من بلادهم، ولا أن نقتنع بأن تزايد السكان كان هو السبب الرئيسي فيها، ولكن المرجح هو أن خروج هذه العناصر الاسكندنافية قد جاء نتيجة لطرد شرلمان لكثير من الساكسون صوب الدانيمارك، ونتيجة لتقدم فنون البحر، علاوة علي البحث عن أرزاق جديدة، أو أسلاب سهلة.

وإستخدموا سفنا يزيد طولها علي عشرين متراً، ويبلغ عرضها جملة أمتار، ولها سارية يصل طولها إلي ١٣ متراً تحمل شراعا مربعا، ولا يزيد غاطسها علي متر واحد في الماء، مما يسمح لها بالدخول في الانهار، وكانوا يستخدمون أحد المجاديف الكبيرة كدفة لسفنهم، التي تحمل من ستين إلي ثمانين رجلا، منهم ثلاثين للتجديف، والتي تسير بسرعة عشر عقد ودل خروجهم علي هذه السفن الصغيرة إلي عرض البحر علي أنهم كانوا من البحارة المهرة، وأنهم عرفوا الفصول، والتيارات المائية، وربما الأبرة المغناطيسية.

وسار هؤلاء الشماليون، أو النورمانديون، في اتجاهات ثلاث. فخرج السويديون، وهم تجار أكثر منهم غزاة صوب الجنوب الشرقي، أما النرويجيون وهم بحارة مهرة فقد توسعوا في اتجاه الغرب، وأما الدانيمركيون وهم محاربون، فقد توسعوا في اتجاه الجنوب الغربي. وكانت كل عملية من هذه

العمليات مختلفة عن غيرها . ومرتبطة بطبيعة القائمين عليها ، الظروف التى وجدوا أنفسهم فيها ولكنها كانت كلها عمليات وتجاوب استعمارية.

فلقد خرج السويديون علي دفعات صوب خلجان فنلندا وريجا ، وساروا مع طريق العنبر القديم حتي وصلوا إلي الدنيبر الأعلي، الذي كانوا ينزلون معه كل سنة، بعد ذوبان الجليد، صوب كييف وحتي البحر الأسود ، وأعطاهم الفنلنديون اسم الروس نسبة إلي احدي مقاطعات السويد. وكانوا عبارة عن تجار مسلحين يحاولون فتح الطريق إلي بيزنطة، سواء للاتجار معها ، أو للدخول في خدمة الإمبراطور ، أو لتهديده. وأنشئوا آخر مركز لهم عند مصب الفولجا حيث باعوا الفراء والريش والصوف وزيت السمك واتصلوا حتي بخليفة بغداد . وقاموا بإنشاء المراكز المسلحة والمعسكرات المحصنة لحراسة سفنهم التي تسير في الأنهار ، ولكنهم كانوا يسيطرون علي المدن التي يتاجرون معها. كما هو الحال مع نوفجورود وكييف، وينشئون مراكزهم التجارية في كل المناطق المحيطة، وبشكل يساعد علي تطور هذه المراكز فيما بعد إلي عواصم لإمارات. وإنضمت بعض الأقاليم السلافية إلي هؤلاء الأمراء التجار ، ودفعت لهم الجزية وقدمت لهم الهدايا في شكل فراء وشمع وعسل ورقيق، رغم إحتفاظها بامرائها المحليين. ونشأت روسيا حول هؤلاء النورمانديين، رجال الشمال، الذين تحولوا إلي أقلية، وسط هذا العدد الكبير من الأهالي، والذين أبقوا في نفس الوقت علي علاقاتهم مع وطنهم الشمالي.

أما النرويجيون فكانت تجربتهم مختلفة، فلقد خرجوا بعد الفيوردات الغربية في اسكنديناڤيا والتي تحمل موانيه مقطع فيك Vik مثل كلمة الفيكنج نفسها. ومثل نارفيك. ودافيك - وعبروا بحر الشمال واستولوا علي شيتلاند وهبريده وظهروا علي سواحل اسكتلندا وايرلندا ، احتلوا جزيرة مان

يسير بريا، عبر بيزنطة، إلي إنطاكية، ثم في الجليل إلي الناصرة، ولم يكن العرب والمسلمون يعارضون في مجئ الحجاج، إذ كان تسامحهم يفرض عليهم ذلك، وكانت مصلحتهم الإقتصادية تدفعهم إلي تشجيع هذه الحركة «السياحية». ولكن سرعان ما ظهرت حركة في الغرب، ادعت أن المسلمين كانوا يعملون علي اهانة المسيحيين، ويفرضون عليهم الضرائب، قبل دخول بيت المقدس. فهل يصل الحال إلي إقفال الحج أمام المسيحيين؟ لقد كان الشعور معبأ، وقام أربعة أساقفة من الألمان بقيادة سبعة آلاف رجل مسلح، إلي الأراضي المقدسة سنة ١٠٦٥، فأصبح الصدام ممكنا، وفي أي لحظة، وخاصة بعد التعبئة النفسية، والاستعداد للحج بقوة السلاح.

ونادي البابا أوربان الثاني في كليرمونت بضرورة توحيد المسيحيين لقواهم، والسير صوب الأراضي المقدسة، ضامنين المجد الأزلي، الذي ينتظرهم في الجنة، وطلب منهم أن ينسوا أنفسهم، ويحملون الصليب. وجاء هذا النداء محددا وفي وقته وإجتمعت الحملة وكان هدفها بيت المقدس، ووسائلها دينية برئاسة الكرسي المقدس، وعسكرية بمساعدة فرسان الغرب، وسار المنادون في كل أوربا يكررون كلمات البابا، ويفضحون المترددين من الأثرياء أو الكسالي، ويعدون الحجاج بالغفران الكامل. وفي الأسبان بعيدين عن هذه الحركة، نظراً لإنشغالهم في بلادهم، ولكن شعور الحماس الديني سري في بقية أوربا، وأخذ الناس يستعدون للسفر، وانتشرت الإشاعات من حدوث معجزات، وكذلك التنبؤات عن عودة شرلمان إلي الحياة، وقيادته للجيوش وكانت للبابوية أهدافاً ديموجرافية وسياسية من وراء هذه الحملة، إذ أن البابا كان قد شرح أن أراضي المسيحيين قد ضاقت بهم، وأصبحت تكاد لا تكفي

إطعام من يعيشون عليها، كما أنه قد أمر الإقطاعيين بالكف عن محاربة بعضهم، والسير جميعاً في طريق بيت المقدس، فيمكن إذن للحرب الصليبية أن تحل محل الحروب الداخلية، وتوجه غرائز الحرب عند الفرسان، أو عند قاطعي الطرق، إلي أهداف دينية. وكان البابا يخشي من خطر ضغط الأتراك والإسلام علي أوربا، مما قد يودي إلي سقوط بيزنطة، آخر معقل للغرب، ويشكل يهدد كل المسيحية. كما أن نجاح البابا في تكوين جيش كبير من كل بلاد أوربا كان يعني أنه فوق كل الملوك، وخاصة في هذا الوقت، الذي خرج فيه كل من ملك فرنسا وملك انجلترا الإمبراطور الألماني من الكنسية، والذي كان فيه امبراطور بيزنطة منشقا عليها. ففي وسع الكنيسة إذن أن تثبت إنها في غير حاجة إليهم، وأنه يمكنها العمل بدونهم. وربما فكر البابا في الحصول علي أملاك في الأراضي المقدسة، وفي بيت المقدس، يمكنها بالإضافة إلي روما أن تكون دولة زمنية، تفرض نفسها علي كل امراء العالم.

وبدأت جموع كبيرة في السفر قبل الوقت المحدد، علي الاقدام، وفي العربات، متجهة صوب الشرق ولكنها كانت بدون أي برنامج، وسادها الفوضي، ونقصتها المؤن، وبدأت في السلب والنهب، وخاصة بعد أن قوتها ودعمتها بعض عصابات من الايطاليين والألمان، وتخلص منهم امبراطور بيزنطة ونقلهم بسرعة عبر البوسفور، وبقي منهم ٢٥ ألفاً بعد اشتباكاهم مع المجر والبلغار وهزمهم الأتراك هزيمة ساحقة، ولم يعد منهم إلا ثلاثة آلاف، واضطرت بيزنطة إلي إعتقالهم، دفاعا عن الأمن والنظام فيها.

أما الحملة الحقيقية فكانت معدة ومنظمة ومجهزة، وقسمها البابا إلي أربعة جيوش تشتمل علي أبناء اللورين والفلمنك والألمان، وعلي نورماندي

ايطاليا ، وعلي الفرنسيين، وعلي النورمانديين وكان عليها أن تسير مع الدانوب، وعن طريق ايطاليا الشمالية وعن طريق روما والبحر الأدرياتي، لكي تتقابل كلها، في القسطنطينية، وخشي أبناء بيزنطة من مجئ هذا العدد من الفرسان إلي مدينتهم، وأسرع الامبراطور وأعلن أن الأرض التي يقصدونها كانت ملكا لبيزنطة، فاقسم له معظم رؤساء الصليبيين بالولاء، وقبلوا أن يكونوا تابعين له. وتعهد الامبراطور من جانبه بتموينهم وامدادهم عسكريا، ولكنه أسرع بالتخلص منهم ونقلهم إلي الشاطئ الآسيوي .وتمكن الصليبيون من دخول انطاكية بعد حصار طويل. انتشر في اثنائه الطاعون. وبدأ الوهن يدب بين صفوف الصليبيين، إلا أن مجئ عناصر اسكندنافية كإمداد لهم، عن طريق البحر، سمح لهم بمواصلة السير حتي وصولا بيت المقدس، ولكن عددهم كان قد إنخفض من ١٥٠ ألف إلي مالا يزيد عن خمسة عشر آلف، بعد هذه الرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات، وحاصروا المدينة ثم هاجموها واستولوا عليها. ونزل الصليبيون بأسلحتهم من فوق الأسوار داخل المدينة، وقلتوا كل من صادفهم، ولم يتركوا إمرأة ولا طفل، حتي تكدست الأجساد والرؤوس وسدت الطرقات. وكان هذا الغضب، بعد سير إستمر ثلاث سنوات، وهذا الإنتقام من أهالي بيت المقدس، خطأ سياسيا كبيراً، خاصة وأن عددا من سكان هذه المدينة كانوا من المسيحيين، كما أن هذا الفعل قد صعب عملية إخضاع مدن فلسطين الأخري وأخر الإستيلاء عليها.

ونجح الصليبيون في عمليات تبعد ثلاثة آلاف كيلو متراً عن قواعدهم، وأمام أعداء أقوياء، ورجع ذلك إلي تفوقهم في المعدات، وخاصة الدروع كما رجع إلي حسن التنظيم للتموين والامداد في أثناء العمليات، إذ أن أساطيل

بولونيا والبندقية وجنوا وورودس وقبرص كانت تسير بحذاء السواحل، وتقدم لهم مايلزمهم، ومرحلة بمرحلة كما أفاد الصليبيون من الفرقة القائمة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت. ولكن سرعان ما نشأ الانقسام بين الصليبيين أنفسهم، وبعد إنشائهم لممالكهم واقطاعياتهم المسيحية في الشرق العربي. كما نشأت الفرقة بينهم وبين إمبراطور بيزنطة، الذي لم يتمكن من تعضيدهم وإمدادهم وظهرا الخلاف بين رجال الدين من كاثوليك وارثوذكس، ورفضت الكنيسة الكاثوليكية تسليم انطاكية للكنيسة اليونانية، ورفض بارونات الفرنجة توجيهات مندوبي الامبراطور. وبعد الانشقاق والخلاف والتنافس، وصل الحال إلي العداء السافر، وحول الصليبيون احدي حملاتهم إلي بيزنطة ونصبوا أباطرة لاتينيين بدلا من اليونانيين.

وإذا كان الانقسام سائدا في صفوف المسيحيين من ناحية، وسائداً في صفوف العرب والمسلمين من ناحية أخري، فلم يكن هذا كافيا لرفض أي فكرة لتعاون ممكن بين بعض المشارقة وبين الصليبيين، أو تعاون بعضهم مع البيزنطيين ضد الصليبيين، فنجد بيزنطة تحاول التقرب إلي بعض الأتراك والتحالف معهم ضد الفرنجة، وتقوم محاولات لإنشاء علاقات بين وحدات هذه القوي الثلاث، صيلبيين غربيين، وبيزنطيين، وعرب، وتحاول كل قوة من هذه القوي، الإقطاعية، الاحتفاظ بامتيازاتها، أو الحصول علي امتيازات جديدة، وبمناورات خاصة، تجاه القوي الأخري الموجودة في الميدان. فظهر الموقف علي أنه بعيد كل البعد عن معني الصليبيات في أساسها، وكانت طبيعة القوي ومصالحها هي التي تفرض عليها، علي قياداتها، إمكانيات الحركة. ونجد أن المسلمين، بعد إستعادتهم لبيت المقدس، يعلنون إمكانية عودة الحجاج

المسيحيين اليها وحين يعود الصليبيون إلي نفس المدينة يتركون المسلمين يؤدون صلواتهم في مسجد عمر والمسجد الأقصي وكان هذا التسامح جميلا في ذاته، لو لم يكن يخفي، في حقيقته، ضعف القوي الموجودة في كل معسكر، ولمحاولة القيادات الإبقاء علي امتيازاتها بأي ثمن.

وكانت الدول المسيحية في المشرق ضعيفة، ولا تمثل إلا شريطاً ضيقاً علي الساحل السوري. وكان من الصعب علي الصيليبين الاحتفاظ بحلب ودمشق إذا ما قرر المشارقة استعادة بلادهم، وبلاد أجدادهم وعملوا علي توحيد صفوفهم، والاستعداد ليوم جديد. وزاد هذا الخطر وتبلور مع ظهور صلاح الدين. ولم يتمكن الصليبيون من الاحتفاظ إلا بطرابلس وطرطوس وانطاكية، وفشلوا في الاستمرار في المقاومة مع ظهور بيبرس، الذي سيطرت قواته علي المنطقة بأكملها، ومن النوبة حتي الفرات.

وتتالت الحملات الصليبية علي المشرق، ومن بينها تلك الحملة التي قام بها بعض صغار الشبان، أو الصبية، والتي سارت علي طريق الجوع، الصعوبات، وإلي الأسر. ولقد كانت بعض هذه الصليبيات قريبة من الروح الصليبية الحقيقية، ولكنها فشلت نتيجة لوجود «حالة نفسية» في أوربا بعيدة عن الواقع العملي، أو بمعني آخر نتيجة لقوة الدعاية، بدرجة تبعدها عن الحقيقة المادية. وأصبح الأوربيون لا يشاركون في الحملات لتخليص قبر المسيح، أكثر من رغبتهم في رؤية المشرق بثرواته ونسائه الجميلات، أو أكثر من رغبتهم في المتاجرة في توابل الشرق الأقصي.

وأرسل الإمبراطور فردريك الثاني حملة صليبية لكي يمكن زوجته ايزابلا من إستلام حقها من ميراث عرش بيت المقدس، وجاءت حملة أخري لتدعيم

نفوذ البندقية تجاه بيزنطة، ولمساعدتها علي الانتقام منها. وكانت حملة القديس لوي تهتم بالمسيحية قبل غيرها، فظهرت غريبة في هذا الجو الذي غلبت عليه صفات المادية ولقد أفاد الملوك من الحملات الصليبية لكي يدعموا نفوذهم في مناطق الأمراء والفرسان الغائبين في المشرق. وظهر أن الحملات الصليبية بعيدة عن كونها مجرد عمليات «مسيحية» وأنها عمليات سياسية واقتصادية، أي أنها عمليات إستعمارية واستغلالية.

٣- سياسة الاستعمار:

وكانت المذابح التي قام بها الصليبيون في بيت المقدس، قد أخذت المدينة والمنطقة من عدد كبير من سكانها. وسرعان ما شعر الصليبيون بهذا الفراغ حولهم فهل يتركون بيت المقدس خاوياً؟ ومن الذي يقوم بخدمة هؤلاء السادة القادمين؟ وفكر الصليبيون في استدعاء بعض أهالي أوربا لتعمير الأراضي المقدسة، ثم اتصلوا بالمسيحيين الموجودين في آسيا، ثم سمحوا أخيراً ببقاء بعض الأهالي من المسلمين، وتحول الصليبيون بذلك، وبحكم ضرورة الظروف، من الحرب المقدسة، إلي ما يحمل معني التسامح، ومن حرب الإبادة إلي محاولة إغراء الأهالي علي التعاون معهم.

وكان في وسع الصليبين أن يعتمدوا علي أوربا لتعمير أو استعمار الأراضي المقدسة، وخاصة في ذلك الوقت الذي تزايد فيه عدد سكان أوربا بشكل ملحوظ. ويقدر عدد الصليبين الذين تركوا أوربا بمليون شخص، وإن لم يصل منهم إلي الأراضي المقدسة إلا نصف هذا العدد. ولكن مثل هذه السياسة لم تكن تبشر بالنجاح، خاصة وأن عدداً كبيراً من الصليبيين قد عاد إلي بلاده بعد الاستيلاء علي بيت المقدس، ومعرفتهم بأن الأراضي المقدسة

ليست هي الجنة، التي يرغبون في المعيشة فيها. حقيقة أن عددا من الأوربين كان يحاول الوصول إلي الأراضي المقدسة، للحج أو للتوطن، ولكن حالة الحرب والتعبئة الموجودة في الشرق الأدني، وأخطار الوقوع في المهالك، كان يثني الكثيرين منهم عن عزمهم. وعلي أي حال فقد كان في وسع الصليبيين أن يعتمدوا علي مجئ العناصر المغامرة التي ترغب في القتال وفي السلب والنهب، أكثر من اعتمادهم علي العناصر المسالمة الراغبة في العمل والتوطن والاسترزاق، وكان معظم الوافدين من أصل فرنسي أو ايطالي وعملوا في قوات السادة الإقطاعيين الصليبيين.

وشجع الصليبيون العناصر اليونانية والسريانية، واليعاقبة والنساطرة علي المجئ إلي الأراضي المقدسة، مع نسائهم وأولادهم، وعلي توطنهم فيها. وكانوا يعرفون صعوبة ضمهم إلي الكنيسة الكاثوليكية، وإن كانوا يعتقدون في إمكانية إدماجهم من الناحية السياسية، ويفضلونهم علي المسلمين. وأخذ بعض الصليبيين يتزوجون من بنات المسيحيين الشرقيين. وظل خطر مجئ أعداد كبيرة من المسلمين إلي المنطقة يهدد مشروعاتهم، وأمن مستعمراتهم.

ولقد عمل المحتلون علي تطبيق النظام الإقطاعي، الذي أحضروة معهم من أوربا ورغم أن هذا النظام كان قد نما وتطور في أوربا نتيجة لظروف وعوامل متعددة ومتفاعلة مع بعضها ولمدة طويلة، فإن الصليبين قد عملوا علي تطبيقه في الشرق الأدني كما هو. وأخذوا في كتابة قواعد هذا النظام، رغم أنها لم تكن مكتوبة في أوربا. وتحول السادة إلي ملوك وأمراء وكونتات، أما الفرسان فقد تحولوا إلي بارونات، فأصبح هناك أميرطبرية وأمير الجليل وصاحب يافاوسيد صيدا أو نابلس، وهكذا.

وكانت هناك مشكلة العلاقة بين مملكة بيت المقدس والبابوية. وكان البابا أوربان الثاني يهدف من وراء ارسال الحملات الصليبية إلي الشرق الأدني، توسيع الأراضي الخاضعة لدولة القديس بطرس، وتكوين دولة خاضعة للسيادة البابوية. ولكن موت مندوبه في الأراضي المقدسة، ثم وفاته هو، قد أثرت في هذه العملية ونشأ نزاع بين أمير صليبي وبطريك بيت المقدس، علي لقب ملك بيت المقدس، وانتصر الأمن، وظلت المملكة مسيحية، ولكنها لم تكن خاضعة سياسيا للبابا.

وكان الصليبيون قد تعهدوا عند مرورهم في بيزنطة بالولاء لإمبراطورها، لكنهم عادوا وتناسوا تعهدهم، مدعين أنه لم يقدم لهم المعونات التي كان قد وعد بها. ودفع هذا امبراطور بيزنطة إلي الإستعانة بالأتراك، لكي يفرض سيادته علي أمير أنطاكية.

وكان ملك بيت المقدس يلقب بياور ملك الفرنجة، ولكن هذا اللقب لم يكن يحمل معني التبعية، رغم الصلات الوطيدة الموجودة بين الطرفين، وكان ملك بيت المقدس يأخذ سلطانه من «الرب» رأساً، رغم أن دولته كانت انعكاساً لفرنسا ونظمها ولغتها، وظل رأس الدولة نفسه فرنسيا لمدة طويلة، وعرف الشرق الصليبيون عامة علي أنهم «فرنجة».

وكان فرنسان الفرنجة المسيطرون علي السلطة، ويكونون قمة المجتمع الجديد، ويحتلون المناصب، ويحتفظون لأنفسهم بالإمتيازات. وكانوا يعاملون الأهالي من حيث الضرائب والعدالة والنظم المالية، كما كانوا يعاملون الفلاحين في فرنسا في ذلك الوقت، أي طبقا لنظام الاقطاع. وكان السادة يخرجون للصيد في إقطاعاتهم، ويستخدمون أصحاء الأبدان من المسيحيين في

قواتهم، ويتركون الباقين لخدمة الأرض. ولم يكن من حق أي سوري أن يبارز فرنجي. وكان الأهالي يدفعون ضريبة معينة في عكا لكي يسمح لهم بالمتاجرة، وكانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم.

ولقد تأثر الصليبيون كثيرا بالمشرق، وظهر هذا التأثير حتي في قطع العملة التي ضربوها في الأراضي المقدسة، وتأثر الصليبيون بالعادات والتقاليد المحلية،وساعدهم الجو علي نزع دروعهم، وارتداء الملابس الشرقية، وأطلقوا لحاهم، وجلسوا علي الأرض تحت الشجرة لإستقبال السفراء، وتزوج بعضهم بأكثر من سيدة، وتطورت الأحوال مع التوطن، ونسي بعضهم بلاده، وأصبح الفقير منهم غنياً، وتحول الغزو المسيحي إلي عملية إستعمار.

ولقد استمرت مملكة بيت المقدس لمدة ٨٩ سنة، وعاصمتها القدس، ثم استمرت بعدها لعدة سنوات واتخذت عكا عاصمة لها. وملأت الحروب الصليبية بأحداثها وشخصياتها، حياة أوربا وآدابها، كما أثرت في العلوم والفنون فيها، وعلمت الأوربيين الكثير. وانتهت هذه التجربة الإستعمارية باستيلاء صلاح الدين علي بيت المقدس وأظهر صلاح الدين من التسامح والكرم والإنسانية مع أعدائه الكثير، مما أجبرهم علي احترامه، وترك لليونانيين والنساطرة واليعاقبة والأرمن الأراضي والممتلكات التي كانت في أيديهم، والتي كانوا قد استولوا عليها بمساعدة الصليبين.

٤- الجماعات المسيحية المحاربة:

لقد نشأت من الحملات الصليبية بعض الجماعات المسيحية التي واصلت العمل الصليبي، والإستعمار المسيحي، ونقلته إلي ميادين أخري وكانت

الجماعات المسيحية تعمل لأغراض سلمية قبل الحملات الصليبية وتمكن تاجرين من الحصول علي تصريح بانشاء دير للبندكتيين في بيت المقدس، مع مستشفي لإيواء ومعالجة الحجاج فنشأت بهذه الطريقة جماعة الاسبتالية، وأدت دوراً كبيراً في معالجة الجرحي في أثناء الحروب الصليبية. ثم أخذ بعض الرهبان في العمل علي حراسة الطرق المؤدية إلي بيت المقدس، والمحافظة علي الأمن داخل، المدينة فنشأت جماعة جديدة تسمي جماعة إخوان المعبد، نسبة إلي معبد الملك سليمان القديم.

وتحولت هذه الجماعات إلي جماعات محاربة، وزادت أعمالها الحربية علي أعمالها الدينية، وأدت خدمات للاستعمار، أكثر مما أدت للبابا. وأصبح الاسبتالية وفرسان المعبد يمثلون أكثر قوات الصليبيين قوة، وقاوا بحراسة الأقاليم والمواقع المتطرفة. وكان اسلوبهم حربيا أكثر منه دينيا فكانوا يخضعون «لسيد أعظم» يشرف علي عدد من الامرين Commandeur ويسمون فرسانا إذا كانوا من النبلاء، ويمثلون «الحرس» الخاص بالمستعمرة وأخذوا يدافعون عن السلطة الزمنية، رغم أنهم من الرهبان وتحولوا بذلك إلي «ميليشيا» إقطاعية، وأخذ كل من الاسبتالية وفرسان المعبد في منافسة بعضهم بعضا، ثم أخذوا في وضع المؤامرات حول العرش وأصحاب الإقطاعات، وابتعدوا عن الأسس والمبادئ الخاصة بحياة الرهبان. ولكن علينا أن نعترف بقوتهم الحرب، وأستماتتهم في المعارك، كما شهد بذلك حصار طرابلس ثم أسوار عكا وتحصيناتها. وإذا كانت هاتين المعركتين هما آخر معارك الصليبين في الشرق الأدني فأنها لم تكن آخر معارك الاسبتالية وفرسان المعبد: إذ نجد أن فرسان المعبد قد حاربوا بعد ذلك مع الإسبانيين ضد

العرب: وإستولوا علي أماكن محصنة وواصلوا في فرنسا نشاطهم الدنيوي، وجمعوا الثروات الطائلة، وقدموا القروض بالربا، حتي اتهم الملك بالمضاربة والخيانة، وأمر بالقاء القبض عليهم، واحراق سيدهم الأعظم. أما الإستبالية فقد انتقلوا بعد الأراضي المقدسة إلي قبرص، ثم إحتلوا جزيرة رودس التي كانت خاضعة لبيزنطة، وسمحت لهم الثروات التي ورثوها عن جماعة فرسان المعبد بالإستقرار، وبتنظيم جماعتهم وتقويتها. وبلغ عددهم في رودس ما يتراوح بين أربعمائة وستمائة فارس، مقسمين حسب اللغات التي يتكلمونها. وتمكنوا من الإحتفاظ بهذه الجزيرة لمدة قرنين أمام هجمات المسلمين كما قاموا بالهجوم علي الاسكندرية، وإحتفظوا بأزمير لمدة تزيد عن نصف قرن، ثم نجحوا في رد خمس غارات للمسلمين علي الجزيرة، إلي أن جاء اسطول سليمان القانوني المكون من ثلاثمائة سفينة، ومائة ألف مقاتل، فسلم الفرسان، وتعهد الأتراك بعدم التعرض للكنائس والاحتفاظ بحرية ممارسة العقائد. وترك الفرسان الجزيرة ومعهم أربعة آلاف يوناني، واستولوا علي مالطة. التي تركها لهم شارل الخامس، للدفاع عنها أمام العرب، ولإتخاذها قاعدة لشن الهجمات علي شمال إفريقية، وعلي السفن الإسلامية في البحر المتوسط. وأقاموا حكما إقطاعيا في هذه الجزيرة، واستغلوا إمكانياتها، وتحكموا في أهلها الذين ثاروا ضدهم أكثر من مرة، واعترف فرسان الاسبتالية بسيادة روما عليهم، رغم أن هذه السيادة كانت إسمية. ونجحوا في إقفال الطريق في وجه الأتراك العثمانيين صوب الغرب وظلوا في الجزيرة إلي أن إستولي عليها الجنرال بونابرت، وهو في طريقه إلي مصر، فأستولي علي أموال الجماعة وممتلكاتها، وأمر بدفع معاشات لهم، وأنهي بذلك تاريخهم الإستعماري.

ولقد نشأت جماعة فرسان ثالثة، ألمانية، في أثناء الحروب الصليبية، هي جماعة الإخوان الفرسان «التيوتون» والتي منحها البابا حق علاج الجرحي، ومقاتلة «الكفار»، ونفس حقوق وامتيازات جماعتي فرسان المعبد والاسبتالية والواقع أن تكوين هذه الجماعة وقيادتها من الألمانيين، في الوقت الذ كانت فيه الجماعتان الأخرتان تضم العناصر اللاتينية في صفوفها وفي قيادتها، كان يدل علي أن روما. وهي تحارب من أجل العالمية، كانت تسمح، في نفس الوقت، وتساعد علي تبلور القوميات داخل المؤسسات والمنظمات التابعة لها.

ولقد أثرت الجماعية التيوتونية نتيجة للأملاك والثروات التي جمعها من الأراضي المقدسة. ثم قام أحد امراء بولندا بدعوة فرسان هذه الجماعة لمساعدته ضد جيرانه البروسيين، وأقطعهم مقاطعة كبيرة علي حدوده، وأغراهم بترك كل الأراضي التي يقومون بفتحها ملكا لهم. وضمن الامبرطور فريدريك الثاني نفس الشروط، وأمرهم بمهاجمة البروسيين، وأكد البابا أن أراضي الجماعة ستكون من ممتلكات القديس بطرس والكنيسة الرومانية، ولكنها ستترك للتيوتونيين بشكل يجعلهم يمتلكونها ملكية تامة فحصل الفرسان التيوتونيون بهذا الشكل علي موافقة كل من بولندا والإمبراطورية والبابوية علي إعطائهم حرية العمل وحرية الملكية لكل أرض ينتصرون فيها، وينتزعونها من البروسيين.

وكانت ألمانيا قد بدأت منذ ذلك الوقت، عملية توسعها صوب الشرق، وأخذت في دفع العناصر السلافية في هذا الإتجاه. وأخذ الألمان يستعمرون الأراضي الواقعة فيما وراء نهر الإلب، مدفوعين في هذه العملية بكثرة اعدادهم، وبالرغبة في الحصول علي أراض جديدة وتمكنوا من إخلاء براندبرج

من العناصر السلافية، وانزال ما بقي منهم فيها إلي مرتبة العبيد كما أخذ بلاط بوهيميا يتحول إلي الألمانية ويستخدم فرسانا من البارفاريين والساكسون، ويمنحهم الامتيازات. ولكن النجاح هنا كان نسبياً، خاصة وأن الألمان كانوا لا يندمجون مع الأهالي، ويحتقرونهم، فبقي لكل منهم عاداته وتقاليده. وكذلك الحال في بولندا التي كانت تمنح المهاجرين من الألمان امتيازات خاصة. وكانت هناك مجموعة من الفرسان الألمانيين قد احتلت استونيا، وإن كانت قد فشلت في أدماج الأهالي، واعطائهم لغتها وعاداتها وتقاليدها وبقيت منطقة بروسيا علي حالها، فلم تعتنق المسيحية، وظل أهلها يعيشون في الغابات والمستنقعات، ويرتدون جلود الحيوانات، ويعبدون الطبيعة، ويقتلون المسيحيين. وكانوا من أصل سلافي وفنلندي ويبلغ عددهم ما يقرب من مائتي ألف نسمة، وكانوا ميدانا خصبا لعمل جماعة الفرسان التيوتونيين.

ولقد استمرت هذه الصليبية الشمالية ما يزيد علي نصف قرن. وقاوم البروسيون ولكن الفرسان تمكنوا من اخضاعهم بطريقة منظمة، خاصة وأن البروسيين كانوا غير منظمين، وكان الفرسان يلبسون الدروع، ولهم تكتيك معين في المعارك، ويستخدمون السهام التي تمرنوا عليها في الشرق الأوسط. وكان الفرسان يعتمدون علي المفاجأة، ويقيمون علي المرتفعات أو علي جزيرة في وسط الماء، وفي أماكن تتحول فيما بعد إلي حصون. كما كانوا ينشئون قري المهاجرين الألمان أسفل هذه المرتفعات أو علي ضفاف البحيرة. وكان الغزو يتقدم خطوة بخطوة، وبنفس الطريقة، حتي وصلوا إلي سواحل البحر البلطي، وأصبحت مواصلاتهم سهلة مع ألمانيا.

وكان هؤلاء الفرسان ينادون السيدة العذراء في أثناء المعارك، ولكنهم ظلوا يقتلون أعداءهم، وفي حرب أبادة، طول مدة سبع وخمسين سنة واستخدام الفرسان الألمان كل وسيلة ممكنة، ومنها الغدر، للوصول إلي أهدافهم. فكانوا يقيمون الحفلات للبروسيين، ويقدمون لهم الشراب، ثم يحرقون بهم مكان الحفل، ويأسرون من يحاول الخروج من بين النيران ولم يحاولوا التبشير بالمسيحية بين البروسيين، ورفضوا علاوة علي ذلك السماح لهم بدخول الكنائس، حتي أخذ البابا نفسه في الشكاوي من هذه الطريقة، ولكن بدون جدوي، إذ أن الفرسان كانوا قد وضعوا نصب أعينهم إبادة هذا الشعب البروسي، والاستيلاء علي منطقة خاوية من السكان. ولقد نجحت هذه الطريقة، وسلم البروسيون، واختفي شعبهم ولغتهم من خريطة العالم.

وسيطر الفرسان التيوتونيون علي بروسيا، واستولوا علي أملاك جماعات الفرسان الألمانية الأخري التي كانت تمتد إلي أقاليم البحر البلطي، وأصبحوا يسيطرون علي هذا البحر، وعلي الأنهار التي تصب فيه، بسفنهم. كما سيطروا علي مداخل بولندا. واعتمدوا علي خط دفاع يتكون من قلاع متتالية، كما اعتمدوا علي قوة هجوم من الفرسان المدربين الغلاظ القلوب. وكانوا لا يسمحون للاساقفة بالتدخل في عملياتهم، ورفضوا الاستجابة لتوجيهات الكرسي البابوي وكانت دولتهم ارستقراطية، تنتخب رئيسها من مجلس خاص، ويقوم هذا الرئيس بتعيين النبلاء، ويحكم بموافقة سادة أملاتيا وخضع الفرسان في هذه الدولة لنظام دقيق وصارم، فكانوا ينامون بملابسهم، والسيوف إلي جوارهم، وقاموا باستعمار بروسيا مع بعض العناصر السلافية التي بقت فيها، وبنوا القري والمدن، وأنشئوا المطاحن، وتاجروا في الصوف.

وتمكنت هذه الجماعة من انتزاع استونيا من حكم الدانيمارك، وأنشأت كونجزبرج، أي مدينة الملك، ملك بوهيميا، ثم ميمل، واشترت دانتزج رغم احتجاجات بولندا، ثم براندبورج. وقام هؤلاء الفرسان بالهجوم علي لتوانيا، وتوغلوا فيها. وكانوا يقيمون الإحتفالات ويرقصون مع الأهالي، وفجأة يبدءون في مذابحهم، وفي القتل والنهب، ودون أن يفكروا في كسب هذه الشعوب للكنيسة ولقد أثارت هذه القسوة ضدهم الأهالي، كما كانت الطبقة البرجوازية والتجار في هذه المناطق غير راضية عن سياسة إبعادها عن الحكم ولا عن سيطرة جماعة الفرسان علي كل النشاط الإقتصادي في هذه الأقاليم. وبدأت الخلافات بين وحدات الفرسان، ثم فقدت الجماعة تفوقها الحربي نتيجة لإستخدام البارود والمدفعية. وتمكن أحد امراء ليتونيا من ضم مملكة بولندا الحكمة، ثم تمكن من محاصرة جماعة الفرسان التيوتونيين في تاننبرج، وقتل سيد الجماعة فيها مع عدد كبير من الفرسان. ثم جاءت ثورة الأهالي، فانقسمت دور التيوتونيين، وانضم الجزء الأكبر منها إلي بولندا. ولكن بقية جماعة الفرسان إتحدت من جديد في براندبورج، وتبع سيدها الأعظم مذهب الإصلاح الديني، وجعل من بروسيا دوقية وراثية بعد أن حررها من حكم بولندا، ونشأت بروسيا بهذه الطريقة، وهي الدولة التي عملت علي توحيد ألمانيا، واحتفظت بشعار جماعة الفرسان للتيوتونيين، وهو النسر الأسود، علي علم الرايخ الألماني، بعد الوحدة.

٥- صقلية واليونان:

ولقد حاولت العناصر الألمانية السيطرة علي البحر المتوسط كذلك، وخاصة علي صقلية النورماندية. وكانت هذه الدولة خاضعة لروما، وطلبت

معونة البابا لتدعيم سلطانها علي الجزيرة. ولكن فردريك الثاني كان يطمع في فرض سيطرة امبراطوريته علي كل ايطاليا، فزوج أبنه من وريثه صقلية، وإنتقلت بذلك هذه الجزيرة من حكم النورمانديين لحكم الألمان.

وحاولت البابوية أن تمنع هذه العملية، وأصدرت قراراً بحرمان الإمبراطور الألماني، ولكنها عادت وتراجعت، وقدم فردريك ولاءه الإقطاعي من صقلية للبابوية. ولكنه عمل في نفس الوقت علي تحطيم الإقطاعيين الذين كان في وسع البابا أن يستند اليهم في الجزيرة، كما عمل علي ترويض رجال الدين. وحطم قلاع النورمانديين، وحكم الجزيرة بادارة بيروقراطية كانت تتبعه في تنقله من مكان لآخر، وفرض الضرائب علي غلة الأرض، والجزية علي المسلمين واليهود، واحتكر الحديد والنحاس والحرير والشعير والملح الذي كان يباع بستة أضعاف ثمنه. وكان فردريك الثاني يوجه الاقتصاد، ولصالحه الشخصي. وبني جامعة في نابولي حتي ينزع التعليم من أيدي رجال الكنيسة، وعمل علي كسب المسلمين في الجزيرة، وكان شخصياً يتحدث العربية، ولكنه وطنهم في أماكن معينة، وربط بينهم وبين الإنتاج الزراعي في الجزيرة، وحولهم إلي عبيد للأرض، كما استخدم عدداً منهم في قواته المسلحة كمرتزقة، وأنشأ لهم قلعة ومعسكراً في جنوب إيطاليا وحينما توفي فردريك حاولت اسرته الألمانية أن تستولي علي ميراثه، ولكن روما عملت علي التدخل، وفكرت في تنصيب أحد الفرنسيين أو ابن ملك انجلترا، أو شقيق ملك فرنسا علي صقلية، وساعدها علي ذلك قيام الثورة في الجزيرة ورغبة الأهالي في التحرر من تحكم الألمان.

واختـار البـابا شـارل دانجـو، شـقـيق القـديس لوي، ملك فـرنسـا ، لحكم صقلية، ونجح في تنصيبه ملكا علي صقلية، بعون الله، وعون البابا ، وامتدت أمـلاكـه علي كل نابلي، وأصـبح عـضـواً في مـجلس شيـوخ رومـا ، وترأس «الجلف» في إيطاليـا ، وناويء بذلك حـركـة الجـبلين، التي كـانت تـناصـر الإمبـراطورية في شبه الجزيرة وظهـر شارل علي أنه حامي الكنيسة، وأجبر الأهالي علي أن يقدموا الولاء، دون أن يعرفوا إن كان هذا الولاء له أو للبابا ، وتفاوض مع بيـدمونت ولومبـارديا وتوسكانيا باسمه وباسم رومـا ، وكـان من الناحيـة القـانونيـة خاضعـا للبـابا ، ولكنه أصبح من الناحيـة الفـعليـة سيـدا لإيطاليـة، بما فـيـهـا من الممتلكات البابوية. وحتي الجزية الخاصة بصقلية، لم يكن يدفعها بانتظام، وعلي العكس من ذلك نجده يستلم الغرامة الحربية، من حكام تونس، والتي بلغت مائتين وعـشرة آلاف أوقيـة من الذهب، وذلك بعد موت أخيه القديس لوي، أمام قرطاجة.

ولقد اعتبر شارل كل من تعاون مع الألمان أو خدمهم من قبل، من الخونة، فـصـادر أمـلاكـهم وطرد أبناءهم، ومنع التزواج مـعـهـم وبعـد أن حـاول الألمان السيطرة علي موارد الجزيرة، قـام شـارل بمحاولة فرنستـهـا ، فـعين الفرنجة في الوظائف، بشـكل جعلهم يسيطرون علي الجيش والإدارة والحصون والقصور. ووصل به الحـد إلي أن تمكن من ترشيح أحد الفرنسيين لمصب البـابا ، ووصل بالتـالي إلي أن يسيطر الأسـاقـفة الفرنسيين، بعد نجـاحه، علي شبـه الجزيرة الايطالية نفسها. واضطرت هذه السياسة العناصر الجرمانية الباقية في صقلية إلي أن تتقرب من العناصر العربية والاسلامية، وكانت كثيرة. في الوقت الذي إعتمد فيه شارل علي العناصر النورماندية، وكانت الضرائب ثقيلة علي كاهل

الأهالي، ولم يكن في وسعهم التهرب منها، كما كان عليه الحال في عهد الجرمان، وخاصة بعد أن قام شارل بتظيمها، وكانت هناك ضرائب علي المحاصيل، وعلي البهائم، وتضاعفت هذه الضرائب في مدة ست سنوات، حتي سرت روح الثورة في كل الجزيرة وأخذ الأهالي ينتقدون نظام الحكم الفرنسي وكثرة الموظفين، واحتكار المطاحن، وتجار الحبوب، كما إنتقدوا ترفع الفرنسيين، وإقامة الملك في نابولي، بدلا من إقامته في بالرمو، وتحدثوا عن تكديسه للثروات في خزائن بناها في أحد الحصون علي جزيرة مواجهة لنابولي.

ونشبت الثورة في إحدي الكنائس، رغم منع الأهالي من حمل السلاح في أماكن العبادة. ونشأت نتيجة لإعتداء أحد الفرنسيين علي إحدي الآنسات، فهاجمه الأهالي وقتلوه بسيفه. ثم بدأت حركة عامة لقتل كل الفرنسيين والإستيلاء علي أسلحتهم، ومن بالرمو انتشرت الثورة في كل اتجاه، واستولي الأهالي علي الحكم، وكونوا «الكومونات» وربما لعبت أيدي «الجبلين»، أصدقاء الألمان، وحكام أرغونة الذين كانوا يستعدون لغزو الجزيرة، والبيزنطيين الذين شعروا بتهديد شارل دانجو المباشر لهم – ربما لعبت أيديهم جميعا في التمهيد لهذه الثورة. ولكن الثابت علي أي حال هو أنها كانت ثورة المحكومين علي الموظفين، ودافعي للضرائب علي جامعيها، والأغلبية علي تحكم الأقلية، والقومية علي ظلم الإستعمار.

وبعد ترك الفرنسيين من بيت دانجو لحكم جزيرة صقلية، إحتفظوا بنابولي، ثم أسسوا دولة «رومانيا» وتمكن أحد أحفاد شارل دانجو من أن يصبح ملكا للمجر، وأصبح ابنه ملكا علي بولندا، وأضاف تاجها إلي تاج

المجر. ولكن فشل الفرنسيين في صقلية، قد أثر في البابوية، أكثر من تأثيره علي فرنسا نفسها.

وإذا كانت صقلية هي إحدي المحطات أو المراكز المؤيدة إلي الأراضي المقدسة، فإن بيزنطة كانت أهم هذه المراكز، نظراً لأنها كانت تتحكم في الطريق البري الموصل بين أوربا وآسيا، وكان أباطرة بيزنطة قد أساؤا معاملة الصليبيين، كما كانت ثروات هذه الإمبراطورية تغري الأوربيين علي السيطرة عليها، بالإضافة إلي أن هذه السيطرة قد تقضي علي الانقسام الموجود في الكنيسة، وقد يستبشر بها البابا ويباركها كحملة صليبية. ولذلك فإن الحملة الصليبية الرابعة قد اتجهت صوب القسطنطينية. وكانت هذه المدينة تجمع في داخلها عدداً كبيراً من التجار ورجال الأعمال الغربيين علاوة علي أهالي البندقية، الذين كانوا قد تحرروا من حكمها. ثم استعانت بهم ضد أخطار النورمانديين المتزايدة في البحر المتوسط، والذين كانت لهم أحياء خاصة بهم في المدينة. وبعد نداء البابا إينوسنت الثالث، اجتمعت هذه الحملة الصليبية في البندقية، وكان اتجاهها بيت المقدس لكي تحاول استخلاصها من صلاح الدين. ولكن أحد أبناء الأباطرة البيزنطيين المعزولين استنجد بها، فسارت الحملة إلي بيزنطة وإحتلتها، واستولي الصليبيون علي ما فيها من أموال وثروات وبضائع، وكانت هذه الحملة تتكون في غالبيتها من الفرنسيين والفلامنك وأهالي بيدمنت، فانتخبوا بودوان الفلامنكي امبراطوراً، وأنشئوا مملكة في سالونيك، ودوقية في أثينا ومركيزية في كورنثا، واستولت البندقية علي كريت وجزر بحر ايجه.

وأبعد الغزاة العناصر اليونانية من الوظائف الكبيرة، ولكنهم احتفظوا بالقوانين البيزنطية، وتركوا الأرض للفلاحين، وبدلا من أن يفرضوا الكنيسة الرومانية علي اليونانيين، وضعوا الكنيسة البيزنطية تحت حمايتهم، ولقد بقي الأباطرة اللاتينيون غرباء في القسطنطينية، وبدأ البلغار والأتراك في الضغط عليهم، وفي الوقت الذي كانت فيه البندقية تراقب حركاتهم، ففقدوا سالونيك، ثم أدرنه، ولم يبقي لهم في آخر الأمر إلا مدينة القسطنطينية وضواحيها، مما سمح لأسرة الأباطرة البيزنطيين السابقة بالتحالف مع جنوا، عدوة البندقية، والهجوم علي المدنية والاستيلاء عليها، ولم يعمر هذا الاستعمار اللاتيني في القسطنطينية إلا سبع وخمسين سنة.

أما قبرص فكان الصليبيون قد استولوا عليها من بيزنطة. وكان ريتشارد قلب الأسد قد استولي عليها ثم باعها لجماعة فرسان المعبد، الذين تنازلوا عنها، فيما بعد - لأسرة لوسينيان الفرنسية. واستمرت هذه الأسرة تحكم الجزيرة لمدة ثلاثة قرون وسيطر اللاتينيون علي المناصب الرئيسية في هذه الدولة، ولكنهم سمحوا لليونانيين بتولي بعض المناصب، بالخدمة في الجيش وازدهرت التجارة في هذه الجزيرة نتيجة لموقعها المتوسط بين الشرق والغرب، كما أن عددا كبيرا من الحجاج فضلوا عدم استمرارهم حتي بيت المقدس، وأقاموا بها، وأصبحت كذلك موطناً لكثير من الصليبيين العائدين من الأراضي المقدسة. فتحولت قبرص إلي مركز تجاري هام بين الشرق والغرب. وحاولت أسرة لوسينيان أن تستعين بالبندقية ضد جنوا، التي استولت علي فماجوستا، وسمح ذلك للبندقية بزيادة نفوذها في الجزيرة، ثم باستيلائها عليها.

وهكذا نري أن الصليبيات قد عملت علي نشر المسيحية في أوربا، وجعلتها تفكر في بدء التبشير في إفريقية والشرق الأوسط. وعاد الصليبيون من الشرق بنباتات جديدة مثل الأرز والقصب والقطن والزعفران، كما عادوا بأنواع جديدة من الأنسجة، وبأفكار جديدة، وكان التجار قد ساروا وراء الحملات الصليبية، وعرفوا أهمية تجارة الشرق الأدني، وأصبحت لهم أحياء بأكلمها في بعض المدن، مثل أنطاكية وبيت المقدس، أو مجرد فنادق في المدن الأقل أهمية من الناحية التجارية.

وكان التصدير في أول الأمر يتجه صوب أوربا، ولكن سرعان ما أخذ الصليبيون يطلبون سلع بلادهم، وأخذ تجار أوربا يصدرون الأنسجة الصوفية التي وجدت رواجا كبيرا في المشرق فتحول عجز الميزان التجاري الأوربي إلي فائض، وأصبحت العملية في صالح الرأسمالية الأوربية، خاصة وأن مصاريف نقل السلع من الشرق ومن الغرب كانت تدخل في جيوب أصحاب السفن، وكلهم من الأوربين. ويمكننا أن نضيف إلي ذلك تحول ما قام به الصليبيون بالإستيلاء عليه من أسلاب وغنائم إلي بلاد أوربا، مما أغني الكنائس والقصور.

ولكن علينا ألا ننسي ذلك العدد الكبير من الرجال الذين قتلوا في أثناء هذه الحروب، وألا ننسي فشل روما في توحيد العالم المسيحي، بل حتي توحيد إيطاليا وحدها، وشدة النزاع بينها وبين بيزنطة، وبين الفرنجة والجرمان، وبين البنادقة وأبناء جنوا، وبدلا من أن تقوم الكنيسة باخضاع الشعوب لها، وتقليل سلطة ملوكهم عليهم، نجد أن الملوك قد أفادوا من غيبة النبلاء والفرسان في الأراضي المقدسة، واستولوا علي أراضيهم وقضوا علي إمتيازاتهم. وخرج الإقطاعيون من هذه الحروب ضعفاء، واضطر بعضهم إلي

بيع أملاكه أو رهنها. ونشأت الضرائب المباشرة نتيجة للحاجة إلي الإنفاق علي هذه الحملات، وعمت هذه الضرائب خزائن الملوك في كل أنحاء أوربا وزادت أهمية الدول الأوربية بمجئ الغنائم من الشرق الأدني وبيزنطة، مما سمح للملوك بصك العملة الذهبية، وتركوا للنبلاء صك القطع الفضية أو البرونزية. فتفوقت السلطة المركزية من الناحية النقدية مثلما تفوقت في ميدان الضرائب وأدي ذلك إلي إزدياد سيادتها وسيطرتها السياسية.

وهكذا أعطت الحملات الصليبية لملوك أوربا وسائل إنتصارهم، بدلا من أن تعمل علي إضعافهم، وحررت الشعوب من البابا، بدلا من أن تزيد من خضوعهم له.

وكانت القوميات والدول هي التي تربح في كل عملية من عمليات الصليبيين، حتي ولو كانت هذه العمليات قد قامت باسم البابا، وتحت لوائه. فأنتهي عصر الإقطاع الذي عمل الملوك علي قطع رأسه من أعلي، في الوقت الذي عمل فيه التحرر علي نخر أرجله من أسفل. كما أنتهي عصر الفرسان والفروسية، مع معرفة البارودو استخدام المدفعية، وانتهي العصر الذي اعتقدت فيه الشعوب في وسائل روما، من صكوك غفران أو صكوك حرمان.

وأخذ الغرب يحارب وهو يتقهقر، فتقتتل فرنسا وإيطاليا لمدة قرن، أما الإمبراطورية الجرمانية فلا يبقي منها سوي الأسم، وأما إيطاليا فليست أكثر من مجموعة مدن متنافسة، وأما الممالك الأيبيرية فهي في حرب مع المغاربة. وذلك في الوقت الذي أخذت فيه مجموعات بشرية أخري في الزحف من وسط آسيا صوب الغرب. وليس معني هذا أن الاستعمار الأوربي قد انتهي، بل أن وسائله ستختلف، وكذلك العناصر القائمة به.

الفصل السابع

العصر الثاني للمراكز البحرية

إنتهي العهد الذي إستخدم فيه المستعمرون الدروع، لكي يظهر مستعمرون جدد لهم وسائل جديدة، تسمي الصرف، والرصيد، والودائع، والتأمين وعقود الشركات إنهم تجار وليسوا محاربون، وبحارة وليسوا من الفرسان. أما هدفهم فكان الربح أكثر منه الغزو، والمكاسب أكثر من كونها الأراضي. وقد اهتموا بإنشاء المراكز التجارية، كما فعل أهالي كريت والفينيقيون وأبناء قرطاجة واليونانيون، أنه العصر الثاني للمراكز البحرية، وللشركات التجارية، ولن تكون تجربتهم آخر تجربة في هذا الميدان.

١- الوسائل الجديدة:

في الوقت الذي كانت فيه الطرق البرية صعبة وغير مأمونة، أصبح الطريق البحري مفتوحاً لحركة النشاط الجديد، ونعني بالبحر هنا البحر المتوسط. وكان الغرب قد أبعد المسلمين عن مالطة وصقلية، ولم يكن الأتراك قد تمكنوا بعد من السيطرة علي المضايق. فظهر أن مستقبل أوروبا الغربية، في العالم، قد ارتبط بالماء.

ولقد تحسنت وسائل الملاحة، ورغم أن السفن الحربية كانت لا تزال تعتمد علي التجديف، إلا أن السفن التجارية قد أخذت في إستخدام الشراع المثلث، علي سارية أو ساريتين، مما سمح لها بالسير في اتجاه مخالف للرياح أو بزوايا معينة، وسمح لها كذلك بالالتفاف. وأصبحت السفن مزودة بثلاث أجهزة تسمح لها بالابتعاد عن الساحل، الأول هو البوصلة أو الابرة المغناطيسية

التي تسمح لها بمعرفة الشمال، والثاني هو الإسطرلاب الذي يعين لها خطوط العرض، والثالث هو الدفة المتحركة والمثبتة في مؤخرة السفن، والتي حلت محل المجداف الكبير، الذي كان البحارة يحاولون ادراته أو تثبيته في نقطة معينة، وبمشقة فأصبح من السهل بعد ذلك بناء سفن كبيرة، يمكنها أن تسير في أعالي البحار.

وكان معني بناء سفن كبيرة وقوية، إمكان شحنها بكميات أكبر من البضائع، وتطلب هذا بالتالي وسائل مادية أكبر، لتنفيذ هذه المشروعات. ولذلك فأننا نجد أن تقدم الوسائل المالية، جاء مكملا لتقدم الوسائل الفنية البحرية في هذا الميدان. فظهرت البنوك وانتشرت وبدلا من نقل الذهب والفضة، بدأ الممولون في إيداعها لدي أحد المختصين، والذي أصبح بالتالي مسئولا عن خزانة زبائنه. وأصبحت «الطاولة» التي يقع عليها الإيداع أو الدفع تسمي «البنك» بالإيطالية. وكان من السهل علي المودعين أن يدفعوا ما يرغبون في دفعه بأمر صغير لصاحب البنك. وإذا كانت العملية مصحوبة بتغيير نوع من النقود إلي نوع آخر، فهناك التحويل والصرف وإذا كانت الودائع مصحوبة بتعهد بإعادتها مع الربح، فهي سلفة. وبدأت بذلك العمليات المصرفية الرأسمالية، ومنذ بداية القرن الثالث عشر.

وفي نفس الوقت بدأ الأفراد يجتمعون ويضعون مواردهم سويا في مشروعات أكبر من أن تتحملها قوي فرد واحد منهم وبعد عقود التوريد وعقود الشركات، جاء التأمين البحري لكي يضمن العمليات ضد أخطار البحر. وسبق الإيطاليون غيرهم في هذا المدان، وأصبحت جنوا مركزاً لبنك سان جورج، أما مجي الريالتو في البندقية فأصبح من أكبر المراكز المالية،

وتخصصت هذه المدن، مع غيرها من مدن شبه الجزيرة الإيطالية في تقديم السلفيات، واحتفظت بسجلاتها ومراسلاتها التجارية، وأصبح في وسع المصدرين والمستوردين أن يحدوا فيها رؤوس الأموال اللازمة، والمعلومات الخاصة بالموردين والمستهلكين في مختلف الأقاليم.

وجاءت النقود المصرفية لكي تزيد وسائل العمل التي كانت تقوم بها القطع المعدنية، وظهرت قطع فضية كبيرة وأصبحت متداولة في كل أوربا، وأخذ الذهب في الغرب نفس الأهمية التي كانت له في الشرق مع الدينار والبيزنطي، وبخاصة في المدفوعات الدولية وإزدادت أهمية نوعين من القطع الذهبية التي ظهرت في العصور الصليبية، الأولي قامت فلورنسا بعكها وأسمتها فلوران، وإنتشرت بعد ذلك في كل إيطاليا وفي فرنسا وانجلترا والإمبراطورية، والثانية قامت البندقية بصكها، مشبهة في ذلك بفلورنسا، وأسستها الدوقة، وانتشرت بعد ذلك في المجر ومع الفرسان التوتونيين في بروسيا، وعرفها المشرق باسم الصكة. وهكذا تفتحت مناطق النفوذ المالية، ومناطق التغلغل المصرفية والإقتصادية، وسمح هذا النوع من الإستعمار النقدي بتمهيد الطريق لأنواع أخري من الإستعمار.

وانتشرت الأجور سواء للعامل، أو الموظف أو صاحب الحرفة، مع إنتشار النقود وإتساع استخدامها، فأثر ذلك بالتالي علي الاستعباد، وإختفي نظام الرق من أوربا، وزاد استغلال الإنسان لحيوانات الجر، وذلك باستخدام حزام الوسط، وطوق الرقبة، مما جعل هذه الحيوانات تتمكن من مضاعفة ما تجره. وتوفر مجهود الانسان في هذه العمليات، وأخيراً فإن سفر عدد من السادة في الحروب الصليبية قد ساعد علي تحرر أبناء القري وأبناء المدن. فاجتمعت بذلك العوامل الأساسية للأزدهار الصناعي.

ولم تكن هذه الصناعة سوي حرف المدن والبادية، وإن كانت قد أصبحت أكثر تخصصا وأكثر تنظيماً. وكان أهم هذه الحرف هي صناعة المنسوجات التي استغلت الأصواف، وانتشرت في كل أوربا، وعاشت منها جيوش من الغزالين والنساجين والصباغين وأخذت ميلان وفلورنسا وتسكانيا في التفنن في صبغ هذه الأنسجة، وأخذ الايطاليون يبيعونها ويوزعونها في جميع أنحاء العالم، وساعدت التجارة علي ازدهار هذه الصناعة، وجاءت المعارض والأسواق الدولية لكي تسهل تسويق السلع، وتساعد علي التوجيه إلي انتاج السع المطلوبة أكثر من غيرها. وكانت هناك سلسلة متتالية من المعارض والأسواق تمر في فرنسا وتصل شبه الجزيرة الإيطالية ببريطانيا وألمانيا. وحينما قامت الحروب بين فرنسا وانجلترا، تعطلت هذه الأسواق، وأصبحت هذه السلع تمر بين شمال أوربا وجنوبها بحريا، عبر المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، أو مع نهر الراين وعبر جبال الألب.

وكانت هذه هي الوسائل الجديدة من سفن ونقرد وأنسجة، أما الأهداف فكانت هي التعامل مع بلاد الشرق، رغم أنها اسلامية. ولقد حاول البابا أن يعارض أو يعترض علي قيام هذه الحركة مع المشرق ولكن الأيطاليين لم ينصتوا إليه. وأخذ الفاتيكان في اصدار صكوك الحرمان، ولكنه اضطر إلي ترك هذه العملية، وأغمض عينيه عنها، وكانت أوربا تحتاج إلي أن تبيع، سواء بموافقته أو بدونها، واحتاجت في ذلك إلي المراكز البحرية، وإلي الامتيازات، والمخازن والقواعد، التي كانت، في حقيقة الأمر الدعائم التي تقوم عليها المستعمرات وبدأ كل من البحارة والتجار في العمل.

٢- أهالي جنوا:

حاولت كل مواني الحوض الغربي للبحر المتوسط أن تجرب حظها وتعمل علي تصدير الأنسجة علي سفنها للمشرق، وتعود بالسفن محملة بالتوابل، وساهمت كل من برشلونة ومونبيلييه ومرسيليا وغيرها في هذه الحركة. كما ساهمت فيها جنوا وبيزا والبندقية في ايطاليا.

ورغم أن الاسبانيين كانوا قد انشغلوا بمشكلاتهم الخاصة عن الحروب الصليبية، إلا أنهم أولوا الاشتراك في هذه الحركة التجارية الجديدة. وكانت أنسجة الشمال تصل إلي برشلونة عن طريق نهر الرون، ثم بالطريق الساحلي الموازي لسواحل فرنسا الجنوبية، أو بالسفن رأسا، وكانت برشلونة توزع هذه السلع في كل اسبانيا، وحاولت أن تبيعها كذلك في صقلية وشمال افريقية وفي مصر. وكانت لها مراكز تجارية في دمياط والاسكندرية، وشركات في اليونان، واتحدت ارغونة ونافار تحت حكم اسرة ارغونة التي سيطرت علي ليون وقشتالة واستعدت لتوحيد اسبانيا، ثم انتزعت ميورقة من المسلمين ودعمت سلطة برشلونة في منطقتها. كما أنها حكمت صقلية، التي تخلصت من الحكم الفرنسي، واستعدت بعد ذلك لغزو كورسيكا وسردينيا وكانت كل هذه المحاولات تدل علي أن أبناء ارغونة كانوا عنيدين، وأنهم كانوا مصممين، بعد تخلصهم من تحكم الرومان والقوط والعرب، علي أن ينتقموا ويتوسعوا فيما حولهم، ويتحكموا في غيرهم، أنها روح إستعمارية واضحة كانت آخذة في النمو والتوسع.

أما أهالي جنوب فرنسا فكانوا يحاولون التجارة مع شمال افريقية، ومع شرق البحر المتوسط خاصة وأن سفنهم كانت موجودة. وكان لتجار مرسيليا

مراكز ومخازن تجارية في عكا واحتفظوا بفنادقهم في الاسكندرية رغم أن نشاطهم كان أقل من نشاط أهالي جنوا بكثير، ورغم أن جنوا كانت تنافسهم في هذا الميدان.

وأما بيزا فقد قامت بنشاط كبير، وأنشأت المراكز علي السواحل السورية في أثناء الحروب الصليبية، لكي تمون المسيحيين، وإن كانت قد استمرت في تزويد القاهرة بالأسلحة التي استخدمها المماليك في حربهم ضد المسيحيين. وحصل أهل بيزا من مصر علي تعريفة جمركية مخفضة لوارداتهم إلي الإسكندرية، وظلوا يتاجرون مع شمال إفريقية بعد هزيمة القديس لوي، بل وسيطروا علي التجارة الخارجية في مواني تونس وصفاقس، قابس وطرابلس. ولقد تمكنوا من الاستيلاء علي سردينيا عدة مرات، علاوة علي سيطرتهم علي كورسيكا نظير إيجار إسمي، بلغ جنيها ذهبيا واحداً يدفعونه للكرسي البابوي. ولكن جنوا تمكنت من هزيمة أسطول بيزا، وأسرت كثيراً من أهلها، واستولت إسرة آراغونة علي سردينيا، كما استولت جنوا علي كورسيكا، وقام نزاع بين أبناء الطبقة الارستقراطية في بيزا، وانتهي الأمر بخضوعهم لفلورنسا، وأصبحت سفن بيزا بعد ذلك تعمل لحساب الفلورنسيين.

وكانت جنوا تقع في مركز متوسط، من البحر المتوسط، وكانت في نفس الوقت اقرب من غيرها إلي مراكز الإنتاج الشمالية. وكان أهالي جنوا قد ربحوا كثيرا من الحروب الصليبية، وبخاصة في إماراتي طرابلس وانطاكية. وبعد انتهاء هذه الحروب اتجهت أنظار أبناء جنوا إلي الأراضي القريبة من مينائهم، وخاصة إلي كورسيكا وسردينيا، وامتد نشاطهم إلي الساحل الأفريقي، وتوسعوا في سبتة، واستمروا في المحيط الأطلسي حتي سلا،

ويظهر أنهم وصلوا إلي جزائر الكناريا. وأقاموا لأنفسهم قواعد في طرابلس وتونس وبجاية ووهران وتلمسان. واضطروا إلي محاربة العرب حتي يتمكنوا من فرض أنفسهم، ولكن سرعان ما أظهروا أنفسهم علي حقيقتهم كتجار، وتفاوضوا مع العرب، وعقدوا إتفاقات سمحت لهم بالسيطرة علي تجارة افريقية الداخلية، التي كانت تمر عبر هذه المواني. وكانت سفن جنوا تحمل المصنوعات الزجاجية، والأسلحة والأواني إلي العرب، وتعود محملة بالتبر والصوف والجلود والعبيد.

ولقد حاولت جنوا أن تبعد المنافسين لها من طريقها، وتمكنت من القضاء علي أهمية أبناء جنوب فرنسا، ولكنها لم تنجح في أبعاد خطر بحارة شمال أفريقية. وازدادت قوة أبناء أرغونة، مما اضطر جنوا إلي توجيه نشاطها صوب الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

وكانت لجنوا مصالحها في الاسكندرية منذ وقت طويل. فعملت علي التحالف مع الأباطرة اليونانيين لبيزنطة حينما وجدت أن البندقية قد تحالفت مع أباطرتها اللاتتيين. فانتصرت جنوا حينما عاد اليونانيون لحكم بيزنطة، وحصلت علي إمتيازات وتسهيلات كثيرة، وتمكنت من إنشاء حي بيرا وحي جلطة، علي الجانب الأيسر للقرن الذهبي، اللذان أصبحا مستعمرة لجنوا ومدينة شبه مستقلة، نمت علي ضفاف البوسفور، كمركز للأعمال البحرية والتجارية. وحصلت جنوا من البيزنطيين علي مراكز أخري، علي ساحل آسيا الصغري وعلي جزر خيوس وليسبوس، واستغلتها كمراكز بحرية، كما استغلت الإمكانيات الاقتصادية الموجودة فيها. واستقر أبناء جنوا في قبرص، وأقاموا مراكزهم التجارية في فماجوستا، ثم ارسلوا حملة احتلت هذه المدينة، وسيطروا

بذلك علي التجارة الخارجية لهذه الجزيرة. كما توغلوا في البحر الأسود، وانشئوا المراكز في القرم وعند مدخل بحر آزوف، وإشتروا منها الفراء والشمع والقمح والأسماك المملحة. وباعوا فيها منتجات بلادهم، والمنتجات التي كانت تأتي اليهم من مناطق أخري ولم تقتصر التجارة في هذه المراكز الأخيرة علي التعامل مع جنوب الروسيا، بل امتدت إلي السلع الآتية من آسيا، والتي كانت تصل بالقوافل من قبل إلي ممالك الفرنجة في سوريا، كما كان لأبناء جنوا مراكزهم في اللاذقية، فاشترو منها التوابل والأقمشة والأحجار الكريمة، وباعوا فيها الأنسجة الصوفية والأنبذة والحبوب.

ولم تصادف جنوا مصاعب كبيرة في مستعمراتها ومراكزها، خاصة وأن أهل غالبيتها كانوا من أبناء جنوا نفسها، ولكن بعض هذه المستعمرات، مثل القرم، كانت خاضعة لحكم جنوا، فكونت جنوا فيها مجلسا خاصا بها لإدارتها ولإرسال تعليماته إلي أحد القناصل الموجودين في المستعمرة للتنفيذ، أما فماجوستا فإن جنوا قد عينت أعضاء المجلس الخاص بها، ولكنه كان يجتمع في هذه المدينة. وأما بيرا وجلطة فكانت ادارتها شبه عسكرية. وأما [illegible] فكان حكم جنوا فيها اقطاعيا، إذ أنه كان في أيدي أسرة ارستقراطية من جنوا، وأما بقية جزر بحر إيجه فإن جنوا قد عهدت بها إلي شركات كان عليها أن تضمن الأمن الداخلي والدفاع الخارجي، وتنظيم المالية حسبما تري، ويمثلها أحد امراء البحر في الجزيرة لتنفيذ القرارات. وكانت اسهم هذه الشركات تباع في جنوا، كما كانت تباع فيها أنصبة من المستعمرات. ونجح هذا النظام، واجتذب عدداً من أصحاب رؤوس الأموال في جنوا، رغم المخاطرة الموجودة فيه، وإمكانية عدم الربح أو حتي الخسارة والإفلاس. واستخدمت

جنوا نفس الطريقة في كورسيكا التي انتشرت فيها الثورات رغم وجود حاميات قوية فيها. فكونت جنوا شركة لإدارتها وإبعاد نفوذ ارغونه عنها. وعممت جنوا هذه الطريقة، وأنشأت بنك سان جورج لتجميع رؤوس أموال كل ممولي الجمهورية، ثم عهدت له بكل ممتلكاتها فيما وراء البحار. وأصبح لهذا البنك مجلس إدارة، هو في واقع الأمر مجلس شيوخ، كما أصبحت له قواته، وباشر «السيادة» علي كورسيكا وعلي كل المراكز والمستعمرات الخاصة بجنوا.

وسواء أكان الشكل الخارجي لهذا الإستعمار هو عام أو شخصي. فإن أهدافه لم تكن إلا تجارية. وكان هدف القائمين عليه هو الشراء بأرخص الأثمان، ثم تيسير النقل، والبيع مع أكبر ربح وعمل أبناء جنوا علي الموازنة بين تكاليف السفر في الذهاب وتكاليفه في العودة، كما زاروا المعارض والأسواق الدولية، وعقدوا المعاهدات التجارية مع المدن. وجاء تجار كثيرون من فرنسا والفلاندر وبلاد الراين وانجلترا إلي جنوا ومعهم سلعهم من الأنسجة الصوفية، عارضين بيعها. وكانوا يعودون إلي مناطقهم بعد شرائهم للحراير والتوابل من جنوا. وكانوا يجدون في هذه المدينة كل ما يحتاجون إليه من سلع وسفن ورؤوس أموال وسلفيات، فكانوا يتعاملون ويستلفون، ويودعون ويضاربون، وكانت هذه المدينة تسحرهم بالطابع الشرقي الذي كان يسودها، ويؤثر حتي في لغة ولهجة أهلها.

ولكن قوة جنوا ورفاهيتها كانت رقيقة فكانت تحكمها جماعة تتكون من ثمانية أشخاص، ثم بدأت الفوضي تدب في المدينة بعد أن أصبح الحكم في أيدي قائدين من «قواد الشعب» يعاونهم أحد رجال الكنيسة باسم «راعي

الشعب» فتنازعوا على السلطة، وتنازعوا الاختصاصات، ثم بدأت الحروب الأهلية لتأييد هذا العنصر أو ذاك. وساعد على هذه الحروب الانقسام الفكري، وتضارب المصالح، بين السادة الجبليين، و«الشعب» الذي كان له اتجاه الحلف، أو بمعنى أدق، تبلور المصالح وتضاربها بين الارستقراطية والبرجوازية، إذ أن «الشعب» بالمفهوم الحقيقي كان مستغلا في هذا الصراع. وحاولت جنوا أن تنقذ الموقف بتسليم السلطة العليا فيها الدوقات من الذقات، ولكن هذا النظام لم يوقف الصراع الداخلي والذي ترأسته أسر جنوا الكبيرة. وأخذت الأحزاب في طلب المعونة الأجنبية، فدخلت جنوا تحت نفوذ ميلان ثم البابا أو نابلي أو فرنسا وكان تضارب المصالح مع البندقية سبباً أساسياً في إضعاف جنوا، خاصة وأن هذا التضارب والتنافس قد أخذ شكل حروب شبه مستمرة، وفي المشرق وبيزنطة وقبرص. وكانت للبندقية حكومة مدعمة في الوقت الذي تهلهل فيه حكم جنوا. ولقد انتهز المغاربة فرصة هذا الصراع، وتمكنوا في بعض السنوات من إقفال الملاحة في مضيق جبل طارق، ومنعوا سفن جنوا من الوصول بالتجارة إلي الفلاندر. وانتزع أبناء أراجونة جزيرة سردينيا من جنوا كما قام العثمانيون بطردها من المشرق. ولم يبق لجنوا في نهاية الأمر من امبراطوريتها سوي جزيرة كورسيكا، التي استمرت فيها الثورات حتي اضطرت جنوا في آخر الأمر إلي بيعها لفرنسا، بعد أن تقلص نفوذها فيها، وباعتها في نفس السنة التي ولد فيها نابليون علي هذه الجزيرة، وكانت جنوا قد أصابها سوء الحظ من قبل، ودون أن تفكر في ذلك وكان أحد أبنائها البحارة قد اقترح عليها إعداد حملة للبحث عن طريق جديد للهند، بالإتجاه صوب الغرب ولكن جنوا ترددت، خاصة وأنها كانت مشغولة بمراكزها الجديدة التي احتلتها في القرم، فسوفت في تنفيذ هذا المشروع، وقلت رغبتها

وامكانياتها في العمل، بعد أن تخلت عن كرستوف كولومب، وفقدت أكبر امبراطورية كان في وسعها أن تتصورها.

٣- البندقية وامبراطوريتها:

كانت البندقية تعيش علي الماء وكانت تعيش من الماء. وكانت غزوات اللومبارديين قد دفعت أهلها صوب البحيرات، وإلي الاعتصام بالجزر الموجودة فيها، وأجبرتهم علي المعيشة من صيد الأسماك واستخراج الملح، تحت حماية بيزنطة البعيدة.

ونمت البندقية حول كنيسة القديس مرقس، وكان نظام حكمها في أول الأمر عبارة عن «ملكية شعبية» إن جاز هذا التعبير، فعلي رأسها دوق، أو دوج، ينتخبه الشعب مدي الحياة، ولها مجلس مسئول وقوانين، ثم أصبحت السلطة أرستقراطية، وتحول مجلس «الشعب» إلي مجلس «السيادة» وأصبحت سلطة إنتخاب الدوق في أيدي أربعين عضوا، بعد أن انتزعت من أيدي الشعب وأصبحت هذه المجموعة تعد القوانين وتعرضها علي مجلس «السيادة» أو «العقلاء» أو «الشيوخ»، ونشأ مجلس آخر من عشرة أعضاء لإدارة الأمن والدبلوماسية والمالية، ثم سيطر علي كل السلطة، وعن طريق عدد من الموظفين الذين كانوا يديرون الحياة السياسية سراً، وبالتجسس والوشايات.

حقيقة أن الدوقية لم تكن وراثية، مما قد يؤدي إلي الفوضي، ولكن السلطة الحقيقية كانت مركزة في المجلس الأعلي والذي كان من شروط الأعضاء فيه. أن يكونوا من أبناء الأعضاء السابقين فيه، وكان هذا المجلس هو الذي ينتخب أعضاء مجلس العشرة، مما جعل مصير البندقية محصورا في

أيدي أبناء عدد محدد من الأسر الغنية في المدينة، وكانت السياسة الإقتصادية للبندقية موجهة، وكان هناك احتكار لتجارة الملح، وضرائب معينة علي استيراد الزيت والقمح، وإشراف تام علي الواردات والأسواق. ولكن الميدان كان متسعا للنشاط الحر وللتجارة ولأعمال المصارف، التي ازدهرت واستمرت في الإزدهار.

وأخذت البندقية في انشاء «فروع» لها ولتجارتها، كمراكز ومستعمرات، علي الساحل البلقاني المواجه لها في زارا. ومنذ هذه اللحظة بدأت في الشعور بضرورة تأمينها، والسير بسياستها وسط المنافسات «الدولية» والإقتصادية، فصممت علي التخلص من النفوذ البيزنطي، وعلي إنشاء إسطول قوي لها.

وحصلت البندقية علي امتيازات اقتصادية وتجارية في مملكة الفرنجة في بيت المقدس، وأصبحت تمتلك حيفا وثلث عسقلان وصور. وحصلت البندقية علي مكاسب من بيزنطة، وذلك باستيلائها علي كورفو، التي تشرف علي مدخل البحر الادرياتي، وبانشائها حيا خاصا بأبنائها في القسطنطينية، يشرف علي القرن الذهبي، وباعفائها من كل ضرائب الدخول والاستيراد وكانت البندقية هي التي حولت الحملة الصليبية الرابعة إلي القسطنطينية، لتعيين أباطرة لاتينيين علي عرشها. وكان هذا انتصارا كبيراً للبندقية التي أصبحت نصف القسطنطينية في أيديها. مع ما تشتمل عليه من كاتدرائية القديسة صوفيا فعينت فيها حكاما وازنت سلطتهم سلطة الأباطرة الرومانيين.
وكانت البندقية تختار نقطة هامة لإنشاء مراكزها ومستعمراتها، بدلا من أن تعمل علي الإستيلاء علي أراضي وأقاليم واسعة، فاستولت علي دور ازر

وكريت وغاليبولي وهرقلية علي بحر مرمرة، متجه بذلك صوب البحر الأسود.
ولقد أثر إنهيار الإمبراطورية اللاتينية وعودة اليونانيين إلي بيزنطة علي إمكانيات البندقة، خاصة وأن جنوا، منافستها، هي التي أخذت في تدعيم ركائزها هناك. واقتسمت كل من جنوا والبندقية مناطق النفوذ في الشرق، وإن لم يمنع ذلك من استمرار التنافس.

وأثر ذلك علي الحركة التجارية، خاصة وأن أعمال القرصنة، والاستيلاء كل من الطرفين علي سفن الآخر، قد أصبحت من صفات هذا التنافس، بل هذه الحرب الإقتصادية المستمرة. ودفع ذلك البندقية إلي تدعيم نفوذها، وتوسيع نطاق الأراضي الخاضعة لها، فأعادت احتلال كورفو، وسيطرت علي اثينا وسالونيك، وأخذت في مد مراكزها في البحر الأسود إلي الشمال من مصب الدانوب. وفي القرم، وفي مجر آزوف. كما عملت علي تنمية فنادقها في الاسكندرية والقاهرة، وعقدت اتفاقيات مع السلاطين المماليك. واستمر البنادقة في اللاذقية يشترون - إلي جانب أبناء جنوا - المتاجر الآتية من آسيا بالقوافل. أما قبرص فأن آخر ملوك أسرة لوسينيان فيها كان قد عمل علي التحالف مع البندقية، وتزوج من إحدي البندقيات، مما جعل جمهورية البندقية ترث هذه الجزيرة بعد موته.

وكانت قوة البندقية السياسية تستند علي عوامل اقتصادية. فقد كان هناك ستة عشر ألفا من العمال يخدمون في الورش البحرية، وكان في استطاعتهم بناء سفينة في كل يوم. وكانت مدينة الدوق مشهورة بصناعة المنسوجات، إذ كانت تنسج الأقطان المستوردة من سوريا والحرير المستورد من الصين وعمل رجال الحرف فيها علي صناعة المعادن والعاج والزجاج والبلور

المشهور. وكانت التجارة بالنسبة للبندقية، كما كانت بالنسبة لجنوا، هدف كل صناعة، وهدف كل سياسة. وكان الدبلوماسيون يعملون من أجلها، وكذلك المجالس والأنظمة التي أعطت السلطة لأسر التجار الكبيرة. وكانت البندقية تسيطر علي سوق القمح الذي تستورده من البحر الأسود والروسيا، وتسيطر علي أسواق التوابل والمنتجات الشرقية التي تستوردها من الشام، وكانت تستورد الزيت من كورفو والأنبذة من كريت واليونان. وكانت توزع المنتجات بين كل من آسيا وأوربا وافريقية.

وكانت هناك ثلاثة آلاف سفينة تحمل ستة وثلاثين ألفا من البحارة وتخرج من البندقية متجهة صوب شرق البحر المتوسط أو صوب الفلاندر في كل عام. وكان مجلس الشيوخ هو الذي ينظم هذه القوافل، وهو الذي يشرف علي انشاء السفن ويعين لها قوادها وما يلزم لها من بحارة وكان يترك ما بقي بعد ذلك، من بيع وشراء وعقد صفقات، للنشاط الفردي. وكانت البندقية هي التي توجه السياسة والادارة الخاصة بالمستعمرات، فكان نصف أعضاء مجلس العشرة مختصا بمشكلات ما وراء البحار، والنصف الثاني مختصا بمشكلات الممتلكات الموجودة علي القارة الأوربية. وكان مجلس الشيوخ يشرف علي الأسطول الحربي، ومجلس العشرة يشرف علي الدبلوماسية والمالية.

وكانت البندقية تربح من ممتلكاتها الخارجية، إذ كانت الضرائب التي تجمعها فيها تصل إلي ٦٤٠ كيلو جراما من الذهب في السنة، في أوائل القرن الخامس عشر، ثم زادت إلي ١٨٠٠٠ كيلو جراما في القرن السادس عشر. أما الارباح العامة، «والدخل القومي» الذي يصل إلي جيوب البنادقة

فكان أضعاف ذلك. وكانت البندقية تعهد بادارة ممتلكاتها إلي موظفين أو قناصل، وترسل لجانا للتفتيش علي إدارتهم وحساباتهم من وقت لآخر. وكانت لا تشرك الأهالي في الحكم، ولكنها كانت لا تستعبدهم، وإن كانت لا ترضي عن الفوضي، وتستخدم الشدة في كبتها حتي لا تعوق التجارة وتعطل الاسواق، كما حدث بالنسبة لكريت. وكانت تعهد في بعض الاوقات إلي بعض الكونتات بادارة مستعمراتها أو تعهد بها إلي أسر أرستقراطية، وخاصة في القارة الأوربية وعملت في بعض الحالات علي إحضار حاميات كبيرة، وعلي توطين بعض ابنائها في المستعمرات، كما حدث مع كريت. أي أنها استخدمت استعمار «التوطين» وأفادت من هذه العناصر الواردة إلي الجزيرة لتكوين إطارات أو قيادات لها وباشراف موظفي الدولة، حتي تقضي علي الروح الثورية.

ونجحت البندقية حيث فشلت جنوا، ولكن اتساع المسئوليات، وخاصة بعد أن استولي العثمانيون علي القسطنطينية، وبعد أن استولي الغزاة الجدد علي طرق الشرق، وبعد أن أخذ كل من الفرنسيين والاسبانيين في التنازع علي السيطرة علي ايطاليا نفسها. وتمكنت البندقية من الاحتفاظ بقبرص لمدة قرن بعد سقوط بيزنطة والاحتفاظ بكريت لمدة قرنين وبكورفو حتي آخر وقت للامبراطورية. وضعفت البندقية كدولة، ولكنها احتفظت بعظمتها وبرفاهيتها وثروتها، وظلت مركز سياحة لأوربا وموطن لهو ومجون، وظل نظام الدوقية فيها، حتي دخل بونابرت إلي إيطاليا، في نهاية القرن الثامن عشر.

٤- الجامعة الهنسية:

نجحت المدن الالمانية مجتمعة في القيام في شمال أوربا بنفس العمل الذي

قامت به كل من جنوا والبندقية بنفسها ولنفسها في البحر المتوسط. وكانت عمليتها هي نفس عملية الاستعمار لأغراض تجارية، ونفس عملية إنشاء المراكز التجارية شبه المستقلة والتي كانت تستخدم كمخازن وأسواق لبيع انسجة الفلاندر ومنتجات الصناعة الغربية، ولشراء منتجات الاهالي والمواد الخام الموجودة. ولكن مدن الشمال قد عملت علي توحيد عملياتها في الوقت الذي عملت فيه الفردية علي توزيع مجهود اللاتينيين، وساعد حب النظام أبناء الشمال علي الاستمرار في عمليتهم بهذا الشكل الخاص بهم، ورغم أنه لم يكن لأي مدينة من مدن شمال أوربا إمكانيات جنوا المالية، ولا إمكانيات البندقية البحرية، إلا أنها نجحت مجتمعة، وبوضعها ومواردها سوياً، في إنشاء إمبراطورية تجارية هامة.

ولقد نشأت هذه الاتحادات نتيجة لتطور إتحاد نقابات الحرف، سواء أكان ذلك لأهداف البر والإحسان، أو لإقامة الأعياد المهنية والدينية، في مدينة من المدن ثم إتحدت هذه النقابات في مدن مختلفة، وكونت لها قوات متحدة، لحراسة تجارتها، ومحاربة قطاع الطرق والقراصنة، أسمتها بالألمانية «هانسر»، وأخذت بالتالي في الإشراف علي تنظيم القوافل التجارية، البرية والبحرية ثم الأشراف علي الأسواق وعلي كل العمليات التجارية.

ونشأت الهانسا الخاصة بلندن بهذه الطريقة، وأخذت في حماية المواصلات بين انجلترا والفلاندر، وكذللك هانسا المدن السبعة عشر في هولندا. وهانسا «الماء» في منطقة السين في فرنسا، ثم تجمعت هذه الاتحادات سوياً، وتعاونت مالياً، ثم وضعت رؤوس أموالها في إتحاد عام، يساعدها علي مجابهة

الأخطار التي قد تتعرض لها تجارتها، وتحولت أعمال الاتحادات الهنسية من أعمال أمن إلي عمليات تجارية، ومشتركة.

وكانت الجامعة الهنسية الألمانية هي أشهر هذه الاتحادات، وعملت علي حماية أعضائها من الاستبداد الاقطاعي، مثل حمايتها لتجارتهم من قطاع الطرق. وتجمعت في هذه الجامعة مدن كولونيا مع مونستر ودور تموند، وأخذت في إستغلال مناطق البحر البلطي، وأنشأت لوبيك وروستوك، وأقامت مراكز لها في نوفجورود وعملت هذه الجامعة علي حماية صيادي الرنجة في لوبيك وغيرها. واضطرتها هذه السياسة إلي فرض نفسها علي البلاد الاسكندنافية، والتوسع فيها من ناحية، كما إضطرتها، من ناحية أخري، إلي التعامل مع العالم المسيحي، لكي تبيع أسماكها للكاثوليك، وخاصة لوجبات يوم الجمعة، ووجبات الصيام.

وانتقل مركز هذه الجامعة من كولونيا إلي لوبيك التي عقدت معاهدة صداقة وحرية تجارة مع هامبورج، ثم إنضمت إليها ستون مدينة من مواني البحر البلطي وبحر الشمال وحوض الراين، وكونت جميعاً الجامعة الهنسية، التي كانت في واقع الأمر عبارة عن حلف يهدف العمل ضد أي اعتداء خارجي، أو تحكم داخلي، ويهدف ضمان حرية طرق الصيد وتجارة الاسماك، والتوسع فيها. وانضمت زيوريخ وفرانكفورت ومدن الشمال والشرق، وبريمن ومجدبورج لهذه الجامعة. التي نجحت في توحيد المانيا وعلي أسس اقتصادية، بعد أن فشلت الامبراطورية الجرمانية في توحيدها علي أسس عسكرية ودينية، ونجحت فيها بوضعها لمواردها سوياً وبالاشتراك، بعد أن كانت تجربة الامبراطورية تقوم علي أساس هرمي.

وسيطرت الجامعة الهنسية علي مدن كثيرة في الأراضي الواطئة، مثل بروج وأنفرس وأمستردام، وكانت تدفع رسوم جمركية مخفضة علي بضائعها في بعض المدن، وتتمتع باعفاء كامل من هذه الضرائب والرسوم في مدن أخري، دون أن تصل تجارتها إلي إحتكار السوق احتكاراً كاملاً. وكانت الجامعة تستخلص الملح - لحفظ أسماكها - من غرب فرنسا، كما حصلت فيها علي إعفاء تجارتها من الضرائب، وحصلت علي حق البيع والشراء والتملك. وكانت الجامعة الهنسية تشتري الصوف من انجلترا، وتصدر إليها المنتجات الشرقية والاستوائية والخشب والمعادن. وكان لها مركزاً محصناً في لندن، يعيش فيه التجار الألمان معيشة تشبه إلي حد كبير معيشة الرهبان في الأديرة. وإضطرت الجامعة الهنسية إلي أن تحارب في بلاد الشمال الاسكندنافية، حتي تركز أقدامها في هذه المناطق، فأغارت علي كوبنهاجن، وفرضت نفسها علي الدانيماركيين والنرويجيين، وعقدت معاهدة تجارية معهم، حصلت بها علي ثلاث موان؛ ومركز ثابت للصيد، وبعد حرب ثانية حصلت الجامعة الهنسية علي بعض المراكز التجارية في الدانيمارك، وإعفاء من رسوم الملاحة البحرية، وإحتكار دخول البحر البلطي لسفنها. واحتلت الجامعة الهنسية استكهولم لكي تقضي علي العصابات وأوكار القراصنة الموجودة فيها، والموجودة بالقرب منها. وتمكن رجال الجامعة الهنسية من إنشاء المراكز التجارية، من البحر البلطي، في داخل الروسيا نفسها.

وهكذا إمتدت أراضي الجامعة الهنسية من انجلترا إلي الروسيا مستندة إلي مراكز ونقط ثابتة وكانت الجامعة الهنسية تشبه دولة منتظمة أكثر من شبهها بشركة تجارية، فكان لها مجلس أو برلمان، يجتمع في لوبيك مرة كل

ثلاث سنوات، وقسمت مناطق عملها إلي أربعة أقسام هي وستفاليا وعاصمتها كولونيا، وساكس وعاصمتها برنزويك، والفاند وعاصمتها لوبيك، وبروسيا وعاصمتها وانتزج، وكانت تعاقب كل مدينة عاصية وتفرض عليها الضرائب أو الغرامة أو تصادر سفنها وتجارتها. أو تطردها من الاتحاد، مما يؤدي إلي انهيارها الاقتصادي.

وكانت مراكزها في الخارج محاطة بأسوار، وتقفل أبوابها ليلا، ويحكمها ستة من الشيوخ، ويعاونهم مجلس من ثمانية عشر عضواً، وكان أبناء الجامعة يعيش في هده المحطات حسب نظام معين ودقيق، وحرم الاتحاد عليهم تكوين الشركات مع الأهالي، أو استخدام أبنائهم، أو الزواج معهم. كما حرم عليهم تمثيل هيئات غربية عن الجامعة الهنسية، والقيام بعمليات تجارية مستقلة أو لحسابهم الخاص ولم يكن من حق أي سلطة، سوي قضاة الجامعة، أن تتدخل في خصوماتهم، وطبقا لقوانينها، وكانت سلطة الاستئناف مركزة في محكمة لوبيك.

وكانت للجامعة الهنسية مواردها الثابتة من الضرائب. كأي دولة من الدول، وكانت تفرض رسماً معيناً علي السفن والبضائع التي تدخل موانيها، كما كان لها جيشها وأسطولها الحربي. وكانت تعلن الحرب، وتعقد الصلح.

وكانت قوتها ترجع إلي سياسة الاحتكار التي سارت عليها، إذ أنها كانت الوسيط الوحيد في كل العمليات التجارية في شمال أوربا، وكانت تبيع لهذه المناطق توابل الشرق، وتمنع سفن غرب أوربا من دخول المواني الاسكندنافية ومواني البحر البلطي وكانت هي وحدها التي تبيع الرنجة المجففة

والملحة والمدخنة لكل العالم، كما كانت تحتكر عنبر بروسيا وحديد السويد وأخشاب النرويج وفراء الروسيا وكان تجارها يتوغلون في القارة مع الأنهار، فكانوا يوصلون الأنسجة الفلامنكية إلي سيليزيا وبوهيميا، ويعودون منها بالمعادن وإذا كانت قيمة تجارة الجامعة الهنسية أقل من قيمة تجارة المدن الايطالية، إلا أن حجمها كان يماثل حجم تجارة هذه المدن.

وبدأ ضعف الجامعة الهنسية من داخلها. ذلك أن أهالي المدن الألمانية أخذوا في الثورة علي دكتاتورية الارستقراطية التجارية، وتمكنت الأحزاب «الشعبية» من الوصول في بعض الحالات إلي الحكم. كما أن التنافس قد ظهر، ثم تزايد بين مدن البحر البلطي ومدن بحر الشمال، وفشلت لوبيك في فرض نفسها، والوحدة الهنسية، علي المتنافسين. ثم جاءت عوامل خارجية ساعدت علي اضعاف الجامعة الهنسية، ذلك أن هذه الجامعة قد إضطرت إلي اعلان الحرب علي الدول الاسكندنافية الثلاث التي اتحدت مع بعضها، حتي تحتفظ بمصالحها هناك كما قامت جماعة الاخوان التيوتونيين بتأييد المدن البروسية في حركة تحررها وخروجها من الجامعة ثم استولت بولندا علي دانتزج، وعملت علي الحصول علي مركز متفوق في البحر البلطي، وادعي الانجليز أنهم يفضلون «حرية التجارة»، واستندوا إلي ذلك لقطع علاقاتهم مع الجامعة الهنسية، وللاستيلاء علي تجارتها وسفنها الموجودة في المواني البريطانية. وبعد حرب أربع سنوات، وعادت امتيازات الجامعة الهنسية إليها، للاتجار مع لندن وبعض المواني البريطانية، ولكن بريطانيا حصلت في نفس الوقت علي حق الاتجار مع مواني البحر البلطي، وكانت هذه أول ثغرة في نظام الاحتكار الذي أقامته الجامعة الهنسية حول هذا البحر. وتمكنت بريطانيا

من التحرر، وجمعت رسوم الجمارك علي البضائع الواردة اليها، ثم ألغت امتيازات الجامعة الهنسية فيها، وأردفت ذلك بالاستيلاء علي سفنها، واقفال موانيها، في وجه تجارتها. ثم تحولت الأراضي الواطئة إلي دولة بحرية، وأخذت سفنها المحملة بالأنسجة والملح تدخل إلي البحر البلطي، دون أن تتمكن الجامعة الهنسية من التعرض لها. وقت الرنجة من البحر البلطي، واضطر الصيادون الألمان إلي متابعتها أمام سواحل الأراضي الواطئة، في أوائل القرن السادس عشر، حيث اصطدموا هناك الهولنديين والانجليز والاسكتلنديين. وجاء إنتشار المذهب البروتستانتي ضربة إقتصادية قاسية لأهم موارد الجامعة الهنسية، وهو الأسماك، خاصة وأن مذاهب الإصلاح كانت لا تصر علي ضرورة أكلها في أيام الجمعة وفترات الصيام وساعد عصر النهضة وزيادة تربية البهائم، مع إنتشار المراعي، علي زيادة استهلاك اللحوم بدلا من الأسماك. وأخذت بريطانيا في منع تصدير الصوف إلي الجامعة الهنسية، وأخذت في غزل ونسج الصوف في بلادها. وأخذت المدن المتحدة في الجامعة الهنسية في التفكك والإنفصال، كما حصلت مراكزها علي حريتها، وانخفض عدد المدن الأعضاء من ٩٢ إلي ٦٢ ثم إلي أربعة عشر، فثلاثة، هي لوبيك وبريمن وهامبورج. واجتمع مجلس الجامعة الهنسية أو برلمانها لآخر مرة سنة ١٦٦٩، وكان قراره الوحيد في هذه الجلسة هو حل الجامعة.

٥- الأستبس والعثمانيون:

وكان الشرق الأقصي قد بدأ في الحركة في نفس الوقت الذي بدأ فيه الغرب في الاستيقاظ، وظهرت الحروب الصليبية ومشروعات المراكز البحرية التجارية وكأنها لعب صغيرة إلي جانب هذه الهجرات البشرية التي بدأت من

الاستبس. وكان المسيحيون والايطاليون يستعمرون حول حوض البحر المتوسط، كما كانت الجامعة الهنسية تعمل في بحر الشمال والبحر البلطي، ولكن جموع المغول قد عملت علي الانتشار في كل المناطق الأخري، ولم تحدد نطاق عملياتها وتمكنت من تكوين امبراطوريات كبيرة.

وكان المغول يتنقلون في المنطقة الواقعة بين غابات سيبريا في الشمال، وصحراء جوبي في الجنوب، وكانوا يعيشون في الشمال علي الصيد، وفي الجنوب علي الرعي، أي أنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد، في السلم الحضاري، إلي مرحلة للزراعة والتوطن.

وتمكن رئيسهم تيموجين، أي الحداد، من تنظيم جيش كبير وقوي، معتمداً في ذلك علي النظام العشري، الذي يسهل التعبئة والعمليات: جماعات من عشرة رجال وسرايا من مائة، وكتائب من ألف، وآلايات من عشرة آلاف، وفيالق من مائة ألف. وكان شديداً وصارماً، فعاقب السرقة بالقتل، ونظم الأسلاب التي كانت لا تبدأ إلا بأمر، وكان يستولي علي عشر هذه الأسلاب لخزانته الخاصة. وتمكن هذا الرئيس من اخضاع القبائل الأخري، ثم هزم التتار المجاورين للمغول، وقتل منهم الكثير، وأدخل الباقين تحت سيطرته وأصبح الخان الأكبر، جنكيز خان.

وبدأ بالصين، وأمر باحراق بكين، ثم هجم علي التركستان وإيران والروسيا، واكتسح كل ما اعترض طريقه ثم عاد إلي الصين حيث توفي، بعد أن أنشأ امبراطورية تمتد علي طول ثمانية آلاف كيلو متراً. وقام إبنه بمواصلة غزاوته، فأتم تطهير شمال الصين، واستولي علي كوريا، ثم عاد صوب الروسيا وعبر بولندا والمجر ووصل إلي البحر الادرياتي. وقام قوبلاي، حفيد

جنكيز، بالهجوم علي آسيا الصغري وسوريا، وأحتل جنوب الصين، ونشر سيادة المغول علي أنام وكمبوديا. فأصبح فرسان الاستبس يسيطرون علي موسكو وبغداد وكانتون، ويحكمون أكبر جزء من العالم المعروف في ذلك الوقت.

وكان المغول بعد تخريب وتدمير المناطق التي يحتلونها، ينشئون إدارة خاصة فيها، وكانت لامبراطوريتهم عاصمة، انتقلت من وادي النهر الأصفر إلي منغوليا، وكانت مقراً للخان الأعظم، أو الخاقان. وكانت الامبرطورية تنقسم إلي خانات، إحداها في الصين والثانية في منغوليا والثالثة تركستانية في اروسيا والرابعة في فارس وكانت هذه الإدارة تعتمد علي الموظفين المغول أو الصينيين أو الفرس، وتضمهم علي رأس حكومات الأقاليم بدلا من الأهالي، وكانوا يبدءون عملهم بالاستيلاء علي الخيول وباحصاء الأهالي، ثم يأخذون في جمع الضرائب، ويعاقبون من يمتنع عن دفعها، ومن يتلاعب فيها. وكانت دولة المغول تهتم بالأمن وتشرف علي القوافل وتدير البريد وتحافظ علي النظام في أنحائها. وكان للمغول قانوناً مدنياً وجنائياً في نفس الوقت. ولقد ساعدت عملية توحيد جنكيز خان لآسيا علي تسهيل التوغل الاقتصادي الغربي في كل المنطقة، وأصبحت طرق الشرق الأقصي مفتوحة للتجار والمبشرين وإذا كان الرهبان الفرنسسكان قد حملوا رسائل البابا ولوي التاسع إلي خاقان المغول، وحاولوا كسبه إلي المسيحية، فإن بعض تجار البندقية قد ساروا علي نفس الطريق، وزاروا خانات جنوب الروسيا والتركستان والصين. واشتهر منهم ماركوبولو، الذي كتب مذكرات رحلته في هذه المناطق، بعد غيبة استمرت أربعة وعشرين سنة. ويذكر لنا كتاب «العجائب» الكثير عن ثورة

الصين وتجارتها وسفنها، وعن التوابل والأرز والسكر والحرير والنشاط التجاري والأوراق النقدية. مما يدل علي دقة ملاحظة كاتبه، ومما عمل علي إثارة خيال تجار الغرب.

وبدأت امبراطورية المغول في الانقسام بين أحفاد جنكيز خان، كما إنقسمت امبراطورية الاسكندر بعد موته بين كبار قواده. وكانت الصين هي أهم قسم من أقسام هذه الامبراطورية، وأسس فيها قوبلاي أسرة يوان، واتخذ بكين عاصمة لها، وأنهي بذلك حياة التنقل، وبدأ حياة الاستقرار. وكان قصره محاطاً بأسوار لها مالا يقل عن أربعة آلاف برج، ويضم في داخله عدداً كبيراً من القصور. وإذا كان قبلاي قد فشل في مشروعاته ضد اليابان وجاوا، إلا أنه قد سيطر علي كل أراضي وبلاد الصين نفسها. وكان المغول عدداً بسيطاً بالنسبة لمجموع أهالي الصين، ولكنهم سيطروا علي المراكز، وكونوا طبقة عليا حاكمة، وحرموا علي الصينيين حمل الأسلحة، وحتي تعلم اللغة المغولية، حتي يبعدوهم عن وظائف الدولة. ولكن خلفاء قبلاي كانوا أقل منهُ بأساً وقوة، وأكثر ضعفاً، فنشأت الفوضي وانتشرت الثورات بعد قرن من حكم المغول، وتمكنت أسرة المنج من الاستيلاء علي الحكم من أسرة يوان.

وكانت الروسيا في الجانب الآخر من الامبراطورية المغولية شبه مستقلة، تحت سيطرة الغزاة من الجنس الأصفر، وكان أحد أحفاد جنكيز قد مد حكمه علي معظم الروسيا، واتخذ عاصمة لها علي نهر الفولجا، ورفض الاشتراك في إنتخاب الخاقان، واحتفظ لنفسه بالمناطق الروسية التي أصبحت مغولية، دون أن تخضع لمنغوليا وكانت طرق حكمه تشبه حكم المناطق التاتارية الأخري، إذ كان يستولي علي أكبر كمية من الضرائب، ولكن موظفيه كانوا يحترمون

العادات والتقاليد والديانات المحلية، وتركوا الأمراء السابقين لهم يحكمون مناطقهم تحت سيطرتهم. وقاموا ببناء مخازن الحبوب وشق الطرق وتنظيم البريد. وكان المغول يوجهون كل شئ في الروسيا، ولهم نظام بوليسي أعطي للروسيين روحاسلبية متواكلة أمام وحشية الدولة ورجالها. وكان أكبر أخطائهم هو أبعاد الروسيا عن التيارات التي سادت في الغرب، وفي الوقت الذي بدأت فيه أوربا في اليقظة. وكانت صلات جنوا والبندقية من الجنوب مع الروسيا، وصلات الجامعة الهنسية معها من الشمال إقتصادية قبل أي شئ آخر. فنزل ستار حديدي بين العالم الأبيض والعالم الأصفر. وأخذت الروسيا في التقهقر في الوقت الذي إستمرت فيه بقية أوربا في التقدم. وتكونت موسكو ونمت، كما يقول ماركس، في ظل مدرسة التواكل والعبودية المغولية، ولم تشحذهمتها وتجمع قواتها، إلا لتكرسها للتفتن في الخضوع للاستعباد.

أما المنطقة الثالثة فكانت هي التركستان التي إعتنق أهلها الاسلام، والتي ظهر فيها تيمور الأعرج، أو تيمور لنك، الذي أعلن نفسه وارثاً لجنكيز خان، وخليفة له في حكم هذه المنطقة. ولقد عمل تيمور لنك علي عقاب مسلمي الهند وفارس وآسيا الصغري، وبدعوي إبتعادهم عن روح الاسلام الحقيقية. واستخدم القسوه مع بغداد وتفليس وأصفهان ودلهي وهزم الجيش العثماني وطالب بيزنطة بدفع الجزية واستولى على ازير من فرنسان رودس وإستعد لغزو الصين، لولا أن فاجأه الموت. وكان الجيش هو أهم شئ في دولة تيمور لنك، وكان منظما حسب تقسيم جنكير خان العشري. وعمل تيمورلنك علي نقل التحف والثروات، من جميع أنحاء امبراطوريته، إلي عاصمته سمرقند التي إزدهرت وأصبحت مركزاً لقوافل الهند والصين وآسيا الصغري

وخشيت أوربا تيمور لنك وقامت جنوا والبندقية وبيزنطة والعثمانيين بإنشاء تحالف ضده. ولكن هذا الحلف لم يعش لمدة طويلة، وإنهار بعد وفاة تيمور لنك، وإبتعاد الخطر الذي كان يوحد بين هذه القوي الأوروبية. ولكن إزدياد قوة تيمور لنك كانت قد أثرت في الروسيا، وجعلت الأسرة الحاكمة فيها تعهد ببعض السلطة، وبجمع الضرائب إلي الأمراء المحليين فزاد فيها نظام الاقطاع وتدعم. كما أن هذه الأسرة قد إعتنقت المسيحية علي المذهب الأرثوذكسي، وساعدت علي التبشير به، حتي توازن خطر التتار، وتوقف إنتشار الاسلام في مناطقها. وتحول مغول الروسيا، وأصبحوا روسيين، ونقلوا عاصمتهم إلي موسكو، وتركوا لقب «خان» وإختاروا لقب «قيصر» لرأس دولتهم.

أما في منطقة الشرق الأدني فأن الأتراك العثمانيين كانوا ينتقلون فيها، وأخذوا منذ عدة قرون في تهديد بيزنطة، التي لم ينقذها من خطرهم، ولفترة من الزمن، إلا هجرم تيمورلنك. ولكن تفكك امبراطورية تيمورلنك سمحت للاتراك العثمانيين بالاستعداد لشن الهجوم علي بيزنطة.

وتمكن العثمانيون من فتح الصرب والسيطرة علي البلقان وتطويق بيزنطة التي اضطرت إلي دفع الجزية لهم. ولم يكن في وسع الغرب ارسال حملة صليبية جديدة للدفاع عن هذه المدينة ضد الأخطار الاسلامية. خاصة وأن عصر الصليبيات كان قد انتهي، وكانت الكنيسة الكاثوليكية غير جادة في الدفاع عن الكنيسة اليونانية، كما كانت الكنيسة الارثوذكسية غير مستعدة للتجاوب مع روما. وأرسلت البندقية حفنة من الرجال، ولكن شجاعتهم لم تكن تكفي لصد الهجوم. وسقطت القسطنطينية في أيدي الغزاة العثمانيين، وتحول إسمها إلي استانبول، وتحول البحر الأسود إلي بحيرة تركية. وواصل

محمد الثاني، الفاتح، غزواته، واستولي علي اثينا والمرورة وجزر بحر إيجه وألبانيا والبوسنة، وطرد أبناد جنوا من القرم وبدأ في الاستعداد لغزو شبه الجزيرة الايطالية بعد أن استولت قواته علي أوترانت ولكن وفاته أوقفت العمليات في هذا الاتجاه.

وواصلت الامبراطورية توسعها في عصر خلفائه، فانتصر سليم علي الفرس واستولت قواته علي سوريا ومصر وبلاد العرب، ثم هجمت علي رودس واحتلتها، وضمت الأفلاق والبغدان مع جزء من المجر، واتحدت أقاليم شمال افريقية مع امبراطوريته، وأكمل سليمان القانوني هذه الامبراطورية التي امتدت في فترة قرن من الزمان من الدانوب إلي النيل ومن القوقاز إلي الأطلسي، وجددت الامبراطورية الاسلامية الأولي، بدون الأندلس، ولكن مع بيزنطة بدلا عنها.

وكانت السلطات كلها مركزة في أيدي السلطان العثماني، وبصفته الرئيس الأعلي لسلطات الحكم الزمنية، وبصفته خليفة للمسلمين. وكان يسيطر علي الادارة والقضاء والمالية والجيش. وكان الاستعمار عامة يفرض نفسه ورجاله علي المحكومين، أما الاستعمار العثماني فكان يختار رجال الحكم من بين العناصر المختلفة التي تسكن الامبراطورية، سواء أكانت من الأفلاق أو المغول، من السودانيين أو المجر. وكان يدربهم من صغرهم حتي يخلق منهم رجال دولة لا يعرفون إلا الاسلام والسلطان، فهو نظام استعماري يختلف كل الاختلاف عن النظم الاستعمارية الأخري ويقف وحيداً فريداً بخصائصه ومميزاته بين غيره من النظم. وكانت الدولة تنقسم إلي عدد من السناجق، واللواءات ، كل منها برئاسة أحد البكوات. وفضل الأتراك تطبيق

نظام الحكم غير المباشر أو الادارات شبه المستقلة، مع نوع من الحماية، في مناطق كثيرة خاضعة لهم، وعلي أساس دفع الجزية، ومساعدة الدولة بالجنود، وتمكنت الدولة من تكوين جيش كان أقوي الجيوش الموجودة في العالم في ذلك الوقت.

وأخيراً فإن العثمانيين قد أثروا، بطريق غير مباشر، علي التجارة الدولية في عصرهم. ذلك أنهم قد استولوا علي مراكز جنوا والبندقية في البحرين الأسود والأبيض، مما صعب تجارة التوابل، ورفع من أثمانها. وكان العثمانيون يسمحون لتجار إيطاليا بشراء التوابل والحرير من موانيهم، ولكنهم أخضعوا هذه السلع لضرائب مرتفعة. وكانت هناك حركة للوصول إلي الشرق الأقصي بالسفن، من المحيط الأطلسي، إما بالالتفاف حول افريقية، أو بمواصلة السفر صوب الغرب حتي يصلوا إلي الصين واليابان وجزر التوابل. وما دام الاسلام قد زحف علي أوربا من الشرق، واستولي علي بيزنطة، فلتعمل الدول الأوربية علي تطويقه والحصول علي المنتجات الاستوائية والشرقية دون وساطته، وتنتزع هذه الثروات من بين أيديه. وكان ذلك هو روح الكشوف الجغرافية في عصر النهضة.

٦- أولي مراكز الأطلسي وبداية العصر الحديث:

وقد إستمر العصر الثاني للمراكز البحرية رغم المغول والاتراك، أو بسببهم. ويساهم في هذا الدور أبناء أقاليم غرب أوربا المطلة علي المحيط الأطلسي، وخاصة بعد أن قلت أهمية البحر المتوسط بما فيه من جنوا والبندقية، وتمكنت دول غرب أوربا من الوصول إلي البحر البلطي دون أن تتمكن مدن الشمال من وقفها.

ويمكننا إعتبار الاسكندنافيين الموجودين في جرينلاند طليعة هذه الحركة التي عملت في المحيط الاطلسي. وكانوا قد أقاموا في هذه الجزيرة منذ قرون، واستعمروا سواحلها، وأتوا بالبهائم والأغنام من إيسلاند إليها. وقد إزدهر هذا الاستعمار وإمتد حتي خط ٧٣ْ شمالا، إلي أن تغير المناخ في أواسط القرن الرابع عشر، واشتدت درجة البرودة بشكل يؤثر علي الفلاحة والمحاصيل، وبشكل تسبب في هجرة كثير من عناصر الإسكيمو من الشمال صوب الاسكندنافيين في الجنوب. وبدأ الصراع بين أعداد الاسكيمو المتزايدة، وأعداد الإسكندنافيين المتناقصة. ولم يكن هناك شك في حتمية سيطرة الاسكيمو علي الجزيرة، وانتزعها من أيدي العناصر الاسكندنافية. ولقد حاول سكولب الدانيمركي استخدام جرينلاند قاعدة لحملة تتجه إلي الصين عن طريق الغرب، وقام مع أحد البرتغاليين بالملاحة بحذاء سواحل نيوفوندلاند ولكنه إضطر إلي الرجوع. ومع سيطرة الاسكيمو علي جرينلاند، إنتهي الاستعمار الإسكندنافي في هذه المنطقة.

أما الانجليز فكانوا بعيدين عن التفوق في البحار رغم أن بلادهم جزيرة تحيط بها المياه من كل جانب. وكان الانجليز يربون الأغنام ويحصلون علي الصوف، وتعلموا من الفلمنك عمليات عزله ونسجه. وعمل إدوارد الثالث علي حماية هذه الصناعة الناشئة في بلاده، وفرض الضرائب العالية علي تصدير الصوف، حتي يحتفظ بالمواد الأولية لانجلترا وكانت الصناعة أساساً للتجارة، وإضطر التجار إلي ركوب البحر حتي يصرفوا سلعهم، وأدي ذلك إلي منافستهم للفلمنك، وكفاحهم ضد الجامعة الهنسية، وأخذت بريطانيا تصدر منسوجاتها الصوفية إلي اكويتانيا، وكانت سفنها تعود من بوردو، عبر

المحيط الأطلسي، محملة بالأنبذة وقرر هنري السابع عدم السماح لأي سفينة أجنبية بنقل أنبذة بوردو إلي انجلترا، وكما قرر ضرورة سفر البضائع الانجليزية علي سفن تحملي العلم الانجليزي، فساعد ذلك علي نمو البحرية في انجلترا وعلي ظهور هذه الدولة كقوة بحرية لها أهميتها.

وأما الفرنسيون فكانوا يخاطرون بالسفر في ذلك الوقت أكثر من الانجليز. وتمكن جان دي بيتنكور Jean de Bethencourt من السفر علي سفينة مع ثمانين رجل صوب الجنوب، بعد أن خرب الانجليز أراضيه، ووصل إلي جزر كناريا واستولي علي «تين الريف» التي كانت تسكنها عناصر من بربر شمال افريقية، واتحد معهم ضد القراصنة الأسبان، وأعلن نفسه ملكا علي الجزيرة، ثم ترك إدارتها لأحد أقربائه. ولكن القراصنة الإنجليز هاجموا مطوله، فاضطر إلي التنازل عن جزر كناريا إلي قشتالة، التي طردت الأهالي من أراضهم، وقضت عليهم تماما.

وأما البرتغاليون فأن بلادهم كانت ذا موقع ممتاز علي المحيط الأطلسي وبشكل يوجه أنظارهم إلي السواحل الافريقية. وشعروا بضرورة استكشاف ما وراء هذا البحر، وكانت الدوافع الأولي لهذه العملية، دوافعاً عسكرية واستراتيجية. ذلك أن البرتغاليين كانوا قد خضعوا لفترة طويلة لحكم المسلمين، ورغبوا في القضاء علي هذا الخطر قضاء تاماً. ولذلك فأنهم قد بدءوا عملية توسيعهم الاستعماري بإحتلال سبتة وأصيلة سنة ١٤١٥، ثم أخضعوا طنجة سنة ١٤٧١ . وفكر البرتغاليون في الالتفاف حول أقاليم المسلمين ومراكزهم. وكانت هناك قصة منتشرة في أوربا تتحدث عن وجود مملكة مسيحية في قلب إفريقية، أو قلب آسيا، وعن رؤية الرحالة لملكها،

يوحنا الراعي، الذي تدعي القصة أنه كتب إلي البابا، وأنه ملك قوي وغني وخلط البرتغاليون بين هذا الملك ونجاشي الحبشة، وإعتقدوا في إمكانية الوصول إليه بالملاحة حول السواحل الافريقية، وظهر في نفس الوقت ميل «الدون هنري» ابن ملك البرتغال، للبحر والملاحة، بعد أن نصبه والده حاكماً علي إحدي مقاطعات البرتغال الجنوبية. فأنشأ مرصداً ومدرسة بحرية، وأخذ في بناء السفن، وإرسال الملاحين لإستكشاف المناطق المجهول، صوب الجنوب، عليهم يصلون إلي طريق التوابل، أو بلاد يوحنا الراعي، وينتقموا من الإسلام. وكانت أولي إكتشافاتهم هي جزر ماديرا والخالدات، التي قاموا بإحتلالها وإدخال زراعة الكروم وقصب السكر فيها. واستمرت سفنهم في السفر بحذاء الساحل الافريقي حتي وصلت إلي أسواق التبر الآتي من إفريقية السوداء، أنه «نهر الذهب» Rio de Oro. ثم وصلت هذه السفن إلي الرأس الأخضر ثم إلي سيراليون. وأنشأوا القلاع علي نقط مختلفة من الساحل، واستخدموها مراكز حربية وتجارية لهم. وعادوا من رحلاتهم ومعهم العبيد والقردة والببغاوات، ثم وصلوا إلي مصب الكنغو واستمر بارثليو دياز في السفر صوب الجنوب، إلي أن أختفي الشاطئ عن أعينه في أثناء إحدي العواصف، ولم يتمكن من رؤية الساحل الإفريقي إلا بالعودة صوب الشمال. ولم يكن هناك شك في أن دياز قد إلتف حول، أقصي جنوب إفريقية، ومر من المحيط الأطلسي، إلي المحيط الهندي حول النقطة التي أسماها ملك البرتغال برأس الرجاء الصالح.

وكان من حق البرتغال أن تستبشر بالمستقبل، خاصة وأن البابا قد منحها السيادة علي كل الأراضي التي تكتشفها، مع مسامحة كل من يموت في

حملاتها، وضمان الغفران له واحتكرت البرتغال الحق في الملاحة بحذاء السواحل الافريقية وحتي غينيا، ولم تسمح لأبناء الدول الأخري بالملاحة في هذه المناطق إلا بتصريح خاص من حكومة لشبونه. وكسب البرتغاليون الكثير من تجارة السواحل الافريقية، وانفتح الطريق أمامهم، وحتي الهند.

* * *

وهكذا نجد أن أوربا كانت قد بدأت في تغيير وجه تاريخ العالم. وذلك نتيجة للتغييرات الاقتصادية والمالية التي وقعت فيها. فظهرت الضرائب الثابتة، وكان إستخدام الأسلحة النارية والمدفعية يزيد من المصروفات العامة، وبشكل سريع. وأخذت الفنون الحربية الحديثة في اتمام القضاء علي من يبقي علي أرض المعركة من الإقطاعيين، أو في أثناء تقهقرهم، وذلك في صالح السلطة المركزية، كما أنها أعطت للأوربيين تفوقاً واضحاً في التسليح علي بقية العالم. وعمل الأوربيون علي إستخدام هذه الأسلحة وبسرعة، ولكن علي أساس تمكنهم من ايجاد الموارد اللازمة للاتفاق علي المدفعية، وإذا كانت الضرائب الثابتة، حتي إذا كانت قد عهد بها إلي جماعة من الرأسماليين الذين قاموا بالاثراء من ورائها، قد أصبحت غير كافية، فإن ذلك قد استدعي الإلتجاء إلي القروض. وهكذا انتصر النظام المالي الذي ساد في جنوا والبندقية وفلورنسا، رغم ضعف ايطاليا نفسها في ذلك الوقت، وظهور مدن أخري نافستها في الميدان المالي، مثل ليون ونورنبرج وفرانكفورت وأنفرس. وازدادت أهمية «الأسواق» المالية في هذه المدن، للتمويل، والاقتراض، وفي بيوت أصحاب البنوك مثل بيت فان دير بورص، الذي أعطي اسمه لأول سوق مالي في العالم. وأصبحت العمليات تتم علي أساس نقدي أو مالي أكثر مما تتم علي أساس سلع الصوف والنبيذ والمصنوعات.

وقلت أهمية الملوك أنفسهم، بصفتهم مسيطرين علي السياسة الدولية، ما داموا في حاجة إلي القروض، فأصبح الرأسماليون يسيطرون علي وزارة المالية في لندن، كما أصبح جاك كير يسيطر علي مالية فرنسا، ويستغل المناجم ويديد المئات من المصانع فيها، وفي بلجيكا الحالية وحتي في قبرص. وأصبح هؤلاء الرأسماليون يقرضون الملوك والأباطرة والبابا. وكان هذا تطوراً طبيعياً للعصر الثاني للمراكز البحرية، الذي استمر بعد جنوا والبندقية والجامعة الهنسية، مع هذه البيوتات المالية، والمصارف والبورصات.

وكثيراً ما كانت وسائل الدفع تعجز عن إتمام مهمتها في هذا الجهاز الكبير للأعمال، كما أن الغرب كان قد هضم ما استولي عليه من أسلاب شرقية في أثناء الحروب الصليبية، وأنهي علي فائض الميزان المالي مع شرق البحر المتوسط، وأخذ يقاسي من نقص المعادن النفيسة، وأعوزته المادة التي يمكن بها دفع قيمة عملياته التي نشأت مع هذه الوسائل الجديدة، من ورق ومطابع وكتب، ومدافع وسفن، ولوحات فنية وقصور. ولم يكن في وسع أوربا أن تتعامل بالأصداف بدلا من النقود، ولا بالأوراق النقدية مثل الصين. فأخذت تبحث عن كنوز تنتهبها، ومناجم ذهب تستغلها. ولم يكن في وسعها أن تجدها إلا فيما وراء البحار.

الباب الثالث

عصر النهضة وغزو العالم

الفصل الثامن

كولومب والعالم الجديد

بدأت فكرة الوصول إلى الهند عن طريق الغرب فى الإختمار فى رأس كريستوف كولومب بعد أن وقعت فى أيديه "صورة العالم" ، وهكذا يمكننا أن نقول أن الأتراك العثمانيين كانوا مسئولين ، بطريق غير مباشر، عن إكتشاف العالم الجديد، خاصة وأنهم قد ساهمرا فى إقفال طريق آسيا والشرق الأقصى ، المار فى الشرق الأدنى ، كما أن استيلاءهم على بيرنطية قد تسبب فى خروج عدد كبير من العلماء والأدباء من هذه المدينة وذهابهم إلى إيطاليا ، مما سمح للغرب بمعرفة التراث اليونانى القديم . وترجمت كتب بطليموس فى بولونيا إلى اللاتينية ، وكان يصر فيها على أن العالم مستدير. وطبعت "صورة العالم" ، وأخذ بعض العلماء الأوروبيين يعتقدون فى كروية الأرض . وكان الأوربيون يقرؤن فى ذلك الوقت كتابات ماركوبولو، ويحملون ببلادشيبا نحو (اليابان) وكاثاى (الصين) وبلاد الخان الأكبر أو الخاقان، كما كانوا يقرؤن كتب الجغرافية وقصص الملك يوحنا الراعى . وكانوا يؤكدون وجود أراضى وجزر غريبة وعجيبة فى المحيط الأطلسى ، مثل الآتلانتيد ، التى تحدث عنها أفلاطون ، وجزر الآنتيل ، التى التجأ إليها سبعة أساقفة فروا حسب الرواية من "وحشية" المغاربة المسلمين . وكان الأوربيون يروون هذه القصص ، ويشيرون إلى أماكنها على خرائط العالم، وكأنها موجودة بالفعل وفى هذا الوقت وفى هذا الجو ظهر كريستوف كولومب البحار ، وظهر فى جنوا.

(١) كريستوف كولومب:

كان كريستوف كولومب شاعراً ومسيحياً وواقعياً فى نفس الوقت. كان شاعراً لأنه تأثر بالكتابات والروايات المنتشرة فى عصره، ومسيحياً لأنه كان مستعداً للقيام بحملة صليبية جديدة ، وواقعياً لأنه إعتقد فى أن الأرض كروية، وأنه يمكنه أن يجد فى الغرب ، ما قام أجداده بالبحث عنه فى الشرق.

ولكن خرائط ذلك الوقت كانت غير دقيقة ، وكانت تقرب المسافات كما أن أخطاء أخرى كانت موجودة وراء دوافع كولومب ، فلم يعد هناك خان أكبر ، أو خاقان فى الصين، ولم يكن هناك يوحنا الراعى فى الهند ، ولا فى غيرها من البلاد ، ولم تكن هناك قارة تسمى الأتلانتيد . ولذلك فإن إكتشاف العالم الجديد كان وليداً للصدفة، ولكنه كان فى نفس الوقت وليداً للرغبة فى الحصول على الذهب والفضة ، والتى كان الإقتصاد الأوربى فى أشد الحاجة إليها، وكذلك الرغبة فى الحصول على التوابل اللازمة للأوروبيين . وكان المستكشفون يتميزون بحب المغامرة، وإذا كان بعضهم كان يحلم بأن يعيش معيشة الفرسان فى أوربا ، فإنه كان يحاول الوصول إلى ميادين معارك جديدة ، وفى آفاق جديدة . وكانت هناك دوافع دينية ، إذ أن الغزاة قد اعتبروا أنفسهم من الصليبيين ، وكان كولومب وأنصاره يعتقدون أنهم ينشرون المسحية ويرفعون الصليب فى بلاد "الكفار" ، ورغم تكالبهم على الذهب والفضة والتوابل والملذات الجسدية ، فإنهم قد كافحوا كمسيحيين وماتو كمسيحيين وفى مشروع مسيحى ، فى أعينهم وفى أعين

العالم كله فى ذلك الوقت ، وكان كولومب من جنوا، تلك المدينة التى تسير فيها الأعمال الرأسمالية ، والمسيحية ، جنباً إلى جنب. وبعد أن فشل فى الحصول على مساعدة ملك البرتغال وملوك آخرين فى أوربا ، تقدم إلى ملك أسبانيا وملكتها، فرديناند وايزابلا،. وذكر لهم أن هدفه الأخير هو تخليص الأراضى المقدسة ، واستخدام الكنوز التى سيعود بها من رحلاته فى هذه العملية ولقد عينته اسبانيا أميراً للبحر، ونائباً للملك، فى كلا البلاد التى يكتشفها، ومنحته الحق فى عشر اللآلىء والأحجار الكريمة والذهب والفضة والتوابل ، وأى سلع يجدها فى هذه البلاد.

وجهز كولومب ثلاث سفن عليها تسعون بحاراً ، وثلاثون مسافراً بينهم طبيب وجراح ومترجم وموثق ، وأقلع بها من بالوس صوب جزائر كناريا، ثم إلى عرض المحيط ، دون أن يعلم أنه بدأ أكبر حركة للإستعمار فى تاريخ العالم. وكانت الرحلة هادئة ، ولكن البحارة كانوا قلقين ، وكانوا يعتقدون دائماً أن هناك أرضاً تلوح على خط الأفق ، ولكن آمالهم كانت تخيب . وطلب مساعدة كولومب منه أن يحول اتجاه السير قليلا إلى الجنوب ، بدلا من مواصلة السير صوب الغرب . ولولا هذا التغيير لوصول كولومب إلى فلوريدا ، ولاصبحت الولايات المتحدة الأمريكية مستعمرة أسبانية . ولكن كولومب وافق على نصيحة مساعديه ، ووصل إلى أمريكا الوسطى ، التى ستصبح مع أمريكا الجنوبية من مستعمرات الملوك الكاثوليك.

وتأكدت دلائل الإقتراب من الأرض فى اليوم السبعين للرحلة، وذلك بعد أن شاهد البحارة بعض الحشائش وأحد فروع الأشجار تعوم على وجه

الماء، كما شاهدوا بعض الطيور ، ثم ظهر الساحل . فاقتربت السفن وأنزلت القوارب ، وقفز منها كولومب على الشاطىء ، وركع وقبل الأرض ، وحمد الله ، ثم أشهرسيفه ورفع علم قشتالة ، وأمر الموثق بتحرير وثيقة الاستيلاء على هذه الأراضى باسم فرديناند وايزابلا فى سنة ١٤٩٢.

ولم يكن هذا الساحل ساحل الصين . ولابلاد الذهب ، إذ أن كولومب كان قد وصل إلى إحدى جزر اليهاما فى شمال كوبا . أما الأهالى فقد خافوا من رؤية السفن والأشرعة والرجال الإسبانيين ، ثم أخذوا فى الاقتراب منهم لمحاولة التعرف عليهم، فمنحهم كولومب بعض الخرز والأجراس الصغيرة التى كان قد أحضرها معه. وكان لون الأهالى داكنا ، وأطلق الاسبانيون عليهم اسم الهنود ، وبقى هذا الإسم مستعملا حتى الآن.

وواصل الأميرال حملته من جزيرة إلى جزيرة ، باحثا عن الذهب والتوابل، والخان الأعظم الذى كان يحمل له خطاب توصية من ملك أسبانيا. وكان الأهالى يدلونه على أن الذهب يوجد عند القبائل المجاورة لهم ، وبدلا من التوابل لم يجد سوى القطن. إلا أنه لاحظ نباتات وشجيرات كثيرة، يمكن إستخدامها فى الصباغة وفى الصيدلة والطب فى أوربا ، ثم وصل إلى كوبا، وسماها جوانا نسبة إلى ولى عهد قشتالة ، ثم وصل إلى هاياتى وسماها هسبانيولا، وبنى فيها قلعة ، وترك فيها تسعة وثلاثين بحارا، كانوا أول المعمرين من أوربا فى العالم الجديد.

وعاد كولومب بعد ذلك إلى أسبانيا التى استقبلته الأبطال الغزاة، وهتفت الجماهير باسمه ، وأنعم عليه الملك والملكة . وإذا كان كولومب قد

عاد بكمية قليلة من الذهب والجواهر وبعض الببغاوات والهنود الحمر من كوبا ، إلا أنه كان يحمل الأمل فى الاستيلاء على مستعمرة كبيرة ، وليس لها حدود . وسافر كولومب من جديد ، كأمير للبحر المحيط ، ونائباً للملك فى الهند وبلغت رحلاته أربعة ، إكتشف فيها جزر الأنتيل والبحر الكاريبى، وبحث فيها عن مصب الكنج ، ولكن بدون فائدة .

وظهرت المصاعب أمام كولومب ، ثم ازدادت فى كل يوم ، ولقد بدأت هذه المصاعب مع الأهالى ، الذى صعب على الإسبانيين التفاهم معهم، وصعب علىهم إجبارهم على احترامهم . وكان كولومب يعتقد أنه أتى بالسعاة الأزلية لهم، وذلك بمنحهم الحضارة الاسبانية ، وبتعرفهم على إله المسيحيين . ولم يطلب منهم فى نظير ذلك سوى الذهب، ولم يعطه الأهالى منه الكثير.

ولقد وجد الهنود أن الاسبانيين قساة القلوب ، وشهوانيين، فقتلوا كل المعمرين الذين أقاموا فى هسبانيولا ، وكانوا مستعدين لقتل غيرهم. وبدأت مصاعب كولومب مع الاسبانيين أنفسهم ، وعملت الغيرة والوشاية عملها فى هذا الميدان ، وتمرد عليه بعض الاسبانيين . ونظر إليه آخرون على أنه إيطالى . وخابت آمال كولومب فى البلاط نفسه، الذى ظهر تردده تجاه كولومب بعد هذه الوشايات . ونقد الوشاة مشروعات كولومب ، وذكروا أنها تكلف اسبانيا أكثر مما تدر عليه، وأنه فشل فى العثور على تلال الذهب وشحنات التوابل . فأرسل البلاط حاكماً جديدا للمستعمرات ، وزوده بسلطات مطلقة ، وكان وصوله يعنى بالنسبة لكولومب نهاية رضاء القصر.

وسرعان ماكبل الحاكم كولومب بالسلاسل وأرسله إلى اسبانيا. وإن كان الملوك الكاثوليك قد أطلقوا سراحه فيما بعد ، وأعترفوا بأنه كان أول غزاة العالم الجديد.

وأخذت المستعمرة فى الإزدهار رغم كل ذلك ، ووصل آلاف المغامرين إلى هسبانيولا وكوقا وانتقلوا من مركز لآخر ، وأقاموا فى الانتيل فى بورتو ريكو ، وفى جمايكا ، وفى جزر البحر الكاريبي. ولم يكن هذا هو العالم الجديد، وإن كان عالماً جديداً.

ولقد آثار هذا الأسشكاف مشكلة سياسية ، خاصة وأن روما كانت قد أعطت للبرتغال كل الأراضى الواقعة على طريق الهند. فأرسل الملوك الكاثوليك السقارات من أسبانيا إلى الفاتيكان ، لكى يشرحوا أن ممالكهم الجديدة هى انتصار كبير للمسيحية ، ولكى يطلبوا من البابا منحهم هذه الأقاليم. ووافق البابا اسكندر السادس ، وكان إسبانيا ، وأصدر مرسوما منح به ملك وملكة اسبانيا الامتيازات المماثلة لتلك التى أعطاها لملك البرتغال فى اكتشافاتهم الإفريقية. ثم أصدر مرسوما ثانياً لمنع أى طعن من هذا الجانب أو ذلك، وقسم الامبراطوريتين بخط يمر من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ، على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات ، وجزر الرأس الأخضر. فأصبح كل مايقع إلى غرب هذا الخط من نصيب اسبانيا ، وكل مايقع إلى شرقه من نصيب البرتغال . ولكن برشلونة طعنت فى هذا التقسيم ، ثم تفاوضت وحصلت من إسبانيا ومن البابا على مرسوم آخر ، نقل خط التقسيم إلى ثلاثمائة وستين فرسخا إلى الغرب من جزر الرأس

الأخضر سنة ١٤٩٤ . وحدد هذا المرسوم البابوى لتقسيم العالم،. طرق الكشوف والاستعمار الموصلة إلى الهند ، وترك الطريق العربى للاسبانيين ، والطريق الشرقى للبرتغاليين . ،لكن أحدا فى روما أو اشبيلية أو لشبونة لم يفكر فى ذلك الوقت فى أن هذا الخط سيقسم القارة الأمريكية، وأنه سيجعل من البرازيل مستعمرة وواجهة برتغالية ، لقارة ستصبح إسبانية . ولم يفكر الاسبان والبرتغال إلا فى الاسراع فى مشروعاتهم ، التى كانت تهدف الهند، سواء من الغرب أو من الشرق.

أما كوستوف كولومب فانه قد قضى مابقى له من أيام فى الخيالات. واصر على أنه قد وصل إلى آسيا واكتشف سواحلها ، ونزل إلى قارة "الهند" . كما أصر على حقوقه وحقوق ورثته ونصيبهم فى الأرباح، وعلى ضرورة العمل على تخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين . لقد كان يهذى وكان لايعرف المجد الذى سيسجله التاريخ . ونقلت جثته بعد وفاته إلى الجزر التى اكتشفها ، والتى كانت وطنه الثالث، بعد جنوا وبعد اسبانيا.

(٢) الامبراطوريات السابقة لكولومب:

ولقداشتمل العالم الجديد على امبراطوريتين هما امبراطورية الأزاتكة فى المكسيك ، وامبراطورية الإنكا فى بيرو، فى الوقت السابق لوصول الاسبانيين ، وكانوا قد استعمروا غيرهم قبل أن يقوم الاسبانيون باستعمارهم.

أما امبـراطورية الأزاتكة فكانت تمتد من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ، ومن هضبة المكسيك حتى نيكارجوا . وكان الأزاتكه قد جاءوا من الشمال فى القرن الثالث عشر، وانشئوا مدينة فى وسط المستنقعات ، وفى المكان الذى شاهدوا فيه نسراً كبيراً يأكل حية ضخمة. فاعتقدوا أنها اشارة من ربهم "مكسيتلى" لوقف سيرهم ، وبناء عاصمتهم ، التى ستحمل إسم مكسيكو. وسرعان ماتحدت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية. وسادت قوانين الأزاتكة ، وانتشرت آلهتهم فى كل المنطقة . وتحدث الفلاسفة وعلماء الآثار عن عادات الأزاتكة وما تركوه من قصور ومعابد وأهرامات ، وعلينا ألا ننسى وحشية الأهالى فى هذا الإقليم ، وهذا العصر.وذلك أن الأزاتكة كانوا يحبون الدماء ، وكانوا يتركون للفرد حرية اختيار مستقبله ، ولكن على أساس إحتفاظ الدولة بحق التضحية به، وكما نرى ، بمجرد أن تطلب الآلهة تقديم القرابين والصحيات لها. وقام الأزاتكه بذبح عشرين ألف رجل ، وبإحراق قلوبهم بعد انتزاعها من أجسادهم ، كضحية لافتتاح معبد مكسيتلى . وكان الأزاتكه يسلخون بعض البنات، وهن أحياء، فى إحتفالات عودة فصول معينة فى كل عام. أما المجتمع فكان أوليجاركياً فى أول الأمر، وله مجلس شورى ، وينتخب رئيسين مدى الحياة: الأول لإدارة الأمن ولجمع الضرائب ، والثانى لقيادة الجيش وللإشراف على الكهنة . ثم تفوق الثانى ، وكان ينتخب من أفراد أسرة معينة ، وأصبح امبراطوراً وراثياً . وكانت السلطة تمر بعد وفاته إلى أخيه ، أو إلى أقرب أقربائه ، من ناحية الأم.

وكـان الأزاتكة يعـرفـون الذهب والرصـاص والبـرونز ، ولكنهم كـانوا يجهلون الحديد، وكانت تجارتهم بدائية وتعتمد على المبادلة والمقايضة ، أو تستخدم بعض قطع القصدير أو النحاس ، أو كمية من التبر فى أنابيب من ريش الطيـور ، كعملة بدائية . وكانوا لايعرفون العجلات أو الخيول أو أى دابة من دواب الحـمل ، فكان الحـمـالون يحـملون كل مـا يرغـبـون فى نقله، ويسيرون فى ممرات صغيرة وضيقة ، شقها المساجين وسط الجبال أو الغابات وكانت نفس الممرات هى الطرق الوحيدة الموجودة فى ذلك العصر، والتى كان كل من الحجاج والحملات العسكرية تستخدمها . وكان الحج إجبارياً كما كـان يسـمح بالإشراف على إستـبعـاد القبـائل المهزومـة . وأمـا الحـمـلات العسكرية فكانت تسـهل تموين المعـابد بالضحايا البشرية اللازمـة لإرضاء الآلهـة. وكانت الامبراطورية تنقسم إلى عدد من الأقاليم ، يتمتع كل منها بالإستقلال الذاتى ، سواء فى الشئون الإدارية أو السيـاسيـة . ولكنه كان يرسل كمية معينة من الضرائب العينية ، من ملابس وحبوب وفواكه ونسور حية وعقود من الذهب ، كما كان يرسل عدداً معيناً من الرجال للخدمة فى جيوش الحكومة الامبراطورية . ولقد عاشت امبراطورية الأزاتكة منطوية على نفسـهـا ، ولم تتـصل بامبـراطورية الانكا ، التى نمت إلى الجنوب ، خاصة وأن الجبال والبحار والمستنقعات والغابات والحميات كانت تفصل بينهما.

أمـا إمبـراطورية الانكا فكانت قد نشـأت فى الأقـاليم الإسـتوائيـة من أمريكا اللاتينية فى بداية القرن الحادى عشر، وأصبحت تمثل تجربة تاريخية

هامة لإقامة حكومة تعتمد على التوجيه ، وعلى التخطيط ، ولخلق مجتمع منظم فى وسط للفوضى ، ولفرض نظام جماعى لشعوب متباينة تضم المزارعين والرعاة.

ولقد تمكن أحد رؤساء قبيلة الانكا ، من السيطرة على الإقطاعيين ، من توحيد الهنود الحمر، ثم واصل خلفاؤه عملية مركزية الحكم من بعده وضموا أراضى السادة ، وعملوا على مد الامبراطورية على طول سواحل المحيط الهادى« ، بشكل جعل من الهنود رعايا للانكا.

وكان الانكا الأعظم هو رأس التشكيل السياسى لهذه الدولة ، ويعتقد أنه من سلالة الشمس، ويمثلها على الأرض . وكان يسيطر على رؤساء القبائل ، سويدبكاباك الذين يزفون ورهم على رؤساء الجماعات والموظفين المسئولين . وكانت مجموعات الأنكا، وجماعاتهم تشتملا على عشرة ، أو خمسين ، أو مائة ، أو خمسمائة ، أو ألف رجل ، ثم على وحدات أخرى أكبر من عشرة آلاف ومائة ألف. وكان كل شيء يبدأ من الاتكا، وكان كل شيء ينتهى إليه. وكانت الادارة متدرجة متسلسلة ، ومتخصصة ، وكان إختيار الضباط والمديرين وكبار الموظفين يقع من بين الكاباك، ثم يتبع ذلك إختيار القضاة وأصحاب الحوانيت ، ويقوم رئيس العشرة بأعمال الأمن العادية. أما الأراضى فكانت ملكا للانكا كما كانت فى مصر القديمة ملكا لفرعون ، وكان على الأهالى زراعتها، على أن يقسوا المحصول إلى ثلاثة أقسام: الأول للشمس، أى للكهنة ، والثانى للدولة، أى للعجزة والأرامل والإيتام ، والثالث "للمجتمع" ويقسم بين الأسر الموجودة.

وكان العمل إجباريا ، كما كان تنظيم أوقات الفراغ إجباريا كذلك وبشكل لايترك للفردية أى مجال ، وكان الإنتاج يركز فى مخازن عامة كما كان الاستهلاك محدداً وخططاً . وكانت المساكن متشابهة، وكذلك الوجبات، من الذرة والبطاطس. وكان التماثل تاماً ، والنظام دقيقاً والعقوبات صارمة، وكان هناك تحديد لعدد الملابس، ولأوقات تناول الطعام ، وتحديد لأماكن الإقامة ، ولساعات اللهو والفراغ . وأدى هذا التخطيط إلى تقليل الشخصية والفردية ، وإلا زيادة الطاعة والسلبية.

وكان الأهالى يعرفون صهر النحاس وتشكيل البرونز ونسج الصوف وبناء القصور والمعابد والحصون ، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد والعجلات والكتابة. ونجح النظام الشيوعى عند الانكا ، وضمن للأهالى حاجياتهم الضرورية ، ومنع عنهم أخطار المجاعات . ورأى بعض المؤرخين أن هذه الإدارة الهامة الجماعية كانت هى كل شيء ، وقضت على كل شيء فيما عداها ، وحتى على الإنسان ، الذى أصبح يمتاز بالكسل والخمول العقلى ، وبرفض التغيير والتعديل.

والواقع أن إمبراطورية الانكا قد أخضعت غيرها فى الوقت الذى زادت فيها سلطات رأس دولتها ، عن السلطات التى يتمتع بها رئيس أى دولة شيوعية . وكانت الامبراطورية تهضم كل أقليم تستولى عليه وتخضعه لها ، ولكنها كانت تترك له آلهته ، فى نفس الوقت الذى تحاول فيه إدخال دياناتها وعبادة الشمس فيه. وكان الموظفون يعملون على تطبيق قوانين الامبراطورية فى هذه الأقاليم ، كما كانوا يعملون على نقل الأسر والقبائل

غير الخاضعة من منطقة لأخرى ، حتى يصلوا إلى كسر شوكتها وإذابتها فى النطاق الجماعى . وقدر العلماء سكان امبراطورية الانكا بأثنى عشر مليوناو وهو عدد يقارب عدد سكان امبراطورية الأزاتكه أما بقية القارة فكان يعيش فيها بضعة ملايين آخرين ، موزعين بدون حكومات وبدون حضارات هامة ، وإزدهرت الحياة المستقرة فى المنطقة المدارية حيث كانت الأمطار تساعد على نمو النباتات ، وحيث كانت الذرة تنبت بالأمطار وبدون زراعة . وكانت معظم القبائل الأخرى شبه مرتحلة ، أو تعمل بالرعى أو الصيد . وكانت هناك بعض مجالس الشيوخ أو الحكماء لادارة قبائل سكان البمبا وغابات الأمازون ومراعى الشمال ، وكانت هذه القبائل تعبد أصناما معينة أو أنواعاً من الحيوانات ، وكانت تأكل لحم الجاموس البرى ، وتدخن الطباق ، وتعبر الأنهار فى قوارب تنحتها من جذوع الأشجار ، كما كانت تستخدم القوس والسهام. وكان الهنود الحمر بصفة عامة لايتورعون عن قطع رؤوس أعدائهم بعد الانتصار عليهم ويجمعون هذه الرؤوس أو يعلقونها. وروى كولومب نفسه أنه رأى بعض بقايا جسم بشرى تطهى فى قدر علي النار ، وإستند فى ذلك إلى أن الهنود الحمر كانوا يأكلون لحم البشر فى نفس الوقت الذى يأكلون فيه لحوم الببغاوات.

إذا كان فى وسع الاسبانيين أن يصلوا إلى العالم الجديد، ومهما إتصفوا به من القسوة والتحكم فإنهم كانوا يحملون للأهالى فى العالم الجديد وسائل حياة ونظم تسمح لهم بتحسين حالهم . فقد كانت الحضارات السابقة لكولومب ، وحتى المتفرعة منها، متأخرة عن حضارة أوربا فى ذلك الوقت

بألفي سنة : وإذا كان الأزاتكة يسلخون القرابين البشرية؛ والانكا تنخفض بميتواهم إلى الكسل والسلبية ، وتقوم قبائل البرارى بأكلهم ، فلا يمكننا إلا أن نرى تقدماً واضحاً مع مجيء الاسبانيين ، الذين نزلوا بمستوى كل الهنود الحمر إلى مستوى العبودية . ولكن هل كانت روايات الاسبانيين عن هذه الحضارات السابقة لهم روايات حقيقية علمية؟ وهل كان من حقهم أن يفرضوا حضاراتهم وطريقة معيشتهم على غيرهم وبالقوة؟ وهل كان من حقهم نهب موارد الأقاليم وذهبها وإرساله إلى أوربا؟

وإذا رضى الأهالى أو ثاروا ، فقد كان عليهم أن يخضعوا لحكم الغزاة، إذ لم تكن لديهم الوسائل الكافية للصمود أمامهم، أو للدفاع عن أنفسهم . فقد كان الاسبانيون مزودون بالخيول ، ومهروا فى ركوبها حتى أصبح الفارس وكأنه مرتبط بفرسه، وكانوا مزودين بالبارود الذى يقتل عن بعد ويرعد مثل البراكين ويجعل الأهالى ينظرون إليهم كآلهة . لقد تفتحت أمريكا للغزو الأسبانى بكل سهولة ، وكان ساحلها الشرق مملوءاً بآلاف الخلجان وآلاف المصبات وللأنهار الصغيرة. وإذا كانت أوربا قد نظرت إلى العالم الجديد كعقبة فى سبيل الوصول إلى الهند، فإن هذه النظرة لاتمنع من كون أمريكا عقبة سهلة ، بل ومحطة متوسطة يمكن عبورها والوصول منها ، وبها إلى الهند.

ولقد أطلق أمريكا على هذا العالم الجديد نسبة إلى أمريجو فسبوتشى الفلورنسى والذى قد اصطحب كولومب فى إحدى رحلاته سنة ١٤٩٩، والذى كان من أوائل من وصل إلى القارة الأمريكية. وكان أول من نادى بأن

هذه الأراضى الجديدة لم تكن آسيا ، فأصر لوران دى مدسيس على اطلاق إسمه على العالم الجديد، وقام أحد رجال الطباعة بوضع هذا الاسم على الخريطة الذى نشرها عن العالم، رغم أن الأوربين ظلوا لمدة طويلة يسمون العالم الجديد بأسم الهند.

(٣) غزو الهند الغربية:

ولقد إنتهت عملية الغزو كلها فى مدة خمسين سنة، قام خلالها الغزاة الأوربيون بالإستيلاء على إمبراطورتي الأزاتكة وألانكا ، وبإخضاع القبائل، وبإحتلال ثلثى سواحل القارة. ومهما كان الوصول إلى أمريكا سهلا ومهما، وكانت وسائل البيض متفرقة إلا أن نجاحهم كان عجيبا ، ذلك لأن بضعة آلاف من الرجال قد تمكنوا من الانتصار على ثلاثين مليونا من الهنود الحمر، كما إنتصروا على البعوض والزواحف والحميات وثلوج الجبال وشمس المناطق الإستوائية ووحوش الغابات . ولاشك فى أنهم كانوا قد تمرنوا على المتاعب الجسدية ، وشحذوا هممهم وهزائمهم فى حروبهم المتصلة ضد المغاربة فى الأندلس ، كما شحذوها بشعورهم بالتفوق الحضارى والجنسى على غيرهم، ولذلك فإنهم كانوا يسمحون لأنفسهم بكل شىء وبدون تردد.

وكان مشروعهم للإستعمار مشروعاً عاماً وخاصاً فى نفس الوقت : ذلك أنهم كانوا مزودين بمرسوم ملكي وكانوا يحاربون وينتصرون باسم ملك أسبانيا ولحسابه ، ولكنهم كانوا ينظمون حملاتهم على نفقتهم الخاصة أو لحساب أصحاب رؤوس الأموال المستعدين لتمويل مثل هذه المغامرات، وفى هذه الحالة الأخيرة كانت هناك عقود موثقة تحدد نصيب وحقوق كل من

الأطراف المساهمة. وكان هدفهم هو إكتشاف أراضى جديدة، والإقامة فيها باحقية وأولوية الوصول إليها وحكمها، وإستغلال الأراضى والمعادن النفيسة، والمعيشة بألقاب طنانة وبمجد يثير الغيرة والحسد لأكبر سادة قشتالة فى هذا الوقت . ويمكننا أن نذكر هنا بعض الأسماء لقادة الغزو الذين سجلوا أسماءهم فى العالم الجديد، مثل بالبووكورتيز وبيزارو وبما كان الحظ قد ساعدهم أكثر من غيرهم ، ولكنهم إستحقوا تسجيل أسماءهم فى التاريخ حتى، ولو كان ذلك بناء على المأسى التى إرتكبوها فى أمريكا.

أما بالبو فقد بدأ حياته مزارعاً فى الجزر، ولكنه هرب بعد مطاردة الدائنين له، وإختفى فى أحد البراميل على ظهر إحدى السفن ، ولم يتركه إلا عند رسو السفينة عند برزخ بنما. وعرف هناك أنه يوجد إلى الجنوب مناجم للذهب وبحر آخر وواتته الفكرة بأن هذا البحر قد يكون بحر الهند، فسار لمدة عشرين يوما داخل الغابات حتى رأى من أعلى أحد التلال محيطاً كبيراً ليست له من نهاية، فنزل فى الأمواج شاهراً سيفه، وأعلن ملكية ملك إسبانيا لبحر الجنوب، الذى أصبح فيما بعد المحيط الهادى. ولقد عينت إسبانيا بالبو حاكماً على هذا البحر فنقل أربع سفن ، بعد تفكيكها ، عبر البرزخ، ثم جمعها ، وكان أول من يبحر على هذه المياه الجديدة.

أما فرديناند كورتيز فكان من طبقة متوسطة ، وفشل فى دراسته وذهب إلى كوبا للبحث عن الثروة . وإختاره فاليسكيز حاكم الجزيرة لقيادة حملة ضد القارة، وكانت تتألف من إحدى عشر سفينة ، وعليها مائة وتسعة من البحارة ، وخمسمائة وثمانين من الرجال ، وستة عشر فرسا ، وعشرة مدافع .

ونزلت الحملة على ساحل المكسيك حيث أقاموا الصلاة وبدأوا في الإتصال برؤساء الأزاتكة وأعطوهم بعض الخرز وعاد الأزاتكة يحملون هديتهم بدون حذر، وكانت عبارة عن صناديق ملىء بالذهب، هدية من امبراطورهم مونتزوما ، وكانت الطامة الكبرى . إذ أن كورتيز قد طلب من الرسل أن يطلبوا من سيدهم الإستمرار فى إرسال الذهب، وكثير من الذهب ، بدعوى أنهم مرضى بالقلب، وأن علاجهم لم يكن سوى الذهب. وأسرع كورتيز بجمع عدد من الحمالين من قبيلة كانت قد ثارت على حكم الأزاتكة ، وسار على رأسهم إلى مكسيكو. وتمكنت خيوله ومدفعيته من القضاء على جيش من الهنود بلغ أربعين ألفا. وقبل مونتزوما إستقبال الإسبانيين وهو لايعرف أن كانوا من الرجال أو الآلهة، بعد إن سمع قصف مدافعهم . وإلتقت حضارتان عند مدخل مكسيكو، وكانت كل منهما تتحدى الأخرى. وعسكر أربعمائة اسبانى فى النقط الاستراتيجية من مكسيكو . وفى قلب امبراطورية بلغ عدد سكانها إثنا عشر مليونا . ولم يتردد كورتيز فى تحطيم تماثيل آلهة الأزاتكة وفى نصب تمثال السيدة العذراء على المذبح . وطلب من مونتزوما أن يقسم بولائه ، ثم استولى على أطنان من الذهب من القصر الملكى. وخضعت امبراطورية الأزاتكة تماماً فى مدة سنتين، رغم أن الأهالى قد قاموا بمحاولات عديدة للدفاع عن أنفسهم ، وتمكنوا من إجبار الإسبانيين ، فى ظروف معينة ، على الفرار من العاصمة ، مشيعينهم بصيحاتهم وبالأحجار والسهام . ولكن الإسبانيون عادوا ، وقتل مونتزوما وأصبحت امبراطوريته تسمى اسبانيا الجديدة فى سنة ١٥٢١.

وجاء دور الإنكا بعد الأزاتكة وتم إخضاعهم في سنتين ، وكان قائد العمليات ضدها هوفرانسوا بيزارو، الذي كان من رجال بالبو في عملياته الأولى ، وكان بيزارو ، قد بدأ حياته في أحد المزارع ثم تطوع كجندى ثم كبحار . ولم يكن يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان يمتاز بالقسوة وغلظة القلب وعبر خط الإستواء وعرف أن أحد الملوك الأقرياء والأغنياء يحكم في بيرو. فعاد وشرح القضية لبلاط طليطلة ، وذكر أن بيرو لم تكن إلا ذهباً يستولى عليه . ونفوسا تطلب الهداية والدخول في المسيحية . فمنحه البلاط مرسوماً بتعينه قائداً أعلى وحاكماً عاماً لما سيصبح قشتالة الجديدة فيما بعد. وإستند بيزارو إلى هذا المرسوم ، وأخذ في جمع رجاله وتنظيم جيشه الذى وصل إلى سبعة وعشرين فرس ، ومائة وثمانين رجل زادوا فيما بعد نتيجة لوعدهم بالحصول على الأسلاب والغنائم. وعبر الصحراء القاحلة ثم القمم المغطاة بالثلوج ووصل إلي الإنكا وشرح له أنت مرسوم البابا قد قسم العالم، وأن البابا يمثل السيد المسيح في الأرض ، وأنه هو ، فرنسوا بيزارو، يمثل ملك أسبانيا . ولكن الإنكا لم يكن يعرف غير الإله الشمس الذى كان في نفس الوقت جده الأكبر، ولم يكن قد سمع بالسيد المسيح ولايملك إسبانيا ، فألقى بالكتاب المقدس الذى أعطاه له بيزارو على الأرض.، فلم يكن من بيزارو إلا أن لوح بمنديله الأبيض، وكانت علامة متفق عليها للهجوم والإلتحام وتصايح الإسبانيون و،أطلقوا بنادقهم ومدافعهم ثم هجم الفرسان ، وتبعثر حفل الإستقبال وقبض الإسبانيون على الامبراطور ، وأخذرا يتمرغون على الذهب ويضعون الأسرى في السلاسل ولقد قبل الإنكا أن يفدى نفسه بملىء الحجرة التي سجن فيها بالذهب ، وحتى إرتفاع تسعة

أقدام، ونفذ وعده. ولكن بيزارو لم يترك الأسير ، وحكم عليه بالتعميد ثم بالقتل ، لا الواحدة أو الأخرى . وأصبح آخر أباطرة الإنكا مسيحياً، ثم خنقه المسيحيون الاسبانيون.

ولم يتحرك شعب الإنكا ، خاصة وأنه قد تمرن منذ قرون ، على الطاعة السلبية ، فقبل الموقف الجديد، واعتقد أنه غير امبراطوراً بامبراطور آخر . ومد إثنا عشر مليونا ، من العبيد ، أيديهم إلى الأسبانيين، لكى يضعوا فيها السلاسل كما يقول المؤرخ جان ديكولا.

ولم يكن بالبووكورتيز وبيزارو إلا أشهر الغزاة. فلقد كان هناك الكثيرين غيرهم ممن تعرضوا للعواصف وللسهام المسمومة وساروا فى الأدغال. ولكن هؤلاءً كانوا يمثلون الطبقة الأولى من الغزاة ، التى تميزت بحبها للغزو، وبأملها فى الحصول على كل شيء.

وبعد أن إنتهت خرافات الخان الأعظم ، أو الخاقان ، وخرافات يوحنا الراعى، ظهرت خرافات جديدة ، إتصلت بالعالم الجديد . فنجد أن أحد رجال بيزارو ، ويسمى أوربيانوا ، قد سمع بعض الهنود يتحدثون عن مملكة مملؤءة بالذهب، وعن أن ملكها كان يغطى نفسه بالتبر، أنه الملك الذهبى "الداورادو" ، وكان قد ورث الانكا وأسس امبراطورية جديدة فى داخل القارة. وإنتقلت هذه الخرافة من فم لأذن ، حتى أصبحت وكأنها حقيقة . وأضاف كل فرد إليها قليلا حتى روت وجود أسدين مقيدين بسلاسل من الذهب لحراسة القصر الامبراطورى ، وأن الأنابيب التى توصل الماء إلى النافورات كانت من الذهب، وأن جبلا من الذهب الخالص كان يشرف على

الإقليم . وقام المستكشفون بالبحث عن هذا "الالدورادو" العجيب لمدة قرنين، وبحثوا عنها فى كل مكان دون أن يعثرواعليه. ولكن ذلك البحث سمح لهم بالتوغل داخل القارة ، وبالسيطرة على مناطق أوسع ، وبنهب ماتصل إليه أيديهم.

ولقد قام المستشكفون بارتياد منطقة فلوريدا ، وساروا من المكسيك حتى كاليفورنيا ، وقام غيرهم بالنزول حتى شيلى ، ووصل آخرون إلى غرناطة الجديدة ، التى أصبحت تسمى فيما بعد بكولومبيا ، وبدأ منذوزا من نهر ريودى لابلاتا غزو الأقاليم التى ستصبح الأرجنتين فيما بعد.

الواقع أن هؤلاء الغزاة لم يكافؤا على المجهودات التى قاموا بها إلا من الناحية المعنوية، وذلك بتسجيل اسمهم فى تاريخ الاستعمار، خاصة وأنهم قد تحاربوا فيما بينهم ، وشابهوا فى ذلك الأطفال الذين يتنازعون لعبة معينة، كما شابهو رجال العصابات الذين يقتتلون عند تقسيم الأسلاب ولقد غضب البلاط عليهم. فكان يتهمهم بالخطورة إذا كانت لهم صفات رجال الدولة مثل كورنيز ، وكان البلاط يقضى عليهم ويبعدهم ، إذا لم يتميزوا بصفات القيادة. وكثيرا ماقضى عليهم فى أثناء قيامهم بعملياتهم إما من الأسبانيين وإما من الهنود الحمر، مثل بالبو ، الذى قطعت رأسه ، وبيزارو الذى طعن بالسيف وغيرهم ممن غرق أو توفى بالحمى ، أو اصابه الجنون أو وقع فى أيدى الهنود الحمر، ولكنهم قاموا بعمل استعمارى واضح، وامتدت الاسبراطورية الأسبانية التى أنشأوها واشتملت على كل جزر الأنتيل ، والبرزخ الذى يصل بين الامريكتين ، والمكسيك مع سواحلها ، وجزء هام من

الشريط الساحلى للقارة الجنوبية ، واشتملت على امبراطورية الأزاتكة وامبراطورية الانكا.

إمتدت هذه الامبراطورية من كاليفورنيا حتى شيلى ، ولمسافة عشرة آلاف كيلو متراً ، ولم يحكم الاسكندر الأكبر ولا روما ولاجنكيز خان على مثل هذه الامبراطورية.

ولكن هناك نقطة ضعف أخذت فى الظهور بالنسبة لهذه الإمبراطورية ، وكان ذلك بسبب المرسوم البابوى الذى احتفظ للبرتغاليين بالأراضى الواقعة إلى شرق خط التقسيم . ولقد تمكن كابرال من إستكشاف أحد السواحل فى هذه المنطقة لحساب بلاط لشبونة ، وأسماه ساحل الصليب المقدس "سانتاكروز". وكانت هذه المنطقة هى التى تزود العالم بخشب الموجونو. وتحولت سانتاكروز فيما بعد إلى البرازيل واكتشف فيها أحد الغزاة فى شهر يناير سنة ١٥٣١ خليجاً جميلا، أنشأ عليه مدينة سميت ريودى جانيرو. وبدأت الامبراطورية البرتغالية فى الاتساع فى العالم الجديد. ولكن اليوم الذى ضمت فيه اسبانيا البرتغال سنة ١٥٨٠ عمل على توحيد هاتين الامبراطوريتين اللتين إمتدتا من الميسيسبي حتي أقصى الجنوب ، وأصبحت كلها أسبانية ، وأفادت قشتالة من كل هذه العملية.

(٤) إدارة الهند الغربية:

أعلن تاج قشتالة للملوك والدول امتلاكه للعالم الجديد فى سنة ١٥١٩ استناداً إلى منحة الكرسى البابوى وإلى الحقوق الأخرى ، وبشكل يجعل من هذا التاج صاحباً للهند الغربية، وللجزر والقارات الموجودة فى البحر

المحيط، سواء التى اكتشفت أو التى ستكتشف فيما بعد وجاء عصر الإستعمار بعد عصر الغزو، أى عصر الإستغلال لإتمام عملية الفتح ، والوصول بالوسيلة إلى الهدف . ولم يكن الأسبانيون مستعدين فى هذا الوقت لإدارة امبراطورية شاسعة، وبهذه الطريقة ، ولكنهم تمكنوا رغم ذلك من حكمها وإدارتها ، بالسيف وبالنهب وبالقتل ، وبغيرها من الوسائل التى كانت سهلة ، وأسهل بكثير من إدارة وحكم شعوب غلبت على أمرها.

ولم يتورع الأسبانيون من اتخاذ أى وسيلة للوصول إلى أهدافهم البدائية، والتى كانت تتلخص فى الحصول على الذهب وشحنه فى السفن. ولم يتردد الحكام الأسبانييون الأوائل، قانوناً أو فعلا ، أمام وخز ضمائرهم، بل كانوا يعملون، ويعملون لأنفسهم ان لم يكونوا يعملون من أجل الملك. فكانوا يقسمون الكنوز بين الجنود ، ويقسمون الأرض بين الضباط وإذا قاموا بأى مجهود للإدارة، فإن هذا المجهود لم يزد عن كونه نقل نظم أسبانيا إلى أمريكا كما هى ، فكانوا يعينون القضاة والقواد ، كما لو كانوا فى الجزيرة الخضراء أو فى قادس، وحلت السلطة الملكية مع الزمن محل أهواء الاقطاعيين والغزاة، وإن كانت العملية قد تمت على مراحل ، وأنشأت هذه السلطة الملكية حكومة مباشرة، كانت تباشرها من اسبانيا ، وتنفذ تعليماتها فى العالم الجديد.

وكانت الهيئة المركزية فى اسبانيا تتمثل في مجلس الهند الذي كان يعاون الملك مثلما كان يعاونه مجلس قشتاله او مجلس ارجوانه او مجلس الحرب او غيرهم . وحل هذا المجلس محل المراقبه العامه لشئون الهند والتي

كانت قد أنشأت بسرعه بعد رحله كولولمب الاولي للعالم الجديد . وكان هذا المجلس يخضع لمستشار اعلي لشئون الهند، وكان يعد القوانين ، ويعتبر محكمة للإستئناف ، ويتدخل فى كل قرارات الكنيسة المتعلقة بالعالم الجديد . فكانت له فى واقع الأمر جميع السلطات التشريعية والقضائية وحتى الدينية.

أما السلطة التنفيذية فكانت فى العالم الجديد، وقد نظمت على أساس حكم "الأنتيامنتو" أو حكم البلديات فى قشتالة ، وكان هذا النظام يتلخص فى إنشاء مجلس خاص فى كل إقليم، يتشكل من ثلاثة أو أربعة مسئولين، ويجتمع فى أول الأمر كمحكمة ، ثم أصبح يجتمع بعد ذلك كمجلس . وكان الحاكم هو الذى يرأسه ويستشيره . وفى أعلى القمة تصل إلى نائب الملك، أو بمعنى أدق، نائبى الملك. الأول فى المكسيك ، والثانى فى ليما، وكان كل منهما يسيطر على نصف العالم الجديد، بخلاف الأنتيل ، وهافانا ، التى كانت لها قيادة عامة خاصة بها.

وكانت هناك شخصية واحدة، هى نائب الملك، يعينها الملك، وتمثله وتهيمن على شئون الحرب والسلم والأرواح، وكان نائب الملك يعين كبار الموظفين ، ويشرف على الإقتصاد والمالية ، ويلاحظ الكنيسة ، أو يراقبها.

ولكن سلطاته واختصاصاته كانت محددة، خاصة وأن البلاط كان يخشاه ، فقيد تعينه بمدة ثلاث سنوات ، وأجبره بعدها على البقاء فى المستعمرة لمدة ستة أشهر، حتى يسمح لكل من يعارضه أو يطالبه بشىء، أن يتقدم ضده بما يرغب . وفى نفس الوقت أعطى الملك لأعضاء المجالس حق

مخاطبة البلاط رأسا، كما كان يسمح لنفسه بارسال بعض كبار الموظفين ، كزائرين أو مفتشين من وقت لأخر. ولقد سار هذا النظام بدقة عجيبة ، خاصة إذا نظرنا إلى السرعة اللازمة لتقرير الأمور ، وإلى إتساع الامبراطورية ، ولكنه كان يتسبب من بعض التضارب بين السلطات ، كما تسبب فى بعض الأخطاء الواضحة ، وكان أكبر خطأ فيه أنه قد وضع عن طريق الاسبانيين، وللأسبانيين. كما لو كانت أمريكا إحدى المقاطعات الإيبيرية ، وكما لو كانت لاتسكنها ملايين من الهنود الحمر. لقد كان وجود الهنود حقيقة واقعة، وكان واجب الاسبانيين أن يحسبوا حساب هؤلاء الملايين، الذين كانت لهم آلهتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم، ولكن أغلب المعمرين الإسبانيين كانوا لاينظرون إلى الهنود الحمر إلا نظرتهم إلى المتوحشين آكلى لحوم البشر، نظرتهم إلى شعوب تفضل العيش عرايا، شعوب بأكملها من المخادعين الكذابين الخائنين ، من السكارى القساة الكسولين، شعوب لاتستحق أن تدخل فى المسيحية يوما من الأيام ، ولكن هناك من الإسبانيين من رآهم شعوبا خاضعة صبورة محبة للسلم، ووجد فى نفسه الرغبة فى الدفاع عنها.فأين الحقيقة؟

وكان المعمرون متسلطين ومتعجرفين ولايعرفون التسامح ويعتقدون أنهم جاءوا إلى أمريكا للإثراء ولايترددون فى إعلان ذلك وحينما طلبوا من بيزارو القيام بواجبه لنشر المسيحية بين الهنود الحمر، أجاب أنه لم يأت إلى العالم الجديد من أجل ذلك، وإنما أتى للإستيلاء على ذهبهم . وكانت الأقلية هى التى تنادى بضرورة الإحتفاظ بالهنود الحمر وتهذيبهم وكسبهم إلى أسبانيا المسيحية.

حقيقة أن البابا قد وضع مهمة التبشير بالمسيحية بين الهنود قبل أى عملية أخرى فى العالم الجديد، وأصر بولس الثالث على أنهم فى وضع يسمح لهم بفهم الديانة الكاثوليكية ، بل وأنهم شغوفين باعتناقها ، على حد مايفهم ولذلك فإنه من الواجب عدم الإضرار بهم فى حريتهم أو فى ممتلكاتهم ، والإبتعاد عن إستعبادهم بأى طريقة من الطرق . ولقد تردد الملوك الكاثوليك فى قشتالة بين هذين الإتجاهين . وأوصت الملكة ايزابلا فى وصيتها بعدم الإضرار بالهنود الحمر، وضرورة معاملة هذه الشعورب بالطيبة والعدالة. كما أن شارل الخامس ، ووريثها الثانى ، قد ذكر حكامه بأن الله قد خلق الهنود أحراراً لاتابعين.

ورغم ذلك فقد إستمرت الأخطاء ، من تعذيب وإنتهاك يسمح بفضح طغيان الإسبانيين. ذلك أنهم قد منعوا الهنود الحمر من حمل الأسلحة ومن ركوب الخيل، وقضوا على الأهالى قضاء تاماً فى مناطق بأكملها، بسوء المعاملة أو بالقتل ، كما حدث فى هاياتى . وأخذ الكتاب منذ عهد لاس كازاس فى فضح هذه الجرائم، وطالبوا الحكومة الاسبانية بضرورة المحافظة على أرواح الهنود، دون أن يذكروا إن كان هدفهم هو السياسة ، أو ضرورة الإحتفاظ بالأيدى العاملة اللازمة للمستعمرات ، أو زيادة عدد السكان المسيحيين فى العالم حقيقة أن فظائع الإسبانيين تجاه الأهالى كانت أشد فضائح ابادة الإستعمارية منذ بداية تاريخ الاستعمار ، ولكن صيحات الاعتراض على هذه الفظائع كانت كذلك أشد الصيحات حتى ذلك الوقت.

ولقد حاول بعض رجال الغزو والإستعمار الأوائل أن يدافعوا عن الهنود الحمر، مثل كورتيز الذى ما أن نزل على سواحل المكسيك سنة ١٥١٩ حتى أمر جنوده بعدم تعذيب الأهالى. وبمصاحبتهم إلى قراهم دون الإعتداء عليهم أو جرحهم أو التعرض لأملاكهم. وكانت هذه هى المبادىء الأولى لمحاولة هضم الهنود الحمر، وضمهم نهائيا إلى النظام الأسبانى . ولكن عمليات أخرى قامت في جهات متعددة ، وأوجبت صيحات الإنسانية . وثارت (المشكلة الهندية) طوال القرن الأول للإستعمار الإسبانى ، وبمناسبات متعددة. وكانت إسبانيا تتساءل بقلق عن مهمتها فى العالم الجديد، وعما يجب عليها أن تقوم به كدولة مستعمرة فى أمريكا.

الفصل التاسع

الاسبانيون

لقد تزعم بعض رجال الدين والمفكرين من الإنسانيين حركة الدفاع عن الوطنين ، أو الهنود الحمر، ضد معاملة المعمرين والحكام الإسبانيين فى العالم الجديد وكانوا مخلصين فى عملية دفاعهم ، ومخلصين فى أهدافهم التى كانوا يرغبون فى الوصول إليها ، سواء أكان ذلك للإحتفاظ بالهنود الحمر كشعوب وأيدى عاملة يمكنها أن تنتج ، أو كان ذلك الإحتفاظ بهم كرعايا للكنيسة الكاثوليكية، وزيادة عدد المسيحيين فى العالم، أو كان ذلك لتطوير حركة الإستعمار الإسبانى بشكل يجعلها تخدم الإنسانية والمدنية ، بدلا من أن تقوم باستغلالها ، أو بالقضاء على كثير من أبنائها.

(١) بين الإنسانية والوحشية:

ولقد ترأس إثنان من الرهبان الدومينيكان عملية الدفاع عن الهنود ، بل الهجوم على الإستعمار فى العالم الجديد، وهما أنطوان دى مونتسينوس، وبرتلوم دى لاس كازاس. ولقد هاجم مونتسينوس المعمرين ومبدأ الاستعمار نفسه فى خطبته الطنانه التى ألقاها فى إسبانيولا « لقد صعدت على هذا المنبر لكى أشرح لكم أخطاءكم تجاه الهنود. إن خطأكم جسيم ، وخاصة نتيجة لقسوتكم تجاه هذا الجنس البرىء.... فبأى حق قمتم بإعلان حرب دنيئة ضد هؤلاء الناس الذين يعيشون فى بلادهم وفى سلام؟ وما هو السبب لترككم أياهم فى مثل هذه الحالة من الإنهاك دون إطعامهم والإهتمام بصحتهم؟ ... »
كان معنى ذلك هو عدم شرعية الغزو الإسبانى ، وهدد مونتسينوس برفض مباركة الإسبانيين المتطرفين.

وضم لاس كازاس صوته لهذه الحركة . وكان قد بدأ حياته مزارعا قبل أن يتفرغ لخدمة الدين، وواصل كفاحه حتى آخر أيامه للدفاع عن الهنود ، بشكل جعل منه أكبر مدافع عنهم، وترك مادة غزيرة، وصف فيها ماخضعوا له من وحشية. ولقد وصف الحروب ضد الهنود بأنها غير عادلة وأنها طغميانية، ووصف الذهب والفضة والمجوهرات والأراضى التى أخذت منهم بأنها منهوبة ، ومن الواجب إعادتها إلى أصحابها . وفضح لاس كازاس مساوىء الإستعمار بشدة جعلت من مادته أسلحة قوية ، أفاد منها أعداء أسبانيا نفسها.

ولقد اضطرت سلطات قشتالة إلى محاولة إيجاد سياسة معقولة يمكنها أن توفق بين مطالب الإستغلال الإقتصادى، وإتجاه رجال الكنيسة . وسمحت بالقيام بتجارب هامة فى العالم الجديد. وكانت التجربة الأولى تتعلق بتحرير الهنود ، وأسس أحد القضاة ثلاث قرى للهنود المحررين فى اسبانيولا، ولكن الفشل كان تاما ، إذ أن الهنود قد إمتنعوا بعد تحريرهم عن القيام بأى عمل. أما التجارب المماثلة والتى وقعت فى كوبا ، فإنها لم تكن أكثر إيجابية ، ثم قامت تجربة ثانية للإستعمار السلمى ذلك أن لاس كازاس قد حصل فى فنزويلا على ٢٦٠ فرسخا مربعا، وإختار مزارعين من أسبانيا ، ووعد بمنحهم لقب "فرسان المهماز الذهبى" ولكن الفشل كان تاما، إذ أن هؤلاء الفرسان المزارعين كانوا يرغبون فى الحصول على الذهب، أكثر من رغبتهم فى الحصول على الأراضى، وتحولوا بمجرد وصولهم إلى العالم الجديد، إلى عصابات لصيد الهنود ولإستخدامهم كعبيد فى زراعة الأرض. أما التجربة الثالثة فكانت تهدف إلى تحويل الهنود إلى المسيحية ، وبطريقة سليمة. وحاول لاس كازاس أن يحولهم بكل هدوء ، واختار منطقة يمتاز أهلها بحب الحرب للقيام بتجربته، وهى منطقة جواتيمالا ، والواقع أن بعض الهنود قد تمسحوا ، بعد

سماعهم لصلوات الدومينيكان أو بعد إعجابهم باللعب والأدوات الصغيرة التى كان الإسبانيون يوزعونها عليهم. وقبل رئيسهم بناء كنيسة، وتحولت المنطقة إلى بلاد سلم ، وبأن كان هذا التحول سطحيا، ولم يتمكن الهنود من معرفة المسيحية وبعد فترة من الزمن قام الهنود بقتا راهبين ، وسلخوا ثالثا أمام أحد الأصنام ، وشيعوا أنصار لاس كازاس بالسهام ، وأحرقوا المستعمرة. وكانت نتيجة هذه العملية خطيرة بالنسبة للهنود ، وبالنسبة للاسبانيين ، ذلك أن الهنود قد تأكدوا لأول مرة من أن الاسبانيين ليسوا آلهة، بل مثلهم من البشر، معرضون للموت، ويمكن قتلهم . فقلت درجة سليمة الهنود وتواضعهم ، وأخذوا يرفضون العمل ويفضلون معيشتهم السابقة قبل وصول الإسبانيين.

وكان كل من الملك ومجلس الهند فى إسبانيا يحاولون وضع سياسة للمستعمرات الجديدة ولكن ، هل كان فى وسعهم إعلان الحرب على الهنود ؟ لقد قرروا عدم القيام بأى عمليات عدائية ضدهم، إلا بعد أن يقرأ عليهم إنذار بذلك، وهذا الإنذار كان يطالبهم بالاعتراف بالكنيسة والبابا والملك كأصحاب للسيادة ، وسادة عليهم ، وإلا فإن الإسبانيين ستأخذونهم . ونساءهم وأطفالهم ، ويجعلوهم عبيداً ، يبيعونهم ويوزعونهم كما يرغبون . وسيأخذون أملاكهم ويعاقبونهم ويؤدبونهم ، كما يفعلون مع أى تابع ثائر. ولكن هذه الطريقة لم تكن عملية ، ولم يكن من السهل على الهنود احترامها. واتخذم الإسبانيون وسائل أخرى للمحافظة على السلم فى المستعمرات ، وصدرت الأوامر بعدم خروج أى حملة دون موافقة رجال الكنيسة الملحقين بالجيش كتابيا على ذلك. ومنع لاس كازاس أى عمليات حربية لم تكن مزودة بأمر صريح من الملك ومجلس الهند . ثم منع شارل الخامس قيام أى حملات

إستكشافية فى العالم الجديد إلى أن تتم محكمة بلد الوليد قرارتها الخاصة بشرعية الغزو. لم يشهد العالم حتى الآن غزاة منتصرين يشكون فى أنفسهم وفى عمليات بهذا الشكل الذى يؤثر عليهم وعليها. وكم من إسبانى أعلن فى ذلك الوقت فى العالم الجديد بأن الأراضى التى يطأونها هى ملك الهنود . ولم يتمكن المستشارون وفقهاء بلد الوليد من إتخاذ موقف حاسم واضح بين النظريات المتعارضة التى كان لاس كازاس يمثل طرفا منها ، وغلاة الغزو يمثلون الطرف الآخر. فاستمرت الحرب ، ولكن على أساس أن تكون حربا عادلة ، وأن يسمى كل غزو بعد ذلك بأنه مجرد عملية تهدئة Pac-ification.

وقامت مجادلات آخرى حول طرق التبشير والتعميد . وإذا كانت الوسائل السليمة قد فشلت ، فهل كان من سلطة الإسبانيين إستخدام القوة لتحويلهم إلى المسيحية؟ لقد ردت بلاد محاكم التفتيش بالإيجاب ، وأصبح تحويل الأهالى إلى المسيحية يعتبر جزءاً من مهمة الغزاة فى العالم الجديد. وقام الاسبانيون بهدم الأصنام ومنع الأعياد الدينية ، وفرضوا التعميد والزواج على الطريقة الرومانية، والصلاة فى يوم الأحد، واندهش معظم الهنود ، ولكنهم لم يعارضوا ، وقبلوا أن يجتمعوا مع شروق الشمس حول الصليب ، ويقوموا بالإشارات التى يعملها لهم المسيحيون . وكانوا فى بعض الأحيان يخلطون بين العقائد ، ويتصورون مسيحاً أسود فى جراتيمالا، وكان غيرهم كان محافظا على آلهته . وكان بعضهم يتساءل عما إذا كان هناك إسبانيين فى الجنة ، فإذا كان الأمر كذلك ، فهم يفضلون الموت على غير المسيحية ، حتى لايلتقلون بالإسبانيين فى العالم الآخر. وكان الغزاة لايفهمون هذه المقاومة ، وفكر بعضهم فى إستخدام القوة لإنهائها ، ولكن لاس كازاس أعلن أن القوة

لا تتمشى مع الروح المسيحية ، رغم أن معارضيه أصروا على أن التبشير يحتاج إلى جنود ، وعلى أن عملية تحويل الهنود إلى مسيحيين لايمكنها أن تتم إلا فى ظل طلقات البنادق.

وأخيراً فهناك مشكلة العمل الإجبارى ، أو السخرة ، التى كانت تقسم المعمرين كذلك إلى قسمين . وكان الغزاة يرغبون فى تعبئة الأيدى العاملة الهندية، لإستغلال الأرض التى منها يعيشون ، وما تحت الأرض التى منها يثرون ويغتنون فكانوا يرون السخرة أمراً طبيعياً ، ولكن الأهالى أجابوا بالفرار إلى الأدغال والغابات . فاضطر الاسبانيون إلى تقييد نظام العمل الإجبارى . وكانت القرى الموجودة فى كل قطعة أرض أعطيت لأحد الغزاة ، تتجمع تحت رئاسة شيوخها الوطنيين ، وكان الهنود يعملون تحت الرئاسة الوطنية من أجل السيد الإسبانى . وكان هذا النظام لايختلف كثيراً ، إلا من حيث الشكل، عن نظام العبودية . ثم عمد الإسبانيون بعد ذلك إلى إبدال الرئيس الوطنى، برئيس إسبانى، بدعوى العمل على تحسين مصير الهنود ، والسماح بالحصول منهم على إنتاج أوفر. وكان الرئيس الإسبانى يكلف باطعام وإلباس وحسن معاملة رجاله من الأهالى ، وذلك فى نظير الحصول منهم على عمل ، بقى إجباريا. ولكن الهنود لم يفضلوا هذا النظام على النظام السابق، وكانوا لايهتمون بالعبودية . ويفضلون عدم العمل . وصدرت قوانين إسبانية ، بعد إستشارة لجنة دينية. وأكدت تطبيق هذا النظام فى سنة ١٥١٢ مع أمرها بهدم أكواخ الأهالى القديمة، حتى تمنعهم من الرغبة فى العودة إليها ، رغم أنها أمرت بمعاملاتهم معاملة إنسانية ، ووضعت شروطا للإعتناء بهم، وحماية نسائهم وأطفالهم فأصبح على الهنود أن يعملوا من أجل الإسبانيين لمدة تسعة أشهر فى كل سنة ، ويقضوا الثلاثة أشهر الباقية

فى خدمة أرضهم . ولكن لاس كازاس وجد أن هذا النظام كان شديدا ، ووصلت صيحاته إلى برشلونة وأثرت على شارل الخامس، الذى أصدر أوامر ثورية فى سنة ١٥٤٢ تنص على عدم استعباد أى هندى، وعدم استخدام أى هندى ضد رغبته ، ويمنع كل نواب الملك وجميع الضباط من إعطاء أى أوامر لتكوين "جماعات العمل الإجبارية" من الهنود ، وأصدر أوامر بتحرير الأهالى، ويمنع استخدامهم فى الحمل، ويتكفل الحكومة بهم فى حالة وفاة سيدهم.

ولكن مطالب الاستغلال وصيحات المستعمرين كانت أقوى من وعظ رجال الكنيسة ، وأقوى من المراسيم الملكية. فانهالت الآراء والتقارير على شارل الخامس بشكل جعله يعيد السماح بتكوين جماعات العمل الإجبارية، ولكن مع المحافظة على النصوص التى تمنع من سوء التنفيذ، وسوء المعاملة. فهل تغير الوضع ، عمليا ، بالنسبة للهندى؟

ودافع الملوك الأسبانيون عن الهنود ، وظهرت قوانين جديدة تحدد واجبات الأسبانيين وحقوق الأهالى ، فلا يمكن طرد أحد الهنود من مكان يقيم فيه منذ أكثر من ٤ سنوات ، ولايجوز فرض أى عمل على النساء وعلى الأطفال الذين يقل عمرهم عن ١٨ سنة، ولايمكن استخدام الشيوخ بعد سن السبعين ، ومن الواجب انهاء العمل اليومى مع غروب الشمس، وأن يتمتع العامل بساعة للراحة فى وسط النهار، ومن حقه التمتع بيوم الأحد وبيومين آخرين كل أسبوع للإعتناء بحقله، وبعشرة أيام أخرى كل سنة. فلم يبق من أيام العمل الفعلية فى العام، وبعد حساب الأعياد الكثيرة، إلا مايتراوح بين ١٣٠، ١٤٠ يوما . وكان ذلك كثيرا بالنسبة للهنود ، وقليلا جداً بالنسبة للاسبانيين، الذين لم يحترموا هذه القوانين الجديدة.

وإنتهى الأمر بترك الحرية للهنود فى الإختيار بين العمل فى جماعات العمل الإجبارية وحرية الحياة، أى حرية البؤس فى الجبال، بعد أن استولى الاسبانيون على أراضيهم. ولقد فضل الهنود حريتهم ، وإختاروا البؤس مع الحرية، على الطعام مع العمل فى ظل العبودية . فاضطر الاسبانيون إلى تغيير هذه التشريعات .، وأبقوا الهنود فى ظل الأستبعاد، رغم أن قوانينهم كانت تدل على غير ذلك.

ونشأت نفس المشكلات فى البرازيل ، وكان للشبونة أيضا مجلسا للهند، وكانت مستعمراتها مقسمة إلى قيادات عامة، ومزودة بالموظفين . ولكن الغزاة البرتغاليين كانوا أكثر تساهلا من الاسبانيين ، وأقل تحكما منهم فى الأهالى. فكثير من تزوج منهم بنساء من الهنود ، وتمكن رجال التبشير البرتغاليون من التوغل فى الغابات ، ومن هداية بعض الأهالى.

وعلى أى حال ، فرغم توتر العلاقة بين الغزاة والأهالى حول العمل، فإن العالم الجديد كانت تنقصه كثيرا من الأيدى العاملة. وكان إنتاج الهنود منخفضاً ، وكثيرا ماكانوا يقومون بعمل ردىء . وكانوا لايصلحون للعمل فى المناجم، وتزايدت نسبة الوفيات فيما بينهم، فاتجهت الأنظار إلى افريقية لاحضار المدد من الزنوج والعبيد، ولاستمرار عملية الاستغلال .

(٢) تجارة العبيد والتخليط:

إذا ماعبرنا المحيط الأطلسى لمشاهدة ماكان يحدث فى افريقية فى الوقت الذى كانت فيه اسبانيا تستعمر قارتها الأمريكية ، لوجدنا أن السلطان العثمانى قد استولى على مصر وانضم إليه ساحل شمال افريقية. أمافى المغرب الأقصى فإن دولة السعديين ، التى كانت قد جاءت من وادى درعا.

كانت تقاوم الاسبانيين والبرتغاليين ، الذين قاموا بالهجوم على هذا الاقليم ، واحتلوا مواقع مختلفة من سواحله . وكان البرتغاليين قد ساروا على طريق فاسكودا جاما ، وعلى طول السواحل الافريقية، وانشأوا عددا من المراكز المحصنة ، التى كانوا يستخدمونها كمحطات لتزويد سفنهم بما يلزمها ، من الرأس الأخضر إلى زنزبار ، فأقاموا فى سان توما ، وفى انجولا فى سان بول دى لواندا ، وفى موزبيق ، ووجدوا معادن النحاس والفضة فى حوض الكنغو، أما بقية قلب القارة ، من النوبة والسودان حتى رأس الرجاء الصالح ، فكان بعيدا عنهم ، وكانت تسكنه قبائل بدائية يجهلونها ولم تكن هناك علاقات إقتصادية منتظمة فى هذه الفوضى الكبيرة التى ضربت اطنابها فى افريقية . إلا للتجارة فى الملح وفى الرقيق الذى كان يرسل إلى العالم الاسلامى والاقاليم العثمانية. ولكن ذلك لم يمنع من وجود امبراطوريات كبيرة فى افريقية عرفها التاريخ ، مثل امبراطورية غانا أو جهلها، وظل يجهلها حتى الآن . وجاءت امبراطورية سنغاى بعد امبراطورية غانا وإمتدت على مسافة ٥٠٠كم بين الشرق والغرب وإشتملت على تمبكو وعلى غيرها من الأقاليم التى كان الإسلام قد دخلها من شمال افريقية مع طرق القوافل . وكانت تمبكتو مركز إلتقاء القوافل وتجارة العبيد مع فاس والقيروان والقاهرة وحتى مع جنوة والبندقية . وكانت تنقل الملح والذهب والنحاس والعبيد ، التى كانت امبراطورية جاو تحتكر تجارتهم مع البلاد السودانية. ولقد تفككت هذه الامبراطورية حينما شعر أحمد المنصور الذهبى سلطان المغرب بشدة ضغط الإسبانيين والبرتغاليين والأتراك عليه ، وصمم على الاستيلاء على مناجم الملح والذهب الموجودة فيها وأرسل حملة إلى النيجر ، إشتملت على عدد من الأسرى المسيحيين والإسبانيين والأرمن والفرنسيين واليونانيين ، ولكنها كانت

منظمة عى الطريقة التركية ، وكانت في خدمة الإسلام. وأخضعت هذه الحملة تمبكتو، رغم أن نفوذ المغرب الفعلى قد تقلص بعد ذلك من المنطقة.

وكان تجار العبيد يربحون ربحاً كبيرا من عملياتهم، وكثيراً ماكانوا يتفقرن عليها مع رؤساء القبائل ، وكانوا يجمعون "العاج الأسود" ويسلمونه للتجار البرتغاليين والإسبانيين والإنجليز والفرنسيين وكان العبيد يركبون السفن، بعد أن يتجمعوا في الموانى، وكانت عملية عبور المحيط فظيعة، إذ كانت الأجساد ترص الواحد جوار الأخر، ودون أن تتمكن من الحركة، وكانت نسبة الوفيات تصل في المتوسط إلى ٢٠ أو ٢٥٪ في خلال هذه المرحلة.

أما السبب في إنتشار هذه الهجرة الجديدة الإجبارية من افريقية إلى العالم الجديد فكان هو المعمرين الإسبانيين، ورجال الدين المسيحي. ولقدأوصى لاس كازاس، صديق الهنود الكبير، بإستيراد العمال السود، دون أن يفكر في أن يمنحهم فوائد قوانين الحماية، التي كانت قد صدرت في صالح الهنود. وعامل الإسبانيون القادمين الجدد على أنهم في مرتبة الحيوان، وذكروا أن أرواحهم كانت سوداء مثل جلودهم. وليس معنى ذلك أنهم كانوا يعذبونهم بعد أن يستخدمونهم في المناجم أو في مزارع قصب السكر، ولكنهم كانوا يحتفظون لهم بوضعية العبيد، تلك الوضعية التي كانت تجعل منهم مجرد أدوات ومنقولات.

وكان التاج هو الذي يمنح تراخيص إستيرادهم، ويربح من هذه العملية، نتيجة للضرائب التي يفرضها على النقل. وكان يبيع في بعض الحالات إمتيازات تجارة الرقيق إلى شركات خاصة، أو إلى دول أخرى : عدداً معيناً من الرؤوس في السنة، نظير مبلغ معين من الدوقات أو القروش. وحصل

البرتغاليون والإسبانيون والهولنديون ثم فرنسا وإنجلترا على عقود بهذا المعنى. تجار العبيد فكانوا يربحون الكثير، وكانت نفس السفينة التي تنقل البضائع من أوربا إلى افريقية، تنقل بعد ذلك العبيد من افريقية إلى أمريكا. وتعود بعد ذلك العبيد إلى أوربا مشحونة بالسكر والروم وكانت هذه الرحلة المثلثة طبيعية ومنتظمة وتستخدم فيها الحمولة الكاملة للسفينة. وكان اول تصريح بالإستيراد صالح لأربعة آلاف عبد، ثم جاءت الألاف بعد الألاف الأخرى. وإستمرت هذه العملية لمدة ثلاثة قرون، وقامت بأكبر عملية للتهجير الإجباري في العالم، ونقلت ملايين الرجال من قارة إلى قارة، وجمعت شباب أفريقية، وعمرت به أمريكا. وبلغ مجموع ما قام تجار العبيد بإقتناصة من إفريقية ما يقرب من إثنتي عشر مليوناً، وقام القناصة بصيدهم من أنجولا وغينيا والسودان والسنغال جامبيا، وفي كل مكان يمكنهم أن يعثروا فيه عليهم. يفسر هذا كيف تحولت مدن مزدهرة مثل جاو وتمبكتو ، والتى بلغ سكانها ٦٠ أو ١٠٠ ألف ، إلى مجرد قرى صغيرة ، ولم تصل من هذه الملايين الإثنا عشر سوى ثمانية أو تسعة فقط إلى أمريكا. وكان يصل منهم ثلاثون ألفا فى السنة يوزعون بين الأنتيل، وخصوصاً هاياتى، وبين الأمريكتين ، ولكنا لانجد فى كل أمريكا ، وبعد ثلاثة قرون من عملية التهجير إلا أربعة أو خمسة ملايين زنجى. ويرجع ذلك إلي أن القناصة كانوا يفضلون الرجال على النساء فى تجارتهم ، فكانت نسبة الزواج بين الزنوج فى العالم الجديد منخفضة . وحالات المواليد نادرة . وإحتاج الأمر إلى أجيال عديدة لموازنة أعداد الجنسين ، والسماح بقيام عملية توطين طبيعية . وكان الهنود من جانبهم غير مهيئين لقبول الحضارة اللاتينية ، وبلغ عددهم ثلاثين مليوناً قبل وصول كولومب ، ثم إنخفض عددهم إلى ثلاثة عشر بعد قرن ،

ولم يبق منهم إلا عشرة ملايين بعد ثلاثة قرون من الإستعمار، ومعظم دمائهم أصبحت مخلطة . ونشأ عن هذا التخليط جنس جديد فى أمريكا الأسبانية البرتغالية. وكان الغزاة والمعمرون يحضرون شباباً ، غير متزوجين ، ثم يتصلون بالهنديات ، ويدخلون ذلك فى نطاق عملية الغزو. وعلى أى حال ، فإن الاسبانيين غير المخلطين يعتبرون قلة. وكان كولومب قد توصل إلى تبديل عقوبة الإعدام بالنفى إلى المستعمرات ، عملا على تعميرها ، فوصل مجرموا شبه الجزيرة الأيبرية إلى أمريكا، وكانوا أول معمريها . وكانت أسبانيا تفضلهم على غيرهم من أبناء الدول الأوربية الأخرى ، وتقفل أبواب أمريكا فى وجه أى شخص لم يكن من رعايا التاج، فأقفلتها فى وجه اليهود ، ووجه المغاربة والمسلمين والكفرة . ولقد قدر بعض الجغرافيين عدد المهاجرين من شبه الجزيرة الأيبيرية بعشرة آلاف شخص فى المتوسط فى السنة، ووصل من ذلك إلى مليونين من المهاجرين فى القرنين الأولين للإستعمار ، ومليونين ونصف إلى ثلاثة ملايين ونصف لفترة ثلاثة قرون ، ومنهم مليون من البرتغاليين. ولمن الأهالى غير المخلطين لم يرتفع عددهم إلا إلى ١٥٠ أو ٢٠٠ ألف من الإسبانيين البرتغاليين بعد قرن ، ومليونين بعد ثلاثة قرون وتلاحظ هنا أن نسبة الوفيات فى الحروب ، والحمى والإرهاق ، قد فعلت فعلها، وأن الخصوبة قد أعطت من المخلطين أكثر مما أعطت من أبناء قشتالة.

وهكذا تغير الوجه الإنسانى لأمريكا اللاتينية الحديثة، وعاش فيها البيض والحمر والسود. ولم يكن فى وسع البيض أن يحافظوا على حكمهم وتحكمهم إلا إذا اعتقدوا فى أنهم سادة، وأنهم متفوقين على غيرهم ، وإلا إذا مانجحوا فى فرض أنفسهم - بهذه الصفات - على غيرهم.

(٣) إستغلال أمريكا اللاتينية:

كان المعمر الأسباني ، أو الغازى ، يعتقد أن من حقه أن يربح كل شيء، حتى ولو أدى ذلك إلى تحطم الأهالى ، مادام قد أحضر لهم المسيح ، وهو أكثر من أن يقارن بأى شيء يأخذه منهم. ولذلك فإنه كان يستغل ، بكل ماتحمله هذه الكلمة من معان . وكان هدف المعمرين الأول هو البحث عن مناجم الذهب والفضة، ورغم خيبة أملهم فإنهم لم يفقدوا الأمل مادام الأهالى يتزينون بالجواهر ، وما دام حكام الأزاتكة ، والأنكا قد تمكنوا من جمع كنوز كبيرة. وأخذ الأسبانيون يغسلون رمال الأنهار ليحصلون على التبر، ويبحثون فى الأرض بعناد حتى يصلون إلى نتيجة . ووجدوا بعض الذهب وكثيراً من الفضة فى المكسيك أولا ، ثم فى بيرو بعد ذلك . وإكتشف أحد الهنود الذى يرعى اللاما مع أحد ضباط بيزارو جبلاً من الفضة على الهضبة : أنها مناجم بوتوسى التى سيزيد انتاجها بشكل يسمح للأوروبين باستخدام كلمة "بيرو" للدلالة على الثروات الكبيرة.

واضطر الأسبانيون الى الحفر فى الأرض لإستخراج المعدن النفيس ، ولم يكن عذا المعدن نقيا فى أغلب الأحوال ، بل كانول يضطرون إلى تحطيمه وغسله وتنقيته. وتمكن رجال الكيماء من تحسين طرق فصل الذهب عن الفضة بمعالجتها بالزئبق . ووجد الأسبانيون ـ لحسن حظهم – مناجم للزئبق فى بيرو نفسها ، فتزايدت كميات الإنتاج الأمريكية بشكل مذهل. وكانت المناجم ملكا للتاج الذى يمنحها للمستغلين ، والذين يتعهدون بتسليم الملك جزءا من الإنتاج ، يصل إلى النصف أو الثلث فى أول الأمر، ثم إلى الخمس فيما بعد ذلك ...وكان هذا المعدن ينقل بحرياً من بيرو إلى بنما ، ثم على ظهر البغال لعبور البرزخ، ولشحنه من جديد على سفن أسبانية متسعة وبطيئة وحقق

الإنتاج الأمريكى من المعادن النفسية آمال أسبانيا والمستعمرة فى وقت بسيط، وكان يمثل خمسة أو ستة أطنان من الذهب ، وثلاثمائة طن من الفضة فى كل عام.

ولكن الأنتيل لم تلعب أى دور فى هذه المغامرة للحصول على المعادن. وإتجه المعمرون فيها إلى استغلال الزراعة ، خاصة وأن أرضهم كانت تنبت الأناناس والموز ، فصمموا على إستغلالها فى زراعة قصب السكر، الذى يعطى السكر والروم ، والذى قد يصل قيمة إنتاجه إلى مايقرب من الذهب إن لم يكن هذا الإنتاج يقيم بالذهب . فأصبحوا مزارعين بدلا من إشتغالهم بالمناجم ، وكرروا السكر بدلا من تنقيتهم للمعادن. وزرعوا الذرة وربوا الخنازير. وبدأ المعمرون على القارة نفسها ، وفى المناطق التى لم يعثروا فيها على معادن يفكرون فى مثل الأنتيل ، فزرعوا التوت فى المكسيك ، والكروم والزيتون فى بيرو ، والموالح والحوامض وأشجار التين والخوخ فى كاليفورنيا ، وأصبح الاسبانيون من جديد مستعمرين بكل معنى الكلمة.

وزاد هذا الإزدهار الاقتصادى التجارة بين أسبانيا ومستعمراتها الأمريكية وكانت التجارة بسيطة فى السنوات الأولى قبل العثور على مناجم المعادن النفيسة، ولكن التصدير إزداد مع الزمن فى نفس الوقت الذى إزدادت فيه حاجة المعمرين إلى مواد التموين والملابس والأدوات والخيول والعجول من أوربا. وكانت أسبانيا تنظر إلى عملية التصدير هذه إلى العالم الجديد على أنها خراب لها . ولكن الميزان إنقلب مع الزمن ، وزادت عملية التصدير من أمريكا بإرسال الفضة والذهب واللالىء والأحجار الكريمة، والسكر والقطن والكاكاو والطباق ، وكانت كلها ترسل إلى اسبانيا ، وتقوم اسبانيا وحدها بتموين مستعمراتها ، واحتفظت باحتكار التصدير والاستيراد

والنقل مع المستعمرات، إلا فيما يخص تجارة الرقيق ، وحرمت على السفن الأجنبية الرسو فى أمريكا حتى ولو كان ذلك لإصلاح مايصيبها من عطب ، وبنفس الطريقة التى منعت بها قرطاجة سفن الرومانيين من الرسو فى سردينيا أو فى ليبيا وفتحت أسبانيا عدداً معينا من الموانى للتجارة حتى تمنع التهريب ، وكانت هى أشبيلية ، التى أخذت مكان قادس ، وبعد ذلك قرطاجنة فى داخل البلاد ، وديوس وبورتوبالمو التى كانت تهيمن على التجارة فى الداخل. ونظمت أسبانيا الملاحة فى قوافل كبيرة ، وبطريقة البندقية ، حتى تتخلص من أخطار القراصنة . وكانت السفن تسافر فى شهر أبريل عن طريق جزر كناريا إلى الأنتيل والمكسيك ، وفى شهر أغسطس لبرزخ بنما وأمريكا الجنوبية . أما فى العودة فكانت القافلتان تجتمعان فى كوبا ، وتمر على جزر الخالدات قبل أن تصل إلى أشبيلية فى شهر مارس.

وكانت هيئة التجارة هى التى تشرف على هذه العملية التجارية ولها فى أشبلية إختصاصات إدارة الهجرة ، وتشرف على مدرسة بحرية ، وعلى محكمة تجارية وغرفة للقناصل . وكانت هذه الهيئة آلة إدارية ثقيلة تخزن البضائع ، وتشرف على عمليات الشحن والتفريغ ، وتحصل الخمس الخاص بالتاج . وكانت عبارة عن وزارة لتجارة الهند ، ويشرف رئيسها على أمن القوافل فى المحيط الأطلسى ، وتستلم خزانته الرسوم الجمركية على البضائع، ويستلم أنصبة أصحاب الشركات وأصحاب السفن الخاصة نظير حمايته لتجارتهم . وكان هناك موظفاً عاماً يعينه النصر ويشرف على قوافل وأساطيل الهند، ويرسل إلى الإدارات العامة فى العالم الجديد كل مايلزمها ، من الزئبق اللازم لتنقية المعادن ، إلى الأسلحة اللازمة لأبناء الغزاة.

وكانت هيئة التجارة مؤسسة خاضعة للدولة ، وتشرف على العمليات الفردية الخاصة . فكانت تشرف على العملية دون أن تقوم بتنظيمها ، بل تترك للموردين والمصدرين فى قادس واشبيلية اتخاذ القرارات اللازمة لهم ، ولكن إشرافها كان عبئا ثقيلا على التجار ، الذين كانوا يحاولون التهرب من دفع الرسوم والضرائب فلم يقتصروا على خفض قيمة التجارة المفرغة أو المشحونة فى تصريحاتهم الرسمية، بل بدؤا فى عمليات التهريب ووجدوا فى داخل هيئة التجارة نفسها من يشاركهم فى هذه العمليات وبدأت السفن تفرغ حمولاتها فى البحر قبل دخولها إلى أشبيليه ، وتشحن بضائع أخرى بعد خروجها من الميناء . كما اتصلوا بمهربين أجانب كانوا يقومون بنشاط عجيب فى خلجان العالم الجديد. وخرج ثلث تجارة العالم الجديد من أيدى هيئة التجارة نتيجة لهذه العمليات.

وادعت أسبانيا كذلك الإشراف على الصناعات الناشئة فى الهند، دون أن تتمكن من القيام بذلك بطريقة عملية. وكانت المكسيك تنسج الحرير، وبيرو تنسج الأصواف ، وكانت هذه السلع منخفضة السعر، وهددت بمنافسة الصناعة الأسبانية . فمنعت مدريد هذه الصناعة . ولكن نواب الملك لم ينفذوا هذه القرارات.

وإزدهرت أمريكا الأسبانية بطرق مشروعة ، وطرق غير مشروعة ، وظهر ذلك فى نمو مدنها الصغيرة ، التى كانت تبنى على خطوط منتظمة ، حول ميدان مربع ، كما هو الحال فى مدن أسبانيا ، وتشتمل مثلها على كنيسة ومدرسة وأحد الفنادق، مبنية على الطريقة القشتالية . وكانت الشوارع تتقاطع مع بعضها، وتشتمل المساكن على حوش داخلى وعلى أعمدة وبنيت الكنائس والكاتدرائيات فى مكسيكو وفى ليما ، وأصبحت كل من هاتين

المدينتين مركزاً لرئيس أساقفة، ولها جامعة ، وفتحت الكليات أبوابها للهنود مع الأسبانيين ، وأصبحت لغة قشتالة هى اللغة الرئيسية ، وخاصة فى المدن . ولم تختلف فيراكروز ولاكراكاس عن بورجوس أو غيرها من مدن أسبانيا. وكان فيها نفس التاجر ونفس الموظف ونفس الضابط ، إلا بوجود رجال لوحت وجوههم الشمس، وبعض الهنود والزنوج ، للدلالة على أنها ليست أسبانيا ، ولكنها مستعمرة أسبانية.

وهكذا أصبح العالم الجديد إنعكاسا للعالم القديم ، بعد أن أخذ منه لغته وأسماءه وديانته ، فى نفس الوقت الذى إستخدم فيه الخيل والعجلة وصناعة الحديد، وقبل أن تغير أمريكا أوربا ، قامت أوربا بتشكيل أمريكا.

(٤) أوربا الأسبانية:

كانت أسبانيا هى أهم شيء فى أوربا فى ذلك الوقت ، وكانت قشتالة هى أهم إقليم فى اسبانيا . وقد عملت سلسلة طويلة ، من الميراث والزواج ، على تجميع الأقاليم والدول على رأس ملوك أسبانيا ، ولم يكن ذلك لمجرد الحظ إذ أن ملوك أسبانيا قد عرفوا كيف يديرون دفة سياستهم فى هذا العصر، وساعدتهم امبراطوريتهم الأمريكية فى السيطرة على أوربا ، كما ساعدهم قوتهم فى أوربا ، وسهلت عملهم فى استعمار أمريكا.

ووقعت مهمة انشاء أسبانيا على الملوك الكاثوليكيين، فرديناند وإيزابلا، وكان زواجهم قد وحد بين قشتالة وأرجوانة ، مع ملحقات أرجوانة فى صقلية وإيطاليا . ونجحت جيوشهم فى إتمام " إعادة الغزو" والقضاء على الحكم الاسلامى فى الأندلس وجاء إكتشاف أمريكا بعد ٢٨٠ يوما من سقوط غرناطة فى أيديهم. ظهرت أسبانيا فجأة فى شكل دولة كبرى ، وإن كانت

إيزابلا قد ماتت قبل أن تعلم بخطورة العالم الجديد الذى وقع فى أيديها . ولم يعرف فردينااند عن الهند الغربية أكثر من أنها تكلفة الأموال والرجال.

وتجمع مجد إتحاد هذه الأقاليم الموروثة والمفتوحة والتى انتخب عليها ، مع شارل الخامس ، حفيد الملوك الكاثوليكيين ، والذى سيطر على أسبانيا ونابلى وصقلية والمستعمرات الواقعة فيما وراء المحيط ، وأضاف إليها بقية إيطاليا والأراضى المنخفضة والفلاندر وبعض مقاطعات فرنسا ، والنمسا والإمبراطورية المقدسة. لقد أصبح سيدا على عالم لاتغرب عنه الشمس ، ولكنه كان يرى فى أمريكا وسيلة أكثر من كونها غاية، وسيلة للحصول على الذهب ، وبالذهب كان يمكنه أن يسيطر على أوربا ويحكمها.

ووصلت أسبانيا إلى أوجهها فى عصر ابنه فيليب الثانى . ورغم أن شارل الخامس كان قد حاول ترك الإمبراطورية لأخيه، إلا أن فيليب ضم البرتغال مع ممتلكاتها الخارجية ، فأصبح ملكا على لشبونة وعلى ميلانو ، وجاوا وبروكسل، وبالرمو ، ومكسيكو وجعلت مناجم بوتوس منه أغنى ملك فى أوربا ، وشهدت الإسكوريال بعظمته . ورغم أنه لم يهمل أمريكا . إلا أنه إنشغل بالأعداء القريبين منه فى أوربا ، أو فى أسبانيا نفسها ، بشكل منعه من التفرغ لها . والواقع أن أمريكا كانت تحتاج إلى إهتمام أكثر من ذلك : فلقد كانت ايزابلا تفضل عليها غزو الأندلس ، وفرديناند يفضل عليها إيطاليا ، وشارل الخامس بفضل عليها الفلاندر ، وفيليب مشغولا عنها بقشتالة . ولقد كانت مكسيكو وليما تهمهم بدرجة أقل من غرناطة ، ونابلى وأنفرس والإسكوريال . والواقع أن مستعمراتهم الحقيقية لم تكن فيما وراء المحيط ، بل كانت تقع على سواحل البحر المتوسط أو سواحل بحر الشمال. فالواقع أنه لم تكن هناك مستعمرات ، أو كانت كل أقاليم أوربا الاسبانية

عبارة عن مستعمرات بما فى ذلك أقاليم شبه الجزيرة الايبيرية . فاننا نجد نفس النظم ، مع نائب الملك فى سردينيا ، وفى صقلية ، وفى نابلى ، وفى الفلاندر ، وفى أرجوانه ، وفى بلنسية، مع حكام محليين ، وموكب بيروقراطى ، لملكية مركزية . وكان الملك هو سيد كل ذلك ، بنفس الطريقة التى يسود بها كبار الملاك أراضيهم ، وبدون أن يفرقوا بين الكروم وأراضى الحراثة ، بين الأراضى المزروعة والمراعى . لقد كان الملك يحكم وكان هذا هو كل شىء . وكانت السلطة الملكية تسيطر على كل السلطات الأخرى ، فكان الاقطاعيون خداما للملك، وكون الفرسان حاشيته، أما المجالس التشريعية "الكورتيز" فكانت تغط فى سبات عميق ، والعامة غرقى فى مشكلاتهم اليومية. وسادت سياسة التحكم الدينى فى جميع أنحاء الامبراطورية : إذ أن أسبانيا كانت كاثوليكية ، ولاتقبل أى مذهب آخر ، فاستندت إلى ذلك العامل كأساس من أسس الوحدة ولكى تتخلص من المغاربة واليهود فى الأندلس ، ومن غير المسيحيين فى الهند الغربية، ومن رجال الاصلاح الدينى فى الأراضى المنخفضة وكانت النيران تحرق الكتب ، ومحاكم التفتيش تأمر لاحراق الرجال، وكل ذلك باسم " النظام الوطنى".

وتسبب مبدأ الاصلاح الدينى فى اثارة مشكلة " الوحدة" فى الأراضى المنخفضة ، ذلك أن الهجنوت ، بعد أن طالبوا بحرية العقيدة ، طالبوا بالحرية المدنية ، والتحرر فى نظم الضرائب ، وضمانات عسكرية كانوا يطالبون بمعابد بروتستانتية، ثم أخذوا يطالبون بقلاع ، ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين النظام الأسبانى ، بما فيه من سيادة ملكية، وإتحاد امبراطورى، وبين "الفوضى" البروتستانتية ، فكان من الأفضل نقص الأيدى من ألمانيا ، على الإحتفاظ فى عالم قشتالة بمركز انفصالى ، وكان من الأفضل كبت ثورة

الفلاندر أو قطع العلاقة مع الأراضى المنخفضة على الاتفاق مع الهراطقة . ولم تعترف أسبانيا بوجود إله للوثر أو لكلفن فيها أكثر من إعترافها بوجود إله للمسلمين أو لليهود أو للهنود الحمر داخل إمبراطوريتها.

ورغم ذلك ، فقد كانت الفلاندر أجمل جوهرة فى التاج الامبراطورى ، نتيجة لأهميتها الصناعية والتجارية ، ونتيجة لأنها وطن شارل الخامس الأصلى، إذ أنه كان قد ولد فى جاند وأمضى شبابه فى بروكسل . وكان شارل أميرا فلمنكيا يتحدث اللغة الفلمنكية واللغة الفرنسية ، ولايعرف الاسبانية ولا الألمانية ، إنه أرشيدوق الفلاندر الذى ورث عرش إسبانيا . وحينما وصل إلى إسبانيا محاطا بالفلمنكيين اعتقد الأهالى أنها كانت عملية غزو . والواقع أن أسبانيا لم تستعمر الفلاندر ، بل كان الفلاندر هو الذى يستعمر آسبانيا ، بإعطائه شارل الخامس امبراطورا لها. ولقد منح الامبراطور الألقاب والوظائف للفلنكيين وللبورجنديين وللفالونيين مما أثار أسبانيا . وأضطر شارل إلى إعادة غزو مملكته . ولم تقبله اسبانيا وتعتز به إلا بعد انتخابه امبراطوراً. فوافق بعد ذلك على تعلم الإسبانية ، ولكنه ملأ مجلس الهند بأصدقائه الفلمنكيين ، وعين فلمنكيا قاضيا أعظم لقشتالة ، وثالثا حاكما على كوبا. وكان هذا يدل على أن الفلاندر لم تكن مكبوته ، بل كان شارل يجمع مجلس الطبقات ويستشيره، وإذا كان يحد من حرية البلديات ، فإنه كان يحترم حريات الأقاليم ، ومنح الحكم الداخلى للإتحاد الفلمنكى.

ولقد جمع هذا الإتحاد سبعة عشر مقاطعة ، وكان مركزه فى بروكسل ، مركز الحاكم العام ، الذى كان عبارة عن خالة الامبراطور ثم أخته ومركز مجلس الدولة والمجلس المخصوص ومجلس الميزانية ، والذى كان أعضائهم يعينون مدى الحياة، وكان أغلبهم من الفلمنكيين. وظلت الإدارة محلية دون

أى تدخل من اسبانيا، إلا فى السياسة العامة، التى كانت تسير وفقا لسياسة مدريد. ولقد إدهرت هذه الأقاليم السبعة عشر فى ظل هذا النظام التحررى، وازدهرت صناعة الصوف والسجاجيد، كما إزدهرت أنفرس ، وإزدهرت أمستردام نتيجة لاشتغالها بصيد الرنجة.

ولقد إختلف الديكور مع فيليب الثانى ، فبعد أن كان شارل فلمنكيا جاء فيليب أميراً أسبانيا ، ورغب فى صبغ الفلاندر بالصبغة الإسبانيولية ، وذلك للتفتيش عن تطرف القشتاليين من جهة ، وللقضاء على "الهرطقة" التى سادت هذا الإقليم من جهة أخرى . وكانت هذه العملية الاستعمارية أكثر مرارة من العمليات الاستعمارية فى الهند الغربية، إذ أن الفلمتكيين لم يكونوافى كسل الهنود الحمر، كما كانت عواطفهم مشتعلة ، وصمموا على الثورة لإنقاذ حرياتهم الوطنية ، وعقيدتهم الدينية . وحاول فيليب أن يحتفظ بالوحدة السياسية، ووحدة العقيدة ، فأرسل دوق إلب نائبا للملك من ميلان ، وعلى رأس عشرين ألف رجل . وكان صارما ، ونشر الإرهاب الإسبانى وأسرف فى إلقاء القبض والقتل ، وفى فرض نفسه، وعين الإسبانيين فى المجالس الفلمنكية . ولكن المجازر والنهب لم تتمكن من القضاء على المقاومة المحلية . أما أنصار كلفن بعد إنتصارهم فإنهم لم يكونوا أكثر تسامحا من الكاثوليك ، وتحولت الحرب الاسبانية إلى حرب أهلية . وحينما استلم فيرنيز سلطته كحاكم عام، وكان إيطاليا ، قام بمناورات ، وصل بها إلى الفصل بين السبعة أقاليم الشمالية ، التى حصلت على استقلالها لكى تصبح الأراضى المنخفضة الحرة، والتى إزدهرت بسرعة، وبين العشرة أقاليم الجنوبية التى حافظت على ولائها لروما ولمدريد، والتى احتفظت بحماميها العسكريين وبحاميلتها الأسبانية ، التى ظلت راسخة تحت الحكم الأجنبى.

أما إيطاليا فإنها لم تكن أسعد حظا . حقيقة أن حركة الإصلاح الدينى لم تزعجها ، ولكنها كانت ميدان حرب لطموح كل من الإسبانيين والفرنسيين . وكانت أسبانيا ترغب فى أن تصل أقلاليمها فى صقلية ونابلى بالنمسا والفلاندر ، أما فرنسا فكانت تحاول كسر هذه العملية التى تهدد بتطويقها وخنقها . ولقد كسبت مدريد معركة إيطاليا ، وخضعت لها كل شبه الجزيرة ماعدا البندقية، ووضعت حامياتها فى تسكانيا وسافوا، كما خضعت لها جنوه وبارما . وإعتمد الحاكم فى ميلانو على إدارة ثابتة وجيش احتلال . أما نائب الملك فى نابلى فكان يعاونه مجلس يتشكل من أحد الإيطاليين وإثنين من الإسبانيين ، وأما الجيش فكان أسبانيا ، خاصة وأن الإدارة كانت تجند الإيطاليين للخدمة العسكرية فى مناطق أخرى ، وكذلك احتفظت الإدارة بالوظائف الكبيرة للأسبانيين ، فى نفس الوقت التى كانت فيه الضرائب مرتفعة . ولم يستسلم كل الإيطاليين لهذا التحكم ، فتمرد دوق سافوا ، وثارت صقلية أكثر من مرة ، وعارضت أسر نابلى القديمة المحتلين الأسبانيين. ولكن إيطاليين آخرين قبلوا سيادة قشتالة ، وتمكن سادتهم الجدد من إدخالهم فى مجلس الهند ، وعينوا أحد أفراد أسرة فيرنيز ممثلا للملك فى الأراضى المنخفضة. وكان الإيطاليون فى مجموعهم يعزفون عن شئونهم السياسية، ويتفرغون للفنون والآداب والعلوم ، وتمكنوا من رسم الجوكوندا وبناء كنيسة القديس بطرس فى روما، كما تمكنوا من إثبات أن الأرض تدور ، وإكتشفوا عوالم جديدة للأخرين ، وقبلوا فى نفس الوقت أن يقوم غيرهم باستعمارهم ، كما قبل موطن أغسطس وكريستوف كولومب أن يصبح مجرد أقاليم متفرقة ، تخضع لحكم الإمبراطورية الأسبانية.

أما عن الحوض الغربى للبحر المتوسط فقد كاد أن يصبح بحيرة أسبانية. ولكن فرنسا أضطرت إلى التحالف مع الأتراك العثمانيين حتى تحطم العملية التى هدفت تطويقها . وقامت اسبانيا ، من ناحيتها ، بإرسال حملات إلى مليلة ووهران وبجاية ، وطرابلس ، وتونس ، وإحتفظت بالمكانيين الأولين منهما تحت سيطرتها، وإذا كانت قد فشلت أمام الجزائر فإنها قد تمكنت من هزيمة الأسطول العثمانى فى ليبانتو سنة ١٥٧١ . وانقسمت القوى بشكل أظهر البحر المتوسط خاضعا لقوتين ومنقسما بينهما: قوة الإمبراطورية العثمانية فى الشرق ، وقوة امبراطورية قشتالة فى الغرب.

وكانت البرتغال هى آخر الغزوات فى أوربا ، وانتهت الأسرة الحاكمة فيها دون ترك وريثا مباشرا ، فأفاد فيليب الثانى من هذه الفرصة ، واستولى على العرش الخالى ، وكلف دوق الب ، من جديد بترويض المعارضين ووعد فيليب باحترام القوانين البرتغالية ، إلا أن النبلاء اشتكوا من أبعادهم عن الحكم ، كما إشتكى البرجوازيون من شدة وطأة الضرائب . ولم ينقل البرتغاليون المقيمون فيما وراء البحار هذا الإتحاد مع أسبانيا بسهولة ، ودافعوا عن حقوقهم حينما وجدوا أن أسبانيا لايمكنها معاونتهم ، كما حدث فى منطقة الأمازون. وعلى أى حال فإن وحدة شبه الجزيرة الأيبرية قد تمت ، وبقيت لمدة ستين عاما.

فكانت أسبانيا إذا موجودة فى أوربا من لشبونة إلى بروكسل ، وكانت لها أقاليم فى هذه القارة لاتقل أو تزيد ، فى نظام الحكم الإستعمارى ، عن ممتلكالتها الأميريكية ، وكان لها فى كل منها. كما كان لها فى كل العالم ، ميليشيا كاثوليكية ناشئة . ذلك أن أحد أبناء نافار الذى ولد فى ليولا كان قد ترك الخدمة العسكرية ووهب نفسه لخدمة السيد المسيح ، وأنشأ جماعة

اليسوعيين "الجزويت" وعمل على محاولة تمسيح غير المسيحيين، والكفاح ضد "الهراطقة" أى غير الكاثوليك، وظلت اسبانيا وأقليمها الخاضعة تعطى قيادات هذه الجماعة لمدة طويلة، وانتشرت بعثاتهم فى جميع أنحاء العالم، وساعدوا على صبغة بالصبغة الاسبانية وسيصلون ، بعد ذلك مثل جماعة الإخوان الإسبتالية والإخوان التيوتونيين، إلى دور المستعمرين ، بعد أن كان هدفهم هو كسب الأهالى للإنجيل.

هذه هى الإمبراطورية الأسبانية ، ويمكنها أن تظهر كامبراطورية تمت بطريقة غير طبيعية ، ونتيجة لعمليات زواج أو لعمليات ملاحة بحرية ، ولعب الحظ دورا كبيرا فى وصول كولومب إلى الإنتيل ، وفى دخول بورجونيا فى ميراث قشتالة ورغم ذلك فإن هذه العمليات تتكامل. وكانت أرجوانة محتاجة لقمح صقلية، والأندلس محتاجة للسيطرة على وهران لأمنها، ومدريد محتاجة لفضة بيرو لميزانيتها، وللجنود المبشرين، الذين أنشأهم إيجناس دى ليولا، فى دبلوماسيتها ، ولكن " القطع" الأوروبية من هذا البناء الضخم كانت رقيقة، ولايمكنها أن تقاوم الاطماع الخارجية ، ونمو الحركات القومية ، لفترة طويلة . أما امبراطورية ماوراء البحار، فإنها كانت بعيدة ، وبشكل يحميها ويحافظ عليها ، ولعدة قرون أخرى.

الفصل العاشر

البرتغاليون ومنافسوهم

لم تكن الهند التى وصل إليها الغزاة عبر المحيط الأطلسى صدفة هى بلاد الهند الأصلية ، بل كانت جزر الهند الغربية. أما الهند التى كانت أوربا تحلم بالوصول إليها فكانت فى الشرق، وفى نهاية الطريق الذى إحتفظ به البابا للبرتغاليين ، بعد أن سارت سفنهم فيه. ولكن ، ألا يؤدى إستمرار السفر غربا، بعد الهند والأمريكتين ، إلى الوصول إلى الهند الحقيقية؟ وهل هناك حدود يمكن للبابا أن يضعها بين ممتلكات الاسبانيين والبرتغاليين فى أقصى الشرق الأقصى؟ أو فى آخر أقصى الغرب؟ وعلى أى حال فلنتتبع وصول البرتغاليين للهند، لكى نصل إلى تطور الأحداث الاستعمارية فى العالم بعد ذلك.

(١) البرتغاليون فى الهند الشرقية:

كانت الهند تعيش فى ذلك الوقت منقسمة وكان كل من السلاطين الأتراك والأفغان يتنافسون فيها، وفى جو من الكسل ، ويحتفظون للهندوس بالوظائف الصغيرة. ولقد تمكن بابر، الحفيد الخامس لتيمور لنك ، والحفيد الرابع عشر لجنكيز خان، من مد حكمه من سمرقند إلى كابل ، ثم إلى دلهى وأجرا. وانتصرت مدفعيته على أفيال الإقطاعيين ، وسيطر على شمال الهند، بعد أن نشر الإرهاب على طريقة أجداده ، وأحرق النساء والأطفال.

ولقد تمكن حفيده أكبر، الذى عاصر فيليب الثانى ، من إتمام عمل جده، ومن تجميع كل الهند تحت حكمه ، ماعدا أقصى الجنوب، فأصبح الخان الأعظم، وتمكن بذلك أحفاد المغول من حكم الهند، وسمى الغربيون

إمبراطوريتهم باسم إمبراطورية المغول الكبيرة . وكانت هذه الإمبراطورية تشتمل على مائة مليون نسمة، وتتسع لمليون ونصف مليون من الكيلومترات المربعة ولقد أدهشت هذه الإمبراطورية البرتغاليين الذين وصلوا إليها. وكان البرتغاليون يحملون معهم المرسوم البابوى الذى يمنحهم شرق العالم . وكان برنامجهم يتلخص فى الوصول إلى ثروات الهند، والمتاجرة على حساب البنادقة والعرب. ولم يكن فى وسع البندقية أن تصل إلى سلع الشرق الأقصى فى ذلك الوقت إلا بعد صعوبات كبيرة، وعبر العراقيل التى وضعها الاتراك، وبعد دفع مبالغ طائلة لنقل البضاعة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط. وكان العرب يحتفظون باحتكار التجارة فى المحيط الهندى. ولم يكن هدف البرتغاليين إلا أن يحطموا هذه المنافسة المزدوجة ، ويضمنوا لأنفسهم إحتكار تجارة الهند ، وينتهزوا الفرصة لنشر المسيحية هناك.

ولقد رأينا البرتغاليين ينشئون المراكز على سواحل أفريقية وعلى طول الطريق المؤدى إلى التوابل . كما قام دياز بالإلتفاف حول رأس الرجاء الصالح. وجاء بعده فاسكو دا جاما مع أربع سفن خفيفة، وتعرف على مونوموتابا، وجزيرة موزمبيق ثم ممبسة قبل أن يتجه صوب الشرق، ويصل إلى كلكتا ويشم رائحة التوابل . ولكنه عاد فى رحلة ثانية مع إحدى وعشرين سفينة حربية مسلحة ، وهاجم المنشآت العربية فى المحيط الهندى ، وأسس مركزاً فى كوشين، على ساحل المالابار ، وبدأت بذلك الإمبراطورية البرتغالية فى آسيا.

وواصل كل من الميدا، والبوكيرك هذه العملية، وحاولوا من جُهة، أن يبعدوا العرب تماماً عن تجارة الهند؛ وأن يصلوا فى نفس الوقت إلى التخلص من البنادقة . وقام البرتغاليون بتنفيذ ذلك بحماس ووحشية، فأخذوا فى

إحراق سفن العرب، وفى هدم المدن والمراكز الإسلامية ، وفى طرد التجار، وإدعوا أنها كانت حرباً صليبية ضد المسلمين. وتحول المحيط الهندى إلى بحر برتغالى : إحتفظت لشبونة باحتكار التجارة فيه، ومنعت كل سفينة من الملاحة فيه، إلا بعد تزويدها بتصريح رسمى من ملك البرتغال ، حتى وإن كانت هذه السفينة تابعة للسلطان أكبر . وعمل البرتغاليون ، من ناحية أخرى على إنشاء مراكز لهم على طول الطريق ، وفى بلاد التوابل ، وإختاروا أحسن المراكز ، على الجزر الصغيرة أو فى الخلجان المحمية ، وفى أحسن المواقع للتجارة والمرسو ، ثم أعدوا فى كل منها مخزنا وقلعة ، وتركوا فيها يعض التجار وبعض العمال وبعض الجنود . وتمكنت الجيوش الأوروبية من فرض نفسها على الشرقيين الذين لم يقدروا معنى مجيء البرتغاليين ، وإقامتهم فى نقط صغيرة، ولم يفكروا فى معنى عملياتهم ، وتأثيرها على التجارة العالمية.

وأقام البرتغاليون بهذه الطريقة فى إفريقية الشرقية فى دالاجوا وفى سوفالا وموزمبيق وفى جنوب مدغشقر ، كما أقاموا فى سوقطرة عند مدخل البحر الأحمر، وفى هرمز ، عند مدخل الخليج الفارسى ، وفى مسقط. أما فى الهند ، فإن البرتغاليين قد أقاموا فى ديو ، وفى دمان التى تسيطر على تجارة شمال الهند، وفى جاو التى كانت مركزاً لتجارة ساحل المالابار والهند الوسطى ، وفى كاتانور وكوشين ، وهما مخارج للهند الجنوبية، وفى سيلان المواجهة لخليج البنغال.

ولقد وجد البرتغاليون فى الهند كثيراً من التوابل والأنسجة ، ولكن معظم التوابل كانت تأتى من أبعد من ذلك، ومن بلاد "وجزر" موجودة قرب الشمس المشرقة فذهب البرتغاليون للبحث عنها على طول سواحل سيام، وعند

مصبات الميكنج ، حيث وجدا الطبيعة تشبه طبيعة مركزهم فى كوشين، فسموها الكوشين صين، وهى ما أصبحت الهند الصينية فيما بعد. ووصل البرتغاليون إلى سومطرة وإلى جاوة ، وهم يبحثون عن القرنفل والمسك . وكانت ملقة هى مفتاح المضايق ، فقاموا باحراقها ونهبها، وأنشأوا قاعدة لهم هناك . فأصبحوا يقيمون بين مزارع الفلفل والقرنفل والقرفة.

وكانت الصين تغريهم على المجيء إليهم ، فوصلوا إلى كانتون ، وتفاضوا . ثم طردوا ، ولكنهم عادوا مرات كثيرة ، وانتهو باقناع الصينيين بقبولهم وبتركهم يقيمون فى شبه جزيرة ماكاو ، عند مصب نهر كابتون ، وعلى أساس دفع ايجار لهذه القاعدة الجديدة التى بقوا فيها لمدة ثلاثة قرون متتالية، وجعلوها مركزا لتجارتهم مع الصين.

وكانت اليابان تستحق بعد ذلك زيارة خاصة من البرتغاليين ، ووصل إليها ثلاثة منهم فى سنة ١٥٤٢ ،. ثم جاء آخرون بعد ثلاث سنوات وكانوا من التجار وبدأوا فى المفاوضة ثم جاء أحد أتباع ليولا، وهو فرانسوا اجزافيية، الذى أخذ فى الوعظ فى ملقة وفى سيلبيس . وإعتقد الاهالى أنه كان مجددا فى الديانة البوذية، ولكن التجار البرتغاليين انتهزوا نجاح هذا القديس ووضعوا أرجلهم فى هيرادو ثم فى نجازاكى.

وهكذا امتدت منطقة عمليات البرتغاليين على طول آلاف من الكيلو مترات، وعلى سواحل أفريقية، إلى موزمبيق وزنزبار ، ثم على طول سواحل آسيا ، من بلاد العرب حتى اليابان.

وكانت هناك سياستان متعارضتان فى ذلك الوقت فى البرتغال ، وتردد البرتغاليون بينهما فترة من الزمن : أما الميدا فكان يعتقد فى ضرورة

الاحتفاظ بالتفوق البحرى ، وبأسطول قوى دون أن يزيد النفقات بإنشاء مراكز احتلال برية، أما البوكيريك، الذى انتصر على الميدا ، فكان من أنصار سياسية برية ، ولم يكتف بإحتلال مفاتيح خطوط الملاحة البحرية، مثل هرمز وملقة، بل زاد من عدد المراكز، ووسع مناطقها ، وحاول أن يأتى إليها بالمعمرين ، وكانت سياسته بسيطة ففى جاوة مثلا ، لم يكن على البرتغاليين إلا أن يقتلوا الرجال ، ويتزوجوا النساء ويعمدوا الأطفال فنشأ شعب مخلط ، وكاثوليكى ، وخاضع للبرتغال ، وأفادت هذه السياسة من التنافس الموجود بين مسلمى الهند ، أو المغول أو الأتراك أو العرب، وبين الأهالى . وقام البرتغاليون باحراق المساجد ، وينقل مافيها إلى الكنائس ، وحولوا جاو إلى لشبونه صغيرة ، ووضعوا لها نظما نقلوها عن نظم عاصمة نهر التاج ، بمجلس أعلى ، وأسقفية ودير وحامية وتجار أما فى غيرها من المراكز التى كان الهندوس يمثلون فها أغلبية ، فإن البرتغاليين قد إكتفوا باخضاع الراجا، دون أن يمسوا النظم المحلية ، ولكنهم عقدوا فى نفس الوقت اتفاقات تجارية تضمن لهم بيع تجارة البرتغال بأسعار محددة ، وتمنع أى منافسة ممكنة ، وخاصة من الأقاليم الإسلامية.

ولكن العجيب هو أن مليونا ونصف مليون من البرتغاليين قد تمكنوا من القيام بكل ذلك. ولكن هذه السياسة كانت تكلفهم الكثير ، وفى كل ميدان: الأموال الباهظة للإستمرار فى حرب مستمرة ، والكثير ، من الرجال لتوطينهم فى المستعمرات . وكان البرتغاليون يمنعون هجرة النساء ، ولذلك فإن البرتغاليين كانوا ينتقلون بمفردهم إلى آسيا ، وينقلون معهم قوانينهم وديانتهم. وعاشوا فى ماكاو ولم يزد عددهم على الألف ، وراء ذلك الحائط الذى بنته الصين لتحديد مستعمراتهم ، ولاستلام رسوم الجمارك منهم، ولكن تحت حكامهم ، وبادارة مجلس شيوخ خاص بهم.

كانت هناك سبع حكومات تقسم فيما بينهم حكم المراكز البرتغالية من رأس الرجاء الصالح إلى ماكاو. وكان حاكم جاو يتمتع بلقب نائب الملك، ويعين لمدة ثلاث سنوات ، على الطريقة الاسبانية . ولكن الإغراء والفساد انتشرا فى الإدارة الاستعمارية ، رغم إرسال المفتش من لشبونة ، وكان هدف الجميع ، بطبيعة الحال ، هو الإثراء وجمع الثروة بكل طريقة ممكنة.

وكانت هناك حكومة لدول الهند ، وللهيئات المكلفة بالإدارة الإقتصادية فى لشبونة وتسمى بيت المنبا ، وتتحكم فى ذهب غينيا ، مع بيت الهند، الذى كان يشرف على الأساطيل وعلى المراكز، ويحدد أسعار السلع المصدرة ، وأسعار التوابل المستوردة . وإحتكرت البرتغال العمليات التجارية فى المحيط الهندى ، واحتكرت الدولة البرتغالية تجار الفلفل ، وأصبح ملك البرتغال هو ملك الفلفل ، وكان يدفع نفقات بلاطه وقصره ، حتى مهر إبنته دفعه عينا من الفلفل . وكانت كل التوابل الأخرى تستورد إلى لشبونة فى صناديق مقفلة، ويقوم مفتشوا البيت ببيعها بعد أن يحصلوا على نسبة ثلاثين أو ستين فى المائة من أثمانها ضريبة للخزانة وكانت تجارة البرتغاليين مع الشرق، مثلها فى مثل تجارة الاسبانيين مع العالم الجديد ، تخضع للفصول السنوية ، فكانت السفن تقلع من لشبونة فى أوائل الربيع ، وتفيد من الرياح الموسمية الصيفية لكى تصل إلى الهند فى شهر سبتمبر ، ثم تعود فى شهر يناير وتدفعها الرياح الموسمية الشتوية ، ولكى تصل إلى لشبونة على مصب التاج فى شهر يونيو أو يوليو ، وبعد رحلة تدوم خمسة عشر شهراً . وكانت هناك أخطار البحر ، وتقلبات السوق ، ولكن إمكانيات الربح كانت تغطى كل ذلك . وحقق البرتغاليون أحلام الغرب القديمة . وأصبحوا سادة التوابل ، ولم يكن الصليبيون أو أبناء جنوة أو البندقية قد وصلوا من قبل إلى مناطق انتاجها ،

ولم يصلوا إلا إلى رأس القوافل ، أما غزاة لشبونة فقد نجحوا، لأول مرة فى التاريخ ، فى الوصل بين مزارع القرفة وبين العطارين فى أوربا الغربية.

(٢) حدود الشرق الأقصى مع أقصى الغرب:

لم يكن البرتغاليون بمفردهم فى هذا الميدان كما يرغبون . وكانوا يحتفظون بحقهم على الشرق ، تجاه الدول الأوروبية الأخرى إستناداً إلى مرسوم البابا اسكندر السادس، الذى كان قد قسم العالم بنصف دائرة ، ولكن أحداً لم يفكر ، مع هذا التقسيم ، فى أن المنافسين يمكنهم أن يصطدموا مع بعضهم من الناحية الأخرى من الأرض ، ودون أن يكون هناك خط حدود بين مناطق نشاطهم.

وكان الإسبانيون غير قنوعين بالعالم الجديد، الذى لاتوجد فيه أى توابل وصمموا على الوصول إلى الهند ، بنفس الطرق التى أعطاها البابا لهم، أى بمواصلة السفر صوب الغرب ، حتى ولو كان ذلك بعد الإلتفاف حول أمريكا، ولكن الجو كان غير مساعد من الشمال ، ولكن ماجلان قد نجح ، وبأول محاولة ، فى السفر من الجنوب.

وكان ماجلان برتغالياً ، ولكنه عمل لحساب شارل الخامس . وأقلع بخمس سفن ومائتين وثلاثون رجلا للإلتفاف حول العالم ورسا فى ريو ، ثم هجرته إحدى سفنه ، وفقد سفينة ثانية فى البحر . وإستمر مع السفن الثلاث الباقية وعبر المضيق الذى حمل إسمه ، وخرج إلى المحيط الهادى وسارت السفن لمدة مائة يوم وعشرة . ونزل الإسبانيون على إحدى الجزر التى سموها سان لازار ، والتى أنشأ ماجلان فيها أحد المراكز قبل أن يقتل فى معركة مع الأهالى ،. وإحترقت إحدى سفنه ، وأسر البرتغاليون السفينة الثانية، ولكن

السفينة الثالثة وصلت إلى تورنيو ثم سارت وسط الأرخبيل وخرجت إلى المحيط الهندى ، وإلتفت حول رأس الرجاء الصالح ، ووصلت إلى اسبانيا وعليها ثمانية عشر رجل ، بعد رحلة دامت ثلاث سنوات . ولقد ثبتت هذه المرة أن الأرض كروية تاماً ، وتأكد الرجال من ذلك. ولكن التنافس الإسباني البرتغالي بدأ بعد ذلك، وفي المنطقة المضادة للمحيط الأطلسي علي الكرة الأرضية.

ولقد اشتبكت قوات هاتين الدولتين في ملقة، كما اشتبكت جنوه مع البندقية في قبرص وفي بيزنطة من قبل. إنها حروب إستعمارية، وبين المستعمرين. وكان البرتغاليون هم أول من وصل إلي هناك، وكانوا أقوي من الاسبانيين وكان شارل الخامس في حاجة إلي النقود ، فاضطر إلي ترك مطالبه نظير ٣٥٠ ألف دوقي من الذهب، ولكنه لم يتخلي عن جزر سان لازار، التي سميت الفيلبين، نسبة إلي ولي العهد الذي سيصبح فيليب الثاني فيما بعد، وأقام فيها بعض مئات من الإسبانيين، ونشأت مانيلا العاصمة سنة ١٥٧١ ، وتحاشي الاسبانيون إساءة معاملة الأهالي، ولم يدخلوا نظام الرق أو جماعات العمل الإجباري في الجزيرة.

وإكتشف الاسبانيون جزر هاواي وسالمون عن طريق المحيط الهادي، ووصلت تجارة الفيلبين إلي اسبانيا عن نفس الطريق. وقامت السفن الإسبانية برحلات منتظمة بين مانيلا والمواني الغربية للمكسيك، ونقلت منتجات الصين، من الصيني والحرير، إلي أشبيلية، عن طرق المحيط الأطلسي. وحاول الإسبانيون أن يتاجروا مع الصين نفسها. ووصلوا إلي كانتون وحاولوا عقد معاهدة تجارية، ولكن البرتغالين تدخلوا للاحتفاظ باحتكارهم. فظلت التجارة بين الصين والفيلبين في أيدي الصينيين أنفسهم، وهم الذين كانوا قد

وصلوا إلي هذه الجزيرة قبل الاسبانيين وحاول الاسبانيون أن يتخلصوا منهم، فقتلوا عشرين ألفا. ولكنهم عادوا وبأعداد أكبر ورغم أن الاسبانيين استخدموا نفس الطريقة من جديد، إلا أنهم فشلوا في وقف هذه الهجرة، وفي انتزاع التجارة بين الصين والفيلبين من أيدي الصينيين، وحاول الإسبانيون أن يصلوا إلي اليابان ووصلت سفنهم إلي هيرادو، ولم يكن في وسع البرتغاليين أن يمنعوهم، ولكن علاقات الإسبانيين مع اليابان لم تتقدم أكثر من ذلك.

وظلت لشبونة متفوقة في هذه المياه وحتي الوقت الذي قامت فيه اسبانيا بضم البرتغال نفسها. وكان علي أشبيلية أن تنعي حظها في المحيط الهادي، ولكنها كانت تسيطر علي الذهب والفضة الأمريكية. أما لشبونة فكانت تستلم ثروات افريقية وآسيا من تبر الذهب، والعاج، وكاكاو غينيا، وسكر ماديرا، وعبيد لواندا، وقرنفل زنجبار وقهوة موخا، والصمغ العربي، والماس، واللآلىء، وأحجار الهند، والقطن، والشاي من سيلان، وفلفل ملقة والمسك والقرفة والصيني والحرير من الصين، مع كل الأعشاب والعطارة ومواد الصباغة والعطور والمخدرات التي تنتجها جزر التوابل. وكانت هذه السلع النفيسة تصل آلاف الأطنان، وتخزن علي أرصفة نهر التاج، وبكميات لم تشهدها البندقية من قبل. وقامت لشبونة ببناء السفن وصناعة الأسلحة، وتكرير السكر، ولكن دولة البرتغال الصغيرة لم يكن في وسعها أن تعمل كل شئ. فلقد قام غزاتها بانشاء امبراطورية، وانتشر بحارتها في المحيطات، وجاء تجارها إلي لشبونة بثروات قارتين، ومئات من الجزر. فكانت مضطرة بعد ذلك إلي أن تترك لغيرها مهمة توزيع هذه السلع. وقامت انفرس، وهي علي بعد خمسة عشر يوما من السفن بحراً من لشبونة، بهذه العملية.

وكانت انفرس هي عاصمة رؤوس الأموال، وأكبر مركز للتجارة الأوربية وكانت لها سفنها ورصيدها. وكان في وسعها أن تشتري وتنقل وتبيع. لقد كانت لشبونة هي المخازن، وكانت أنفرس هي السوق، وكانت لشبونة تخزن كميات كبيرة، وتترك لأنفرس إعادة بيعها بالتجزئة. وقام البحارة الفلمنكيون شحن التوابل من مصب نهر التاج لكي يوزعونها بعد ذلك علي كل مواني الغرب، وطبقاً للعقود التي عقدها رجال المال في انفرس نفسها. ولكن انفرس كانت مستعمرة اسبانية، وبذلك تكون اسبانيا هي المنتصرة؛ ما دامت التوابل تنتهي في مطافها إلي مراكز خاضعة، لها وبين أيدي رجال هم من رعاياها.

ولقد حاول دوق الب، نائب الملك في الأراضي المنخفضة أن يكسب من هذه العملية، وذلك بفرض ضريبة تبلغ ١٠٪ علي كل عملية تجارية ولصالح الخزانة الإسبانية ولكنه ساعد بطمعه، ودون أن يدري علي انتشار مذهب كلفن. وانتهزت أمستردام، عاصمة الرنجة، هذه الفرصة لكي ترث أنفرس.- وحينما انفصلت الاراضي المنخفضة الشمالية عن الأراضي المنخفضة الجنوبية سنة ١٥٨٣، قضوا علي تجارة أنفرس ولكن لشبونة كانت قد أصبحت اسبانية منذ سنة ١٥٨٠، ومنع فيليب الثاني دخول تجارة الاراضي المنخفضة الثائرة إلي موانيها. فكانت النتيجة هي أن الهولنديين قد صمموا علي ترك التعامل مع البرتغاليين، خاصة وأن مرسوم البابا اسكندر السادس لم يكن ذات قيمة في نظر الهجنوت، وقرروا الذهاب بأنفسهم إلي بلاد التوابل. وكان البابا قد نسي أن انصار الإصلاح الديني لن يعترفوا بتقسيمه العالم، ولثروات العالم.

(٣) المنافسة الانجليزية:

كانت هناك شعوبا أخري في العالم تطالب بنصيبها من هذه الثروات، ومنهم الانجليز والفرنسيين الذين شعروا بأنهم مظلومين ويتساءلون عن السبب

في إحتكار الإسبانيين والبرتغاليين لثروات العالم. وأعلن فرنسوا الأول أن الشمس تشرق للجميع وطالب بعرض وصية آدم التي تحرمه من تقسيم العالم. وكانت الطريقة لعملية لإعادة التوازن تتلخص في انتزاع الثروات إنتزاعا من المستعمرين ومن مستعمراتهم فهل هذه هي القرصنة؟ لقد حاول بعض الفقهاء والمشرعين التمييز بين القرصنة والقناصة البحرية وذكروا أن القراصنة هم مجرد قطاع للطرق البحرية، وأما القناصة فتعترف دولهم رسميا بهم، وتعطيهم الحق الرسمي، في وقت الحرب، لأسر سفن الأمة المعادية، والإستيلاء عليها.

ولقد قام القناصة البحريون بسفنهم السريعة بعمليات السلب بالقرب من الأنتيل، وتعاونوا مع المهربين الذين كانوا يحاولون الوصول إلي العالم الجديد. وكثيراً ما قاموا بالنزول إلي الأماكن والمراكز التي تخزن فيها البضائع وهاجموها، كما هاجموا ونهبوا السفن الإسبانية التي كانت تخاطر من وقت إلي وقت بالسفر بمفردها علي المحيط الأطلسي أو المحيط الهادي.

ولقد قام القناصة الفرنسيون بمهاجمة مخازن هافانا وحولوا الأماكن القريبة من جزر كناريا والخالدات إلي مناطق عمليات وصيد بحري. وكانت أهم مغامراتهم في سنة ١٥٢٣ حين تمكنوا من أسر سفينتين من ثلاث سفن اسبانية كانت تحمل إلي شارل الخامس، من كورتيز، كنوز، مرنتزوما وعثروا فيها علي أوان ذهبية وفضية وأحجار كريمة كبيرة. ظهر قناصة آخرون أمام ديو وهاجموا سومطرة. وكان البرتغاليون يعذبون القراصنة الذين يقعون في أيديهم حتي يحتفظوا باحتكارهم.

أما الإنجليز فكانوا يراقبون السفن الإسبانية أمام خليج قادس. وقام هوكنز بالاستيلاء علي حمولات كاملة من العبيد، وكان يبيعها بعد ذلك في أمريكا. وقام ابن عمه فرنسيس دريك بالنزول في أمريكا الوسطي وبمهاجمة

قوافل البغال التي تحمل الذهب والفضة من بيرو وأستولي عليها وعاد إلي بليموث بالسبائك وشجعت الملكة اليزابيث مشروع السفر حول العالم حتي تتمكن بتطويق أمريكا لإسبانيا، وساهمت في مشروع الحملة، وقام دريك بعبور مضيق ماجلان، ودمر منشآت الإسبانيين من شيلي إلي كاليفورنيا، وأستولي علي سفينة اسبانية محملة بالذهب وعبر المحيط الهادي وفرض غرامة كبيرة علي مانيلا، وتزود من جاوة ثم عاد إلي انجلترا عن طريق رأس الرجاء الصالح يحمل غنائم كبيرة ولقد قام دريك برحلته حول العالم هذه في وقت السلم. ومع ثمانين هجمة وغزوة. وإذا كانت اليزابيث قد تبرأت منه، الا أنها كافأته في نفس الوقت. وحينما تنشب الحرب يبدأ دريك من جديد في هايتى وفلوريدا ويهاجم ويغرق مائة سفينة أسبانية فيها، وقام دريك بدوره فى هزيمة الارمادة أمام بليموث سنة ١٥٨٨ وعرف الانجليز انهم بحارة مهرة.

ولكن القرصنة وأعمال القناصة البحريين ليست من الاستعمار رغم أن دريك كان قد استولي علي موقع في شمال كاليفورنيا ووضع أحد سلاطين جزر التوابل الثائرين ضد البرتغال تحت حماية الملكة اليزابيث ولكن فكرة الإستعمار بدأت رويدا في النضوج في رأس البريطانيين. وكانت انجلترا تفضل بعض المراكز في أوربا أو جويانا أو كاليه علي أقاليم استعمارية واسعة فيما وراء البحار. وكانت حروبها الطويلة مع فرنسا والخلافات الداخلية قد أبعدتها عن الاستعمار فيما وراء المحيط، كما كانت في صعاب جمة مع اقليم ويلز التي حاولت أن تدخل فيه إدارتها، ومع ايرلندا التي حاولت أن توطن فيها بعض المزارعين الإنجليز.

وعهدت بريطانيا الأولي حملاتها البعيدة إلي جان وسباستيان كابوت الايطاليين الذين ابحرا من بريستول لكي يبحثا عن طريق شمالي يوصل إلي

الهند. فوصل إلي نيوفوندلاند وعثروا علي مناطق غنية بالأسماك، وإن كانت الأسماك لا يمكنها أن تحل محل الذهب والتوابل. وقام بحارة آخرون مثل فروبشير وجليبرت ودافيس بمحاولات أخري واستكشفوا سواحل برادور وجرينلاند واتصلوا بالإسكيمو، وتعلموا صيد الحوت، ولكنهم لم يجدوا الطريق المؤدي إلي الهند.

وفكر الانجليز في الالتفاف من الناحية الأخري صوب الشمال الشرقي للالتفاف حول آسيا بدلا من الالتفاف حول أمريكا وقام شانسليور باعداد حملة مولها تجار لندن وسار علي طول سواحل لابونيا، ووصل إلي بحر لا يري الليل، إنه البحر الأبيض. ووصل بعد ذلك إلي نقطة ستصبح أركانجل وسمع هناك الأهالي يتحدثون عن مدينة كبيرة يمكن الوصول إليها عن طريق الزحافات. فهل هي بكين؟ أنها لم تكن إلا موسكو. وتأسست الشركة الموسكوفية في لندن للتجارة مع روسيا. وكانت هذه الشركة تحلم باستخدام الطريق الجديد عبر روسيا والشرق للوصول إلي الهند. وحاول جنكنسون سنة ١٥٦١ أن يسافر عن طريق الفولجا وبحر قزوين حتي فارس ووصل ثلاث تجار انجليز في نهاية الرحلة سنة ١٥٨٣ ولكن الأخطار كانت جسيمة والمصاريف باهظة بشكل يجعل العملية غير مربحة.

ولم تكن هذه الحملات، مهما ساعدت علي فتح ميادين تجارية، تشتمل علي إنشاء مستعمرات ثابتة. وإذا كانت الهند بعيدة عن أيدي الإنجليز، فلم لا يقوم البريطانيون بالبحث عن الثروة علي القارة الأمريكية؟ وكان الانجليز من البروتستانت فلم يهتموا بمرسوم البابا. كما أن الإسبانيون كانوا قد تركوا السواحل بدون استكشاف وخاوية، وبخاصة في الشمال الذي لا يعجبهم مناخه، والذي يتلاءم مناخه مع الإنجليز فقام جلبيرت بضم مربع يبلغ طول

جانبه مائتي ميل في نيوفوندلاند. وقام أخوه، السير وولتر رالي، الذي كان من أصدقاء اليزابيث بمحاولة إنشاء مستعمرة علي السواحل الأمريكية تعطيها الملكة اسمها، وهي مستعمرة فرجينيا. وبعد رحلته ترك مائة من الرجال وبعض النساء علي إحدي الجزر. ولكنهم اختفوا دون أن يتركوا أي أثر ورائهم. ورغم كل ذلك فإن رالي لم يفقد آماله. وشجعت انجلترا علي التوسع في تربية الأغنام وقامت بتحويل أراضيها الزراعية إلي مراعي لتشجيع صناعة الأصواف فيها. وكانت تشتمل علي كثير من المزارعين، الذين لا يملكون أرضا زراعية، وكان فيها كثيراً من المشردين والفقراء يمكن تهجيرهم إلي ما وراء المحيط، وفكر جلبرت في إنشاء مستعمرات للتوطين للتخلص من زيادة السكان في بريطانيا حتي وإن كانت هذه المستعمرات لا يوجد فيها الذهب ولا التوابل. أما رالي فأنه قد أحضر الطباق من فرجينيا وأخذت عادة تدخين الطباق في الانتشار وظهر معها ما يمكن لأراضي العالم الجديد أن تنتجه وكان رالي هو أول من وضع نظرية التسلطية البريطانية المقبلة والتي تتلخص في أن من يتحكم في البحر يتحكم في التجارة وأن من يتحكم في تجارة العالم يتحكم في ثروة العالم، وبالتالي في العالم نفسه وبدأ بذلك تاريخ انجلترا الاستعماري.

٤- المنافسة الفرنسية:

لم يفكر الفرنسيون كثيراً في البحر نتيجة لإنشغالهم مع إنجلترا ثم مع اسبانيا والنمسا. وكانت الحروب الدينية قد قسمت فرنسا في عصر الغزو الإسباني، وكان كل من الإسبانيين والبرتغاليين يمكنهم العمل لأنهم كانوا قد قرروا نهائيا أن يكونوا من الكاثوليك. وكذلك كان في وسع الانجليز أن يعملوا ما داموا قد استقروا في البروتستانتينية، أما الفرنسيين فكان عليهم أن ينتظروا قليلا حتي يقرروا إتجاهاتهم في بلدهم.

وكانت أطماعهم الاستعمارية متجهة صوب إيطاليا وصوب البحر المتوسط الذي أعطاهم نظام الإمتيازات فيه بعض المزايا في الحوض الشرقي منه. وكان ينقص الفرنسيين بعض الخصال والصفات اللازمة للمستكشفين وللتجار، فكان تنقصهم تلك العزيمة التي دفعت غزاة إيبريا علي طرق التجارة العالمية وكان ينقصهم حب المكاسب الذي كان يحرك الإنجليز. كانوا يفضلون بلادهم علي أي بلد آخر، وإقليمهم علي الأقاليم الأخري، وقريتهم علي القري المجاورة. وإذا كانت لديهم الأموال فأنهم يشترون بها أحد المناصب أو أحد الألقاب الفخرية أو قطعة أرض قريبة من قريتهم. ولكن بعض العناصر المغامرة ظهرت علي سواحل نورماندي وبريتانيا، وبدأت في الصيد إلي جوار نيوفوندلاند، وقام جان أنجو باعداد حرب القناصة البحرين ضد البرتغاليين وجعلهم يخسرون ثلثمائة سفينة، وأرسل الإخوان بارمنتييه إلي سومطره وإلي الصين، وكلف بيير أوبير بانشاء مركز لصيد الأسماك وتجارة الفراء في نيوفوندلاند، ونصح فرنسوا الأول بارسال فيرازانو إلي أمريكا وتمويله برؤوس أموال من ليون وفلورنسا.

ولقد أعلن فرانسوا الأول سنة ١٥١٥ بحق رعاياه في الملاحة علي كل البحار المعروفة. وأمر بإنشاء ميناء في الغرب وعلي مصب الصين، يكون مرسا وموقعا حصينا، فكل ذلك بداية لنشأة الهافر. وعين فرانسوا الأول فيرازانو في خدمته، وقام هذا الأخير بالإستيلاء لفرنسا علي نيوفوندلاند، واكتشف إلي الجنوب منها أرضا سماها أنجوليم، نسبة لمسقط رأس الملك، وهي التي ستصبح نيويورك فيما بعد.

ولقد منح فرانسوا الأول معونة تبلغ ٦ آلاف جنيه إلي أحد المترجمين البرتغاليين من ميناء سان مالو وذلك للقيام بعمليات استكشاف في الغرب،

وذلك للعثور علي بعض الجزر والبلاد التي يقال بأنه يوجد فيها كميات كبيرة من الذهب. وقام جاك كارتييه باعداد سفينتين والإبحار صوب لبرادو ودخل في مصب أحد الأنهار الكبيرة الذي سماه سان لورا ثم نزل إلي الساحل ورفع العلم الأبيض الملكي ونصب صليبا نقش عليه اسم ملك فرنسا. وجاء الأهالي يكررون أمام الفرنسيين كلمة كندا وهم يشيرون إلي قراهم وأكواخهم، فأصبحت هذه الكلمة هي اسم الإقليم ولقد رحب هؤلاء الوطنيون بالفرنسيين وقدموا لهم الأسماك الكبيرة. وعاد كارتييه إلي فرنسا مصطحبا معه بعض الوطنين. فمنحه الملك ثلاث سفن لرحلة ثانية، قام في خلالها بصعود نهر سان لوران إلي مكان معسكر للصيادين وتجار الفراء، الذي أطلق عليه اسم مونتريال. ولقد أكد الهنود أن نهر سان لوران ينتهي إلي بحر كبير، فهل كان هو بحر الصين؟ وعلي أي حال فقد كان الشتاء قاسيا ولم يجد الفرنسيون ذهبا في مستعمرتهم الجديدة. ورفع كارتييه صليبا جديدا في المكان الذي نشأت كويبك فيما بعد ثم عاد إلي سان مالو. أما رحلته الثالثة سنة ١٥٤١ فقد كان يحمل فيها لقب القائد العام وكان مكلفا بمهمة محددة لانشاء مركز دائم وبمعونة المعمرين ورجال المهن والصناعة. وبدلا من أن يجد الذهب، وجد النحاس، ولكن بكميات كبيرة وكانت السفن تعود محملة بالصيد وبالفراء. ولكن الجو كان قارس البرودة وخاصة في الشتاء فأدي ذلك إلي إخلاء المستعمرة، وإن كانت فرنسا قد احتفظت بها، ودون أن تحصل على تصريح بذلك من روما . وكان فى فرنسا كثير من أنصار كلفن الذين حاولوا الهروب من الاضطهاد الديني والإقامة في أقاليم جديدة، وكان بعضهم يذهب من فرنسا للاقامة في فلوريدا أو في البرازيل. وقام كولينيه بتشجيع هذه الهجرة وأرسل جان ريبو لاستكشاف سواحل فلوريدا. ولقد انشأ ريبو قلعة علي

احدي الجزر عند مصب أحد الأنهار الصغيرة وسماها قلعة شارل وترك فيها بعض الرجال كمعمرين، ثم عاد اليها في رحلة ثانية مع اربعمائة آخرين وأصبح الاقليم يسمي كاليفورنيا. ولكن الاسبانيين حاولوا التخلص من الفرنسيين نظراً لكونهم من الفرنسيين، ومن الهجنوت، ولأنهم لم يحترموا قرارات البابا بتقسيم العالم فقاموا بقتلهم بما فيهم من نساء ومرضي وسمروا البحارة من أعينهم علي ساريات السفن وشنقوا الجنود بعد أن كتبوا علي صدرهم «لاكفرنسيين، ولكن كهراطقة». وقاموا بسلخ ريبوجبا، وأرسلوا لحيته إلي إشبيلية. وبعد ثلاث سنوات قام أحد أبناء بوردو باعداد ثلاث سفن سريعة وأقلع من روان ومعه ثمانين بحارا ومائة جندي وأعاد احتلال قلعة شارل التي أصبحت سان مانينو، وشنق بدوره كل الاسبانيين الذين وجدهم وكتب علي صدورهم «لاكاسبانيين ولكن كخونة، وقتلة» وكانت عملية الاستعمار تحتاج لمجهودات متواصلة، لا لمجرد مجهودات متفرقة، ولذلك فإن كارولينا لن تري بعد ذلك الفرنسيين.

ولقد حاول الهجنوت أن يجدوا ملجأ لهم في البرازيل حسب توجيهات كوليني ، وقام أحد البحارة بتوصيل ٦٠ فلاح وعامل إلي خليج ريو وأنشأ قلعة كوليني علي جزيرة صغيرة، وهنري فيل علي الساحل المجاور. ولكن هذه المستعمرة أنتهت بمنازعات دينية رغم الامدادات التي وصلتها من الهافر، ثم قضي البرتغاليون عليها وذلك سنة ١٥٦٠ بعد أن هاجموا بألفي رجل رغم أن الفرنسيين الذين كانوا يدافعون عنها لم يزد عددهم عن ٧٤ ، وتفرق المعمورن، ويبق من هذه المغامرة إلا اسم جزيرة الفرنسيين الواقعة في الخليج أمام ريودي جانيرو.

ولا يمكننا أن نتجاهل الألمان، خاصة وأن شارل الخامس كان في حاجة إلي الرأسماليين من بينهم، فاستثني الألمان من القاعدة التي كانت تحتفظ بتجارة العالم الجديد حكرا علي الاسبانين فأفاد من ذلك بعض الألمانيين الذين أنشأوا مركزا تجاريا لهم في هايتى وأشتروا احدي المقاطعات إلي جنوب برزخ بنما، وحاولوا استعمار فنزويلا وبدأوا في غزو منطقة ماركايبو. ولكن الأهالي قادوهم ولما كانت العملية بالنسبة إلي الألمان هي مجرد عملية مالية، وأكثر من كونها عملية استعمارية فأنهم انسحبوا منها نظير دفع الدولة لهم مبلغ ١٠ آلاف بيزيتا ذهبية.

وهكذا فشل الفرنسيون والألمان، أما الانجليز فكانوا قد بدأوا مغامرتهم وكان كل من هؤلاء المنافسون لا يعني الكثير أمام العمالقة الاسبانيين والبرتغاليين والذين أصبحوا سادة الهند الغربية والهند الشرقية. وكان خطأهم الأكبر هو قلة رغبتهم في المغامرة، ومجيئهم متأخرين. كما أنهم لم يجدوا الذهب والتوابل التي كان الملوك والشعوب في إنتظارها، وإن كان الوقت سيعمل في صالحهم ويسمح لهم بالتفوق.

xxxxxxx

ويتضح مما سبق أن هذا القرن الذي مر منذ أن وضع كريستوف أرجله علي جزيرة سان سلفادور، قد غير تاريخ العالم ولم يكن الإستعمار قد أحدث مثل هذا التغيير من قبل، والذي عمل بدوره علي تغيير كل شئ في التوازن السياسي، وفي الظروف الاجتماعية، وفي التقاليد، وفي المعتقدات، ويمكننا أن نقول بدون كبير خطأ أن الغزاة قد أنشأوا عالما جديداً.

ويمكننا أن نتصور بعض الرجال الذين عاشوا في هذا العصر، فإنه قد ولد مع أمريكا ولاحظ التغيرات العالمية. فإذا كان من الهنود الحمر، فإنه قد رأي

انهيار الامبراطوريات القديمة. وانهيار الآلهة القديمة. ورأي حضور الرجال الذين ينهبون وينقلون الكنوز المادية، ويوردون غيرهم، ويدخلون علي الأرض الأمريكية عاداتهم ولغتهم، ويوطنوا فيها زنوج افريقيا. ولقد أحضر الغزاة معهم مرض الحصبة ولكنهم كانوا أول من بذر حبوب القمح، والذي أصبحت أمريكا أكبرمنتج له فى العالم فيما بعد، وقاموا بزرعها أشجار الزيتون والكروم والموالح ، وأدخلوا الخيول ، والخنازير التى زاد سرعة تناسلها بمجرد مجيئها إلى جوها الطبيعى وملاءت الجزر والسهول . ولقد قام الرجل الأبيض بادخال الأدوات الحديدية فى تلك القارة التى ستصبح فيما بعد أكبر منتج للحديد في العالم وقام البيض باستخدام العجلات بدلا من استخدام الحمل، وإذا كان الأهالى قد اندهشوالرؤية المسيحيين يأكلون من لحم السيد المسيح فى الكنائس ، فإنهم قد تمرنوا بعد ذلك عن أن يكفوا عن أكل لحوم البشر وتقديم التضحيات البشرية، أما إذا كان من الأوربيين فإنه قد شاهد دخول مأكولات وأدوات وأمراض فى منزله ، لم يكن قد تعودهامن قبل ، فكانت هناك التوابل التى تأتيه عن طريق لشبونة وانفرس وكان هناك الطماطم والأناناس والكاكاو والديكة الرومية، وحضر بعد ذلك البطاطس والقهوة وسكر القصب، التي كانت تنتج في آسيا، ثم زاد إنتاجها في أمريكا. وكانت الهند تورد له مواد الصباغة، أما أمريكا فكانت تورد له الزهور والأخشاب والطباق الذي بدأوا في استخدامه في الطب ثم أخذوا في تدخينه ولقد أثر ذلك علي تاريخ العالم تأثيرا كبيرا، وأفاد السكر في التقوية، كما عمل البطاطس علي انقاذ أوربا من أخطار المجاعات، وساعدت الضرائب علي الطباق علي إنهاء مشكلات مالية كثيرة.

وكانت من نتائج اكتشاف أمريكا زيادة ورود المعادن النفيسة، ولم تكن هذه المعادن تلقي في خزائن ملك أسبانيا بل كانت تنتشر في كل أوربا في شكل قطع ذهبية أسبانية أو فلورنسية أو فرنسية أو انجليزية. وساهم القناصة البحريون في زيادة توزيع ذهبها وفضتها بشرائها المنتجات التي تحتاجها من الخارج، ما دامت بلادها كانت غير قادرة علي صنعها، ويدفع ديونها إلي رجال البنوك الفلمنكيين والألمان، ويدفع رواتب جنودها المرتزقة من السويسريين البلجيكيين، وبادخالها الأيدي العاملة الأجنبية وخصوصا الفرنسية، في شبه جزيرة إيبريا، وفي الوقت الذي كانت ترسل فيه الاسبانيين للعمل في أمريكا. وارتفعت الرواتب وزادت القوة الشرائية وزادت وسائل الدفع، فارتفعت الأسعار، وبدأت هذه الحركة لارتفاع الأسعار من البرتغال وأسبانيا ثم وصلت إلي فرنسا وإيطاليا ثم إلي أوربا حتي بولندا وروسيا. وزاد إستخدام الفضة وإنتشرت عادة الاقراض بالفوائد. وأخذ رجال الاقتصاد في ذلك العصر في البحث عن سبب غلاء كل شئ فتوصلوا إلي إنخفاض سعر العملة، وحاولوا أن يتغلبوا عليه. ولكن الرجل العادي لم يكن يهتم بالنظريات، بل يهتم بدورة الأعمال ونمو الرأسمالية وكان آباؤه وأجداده يعيشون عيشة متواضعة ويلبسون ملابس متواضعة ويأكلون الجذور الدرنية والرنجة. ولكنه أصبح الآن يهدم المساكن القديمة ويرتدي ملابس من أنسجة متقنة، ويعتبر ما كان كماليا بالأمس ضروريا في يومه وليس من حقنا بعد أن نسأل إن كان هذا الرجل قد أصبح أكثر سعادة من أجداده لقد ارتقت الأثمان وتضاعفت ثلاث مرات وأربع مرات، ولكن الإيرادات تضاعفت بنفس النسبة أو بنسبة أكبر، وإن كان توزيعها قد إختلف، وكان هناك من كسب من هذه التغيرات ومن خسر، مثلهم في ذلك مثل كل فترة تتغير فيها الأسعار،

وكسب الفلاح وأصحاب الدخول المتغيرة مثل التجار وأصحاب البنوك، وخسر أصحاب الدخول المحددة، ومن أول صغار الموظفين حتي النبلاء، وفي إسبانيا وإنجلترا وفرنسا وتغير السلم الاجتماعي، وإزدادت درجة الصراع الطبقي، وإن كان قد أخذ شكل صراع ديني.

ولقد ساعدت الثروة علي تقدم الطباعة والنشر، وأخذ الناس يقرءون أكثر من قبل. أما العناصر غير الراضية وكل من خسر من عملية إنخفاض قيمة العملة، فقد أخذوا في التفكير في آراء الإصلاح، وإما العناصر الراضية والتي ربحت من العمليات الاستعمارية فقد أخذت في الدفاع عن العادات والتقاليد الكاثوليكية الرومانية. وأخذ الملوك يميلون إلي معارضة البابوية ما دامو قد شعروا بأنه أبعدهم عن تقسيم الأسلاب، في تقسيمه للعالم وإذا تركنا الإسبانيين والبرتغاليين جانبا لرأينا أن الإيطاليين يكونون شعبا كاثوليكا تحت السياسة الاسبانية، أما الانجليز والهولنديون، فأنهم يعلنون الثورة وقد نسي البابا اسكندر السادس حين تقسيمه لممتلكات ما وراء البحار أنه يعمل في نفس الوقت علي تقسيم المذاهب داخل العالم المسيحي نفسه، وأثرت الكشوف الجغرافية علي الفنون والآداب، فظهر أسلوب جديد في البرتغال إختلطت فيه النباتات البرية والبحرية مع الحيوانات، كما اختلط فيه الهند مع الكنغو، أما النهضة الاسبانية والإيطالية فقد امتاز أسلوبها بتذهيب السقوف والأدوات الخشبية. وإنتشرت عادة القلائد الذهبية، وجمع ريش الطيور النادرة. وإنعكس كل ذلك علي الأدب، زيادة علي القصص والروايات التي بدأت في استخدام أسماء أقاليم ومناطق جديدة من العالم.

أما التغيرات السياسية التي تمت في هذا القرن فكانت كبيرة وبعيدة المدي. ذلك أن الامبراطورية العثمانية كانت قد تمكنت في خلاله من توحيد

شمال افريقية، في الوقت الذي سيطرت فيه أوربا علي كل العالم، والذي تحول فيه مركز الثقل العالمي لأول مرة من البحر المتوسط إلي المحيط الأطلسي وكان الجيل السابق قد رأي المسلمين في غرناطة، ولكن نفس الجيل رأي قشتالة تخضع جزءاً كبيرا من العالم. أما الجيل التالي فقد رأي بداية إنهيار اسبانيا مع تركها لأراضيها كمراع للأغنام، ومع هجرة فلاحيها وقلة عدد سكانها. وإذا كان الاستعمار قد رفع الأسعار فإن هذه العملية كانت تبعد رعاياها، بشكل يحرم شبه الجزيرة الإيبيرية، كوطن أم من القوة العاملة فيه.

لقد كانت أوربا كلها وكل الغرب، أخذة في الصعود أما آسيا فكانت لم تستيقظ بعد، سواء امبراطورية الصين الخاضعة لأسرة المنج، أو الهند التي خضعت لبابر وأكبر. أما افريقية فلم يكن هناك من يقيم لها أي وزن، وكان علي أوربا وحدها أن تأخذ القرارات، بعد أن أخذت الأراضي، وأصبحت تمتلك أمريكا وتوابل آسيا، وعبيد افريقية. وكانت أوربا تضع الكل في مرحلة العبيد ولارضاء حاجاتها، سواء أكان ذلك هو ثروات العالم الجديد أو توابل الهند أو عبيد السودان.

وأصبح للعالم في هذا القرن بمفرده تاريخا أكثر مما كان له منذ ٤ آلاف سنة، ولكن ذلك لا يمكننا أن نتحدث عن ثورة إستعمارية. فلقد رأينا غزاة من قبل يسمون الاسكندر الأكبر وجنكيز خان، ولقد كانت فارس أمريكة جديدة بالنسبة لأبناء مقدونيا، وكذلك المشرق بالنسبة للصليبيين. أما عن الذهب فقد كان النتيجة الطبيعية للغزوات، وكانت قرطاجة قد عرفت طريقه، وقام تراجان بالاستيلاء عليه، كما قام كورتيز بالعثور عليه في المكسيك. ولقد وجد ماركو بولو باكتشافه أوراق العملة في الصين شيئا جديدا لم يصل إليه الغرب إلا بعد عصر الذهب ولتسهيل العمليات فيه.

وكان الغزاة هم طلائع حركات استعمارية سيطرت مع الزمن علي كل العالم، ولكنهم كانوا قد نجحوا في الوقت الذي فشلوا فيه تمام الفشل: لقد اعتقدوا أنهم وصلوا إلي الهند، رغم أنهم وصولا إلي أمريكا، واعتقدوا في إمكانية الوصول إلي يوحنا الراعي وإلي الخان الأعظم، وإلي الالدو رادو، ولكنهم لم يجدوا إلا شعوبا بدائية كان عليهم أن يقوموا بتعليمها. وكانوا يبحثون عن الفلفل والقرنفل فعادوا بالبطاطس والأمراض واعتقدوا في عملهم علي نشر المذهب الكاثوليكى فاسرعوا بتدعيم حركة الاصلاح الديني والمذهب البروتستانتي. واعتقدوا أنهم يزيدون ثروة أسبانيا فلم يعملوا إلا علي إفقارها وتدهور أحوالها. واعتقد الرجال أنهم يتحكمون في مصير العالم ولكنهم استعمروا دون أن يعرفوا ودون أن يرغبوا في إتمام عمليتهم بهذا الشكل. والمهم هو أن أوربا كانت تحاول الوصول إلي موارد اقتصادية جديدة، وإلي السيطرة علي التجارة العالمية، فتمكنت في هذا الميدان من الوصول إلي أهدافها، كما تمكنت بحصولها علي المعادن الثمينة في العالم الجديد – وهي أساس كل العمليات التجارية والاقتصادية ـ من السيطرة علي إقتصاد العالم.

الباب الرابع

عصر الشركات الاستعمارية

الفصل الحادي عشر
الشركات الهولندية والبريطانية

كان المهد الذي تنشأ فيه الامبراطوريات، والذي يخرج منه المستعمرون في أغلب الأحيان، مجرد إقليم صغير وفقير. فكانت صور بجزائرها الصغيرة، وقرطاجة في داخل خليجها، والبندقية وسط بخيراتها، مركزاً نجحت في إنشاء امبراطوريات كبيرة. وكانت مقدونيا هي أساساً لامبراطورية الاسكندر والحجاز مهدا للامبراطورية الاسلامية، ونجحت قشتالة والبرتغال في اخضاع العالم وينطبق هذا المثل علي هولندا الصغيرة وعلي انجلترا. أما هولندا فأنها ما أن نجحت في التحرر من سيطرة الاسبانيين حتي اعطت للاستعمار شكلا جديدا وبنت امبراطورية هامة.

١- انتصار الأقاليم المتحدة:

كانت هولندا هي أغني الاقاليم السبعة التي اختارت مذهب كلفن وتمكنت من الحصول علي استقلالها. وكان مجلس الدول المتحدة يجمع بينها، وبصفته مجلس دائم، ويعمل علي توزيع التوابل الشرقية. وفي هذا الوقت قامت الأقاليم المتحدة باستضافة اليهود الذين طردوا من البرتغال، واستضافة اليهود والبروتستانت الذين طردوا من الأقاليم البلجيكية، والتي كانت قد بقت أسبانية. كما استضافت فيما بعد البروتستنتيين الذين قامت فرنسا بطردهم. وكانوا كلهم من أصحاب رؤوس الأموال، ويدينون بمبدأ تدعيم الصداقة رغم وجود تنافس بين الدول. والمهم هو أنهم جاءوا بأموالهم إلي الأراضي المنخفضة بعد تحررها.

وكان الهولنديون بحارة قبل أن يكونوا من أصحاب رؤوس الأموال. وكانت أمستردام هي عبارة عن بندقية جديدة، قبل أن تحولها هجرة اليهود اليها إلي ما يشبه القدس الجديدة، وهو الاسم الذي عرفت به في بعض فترات التاريخ وكانت أمستردام مثل البندقية مبنية علي الماء، ونشأت مثلها بعد أن كانت قاعدة للصيد، وعاشت مثلها علي البحرية، التي ستستخدمها في حكم أقاليمها فيما وراء البحار.

وكان أسطول الهولنديين اسطولا كبيراً ورخيصا ويتألف من عشرة آلاف سفينة و١٦٠ ألف بحار. وحتي إذا كانت الاقاليم المتحدة تستورد أكثر مما تصدر، وذلك نظرا لارتفاع مستوي معيشتها وزيادة استهلاكها، فإن ميزانها التجاري كان ايجابيا نتيجة لتأجيرها سفنها، ونتيجة لسيطرتها علي عمليات التأمين المربحة، ولاستغلالها رؤوس أموالها فيما وراء البحار. وكان هذا الوضع يدل علي نظام اقتصادي مزدهر مادام النقص في الميزان التجاري تعوضه الزيادة المالية.

وليس من السهل تجاهل القطاعات الأخري في الإقتصاد الهولندي، خاصة وأن الفلاحين كانوا يعطون مثلا للاستعمار السلمي باستمرارهم في اقتطاع الأراضي الواطئة من البحر، وحمايتها بانشاء السدود، وبضخ الماء منها بمساعدة طواحين الهواء. أما أبناء الحرف فكانوا ينسجون ويشذبون الماس ويبنون السفن.

وكان الهولنديون قد تعلموا الاستعمار علي البحر في بلادهم، وكانوا لا يخشون مجابهته بعيداً عنها. وحمل البحارة الهولنديين علم الأقاليم المتحدة علي جميع المحيطات وذهبوا إلي المحيط المتجمد الشمالي باحثين عن زيت

كبد الحوت، وحاولوا الوصول إلي الصين عن طريق اسيتز برجن، ووصل كورينيوس هوممان إلي جارة عن طريق مدغشقر ١٥٩٥ سنة.

ولقد فكر الهولنديون في الحصول علي أكبر نصيب ممكن من ميراث البرتغاليين الاستعماري. فاذا كانت هرمز قد عادت إلي فارس، والبنغال إلي السادة المغولين، ومسقط إلي إمامها العربي، فإن الأراضي المنخفضة قد حاولت الاحتفاظ بأهم أجزاء هذه الامبراطورية مع مراكز الملابار في صورات وكوشين وسيلان وملقة وجزر التوابل الشهيرة. ووصل الهولنديون أمام مكاو سنة ١٦٢٤، ولكنهم فشلوا في الاقامة فيها، فعوضوا ذلك باحتلالهم فرموزا، أهم وكر للقراصنة في المحيط الهادي في ذلك الوقت. أما في اليابان، التي كان البرتغاليون قد طردوا منها، فإن الهولنديون قد نجحوا في الإقامة في جزيرة دشيما، أمام نجازاكي.

وكان استغلال هذه الامبراطورية الشرقية يتطلب إنشاء محطات علي طول الطريق إلي الهند، محطات بحرية ومراكز لإنشاء السفن، ومخازن للتموين. وأقام الهولنديون علي جزيرة في المحيط الهندي، كان البرتغاليون قد اكتشفوها وتركوها، وهي التي أصبحت جزيرة موريس، نسبة إلي أميرهم. كما أنشأوا مركزاً أمامياً في احدي الأراضي الجنوبية التي كان ابيل تسمان قد اكتشفها، وأصبح هذا الاقليم يسمي تسمانيا فيما بعد. وكذلك انتزع الهولنديون رأس الرجاء الصالح من البرتغاليين وأنشأوا فيها نقطة لتموين سفنهم بالماء.

ولقد فكر الهولنديون كذلك في الاتجاه صوب الغرب والعمل في القرصنة، ثم بدأوا في احتلال الخلجان أو الجزر علي سواحل أمريكا الجنوبية

في سانتوس وسورينام وغيرها. أما في الشمال إلي ذلك، وفي الخليج الذي كان هدسن قد وجد الأراضي التي سماها الفرنسيون انجوليم من قبل، فإن الهولنديين قد أخذوا في الوصول وأنشأوا قرية صغيرة سموها نيو امستردام، ونشأت حولها مستعمرة سميت هولندا الجديدة.

ولم يكن هذا النجاح الفائق من عمل الدولة الهولندية، الذي لم يكن شكلها العام قد تحدد تماما بعد، ولكنه كان عمل مجموعة خاصة من الرجال تمكنت من الحصول علي امتيازات عامة. وبدأ المجهود الجماعي في الظهور مع الإستعمار الهولندي، وكان يشبه في ذلك بعض الشبه طرق المدن اليونانية، وجماعة الإستبالية والجماعة التيوتونية، ولكن بدون الدافع الديني. وكانت هذه الطريقة تشبه أكثر من ذلك طرق أبناء الجامعة الهنسية، وأبناء جنوة، وكانت تختلف تماماً عن طرق روما وأسبانيا التي استعمرت باسم تسلطية الدولة، في وقت أوائل الغزاة.

ولقد كان هذا العصر عصر انتصار الشركات، التي كانت دوافعها ووسائلها مالية أكثرمنها سياسة. ذلك أن الأقاليم المتحدة كانت ترغب في المتاجرة وكسب الثروة، أما وسائلها فكانت رؤوس الأموال والبنوك والشركات.

ولم تكن رؤوس الأموال تعوز الأراضي المنخفضة، بل كانت رؤوس الأموال تصل اليها وتتزايد فيها ما دامت هذه الأقاليم تمتاز بأمن واضح، وقامت امستردام سنة ١٦٠٩ بانشاء مصرف واحد يحل محل ذلك العدد الكبير من الصيارفة، وكان له وحدة حق استلام الودائع من السبائك أو من قطع العملة، والقيام بعمليات التمويل والصرف. وكان في وسع بنك أمستردام

أن يواجه كل عمليات وأوامر الدفع، فأصبح خزانة عامة للتجار الهولنديين، بل أصبح أكبر مركز للعمليات المالية في أوربا.

أما النقود المودعة في خزائن البنك فكانت تستخدم في إعانة الشركات التي تمول المجهودات الجديدة والتي أصبحت أنصتها تسمي بعد ذلك أسهم، سواء أكانت تتعلق بمصانع السكر أو بالتأمين البحري أو ببناء السفن أو بشركات التجارة والاستعمار، وهي أهمها:

واجتمع تسعة من تجار أمستردام سنة ١٥٩٤ وأنشأوا شركة فان فير، أي الأراضي البعيدة، وهي الشركة التي أرسلت هوتمان إلي بلاد التوابل. وانتشرت الشركات المشابهة لها في مدن الأراضي المنخفضة، ولكن دون أن تتمكن من المعيشة أطول من الرحلة التي كانت تتشكل من أجلها. وكان المشتركون في هذه الشركات أو الجماعات يضعون مواردهم وإمكانياتهم سويا، ومن أجل ربح مشترك، وإلي أن تقسم الأرباح بينهم حسب أنصبتهم. وحاول الهولنديون أن ينشأوا شركات أقوي، وتدخل مجلس الدول المتحدة وقضي علي المعارضة المحلية، واندمجت ٦ مشروعات في مؤسسة واحدة هي شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٢ . ونشأت مؤسسة مماثلة لها قبل مضي عشرين سنة للعالم الأمريكي وسميت شركة الهند الغربية. وأصبح في وسع الهولنديين، بأساطيلهم ومصرفهم، أن يقوموا بعمليتهم ويضمنوا النجاح.

٢- الشركات الهولندية للهند الشرقية والهند الغربية:

لقد كان من تقاليد هذا العصر التي طبقت علي معظم الشركات الاستعمارية وفي كل البلاد، هي أن تمنح الدولة لهذه الشركات احتكار التجارة في منطقة معينة مع معاملة خاصة في الرسوم الجمركية، وتعطيها

حقوق سيادة علي الأقاليم التي تحتلها. وكانت هذه الشركات تحتفظ بجيوش، وتشرف علي العدالة، وتضرب قطع العملة. ولم يكن هذا التنازل عن السلطة غريبا في عصر كانت فيه الجيوش والعدالة والنقود أدوات خاصة، في بعض أقاليم من أوربا نفسها. والواقع أن الشركات الاستعمارية صاحبة الإمتياز قد حلت محل سادة الاقطاع، علي أن تطبق نشاطها فيما وراء البحار. وكانت هناك إلتزامات خاصة علي هذه الشركات نظير امتيازاتها، فكان عليها أن تضمن المواصلات مع أقاليمها، وتقوم باستغلالها، وبتوطين الأهالي فيها، وبابعاد الأجانب عنها، وبادخال المسيحية فيها في بعض الأحيان. وكان حملة الأسهم يطالبون دائماً بزيادة أرباحهم.

وكانت الشركة الهولندية للهند الشرقية بعد نجاحها تعد مثلا لهذه الشركات. فقد كان رأس مالها الأصلي قد جمعته بورجوازية التجار في الأقاليم المتحدة، وزاد عن ستة ملايين فلوران. أما ميدان عملها فقد غطي المحيط الهندي والمحيط الهادي من رأس الرجاء الصالح إلي مضيق ماجلان وكانت الشركة تحتكر كل التجارة الهولندية في كل هذه المنطقة. وتحولت الشركات الستة التي إتحدت مع بعضها لتكوين هذه الشركة إلي غرف تجارية، وكانت أولاها هي غرفة أمستردام التجارية التي كان لها ما يزيد علي نصف رأس المال، ويجئ بعدها غرفة زيلاند التجارية التي كانت غيورة علي حقوقها، وغرفة الميز، وغرفة الشمال، وكانت كل منها، داخل نطاق الشركة، تجهز السفن، وتقرر مشتراوتها، وتعين ممثليها، وتستخدم الجنود المرتزقة، وتحتفظ بأسرارها.

وكانت وحدة الشركة ترجع إلي إدارتها المشتركة. وكان لها في أول الأمر مجلسا من ثلاث وسبعين مديراً يعينون مدي الحياة، ويمثلون الشركات

السـابقـة، ثم تطور الأمـر بعـد ذلك ونزل العـدد إلي ٦٠، عـشـرين لغـرفـة أمستردام التجارية، واثني عشر لغرفة زيلاند، وسبعة لكل غرفة من الغرف الأخري.

أمـا السلطة التنفيـذية، فكانت في يد مـجلس يتكون من سبـعـة عـشر عـضواً، ثمـانيـة لامـسـتـردام، وأربعـة لزيلاند، وأربعـة لكل من الغرف الأربع الصغري، أما العضو السابع عشر فكانت تعينه إحدي هذه الغرف الصغيرة بالتوالي، حتي تقلل من سيطرة أمستردام علي مجلس الإدارة. ولكن غرف الشمال كانت متحالفة مع غرفة أمستردام، فسمح ذلك لهذه الغرفة الأخيرة بالسيطرة والرئاسة، وأصبحت القوة المحركة في الشركة، كما كانت هولندا هي القوة المحركة للأقاليم المتحدة.

والواقع أن هؤلاء السادة السبعة عشر كانوا يكونون ما يشبه إدارة الشركة، فكانوا يأمرون ببناء السفن ويشرفون علي السفريات، ويقررون أسعار بيع السلع، ويحددون أنصبة الربح. ونشأ إلي جوارهم، في لاهاي، عدد كبير من الموظفين الذين يعملون في المكاتبات مع المستعمرات، ويواجهون الأمور العادية.

أما إدارة حسابات الشركة فكان يلزمها بعض التعديل والإصلاح، فلم تكن هناك ميزانية، ولم تكن هناك حسابات للأرباح والخسائر. ولكن الشركة كانت تبيع السكر في أوربا بخمسة أضعاف ثمن شرائها له، والفلفل بستة أضعاف، ولذلك فأنها لم تكن تخسر أما الأنصبة في الأرباح فقد وصلت بعد بضع سنوات إلي نسبة تتراوح من ١٢ إلي ٧٥٪، وبمتوسط ٢٠٪، وكانت تمثل في مـائة وثمـانين سنة مضاعفـة رأس المـال ستـة وثلاثين مرة.

وكانت هناك إدارة خاصة لهذه الشركة في الهند. وبدأ الحاكم العام إختصاصاته كمدير تجاري. أما مجلس الهند الذي كان يعاونه فكان يشرف علي حسن سير الأعمال، وكان معاونوه يلقبون بالرؤساء التجاريين أو بالتجار، أو مساعدي التجار أو المحاسبين أو مساعدي الباعة، ولكن عددهم وصل إلي عشرين ألف في الحكومات التسعة التي كانت تشرف علي المراكز التجارية، وكانت التعليمات تمنعهم من العمل لحسابهم الشخصي، وكانوا من جهتهم لا يقدمون سلعاً تزيد قيمتها علي قيمة رواتبهم في مدة ٤ سنوات. ولكن إذا كان الإشراف غير دقيق والتسامح كبير، فإن عمليات التهريب قد أخذت في الانتشار.

وكانت الشركة تشرف علي ما يتراوح بين ١٢، ٢٠ ألف جندي، علاوة علي ١٥ ألف بحار. وكانت تسيطر علي المراكز المنتشرة من رأس الرجاء الصالح حتي اليابان، تلك المراكز التي لم تزد إختصاصاتها عن العمليات التجارية، والتي أخذت لنفسها طابعا عسكريا منذ اللحظة التي تقرر فيها إنشاء الحصول للدفاع عن هذه المراكز، واتخذت طابعا تجاريا زراعياً حينما بدأ المعمرون في فلاحة الأراضي المحيطة بها، فتحول المركز التجاري وأصبح مركزاً للزراعة، وتحولت بهذه الطريقة القاعدة البحرية عند رأس الرجاء الصالح إلي مستعمرة للتوطين، وأقام فيها الفلاحون الهولنديون وأسمهم البوير، ثم لحقهم فيها الجنود الفرنسيون، واستمر كل منهم يعيش معيشة خاصة به، ويزرع الحبوب وأشجار البلوط، ثم أدخلوا الخيول في المنطقة وأبعدوا عنها عناصر الوطنيين والهوتنتوت بكل قوة.

أما في جاوة فإن الشركة قد فرضت سيادتها علي أمراء الجزيرة، وأنشأت عاصمتها بتافيا علي خرائب مدينة جاكارتا الوطنية، وامتد نفوذها من إقليم

إلي أقليم حتي أصبحت سيدة علي كل الجزيرة، ثم علي جزر التوابل، ولم تكتف الشركة بالشراء والبيع، بل بدأت في الزراعة لنفسها ولحسابها. وإذا كان الفلفل سلعة جيدة، فأن أسواق قصب السكر كانت تتسع، فحاولت الشركة أن تحل قصب السكر مكان نبات الفلفل. وقامت كذلك باجبار الأهالي علي زراعة ما تحتاج إليه من نباتات مثل القهوة، فتحول التاجر إلي مشرف علي الإنتاج، وإستخدام الجيوش من المرتزقة لتنفيذ مخططاته.

وأشرف الهولنديون في ملقة علي زراعة المسك والقرنفل، وسيطروا في الهند علي إنتاج الفلفل والتوابل ثم القهوة. واستخدموا المهاجرين الصينيين فى زراعة قصب السكر والأرز في فورموزا.

وأضافت منتجات الأراضي الخاضعة للهولنديين الكثير إلي الانتاج التقليدي للشرق. وقامت الشركة المركزية في بتافيا بتخزين هذه المنتجات، وبتموين أوربا منها. وكانت مخازنها تشتمل علي الكافور والورق الواردة من اليابان، وشاي الصين، وقرفة سيلان، وقهوة موخا، وغيرها الكثير. وقل نصيب التوابل في هذه الحركة التجارية مع الزمن، وزاد نصيب السكر والحرير والصيني. وكانت هناك ثلاث قوافل تقلع في كل سنة في الربيع وسبتمبر ونهاية ديسمبر من الأراضي المنخفضة، وتصل إلي الهند بعد ستة أشهر من الملاحة، وتعود في أكتوبر وديسمبر محملة بمنتجات ما وراء البحار.

وأضافت الشركة إلي التبادل التجاري بين أوربا والشرق، للتجارة بين بلاد الشرق وبعضها، وأفادت من ذلك الكثير. فكانت تبيع توابل جاوة وسومطرة إلي الهند وتشتري بثمنها ذهب وأحجار وحرير وأفيون وأنسجة الهند. وأصبحت الشركة الهولندية للهند الشرقية بتجارتها وامبراطوريتها قوة

يحسب لها كل حساب. وأصبح الحاكم في بتافيا لا يفترق عن الملك. وأصبح مجلس الولايات المتحدة لا يتدخل في تعيينه. أما المديرون فقد اعترفوا بحقوقهم، وأصروا علي أن مستعمرات الهند الشرقية لم تكن من إنشاء الدولة، بل إن التجار هم الذين قاموا بانشائها، ويمكنهم أن يبيعوها إلي من يرغبون، حتي إلي ملك إسبانيا، أو إلي عدو آخر من أعداء الأقاليم المتحدة.

أما الأراضي المنخفضة فقد وجدت أن هذا النظام قد بلغ مرحلة من الكمال يسمح لها بتطبيقه علي الهند الأخري التي اكتشفها كولومب والتي كانت لا تزال بعض الأماكن الغاوية موجودة فيها. فتألفت الشركة الهولندية للهند الغربية سنة ١٦٢١ بنفس طريقة أختها الكبري، وكانت مقسمة إلي خمس غرف تجارية، ويديرها سبعة وخمسون مديراً. وبدأت برأس مال أكبر هو سبعة ملايين ونصف مليون فلوران وحصلت علي احتكار كل السواحل الأمريكية، وجزء من المحيط الهادي والسواحل الغربية الإفريقية، والتي كانت تمتلك عليها بعض القلاع المبعثرة حتي رأس الرجاء الصالح.

وبدأت هذه الشركة كمشروع لنهب أمريكا اللاتينية. فقام قناصان بحريان هولنديان بإنشاء قاعدة لهما في سانتوس، ثم قامت الشركة بإنشاء مراكز لها في البرازيل وفي فنزويلا وفكرت في استغلال قصب السكر الذي كان لايتطلب أي ري أو أية أسمدة. وقام بعض اليهود البرتغاليين، الذين تحولوا إلي هولندا بإنشاء مصانع للتكرير، وتحولت هذه الشركة من القرصنة إلي الزراعة ووصل الهولنديون إلي نفس النتائج في الشمال، وفي هولندا الجديدة فقد قامت الشركة بشراء جزيرة منهاتن من الهنود الحمر بمبلغ ٦٠ فلوران وبدأت توزيع أراضيها علي من يمكنه إحضار ٥٠ عاملا وأنشأت إحدي القلاع بعيداً عنها للمتاجرة في الفراء مع الهنود الحمر. ولكن امبراطورية الأراضي

المنخفضة في أمريكا كانت رقيقة. فلقد قامت ثورة في البرازيل وأمتدت للبرتغاليين كما قامت بريطانيا بتقديم إنذار للهولنديين واستندت إلي أسطول وخمسمائة جندي لطرد الشركة من هولندا الجديدة وخسر أصحاب الأسهم حتي اضطرت الشركة الهولندية للهند الغربية إلي أن تعلن حلها وأثبتت هذه العملية أنه يمكن لشركتين متماثلتين، ولدولة واحدة، أن يصلا إلي نتائج مختلفة كل الاختلاف.

وقد نشأت شركات هولندية أخري للعمل في بحار مختلفة، مثل شركة الشمال التي كانت تعمل في صيد الحوت علي سواحل النرويج وجرينلاند وتتاجر مع اركانجل، وشركة شرق البحر المتوسط التي كانت تتاجر في هذا البحر.

ولقد سمحت أساطيل هولندا بوضع هذه البلاد الصغيرة في إتصال مع جميع أنحاء العالم. وحصلوا منها علي أفكار جديدة، أخذو في تطبيقها في بلادهم، علاوة علي المتاجر والسلع والتي كانت تزودهم بها .فأعطتهم اليابان الأفكار اللازمة لفيشاني ديلف، وأعطاهم الشرق الزنبق لهارلم. وكون التجار وأصحاب السفن والعمد والمندوبين التجاريين ونقباء المهن ارستقراطية هامة بنت لها مساكن مزودة بأثاث فاخر ومريح وبأنسجة غالية، ولوحات هامة، وكانت أوربا كلها تحقد علي الأراضي الواطئة ازدهارها. وإذا لم يكن في وسع كل الدول أن تقوم بانشاء مصارف تشبه بنك امستردام فأنها ستحاول انشاء شركات أخري للهند، وتناسوا أخطاء هذه الشركات، والعمليات التي فشلت فيها، ما دامو يأملون في الوصول إلي نفس النتائج، وكانت انجلترا وفرنسا أول من حاول تقليد هذه الطريقة الهولندية.

٣- الشركة البريطانية للهند:

علينا أن نشرح ما كان سائداً في كل من بريطانيا والهند قبل أن نتحدث عن الشركة البريطانية للهند.

كانت بريطانيا قد شعرت بأن مستقبلها سيكون بحريا وإستعماريا. ورغم أنها لم تكن تقاسي من زيادة السكان، فأن تسلطيتها كانت قد بدأت في العمل علي حساب جيرانها الافربين، ووقع الاسكتلنديين والايرلنديين ضحايا لأولي عمليات الاستعمار البريطاني.

أما اسكتلندا فقد حصلت بريطانيا عليها كهدية حينما أصبح ملكها جاك السادس، ملكا في لندن بأسم جاك الأول، ووحد التاجين، ولكنها احتفظت بوزرائها، وببرلمانها، الذي كانت قوانينه تخضع لفيتو مجلس يتكون من أربعة وعشرين لوردا يعينهم الملك. وكانت ترغب في الاحتفاظ بولائها لأسرة ستيوارت في الوقت الذي طردتهم منه انجلترا. وقام كرومل بانذار الثوار، وإخضاعهم بالقوة. ونشأ البرلمان الاسكتلندي بعد ذلك وفي داخل نطاق برلمان لندن في عصر أسرة اورانج، وأصبحت اسكتلندا وانجلترا ويلز أساسا لتكوين بريطانيا العظمي في الوقت الذي اختلط فيه صليب سان جورج مع صليب سان أندور علي العلم المشترك. ولقد ثار الاسكتلنديون أكثر من مرة وبشكل هز لندن. وقام الانجليز بنزع أسلحتهم، ومنعهم حتي من ارتداء أزيائهم الوطنية. ولكن الاسكتلنديين شعروا في نهاية الأمر بأنهم يستفيدون من هذا الإتحاد، إذ أصبح من حقهم، كبريطانيين، أن يتاجروا مع المستعمرات، ويهاجروا إليها، ويفيدوا من إستغلال مناطق الامبراطورية.

ولكن حالة ايرلندا كانت أكثر صعوبة، ويتلخص تاريخها في سلسلة طويلة من الثورات وعمليات القمع. وكانت هذه الجزيرة قد حصلت من جاك الثاني، بعد خضوعها علي نوع من الاستقلال المحلي، وأصبح هناك في دبلن أحد اللوردات كممثل للملك، وبرلمان ايرلندي، من مجلسين، يصوت علي القوانين الذي يقترحها هذا اللورد، والتي تعرض بعد ذلك علي موافقة الملك. ولكن التجار الانجليز عاملوا هذه الجزيرة علي أنها مستعمرة لهم، فمنعوا كل علاقة مباشرة بينها وبين إسبانيا وفرنسا، إلا بعد تصريح بذلك، وحرموا علي الإيرلنديين شراء الأصواف من خارج انجلترا، وبيع لحومهم وحبوبهم وأصواف أغنامهم إلا للانجليز.

وقام كرومويل بأكثر من ذلك، بأمره ثلاثين ألف ايرلندي، وباع الإنجليز سبعة آلاف آخرين كعبيد في الهند الغربية وأمريكا، وطردوا أربعين ألفاً إلي القارة، وحاصروا خمسة وأربعين ألفاً آخرين في منطقة مستنقعات كونوت وإذا بقي الايرلنديون كاثوليك، فأنهم كانوا يبعدون من الوظائف العامة، ويحرمون من قسسهم. أما المقاطعات الأخري فكانت حكراً للمعمرين الإنجليز، والاسكتلنديين، أنصار كرومويل والمحاربين القدماء في جيوشه، وعلي أساس عدم تحدثهم اللغة الايرلندية، وعدم زواجهم بالنساء الإيرلنديات، وعدم استخدامهم لأي ايرلندي. أنها سياسة تمييز عنصري تعمل علي عزل المهزوم عن المنتصر، وللكاثوليكي عن البرتستانتي، والإيرلندي عن الانجليزي، والتي تبذر بذور الحقد المستمر.

وكانت الأرض في هذه الجزيرة الخاضعة محجوزة في غالبيتها لملاك انجليز. انجليز يعيشون في انجلترا. أما الايرلنديون فقد أصبحوا يعيشون في مستوي أقل من مستوي الإنجليز، الذين حرموا عليهم شراء أي فرس يزيد

ثمنها عن خمسة جنيهات، وحرموا علي رجال الصناعة أن يكون لديهم أكثر من صبيين، في الوقت الذي فرضوا فيه علي التجار الكاثوليك ضرائب لا يدفعها البروتستنتيون، وكل نظام الضرائب والرسوم الجمركية قد وضع بشكل يهدف إلي تحطيم إقتصاد إيرلندا، ولكن ما هي الوسيلة التي يمكن بها للايرلنديين أن يردوا علي مثل هذه السياسة؟ لقد تحول بعضهم إلي المذهب الانجليكاني، وهاجر كثير منهم بمجرد أن حصلوا علي حق الهجرة، أما الباقون فكانوا يعلنون الثورة من وقت لآخر.

ولم تكن بريطانيا تشعر بأي أسف أو وخز عندما بدأت في توسعها وعظمتها. كانت بريطانيا تتمرن علي العمليات الاستعمارية في إيرلندا، وكانت تحاول منع أي تهديد لأي «خيانة» كاثوليكية، وتحاول الإحتفاظ بوحدتها. وهل كان في وسع انجلترا أن تقوم ببناء امبراطورية فيما وراء البحار، وإيرلندا المعادية في مواجهة ليفربول؟ لقد أصبح إخضاع إيرلندا شرطا أساسيا لتتمكن بريطانيا من غزو الهند.

وكانت الهند الحقيقية في الشرق قد أفلتت من الفوضي بحكم الصدفة. وبعد امبراطورية المغول الكبري في عصر السلطان أكبر سادت الحروب الداخلية معظم مناطقها. واعتمد بعض السلاطين علي الأقلية الاسلامية للاحتفاظ بالامبراطورية، التي اشتهرت فيها دلهي بعظمتها وثروتها. ولكنهم اضطهدوا الهندوس، وحاربوهم وأقفلوا بعض معابدهم، كما فعل كرومويل مع إيرلندا، وسادت المؤامرت بين الرؤساء الإقطاعيين وبين الأسر المحلية وأصبح السلطان المغولي، مع الزمن، بدون سلطة، اللهم الا بيع الممالك إلي التابعين أو الصحاب، والذين كانوا يبيعونها بدورهم، في شكل مقاطعات إلي النواب، والذين كانوا يوزعونها بدورهم بعد ذلك علي الراجات.

وكان هذا التفكك في صالح الأوربين، خاصة وأنهم كانوا قد وصلوا إلي الهند وعلموا أنها مليئة بالثروات. وزادت الفرص أمام الإنجليز والفرنسيين، مع هذه الفوضي والمنازعات، للتدخل والإفادة، وبشكل جعل الهند تحت رحمتهم.

حقيقة أن البرتغاليين كانوا قد سبقوهم إلي جوا، وأن الهولنديين كانوا قد حصلوا علي مراكز متعددة علي ساحل مالا بار وفي سيلان وفي البنغال ولكن الهند كانت واسعة، وكانت أوربا قد حلمت بها لمدة قرون، وبشكل يساعدها علي تحقيق أحلامها، وخاصة بعد أن تفوت أساطيلها ومدفعيتها، وكان الانجليز يحسدون الهولنديين علي الثروات التي كانوا يجمعونها. فاقتفوا آثارهم واتخذوا وسائلهم. وما دام إزدهار هولندا قد نشأ من الشركات الاستعمارية، فإن الإنجليز سينشأون شركان أخري لحسابهم.

لقد رأينا تجارا مغامرين يعملون من قبل في المناطق المسكوفية. وقام جيمس لانكستر، الذي قاد حملة صوب الهند وسرمطرة، بجلب التوابل والحرير والأقطان، رغم الإحتكار الأجنبي، وأشار بضرورة إنشاء شركة الهند الشرقية. ووافقت الملكة اليزابيث علي هذه التوصية، وساعدت الظروف علي سرعة إنشاء هذه الشركة، خاصة وأن الهولنديين، وكانوا سادة هذه الأسواق قد ضاعفوا أثمان الفلفل. فنشأت «شركة تجار لندن المتعاملين مع الهند» في الأيام الأخيرة من القرن السادس عشر، وهي التي ستصبح فيما بعد شركة الهند الشرقية الشهيرة. ولقد اعطي التاج لهذه الشركة احتكار التجارة بين انجلترا وكل البلاد الواقعة إلي شرق رأس الرجاء الصالح، مع سلطات سيادة علي المناطق التي تغزوها، واعفاءات جمركية علي سلعها، والحق في تصدير ما قيمته ثلاثين ألف جنيها سنويا من المعادن النفسية. وكان رأس مالها

ثمانين ألف جنيها استرلينيا ولكنه زاد بسرعة إلي ٤١٨ ألف، كما زادت امتيازاتها في سنة ١٦٠٣ وأصبح لها الحق في الاحتفاظ بحاميات واعلان الحرب وعقد الصلح وتولي السلطة القضائية. وأقلع أول أساطيلها أمام موجة من الحماس العام. وذهب جيمس لانكستر الذي قاد هذا الاسطول حتي جزر التوابل، وتفاوض مع السلاطين المحليين وانشاء مراكز تجارية في جاوة وسومطرة، ثم عاد منتصرا وأصبحت هذه الشركة منذ ذلك الوقت إحدي المنشآت الوطنية.

ولقد حصلت هذه الشركة علي امتيازات أخري في رحلاتها التالية إلي ملقة وإلي سواحل الهند نفسها ووافق عليها السلطان المغولي، وأصبحت أحمد آباد وكمباجا وسورات ثم مازولي باتام، اوريسا قواعد بريطانية. وانشأت الشركة قلعة سان جورج قرب مدراس وحصلت علي جزيرة بمباي سنة ١٨٦٢. وقد خشي السلاطين المغول هذا النشاط البريطاني بعد ذلك، وحاولوا محاربتها لمدة ثلاث سنوات إنتهت بقبول حل وسط. وأنشأ الانجليز قلعة فورت ويليام عند مصب الكنج قريبا من قرية صغيرة ستنموا فيما بعد وتصبح كلكتا. ووسع الانجليز مناطق عملياتهم وحصلوا علي إدارة مناطق علي مصب الكنج وفي البنغال. ولقد تدخل بعض مندوبي هذه الشركة في عملية المنازعات بين الرؤساء الوطنين، وحاولوا الدفاع عن بعضهم، وحصلوا علي حقوق جديدة، وبدأت بذلك الامبراطورية الإنجليزية في الهند.

وإصطدمت شركة الهند في الأرخبيل بمنافستها الهولندية، ونشأت عن ذلك معارك حربية، ولم يتورع هؤلاء التجار عن القتل والهدم وإحراق القري لزيادة مكاسبهم، وإذا كان بعض السلاطين قد طردوا الإنجليز، فإن الانجليز كانوا يسرعون صوب سلطان آخر، وبقوا في تيمور وتيرناد وفي سومطرة.

أما في الصين فإن الإنجليز قد واجهوا كل من الصينيين والبرتغاليين. وقام أحد القواد الإنجليز، بعد حصوله من حاكم جوا البرتغالي علي تصريح بالذهاب إلي ماكاو بمهاجمة مصب نهر كانتون وضربه بالمدافع. ولكن هذا النجاح لم يعطي نتيجة أبعد من ذلك، إذ أن الصين أخذت في الاحتراس من القادمين الجدد.

وعلي العموم فقد حصلت بريطانيا علي مراكز ممتازة في التجارة الشرقية وأصبحت تستورد اللالئ والألماس والقطن والمنسوجات القطنية من البنغال والدكن، كما استوردت التوابل من الأرخبيل. ولقد بقيت شركة الهند الشرقية فترة طويلة أقل إزدهاراً من زميلتها الهولندية رغم أنها كانت قد نشأت قبلها بعامين، وظل الأسطول البريطاني لمدة طويلة لا يقوم بعمل أكثر من اقتفائه آثار الاسطول الهولندي. ولكن هذا الكفاح إنتهي بتسوية بين الدولتين الأوربيتين، وفي صالح انجلترا، فإذا كانت انجلترا قد أبعدت من مكاسب الهند فأنها قد كسبت في أوربا، وخاصة بعد أن قامت أسرة أورانج بتوحيد البلدين، ولم تعد هولندا بعد ذلك أكثر من كونها تابعة للندن، وفي مواجهة فرنسا وأسبانيا. ووافقت الأراضي المنخفضة علي الإنهزام في المجال الاستعماري حتي تحافظ علي كيانها علي القارة الأوربية، وتفوقت شركة الهند الشرقية علي الشركة الهولندية، وأرتفعت أرباحها السنوية إلي ١٠٪ وإلي ٢٠٠٪ من رأس مالها.

ولقد أضافت هذه الشركة القوة المالية والسياسية إلي القوة التجارية، وأخذت تفرض حكومة لندن نفسها في الأزمات، وانتزعت من الأمراء المحليين امتيازات جمركية في الهند، وكثيرا ما قامت بشراء أرضيهم بأكملها، وما عليها من رعايا، نظير دفع معاش سنوي لهم فأصبحت هذه الشركة مالكة وذات سيادة.

وأصبح الحاكم العام المقيم في كلكتا، والذي يساعده مجلس أعلي من أربعة أعضاء يضع القوانين، ويعدلها، ويعين الأشخاص في كل الوظائف. وكان هناك حاكمان عامان في مدراس وبمباي، ينفذون رغبات كلكتا.

ولقد ترك حملة الأسهم الشركة تقوم بكل شئ، ما دامت أرباحها كانت أكثر مما يتوقعون، ولم يكن من حق أي منهم أن يشارك في الجمعية العمومية إلا إذا كانت قيمة أسهمة تزيد علي ألف جنيه. وكانت هذه الجمعية هي التي تعين مجلس المديرون وتعطيه السلطة التنفذية، وتوافق علي قرارات الحاكم العام، بعد إشراف حكومة لندن.

ولقد رضيت انجلترا بهذا النظام الذي يوحد بين مجهود المواطنين ومجهود الدولة، وفي إطار مشروع تجاري. وكانت شركة الهند تحقق آمال الانجليز فيها وبشكل سمح لها بأن تعيش لمدة أطول من قرنين ونصف قرن، وسمح لها بأن توصل إحدي نظم عصر اليزابيث.حتى عصر الملكة فيكتوريا.

٤- إنجلترا في المحيط الأطلسي:

كانت انجلترا قد إتخذت هدفا لها في الهند الشرقية إبعاد الأقاليم المتحدة عنها وعارضت الشركة الهولندية بشركة انجليزية واحدة. أما فى الهند الغربية فأن انجلترا قد وجدت اسبانيا في طريقها. ولم يكن لاسبانيا شركة استعمارية، فتركت لندن هذا الميدان مفتوحا للمجهودات الشخصية وبشكل يسمح لأي فرد بالوصول إلي العالم الجديد، وإنشاء أي عدد ممكن من الشركات.

وكان أول ميدان للعمليات البريطانية في هذا السبيل هو أفريقية، خاصة وأن المراكز التي كانت تنشأ علي سواحل هذه القارة كانت تورد العبيد الذين

يمكن بواسطتهم تحطيم عملية الحصار الإسباني علي أمريكا، خاصة وأن اسبانيا لم يكن لها الأدوات والسلع التي كانت لازمة لشراء العبيد، ولم تكن لها السفن اللازمة لنقلهم، فاضطرت إلي ترك عملية التجارة في الرقيق إلي الدول الأخري التي يمكنها أن تقوم بها.

كان من اللازم إذا أن تثبت بريطانيا أقدامها في أفريقية حتي يمكنها أن تتدخل في أمريكا. فأقامت شركة غرب أفريقية للعمل علي طول الساحل الغربي لهذه القارة، وأعطتها جامبيا وسيراليون وساحل الذهب وساحل العبيد نقطا لتجميع وشحن الزنوج وكثيرا ما قام الانجليز بنقل ما يقرب من خمسة آلاف رجل في السنة، وتمكنوا بذلك من السيطرة علي نصف هذه التجارة وسبقوا الفرنسيين والبرتغاليين والهولنديين فيها بكثير.

واستولي الانجليز علي سانت هيلين في وسط المحيط الأطلسي واستخدموها محطة بحرية وأقاموا عليها المستشفيات ومخازن التموين وحصلوا علي طنجة، عند مدخل البحر المتوسط كبائنة أميرة البرتغال عند زواجها بشارل الثاني، فحصنوها، ولكن المغاربة حاولوا إبعادهم عنها واضطروهم إلي إخلائها بعد أن منعوا عنها الماء ولكن انجلترا عرضت هذه الخسارة، وأفادت من صدام مع اسبانيا واستولت هلي جبل طارق واعتبرته مركزاً تجارياً أكثر من كونه موقعا استراتيجيا. وكذلك الحال مع مينورقة التي أخذتها من الاسبانيين والتي احتفظت بها بنفس الطريقة، وأكثر من كونها قلعة حربية، فنشأت التسلطية التجارية البريطانية قبل أن تنشأ تسلطيتها الحربية.

ولكن طنجة وجبل طارق ومينورقة لم تكن هي أمريكا، ولكنها كانت قواعد لحصار اسبانيا وفي الجانب الآخر من المحيط كان هناك الاسبانيون، نفس الأعداء في الأنتيل، ولم يتردد الانجليز في العمل علي إخراجهم منها، وكانت هذه الجزر جميلة وخضراء، وإذا كانت لا تورد الذهب فأنها كانت غنية بالسكر والطباق والقهوة والنيلة وكانت المدن الأسبانية تخزن فيها حمولات كبيرة من سلع مغرية فنشأ قراصنة السواحل وقاموا بنهب نيكاراجوا وهندوراس وبنما وفيراكروز ووقعت مراكز القرصنة الساحلية والمستعمرات في أيدي الانجليز وإستولي رالي علي تريناد سنة ١٥٩٥، وأفادت السفن الانجليز من القار الموجود في بحيرتها. ثم استولي الانجليز علي درباد وعلي جزر برمودة وجزيرة سان كريستوف وجزيرة موسيرات وأنتيجوا وسانتا لوتشيا المنتشرة حول البحر الكاريبي والتي تقرب الممتلكات الانجليزية صوب فلوريدا. وكان الإسبانيون قد زاروا معظم هذه الجزر، دون أن يقيموا بها. أو أقاموا في بعضها بأعداد صغيرة لا يمكنها أن تعارض مجئ الانجليز، وكان الانجليز أنفسهم في حالات كثيرة لا يقيمون في بعض هذه الجزر لمدة طويلة، كما كانت لندن تجهل كثيرا من هذه العمليات، خاصة وأنها كانت متروكة للقراصنة، ولم يكن في وسع حكومة لندن أن تطلب منهم تقديم كشف حساب عن مغامراتهم الاستعمارية.

ولقد قام بحارة كرومويل بغزو جامايكا في جنوب كوبا سنة ١٦٥٥، وقضوا علي الإسبانيين، بعد أن كان هؤلاء قد قضوا علي الوطنيين وعمر الانجليز جزيرة جامايكا بالاسكتلنديين والايرلنديين والزنوج وجعلوا منها مركزاً لتجارة العبيد وللتهريب.

وأصبحت جزر الأنتيل البريطانية إحدي النقط الهامة في تلك الرحلة المثلثة التي كانت السفن الإنجليزية تترك فيها لندن وبريستول مشحونة بالأنسجة وبالأدوات الحديدية، وتصل إلي الساحل الافريقي حيث تبدل سلعها وتعيد شحنها بالعبيد، ثم تصل إلي إحدي نقط أمريكا وتبيع العبيد وتشتري السكر والروم والطباق ثم القطن فيما بعد. وكانت الأراضي في هذه الجزر ملكا لمزارعين يقيم أغلبهم في انجلترا نفسها، هذا خلاف مراكز القرصنة داخل الخلجان. وكان الحكام يمثلون الملك في هذه المستعمرات، ونقلوا إلي هذه المناطق الاستوائية التقاليد البرلمانية وأخذ المعمرون في إنتخاب مجالسهم التي تشرف علي مصروفاتهم.

وكان في وسع الانجليز أن يتخذوا جامايكا قاعدة للوصول إلي القارة الأمريكية، وكان الاسبانيون قد سمحوا لهم بقطع الأخشاب في هندوراس سنة ١٧٤٣، كانت فرصة للانجليز استغلوها وإستمروا في البقاء في هذا الاقليم بدعوي إستمرارهم في قطع الأشجار: وتحالفوا مع الهنود الحمر وأعطوهم حمايتهم، فنشأت مستعمرة هندوراس البريطانية واستعدت للقيام بدورها كقاعدة لعملية توسع البريطانيين في نيكاراجوا وجوانيمالا، ولإعطاء بريطانيا منفذاً علي المحيط الهادي، كما كانوا يرغبون.

ونشأت مراكز لمستعمرات انجليزية أخري علي السواحل الأمريكية إلي الشمال من ذلك فنشأت شركة امتياز للعمل في الأقاليم المخيطة بخليج هدسن وللتجارة في الفراء، كما أن انجلترا حاولت الافادة من نيوفوندلاند وجعلها مدرسة بحرية تحول الفلاحين الانجليز إلي بحارة، كما أن انجلترا لم تخفي أطماعها علي سواحل كندا، وفي هذه المنطقة الأخيرة سيصطدم الانجليز مع الفرنسيين كما حدث في الهند نفسها. فنشأت مستعمرات انجليزية حقيقية

في المنطقة الواقعة بين أمريكا الإسبانية وأمريكا الفرنسية وكانت أولاها هي مستعمرة فرجينيا التي اكتشفها رالي وأرسلت إليها إحدي شركات تجار لندن ثلاث سفن تحمل ما يقرب من المائة من المعمرين فنزلوا إليها وبنوا عليها بعض الأكواخ، وزرعوا فيها الطباق الذي جاءوا به من الانتيل، والذي عمل علي إزدهارها . ووصل عدد سكان فرجينيا إلي ثمان مائة بعد خمس عشر سنة وإلي ثمانية آلاف بعد ثلاثين سنة. وكان جون سميث من بين المعمرين فيها ، وقام بحملة إلي الشمال وعاد بالفراء والأسماك، وبوصف لأرض جديدة وصل إليها وسماها انجلترا الجديدة.

وبعد رحلة سميث بست سنوات قامت مجموعة صغيرة من المهاجرين بترك بليموث صوب فرجينيا سنة ١٦٢٠ ، هاربين من الاضطهاد الديني. وكان بعضهم قد حاول من قبل الإلتجاء إلي هولندا ، ولكن فرجينيا كانت ملجأ أحسن بالنسبة إليهم من الأراضي الواطئة وكانت الرحلة صعبة علي ظهر السفينة ماي فلاور الشهيرة، التي أبعدتها الرياح عن فرجينيا وأوصلتها إلي إنجلترا الجديدة التي كان جون سميث قد رآها. فأصبح هؤلاء الحجاج سادة لإقليم جديد. ورغم أن الاسقربوط. وبرودة فصل الشتاء قد خفضت عددهم إلي النصف إلا أن من بقي حيا منهم أفتسم الأراضي مع الآخرين وزرع الذرة وأنشأ بليموث صغيرة.

ولقد نشأت مستعمرة ثانية قريبا منها بعد أن أرسلت شركة خليج مساشو سمث ألفاً من البيوريتانيين الذي سينضمون بعد ذلك حول بوسطون إلي عدد من المهاجرين الآخرين الفارين من سياسة آل ستيوارت الكاثوليكية. وهكذا عملت بريطانيا علي تصدير «الهراطقة» وعمرت بهم أمريكا ، بنفس الطريقة التي كانت المدن اليونانية تعمر بها قديماً مستعمراتها بمن تحكم عليهم بالنفي.

وسيطر المعمرين في مساشوست علي معمري بليموث، وأخذوا كلهم في العمل في الصيد وفي إستغلال الغابات، ودخلوا في مجالات دينية فيما بينهم. ولقد إزدادت هذه المجادلات وأصبحت مريرة، حتي أنهم أخذوا في اضطهاد بعضهم وقام أحد المعمرين من مساشوست بالإلتجاء إلي جزيرة رايلند في سنة ١٦٢٥، وإشتري الأراضي من الهنود، وأنشاء مدينة علي الخليج المجاور وجاء لاجئون آخرون فارين من الاضطهاد في ماشوست وعمروا مستعمرات كنكتيكت ومين ونيوهامشير، ونشأت أمريكا الإنجليزية بهذه الطريقة نتيجة للتعصب.

وفي الوقت التي كانت فيه مستعمرة مساشوست تتفرق، تكتلت مستعمرات أخري حول فرجينيا وكان الملك شارل الأول قد أعطي ملكية الأراضي الواقعة إلي شمال بوتوماك إلي لورد بلتيمور الكاثوليكي الذي أبعده مذهبه الديني عن انجلترا سنة ١٦٥٢. وسمي بلتيور أراضية باسم ميري لاند نسبة إلي الملكة، ومنح ألف فدان لكل سيد يتمكن من إحضار خمس من المواطنين.

ولقد منح شارل الثاني أراض مماثلة إلي جنوب فرجينيا للكثير من رعاياه. وهي الأراضي التي سماها الفرنسيون باسم كارولينا نسبة إلي ملكهم شارل التاسع، والتي احتفظت بهذا الإسم نسبة إلي شارل ملك إنجلترا. وأعطي نفس الملك إلي ويليام بن أراض جديدة واسعة في شمال ميري لاند سنة ١٦٨١، فجعل منها بن ملجأ للكريكرز، هؤلاء البيوريتانيين الذين قام الرجال التقليديين بطردهم. ولقد سميت هذه المنطقة باسم بنسلفانيا، إذ أن الغابات كانت فيها رائعة الجمال، وسميت عاصمتها فيلادلفيا، أملا في أن يعيش الرجال أخوة. وساعد تسامح بنسلفانيا علي إجتذاب أعداد كبيرة من المهاجرين.

وهكذا نشأت مستعمرات انجليزية نتيجة للصدفة أو لإحدي الهبات أو لعقد إمتياز وكانت كل من فرجينيا ومساشوست، وهما أولي المستعمرات، خصبتين، وأنشأوا مستعمرات أخري، بنفس الطريقة التي أعطت بها فوسيه مرسيليا، والتي أعطت بها مرسيليا أنتيب ونيس، ولكن المستعمرات هنا في العالم الجديد كانت تجهل المستعمرة الأم، ولم تكن هناك علاقات قائمة ثابتة فيما بينها، كما كانت المسافات البعيدة تفصل الواحدة عن الأخري، وكان الحماس الديني يفصل بينهم بعد ذلك.

وكانت لبعض هذه المستعمرات، ولفترات معينة، علاقات مع الوطن الأم في إنجلترا، حتي جاء كرومويل وأصدر مرسوماً ينص علي أن المستعمرات تخضع لإنجلترا وما دامت سفنهم بهذه الطريقة قد أصبحت إنجليزية، وما دامت هذه المستعمرات قد دخلت في النطاق الاقتصادي لانجلترا فإن الإمتيازات قد أصبحت محددة والروابط حقيقية. ولقد حاولت لندن أن تجمع كل هذه المستعمرات في مستعمرة واحدة، ولكنها لم تتمكن من ذلك، وكانت هذه المستعمرات تختف الواحدة عن الأخري، كما كانت مقسمة إلي مجموعتين تفصل بينها هولندا الجديدة، والتي كانت ملكا للشركة الهولندية للهند الغربية. ولقد حاول الهولنديون أن يدافعوا عن نيو امستردام فأقفلوا نقطة ما نهاتن بحائط (وال) الذي سيعطي أسمه فيما بعد إلي وال ستريت، ولكن ملك إنجلترا طالب بهذه الأراضي وأرسل أسطولا إلي مصب نهر هدسن. وسلمت هولندا الجديدة وأصبحت نيوأمستردام هي نيويورك نسبة إلي أخي الملك. وعمرت الأراضي الواقعة بين الهدسن وديلاوار وأصبحت تحمل اسم نيوجيرسي. وتوحدت بذلك كل الأراضي الانجلزية في أمريكا.

وكانت جورجيا هي آخر من ولد من هذه المستعمرات سنة ١٧٣٢، في أقصي الجنوب وإلي جوار فلوريدا الاسبانية. وذلك في عهد جورج الثاني. وأرسلت إليها لندن كل مساجينها الذين أبدلوا زنزاناتهم بطبيعة جميلة مملوءة بالنخيل وسرعان ما جاءهم مهاجرون جدد حصلوا علي الأراضي وقطعان الماشية.

ويصل بنا عدد المستعمرات الآن إلي إثنتي عشر، إتخذت رغم إنفصالها، في عملية الكفاح ضد الهنود وضد الأجانب، وكان الانجليز لا يعرفون الوطنيين إلا لكي يشتروا منهم الفراء. وكان هدفهم الأساسي هو ابعادهم أو القضاء عليهم. وعلي عكس سياسة الإسبانيين، التي كانت قد قبلت التخليط، وحاولت ان تحافظ علي الجنس، كانت السياسة الانجلوسكسونية تقوم علي أساس إخلاء امريكا من سكانها الأصليين.

وكان هناك كثير من المعمرين للعالم الجديد سواء أكان ذلك نتيجة لإرتفاع الأسعار واشتداد البؤس، أو نتيجة للخصومات الدينية، وكانوا يعبرون المحيط آملين الوصول إلي أرض يعيشون فيها في سلام. فجاءت أعداد كبيرة من الانجليز والايرلنديين والاسكتلنديين وسكان وادي لراين والفرنسيين، ومعظمهم من الهجنوت، وبدأوا في تفليح الأرض وكانوا لا يحضرون معهم من أوربا سوي سواعدهم وعزيمتهم علي العمل، ولكنهم جاءوا بالكروم وأشجار التوت، ولم يزد عددهم عن أربعين ألفاً في منتصف القرن الثامن عشر، وأكمل العبيد الزنوج المستوردون من افريقية الأيدي العاملة اللازمة، خاصة وأنه لم يكن هناك أحد في ذلك الوقت، سواء في بوسطن أو في مايأتي، يفكر في الإستغناء عن العبيد، أو في معاملتهم كرجال أحرار.

أما النظام السياسي للمستعمرات الانجليزية فكان يختلف من مكان إلي آخر، كما كان أصل الأهالي يختلف من اقليم لاقليم. فكانت بعضها ملكا شبه إقطاعية، وكانت بعضها ملكا لشركة أو لمجموع أعضاء من المؤسسين، حصلت أو حصلوا علي عقد إمتياز. وحتي إذا كان مجلس حملة الأسهم يجتمع في إنجلترا، فإن ذلك لا يمنع المستعمرات من إنشاء مجالسها من المتواطنين فيها. وكان حق الانتخاب يختلف من مستعمره إلي أخري، طبقاً لارستقراطيتها، فكان هذا الحق محصورا علي بعض كبار المزارعين، أو مفتوحا لكل المعمرين البيض. ولكن النظم حاولت مع الزمن أن تسوي بين كل المعمرين الموجودين، وأصبح كل إقليم يكون جمهورية صغيرة تحترم ملكية الأرض، والقوانين الإلهية.

ولقد إنتهي المطاف بمعظم المستعمرات، بعد إفلاس الشركات التي قامت بإنشائها، أو بعد إنتهاء عقد إمتيازهم، إلي التاج، وأصبحت مستعمرات ملكية. واحتفظت مستعمرتان باستقلالهما الداخلي وهما رودايلاند وكنكتيكات، وظلت ثلاث مستعمرات ملكية خاصة وهي ميري لاند وديلاويير وبنسلفانيا، ولكن نظمهم سارت صوب التوحيد، ففد كان هناك حاكما يمثل الملك أو يمثل الملاك. وأصبح المجلس الذي ينتخبة المعمرون يصوت علي القوانين وعلي الميزانية، أما في لندن فإن المجلس الخاص والأميرالية ووزارة التجارة والمزروعات كانت تشرف علي أمريكا الانجليزية.

أما وزارة التجارة والمزروعات، أو المجلس الأعلي للتجارة Board of Tiade فهو المؤسسة الجديدة المكلفة بالإشراف علي كل الممتلكات الانجليزية فيما وراء البحار. وكان يجمع هاتين الطريقتين للاستعمار : الاستعمار التجاري، والاستعمار الزراعي. واضطر المعمرين إلي ان يزرعوا في أمريكا

حتي يتمكنوا من التجارة، فزرعوا الطباق والأرز والنيلة في المستعمرات الاستوائية، والذرة والقمح في المستعمرات المعتدلة، وسواء أكانت الممتلكات كبيرة في الجنوب، أو تتكون من مساحات صغيرة في الشمال فإن المعمرين كانوا يعملون ويعيشون معيشة صحية.

وهكذا زادت ثروات بريطانيا من المحيط الهندي، وبشركة واحدة، في الوقت الذي أعطته فيها مشروعاتها المتعددة أراضي جديدة في أمريكا، زودتها بمنتجات تختلف عن منتجات الشرق، وتفتح المجال أمامها للتوسع في المستقبل.

الفصل الثاني عشر

فرنسا وشركاتها الاستعمارية

كان الفرنسيون يرغبون في عدم البقاء بعيداً عن هذا السياق الدولي للاستعمار. وكانت فرنسا أكثر بلاد أوربا كثافة في هذا الوقت، وكان شعبها أكبر شعب في أوربا، فكيف يمكنهم أن يتركوا هذا الميدان خلاء لدول أخري أصغر منهم. وكانت فرنسا تعتبر إسبانيا بلداً فقيراً، وكل من انجلترا وهولندا بلداً صغيراً، ولم يدري الفرنسيون أن الفقر وضيق المجال كانا عاملان مهمان لدفع الشعوب للاستعمار وكان من سوء حظ فرنسا أنها كانت دولة غنية ومتسعة وكان بعض الفرنسيون ينظرون إلي كندا مثلا علي أنها بلد فقير، وكانوا ينظرون نفس النظرة إلي كل المناطق الواقعة إلي شمال خط عرض ٤٥° شمالاً. فكانت هذه المناطق بالنسبة إليهم غير صالحة للحرث ولا للرعي، ولا تصلح للفرنسيين ولكن بعض الفرنسيين إمتازوا بالجرأة ونزلوا إلي ميدان الاستعمار.

١- الشركات الفرنسية:

عمل هنري الرابع علي تشجيع الإستعمار، وإذا لم يكن ملكا فلربما أصبح أحد الغزاة المشهورين، ولكنه كان لا يرغب في ترك الشعب يشك في إخلاص تحوله إلي الكاثوليكية إذا ما عارض في المرسوم البابوي الخاص بتقسيم العالم. فأنه وضع في معاهدة فرنان سنة ١٥١٨ مادة سرية إعترفت فيها فرنسا بترك إمتيازاتها التي حصلت عليها من البابا لفرنسا وذلك في المناطق والأراضي التي يمكن أن تكتشف إلي غرب جزائر كناريا، وكان هذا تصريحاً واضحاً للفرنسيين بالبدء في عملية الاستعمار.

وأحاط كثير من المستشارين بهنري الرابع وأشاروا عليه بضرورة إنشاء المزارع وإنشاء أقاليم فرنسية جديدة فيما وراء البحار. وكان المهم هو عدم الإختصار علي اكتشاف أراضي جديدة، بل إستثمارها واستغلالها، وذلك بأرسال معمرين فرنسيين إليها. وأصر غيرهم علي ضرورة إدخال المدنية والحضارة بين الشعوب الواقعة فيما وراء البحار وتحويلهم إلي المسيحية. وقام بعض الدعاة بتوجيه أنظار الفرنسيين، بالعمل علي خدمة الرب وخدمة الملك، وذلك بزيادة أراضي جديدة تضم لفرنسا، والعثور علي أشياء جديدة، سواء أكانت من الأحجار الكريمة أو غيرها. كما قام ريشيليو بتفتيح أذهان الفرنسيين إلي المشروعات علي أنها مشروعات صليبية، وأعاد بذلك إلي الأذهان ذكري سان لوي. وجعل لوي الثالث عشر يوقع علي وثيقة تتحدث عن مجد الله وعن رفاهية الدولة الفرنسية كأسباب لإقتفاء آثار القديسين الأوائل، وذلك لنشر عظمة الفرنسيين في الأراضي البعيدة ولعملهم علي تحرير الشعوب المستعبدة وانتزاعهم من البربرية. واستند ريشيليو علي هذا الإستناد إلي الصليبيات حتي يحصل علي موافقة روما علي مشروعاته في حالة قيام صعوبات مع اسبانيا. ونلاحظ أن كل الامتيازات التي أعطتها فرنسا للاستعمار كانت تشتمل ، كما كان عليه الحال في عصر الحروب الصليبية وعصر الغزاة الاسبانيين، علي إعطاء لون مسيحي لهذه المشروعات، وكانت أعلام الشركات الإستعمارية الفرنسية هي نفس أعلام الصليبين وأعلام الغزاة الاسبانيين ولكن الفرنسيين فكروا في التجارة كما فكر فيها الصليبيون من قبل.

ولم يكن من السهل علي الفرنسيين أن يبدأوا في مشروعاتهم الإستعمارية إلا باتخاذهم نفس الوسائل التي نجح بها الهولنديون والانجليز،

أي بانشائهم للشركات الإستعمارية. وكانت العملية صعبة بالنسبة لفرد واحد، كما كان من الصعب علي الدولة أن تقوم بها بمفردها ما دامت مشغولة بمشكلات أخري، أما الإستعمار عن طريق الشركات فكان لا يكلف الدولة شيئاً وكان يترك للنشاط الفردي، وتحت إشراف الدولة وبمساعدتها، مهمة مواجهة أي أخطار.

وكان لوي الحادي عشر قد حاول تنفيذ هذه الفكرة من قبل واقترح سنة ١٤٨٢ علي كبار التجار المجتمعين في تور إنشاء شركة في مرسيليا تحتكر التجارة في شرق البحر المتوسط ولكن فرنسا لم تكن قد استعادت قوتها في ذلك العصر بعد فترات طويلة من الحروب، كما أن الفكرة لم تكن قد نضجت بعد في أذهان الفرنسيين وجاء ريشيليو من بعد واقتبس نفس الفكرة وساعد علي إنشاء شركات كثيرة لها حقوق اقليمية مثل شركات، موربنهات،، والمائة شريك، وسان كريستوف، والجزر، ورأس الشمال، والشرق. وكان الطموح كبيراً رغم أن رؤوس الأموال كانت بسيطة والرغبة في الإقدام علي هذه المشروعات نادرة.

فاذا كانوا من المبشرين فإن وسائلهم كانت بسيطة، وإذا كانوا من التجار فأنهم يخشون المخاطرة فانحلت هذه الشركات الواحدة بعد الأخري دون أن تصل إلي نتيجة إيجابية. وجاء كولبير بعد ذلك وكان يعتقد بنفس الطريقة أنه يمكن للشركات الخاصة وحدها أن تتاجر وتستعمر وتربح، وشرح أن شركة تتكون من مصالح هامة وتعمل من أجل الرفاهية العامة يمكنها أن تتاجر بنجاح أكثر من الأفراد، ولم يتردد في الاحتفاظ لمثل هذه المؤسسات بالمزايا والضمانات اللازمة لإزهارها. وكانت هذه الشركات أقل عدداً في عصره مما كانت عليه في عصر ريشيليو، ولكنها كانت مجهزة ومساعدة وتخضع لإشراف أكثر مما كانت عليه سابقتها.

ولقد أفادت كل من شركات الهند الشرقية وشركات الهند الغربية وشركة الشمال وشركة الشرق وشركة السنغال، وهي الشركات التي أنشأها كولبير من المزايا القانونية والمالية التي أعطاها لوي الرابع عشر لبحث البحرية والتجارة. فلقد منحها هذا الملك إعفاءات من ضرائب الشحن ووضع لها نظما بحرية مريحة وسياسة جمركية في صالحها فساعدها ذلك كثيراً، وساعد ذلك كل الشركات علي الإزدهار والتكاثر، ووصل عدد هذه الشركات في الفترة الواقعة منذ موت هنري الرابع حتي الثورة الفرنسية خمسا وسبعين شركة فرنسية كانت تحاول الإثراء فيما وراء البحار. وكانت لوائحهم متشابهة، إذ كان لهم حق الملاحة والتجارة والإستيراد والتصدير في منطقة معينة محددة. وكان من الممكن تشجيع هذه الشركات علي مجهوداتها التي تقوم بها لزيادة التجارة وذلك باعطائها هذه المناطق واخضاعها لسيادتها ولحقوقها الإدارية والقضائية. فأصبحت المستعمرات بهذا الشكل ممتلكات للشركات، تقوم بنقل المعمرين اليها والإحتفاظ ببعثات تبشير فيها وبنشر التقاليد الفرنسية والعمل علي هضم الهنود المعمرين ومعاملتهم معاملة الفرنسيين.

ولقد اعتقد بعض المفكرين أن سياسة إبعاد الهجنوت من المستعمرات الفرنسية كانت خطأ وأنها حرمت هذه المستعمرات من عناصر للتوطن، ولكن موقف الهجنوت الفرنسيين كان خاصاً، وكثيراً ما لعبوا دور أعداء الدولة، ومما منع هذه الدولة من أن تثوبهم، كما أن تحويل المستعمرات إلي مناطق صراع ديني وحروب داخلية لم يكن في صالح هذه المستعمرات ولا في صالح فرنسا نفسها. ولكن فرنسا كانت متحررة تجاه الهنود وأصبح من حق كل وطني يعتنق الدين المسيحي أن يصبح فرنسيا ويحصل علي حقوقه الناتجة عن ذلك فيمكنه أن يشتري ويبيع ويرث كما كان عليه الحال في مرسوم إمتياز

مستعمرة فرنسا الجديدة ولكن فرنسا كانت تصر علي التعميد قبل ذلك حتي تمنع الانقسام بين سكان مستعمراتها.

وكانت فرنسا تشجع المصريين بامتيازات خاصة وتعطي القاب النبل إلي كثير مما لا يحملونها من بينهم وخاصة التجار والسماسرة وأصحاب السفن وقوادها، كما كانت تحول أصحاب الحرف إلي معلمين فيها بعد بضعة سنوات. أما هؤلاء الذين كانوا يساعدون بروؤس أموالهم علي إزدهار المستعمرات فإن فرنسا كانت تعدهم بامتيازات وذلك باعطائهم ألقاب النبلاء، والسماح بدخول الأجانب منهم في الجنسية الفرنسية دون ضرائب. وكان الملك يأخذ أول نصيب في الشركة، فكان ذلك يجبر البلاط على التشبه به وشراء الأنصبة فيها. وكانت الدولة تقدم جزءاً من رأس المال وبدون ربح. ورغم كل ذلك فقد كان من الصعب تغيير هذه المجموعات الكبيرة من البورجوازيين والفلاحين الذين بقوا إلي حد كبير عازفين عن المساهمة في هذه المشروعات. وإذا كان تعدد الشركات هو السبب الأساسي في حيرة الأهالي أمام الاختيار للمساهمة في شركة معينة، فإن شركة واحدة قد حظيت بانتباه أكبر، وهي شركة الهند التي كانت هناك أسباب إجتماعية وسياسية وفكرية تدفع الفرنسيين إلي المساهمة فيها للحصول علي توابل ولآلئ الشرق، ولتحدي الشركات الهولندية والإنجليزية المماثلة، وللوصول إلي النجاح عن طريقها.

٢- الشركة الفرنسية للهند:

أنشأت فرنسا عدداً من الشركات للهند الشرقية الواحدة بعد الأخري أنشأت الأولي في عهد هنري الرابع ولم تتمكن هذه الشركة من القيام بأي شئ، أما الثانية فقد أنشأتها في عهدي لوي الثالث عشر، سنة ١٦١٥

وأعطتها احتكار تجارة الشرق المناطق الواقعة فيما وراء رأس الرجاء الصالح، وكان الهولنديون والإنجليز يراقبون الطرق ويمنعون وصول أي مستكشفين اليها. وعجزت هذه الشركة عن الوصول إلي ما وراء مدغشقر أما الشركة الثالثة للهند الشرقية فقد أنشأها كولبير سنة ١٦٦٤ برأس مال قدره ١٥ مليون جنيه وأعطاها حق إحتكار التجارة بين رأس الرجاء الصالح ومضيق ماجلان لمدة ٥٠ سنة علاوة علي ملكية جزيرة درفين، التي أصبحت تعرف باسم مدغشقر فيما بعد، ونسبة معينة عن حمولة التجارة المستوردة والمصدرة، إعفاء من نصف رسوم دخول الموانى ورسوم الجمارك في جميع أنحاء المملكة. وأخذت هذه الشركة في إعداد سعتها الأولي فاستخدمت انسجة بريتانيا لعمل الاشرعة واستوردت الساريات من النرويج واشترت الحبال من الهافر ولقد قامت هذه الشركة بانزال الجنود والمعمرين علي دوفين، وقامت بمظاهرة بحرية أمام الهند وحاولت أن تضع مواطئ أقدامها في مدراس ولكنها لم تنجح في ذلك، وفشلت كذلك في سيلان وفي سان توما. ولكنها نجحت في الحصول علي مركز قرب سدرات وفي تللي شيري. وانشأ وكيلها فرنسوا مارتان مدينة جديدة سماها الهنود بوندشيري واتصل بالبنغال وسيام والأرخبيل ولكن النتائج المالية كانت مخيبة للامال، واضطر كولبير إلي دفع الأرباح من خزانة الدولة حتي لايثبط عزائم حملة الأسهم، واضطر الملك في في النهاية إلي أن يسحب الحقوق التجارية من هذه الشركة ولم يترك لها إلا إمتيازات النقل. ولقد كافح فرنسوا مارتان وحصل علي حقوق للمتاجرة مع مراكز متعددة في الهند، ودافع عن بونديشيري ضد الهولنديين واضطر إلي تركها، ثم عادوا واستولي عليها وقام بتجارة هامة بين الهند والهند وأحبه الأهالي ووصلت مدينته إلي أربعين ألف نسمة، وقوي ذلك شركة الهند التي

حصلت علي مراكز في ماهي وقامت بعقد محالفات وتدخلت في الصراع القائم بين أمراء الهند واستعدت لتوسيع أقاليمها. وواصل هذه العمليات دوبلكس الذى قام بعمليات للشراء والبيع والعرب وفرض الحماية ويشكل جعل منه سيداً على جزء كبير من الهند ورغم أن الهولنديين والأنجليز ، وحتى أنف حملة الأسهم الباريسيين الذين خشوا من إزدياد أعماله وتوسعه إلى الدرجة . ولم يصبح من السهل معرفة من الذى يحكم هذه الإمبراطورية التى فتحها والتى كانت تشتمل على ثلث الهند الشرقية وهل هو السلطان المغولى أو ملك فرنسا أو الشركة أو دوبلكس بنفسة. وكثيرا ما كان الهنود يعاملونة على انه ملك، ويعاملون زوجتة على انها ملكة، ولم يكن لأكبر سادة أوربا ما كان له من سلطة وعظمة وفخامة كما يقول فولتير. وكان من اللازم آن تكون السيادة مجتمعة في ايدي شركة الهند ولكنها كانت قد اصبحت جسدا بدون رأس، خاصة وان المديرين المحليين كانوا لا يخضعون لها، اما حملة الأسهم فكانوا لا يجتمعون في الجمعية العمومية خاصة وأن الحكومة كانت تصرف لهم أرباحا وكأنهم ذوي المعاشات.

لم تكن هناك فكرة محددة ولا إدارة محكمة ولا رؤوس أموال تدور، ورغم ذلك فقد تمكنت هذه الشركة من الحصول على نتائج باهرة ورجع ذلك إلي عدد من الرجال الممتازين الذين كانوا شجعانا ومستقلين في آرائهم وقراراتهم وتصرفاتهم وكان هذا يدل سلفا على رقة هذه الشركة مادامت تعتمد على شخصيات قد تختفي في أي وقت. ولقد نجحت فرنسا كذلك في إفريقيا وفي إفريقيا السوداء وفي مدغشقر وفي المحيط الهندي وحتى في المحيط الهادي. نجحت شركة الهند، والشركات الأخرى المماثلة في القيام بعمليات إستعمار، وبلغت درجة معينة من النجاح، ووضعت الأسس لعملية إستعمار مقبلة.

أما في شمال إفريقيا المواجه لفرنسا فإن فرنسا قد نجحت في إنشاء قواعد سهلت عليها عمليات الأمن في البحر المتوسط وسمحت لها بالمتاجرة مع افريقيا في الصوف والجلود. ونشأت شركات متعددة في هذا المجال، وأنشأت لنفسها رؤوس جسور علي القارة الافريقية سواء بالقرب من كاللو أو الرأس الأسود في تونس أو في عنابة حيث كانت تستورد القمح والحبوب والشمع والجلود. كما نجح كولبير في الحصول علي حرية التجارة مع المغرب سنة ١٦٨٢ .

أما في إفريقية السوداء فأننا نجد شركات متعدة تعمل في هذا الميدان ومن بين أهمها شركة سينيجامبيا النورماندية وشركة السنغال وشركة غينيا وشركة الغرب. وقامت هذه الشركات بإنشاء مراكز لرسو السفن علي طول الطريق المؤدي إلي رأس الرجاء الصالح وإلي الهند. وأصبحت هذه المراكز البحرية مراكز تجارية لشراء الزيت وسن الفيل والصمغ وخصوصا العبيد، فأصبحت سان لوي والبريدا في جامبيا وجزيرة جورية قرب الرأس الأخضر وبعض المراكز الواقعة علي ساحل الذهب وغينيا محطات هامة للتجارة في العبيد. أما جزيرة دوفين فقد قامت محاولات متعددة لاستعمارها، خاصة وأنها كانت محطة طبيعية في طريق الهند، ولكن هذه المحاولات قد فشلت، فلم يبق في فوردوفين التي أنشأت في جنوب الجزيرة إلا ثلاثين أوربيا. واستولت عليها شركة الهند لكي تجعلها مركزاً لعملياتها في المحيط الهندي سنة ١٦٦٥، وأنزلت فيها الجنود والفلاحين والتجار، ولكن الأهالي هجموا عليهم وأعملوا القتل في هؤلاء المعمرين، ورغم أن شركة الهند قد أخلت مدغشقر إلا أن حكومة باريس قامت بضمها سنة ١٦٨٦ حتي تحتفظ بحقوقها عليها. ولقد بقيت هذه الجزيرة خالية من الفرنسيين لمدة ٦٠ سنة حتي

قام بعض القراصنة الفرنسيين الذين طردوا من الأنتيل بالمجئ اليها سنة ١٧٥٠ واتخاذها ملجأ لنشاطهم في المحيط الهندي، وتمكن بعضهم من الزواج بأميرات من الجزيرة وأنشأوا لأنفسهم ممتلكات إقطاعية، ولكن ثورة جديدة قضت عليهم.

ولقد وجد الفرنسيون جزيرتين صغيرتين في مواجهة مدغشقر خاليتين من السكان وتزدهر فيها النباتات والحيوانات وكانت الأولي هي جزيرة بوربون، والثانية هي جزيرة فرنسا، أما الأولي فقد أرسلت اليها شركة الهند أربعة وعشرون من الصناع الشبان الأقوياء للنبهاء مع أربعة وعشرين من الفتيات اليتيمات. ثم جاء اليها بعض اللاجئين من مدغشقر وبعض الهولنديين والبرتغاليين وبعض رجال التبشير وعاش الجميع فيها علي الصيد والزراعة وجمع الفواكه وصيد السلحفاة والخنازير البرية ووصل عددهم إلي خمسائة في نهاية القرن السابع عشر. ولكن هذه الجزيرة إزدهرت بعد إن أدخلت الشركة فيها زراعة القهوة وأحضرت اليها العبيد من مدغشقر وموزمبيق للعمل فيها.

أما جزيرة فرنسا فكانت لا تبعد عنها إلا بأربعين فرسخا وأصبحت هاتان الجزيرتان مستعمرتين ناجحتين تنتج الأرز والذرة والقطن والقصب والنيلة. وجاء المعمرون اليها ببهاء من مدغشقر. وأنشأوا فيها صناعات صغيرة وخاصة السكر والنسيج، وأخذت بودلوي، في جزيرة فرنسا تدعي أنها منافسة لباتافيا.

أما في ما وراء الهند فأن الشركة الفرنسية قد ذهبت حتي سيام، وبعد أن تبادلت السفارات وقعت علي إحدي الإتفاقيات التي فتحت الطريق أمام المبشرين سنة ١٦٨٥ . وأقام بعض الفرنسيين في بانجوك، ولكن الهولنديين

تسببوا في قيام الأهالي ضدهم بثورة، وفي اخراجهم منها، واتصل الفرنسيون بالكوشين شين وبأنام وتونكين وذهبوا حتي جاوه ووصل اليسوعيين إلي بلاط بكين، وأثروا فيه.

ولقد أثمرت سياسة ريشيليو وكولبير رغم أن الشركات الصغيرة قد خيبت آمال المساهمين فيها ورغم أن شركة الهند لم تتمكن من دفع أرباح حقيقية لحملة أسهمها، ولكن النتائج كانت إيجابية في الميادين الآخرى، ونجحت فرنسا في الخروج من قوقعتها، وبدأت في الإختيار بين مراكز متعددة في أفريقيا ومدغشقر وجزر المحيط الهندي التي حصلت فيها على مراكز متعددة وحولتها إلى مستعمرات زراعية، وتفتحت الهند إلى درجة بعيدة وآصبح السبيل ممهدا أمام فرنسا في الشرق الأقصى. وأخذت فرنسا تسير في العمليات الإستعمارية، وهي لا تدري أنها ستصبح دولة مستعمرة وكما نجحت في آسيا والشرق الأقصي، فأنها نجحت كذلك في أمريكا.

٣- فرنسا في أمريكا:

كانت جزر الأنتيل تدخل في نطاق الامبراطورية الاسبانية، ولكن عدد المعمرين بها كان بسيطا إذا ما استثنينا حياتي ربورتوريكو. وكان الانجليز والبولنديين قد تسللوا إلي هذه الجزر، فما الداعي لبقاء الفرنسيين بعيد، خاصة وأنهم كانوا قد تمرنوا مثلهم علي أعمال القرصنة؟ فذهب بعض أهالي الهافر إلي سان كريستوف. وشجع ريشيليو إنشاء شركة سان كريستوف وكلفها بتعمير هذه الجزر واسكانها، ثم شركة الجزر الأمريكية التي تعهدت بالاقامة في جزر الأنتيل التي لا يمثلها المسيحيون وكان ريشيليو يشجع كل ما يمكنه أن يضايق اسبانيا. وشهدت جزر المرتينيك وجواديلوب وسان دومنيك

وغرناطة وتياجو، شيئاً فشيئاً وصول أهالي نورمانديا والبريتانيين وبدأت بذلك حركة الاستعمار منذ سنة ١٦٣٥ .

ولكنها لم تكن حركة جدية. فما أن شعرت شركة الجزر بأنها لا تربح حتي بدأت في بيع جزر الأنتيل الفرنسية. فوقعت هذه الجزر في أيدي بعض النبلاء المستقلين الذين كانوا يشبهون رجال الإقطاع والقراصنة في نفس الوقت، وكانوا رجالا صارمين، ومستعدين دائما للحرب من أجل المجد أو لمجرد التسلية. وكان نشاطهم الرسمي يتلخص في صيد الثيران المتوحشة وأكل لحومها مشويا، وكانوا يبيعون جلود هذه الحيوانات للهولنديين ويعملون في التهريب. وإذا كانوا قد بدأو عملياتهم في إحدي الجزر الصغيرة فأنهم قد انتقلوا بعد ذلك إلي هايتي التي أصبحت تسمي سان دومينكو. وبلغ عددهم فيها أربعة أو خمسة آلاف واستمروا في المتاجرة في الجلود وفي الزراعة وخاصة الطباق. ولقد سوي كولبير مركزهم وأبعد عنهم الهولنديون وشجع زراعة القطن وقصب السكر، كما شجع صناعة السكر، وكلف شركة السنغال بتوريد الأيدي العاملة من الزنوج اللازمين لاستغلال الجزيرة. وأنشأ في سنة ١٦٦٤ شركة الهند الغربية، وكان لها خمسون سفينة واحتكار تام لمدة ٤٠ سنة، وأفادت من معونة حكومية بلغت ثلاثين جنيها عن كل طن من السلع التي تصدر من فرنسا، وأربعين جنيها عن كل طن من البضائع يستورد إلي فرنسا. حقيقة أن الأهالي قد قضي عليهم، لكن تعمير الجزيرة بالبيض والزنوج قد سار بسرعة، وبنفس سرعة التجارة. وأصبحت سان دومينجو لؤلؤة الأنتيل ومستعمرة نموذجية يحلم بها ويمثلها كل الأوربين.

وإذاكانت جزيرة سان كريستوف قد أعطيت للانجليز بمعاهدة أترخت، وجزيرة الصليب المقدس قد بيعت للدانمارك بمبلغ ١٣٨ ألف جنيه، فأن هذه

الخسارة كانت بسيطة. وظلت جزر أمريكا موطنا لإعتزاز فرنسا ببداية عملياتها الإستعمارية وكانت تمثل في بداية القرن ١٨ ما يقرب من نصف تجارة كل الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار، وأمتلأت بعدد كبير من المزارعين ورجال السكر وتجار العبيد سواء أكانوا من نانت أو لاروشيل أو بوردو. وكانت هناك خمسمائة سفينة تربط هذه الجزر بفرنسا وتحمل إليها في كل سنة المواد الغذائية من فرنسا وتعود محملة بالقهوة والكاكاو والنيلة والأخشاب النادرة. وكان السكر مصدراً من مصادر ثروة الأنتيل، وكان يكرر في روان ونيم ومدن اللوار. وقد أهملت المارتينيك كل زراعة المحاصيل الأخري بسبب زراعة قصب السكر. وآشرفت شركة الهند الغربية لمدة عشر سنوات علي هذه التجارة واحتكرتها. ولكن إزدهار الجزر قد سار بسرعة وبشكل لا يمكن شركة واحدة من احتكارها لنفسها. فأعطي الملك حق المتاجرة مع هذه الجزر لكل رعاياه. وأصبح السكر يباع في أنحاء هذه الجزر لمن يرغب، فيقوم بنقله إلي المواني الفرنسية أو يوزعه في الأقاليم المحيطة بالبحر المتوسط وبحر الشمال والبحر البلطي. ولم تكن جزر الأنتيل الفرنسية لا تتاجر في الواقع إلا مع فرنسا، بل كانت تبيع العسل الأسود والروم والقهوة إلي انجلترا الجديدة وتبادلها بالأسماك المملحة والدقيق، وكانت تتاجر مع الانجليز في جامايكا، ومع الهولنديين في مراكزهم وتصدر كذلك إلي أمريكا الإسبانية.

ولقد تمكن بضعة عشرات من أبناء نورمانديا من إنشاء قلعة كايين علي القارة نفسها، في المنطقة الواقعة قريبة من الأمازون والتي اعتقد كثير من المستكشفين في إمكانية عثورهم علي الذهب فيها. وبدأت شركتان في عملية تعمير هذه المنطقة وانخفضت أعدادهم نتيجة للحمي وإغارة الوطنيين عليهم.

ولكن كولبير شجع إحدي الشركات الفرنسية علي مواصلة التجربة، ومرة أخري عملت الفوضي والمجاعات والكمائن المنصوبة علي أنهاء هذه التجربة ورغم ذلك فلم يفقد الفرنسيون الأمل في الإقامة في غيانه، وازدهرت كايين مع شركة الهند الغربية، وواصلت إزدهارها رغم هجمات الانجليز والهولنديين.

أما كندا فلقد تغيب عنها الفرنسيون منذ عهد جاك كارتييه، رغم ينسوا طريقها، فلقد عاد اليها طروبلوس وانزل علي ساحل الابرادور ٦٠ شحاذاً وسجينا قضوا نحبهم جميعا، ثم جاء صامويل دي شميلان وعامل الأهالي معاملة طيبة وأنشأ بورروبال وكويبيك علي نهر سان لوران. وكان ممثلا وياورا الملك فرنسا علي كل المساحات المحيطة بهذا النهر، واستند إلي شركة موربيهان التي كان ريشيليو قد أنشأها لتعمير كندا والتي أصبحت شركة فرنسا الجديدة. وتعهد بتوطين أربعة آلاف كاثوليكي في مدة خمسة عشر سنة في أمريكا الفرنسية التي لم يبلغ عدد سكانها إلي مائتين، منهم عشرن في كويبيك.

وكان هذا المشروع صعبا، خاصة وأن المناخ كان قاسيا وكان الهنود يغيرون علي المستعمرات، كما كان الانجليز يبذلون جدهم لتحطيم المستعمرة وانتزاع أهم جزء منها. ورغم ذلك فقد نشأت قرية عند سفح جبل مونت رويال الذي أعطي اسمه لها فيما بعد وحينما أصبحت مدينة. وكانت هذه الأراضي الشاسعة خاوية وانتشر فيها بعض المعمرين للصيد داخل الغابات ولشراء الفراء ودفع أثمانها بالمشروبات الروحية والبارود، ولكن بعض المزارعين بدأوا في تلقيح الأرض وزراعة القمح والشعير والبقول وتربية الخيل والخنازير. وكان المعمرين يجتمعون في قري محصنة بأسوار من جزوع الأخشاب، دون أن يفكروا في أنها ستتحول فيما بعد إلي مدن كبيرة مزدهرة.

أما سكان فرنسا الجديدة فكانوا قد جمعوا بكل الطرق الممكنة، وخاصة في مقاطعات غرب فرنسا، وشجعوهم ووعدوهم برحلة مجانية كما وعدوهم باعطائهم المساكن وحجج تمليك لأرضهم وشهادات لمن يعمل في المهن وبمساعدتهم في حالات المرض. وكانوا يمنحون خمسين جنيها لكل فتاة تتزوج في كندا، وثلثمائة جنيه لكل أسرة يزيد عدد أطفالها علي عشرة، وبدأت مشروعات التأمين الاجباري والضمان الاسروي في الظهور مع بداية عملية الاستعمار الفرنسي لأمريكا.

وإزداد العمار في كندا، مثلها في ذلك مثل بقية المستعمرات، بمجئ عدد من البنات الساقطات، ومن المجرمين والمغامرين والمنفيين. ولكنها شاهدت كذلك مجئ عدد من المبشرين اليسوعيين الذين أخذوا في الوعظ، وقاموا كلهم باستكشاف السهول المجهولة، وبمواجهة القبائل المعادية ولكن كولبير كان يحتج بأن عدد رجال الدين في كندا كان يفوق عدد المعمرين ولذلك فأنه أرسل آلايا من الجيش الفرنسي، بلغ ١٢٠٠ جندي للاقامة والتوطن في هذه المستعمرة سنة ١٦٦٧ . ولقد ساعدت زيادة نسبة المواليد، أكثر من الهجرة، علي زيادة عدد المعمرين الفرنسيين في كندا، وبعد أن كان عددهم ٥٠ عند موت ريشيليو وصل هذا العدد إلي ٣٥٠٠ عندما بدأ كولبير يهتم بشئون المستعمرات، و ٦٠٠ ألف في وسط القرن الثامن عشر. ورغم ذلك فقد كان عددهم بسيطا لاحتلال كل هذه المساحات الشاسعة ولمواجهة الاهالي، خاصة وأن الانجليز قد بدأوا في تعضيد الأهالي ومساعدتهم لكي يحاربوا الفرنسيين. ولم يكن في وسع كندا أن تواصل نموها إلا بتعضيد فرنسا الكامل لها. ولذلك فإن كولبير قد حولها من سلطة الشركة إلي سلطة الملك وأصبحت فرنسا الجديدة بعد ذلك جزءاً من الممتلكات الملكية. وبنفس وضعية أي

مقاطعة في فرنسا نفسها وأنشأت فرنسا فيها نفس النظم الموجودة لديها من حاكم له إختصاصات عسكرية، إلي مراقب يشرف علي الشئون المدنية. إلي مجلس له سلطات قضائية ويمكنه أن يتحول فيما بعد إلي برلمان. وكان كل ذلك في كويبيك. ولقد نشأت في بعض الأوقات اضطرابات بين الحكام والمراقبين، ولكنهاإنتهت بتركيز السلطة في أيدي حكام أقوياء. وبعد القلقة التي سادت في أول الأمر تركزت الأوضاع. ولم تشهد كندا في مدة ثلاث وأربعين سنة إلا حاكمين إثنين وثلاث مراقبين وبلغ عدد الموظفين الفرنسيين فيها ثلثمائة موظف في أواسط القرن ١٨؛ ولم تكلف هذه المستعمرة ميزانية فرنسا أكثر من نصف مليون جنيه منها ١٥٠ ألف لقوات الجيش الموجودة فيها.

ورغم أن كندا لم تكن تكلف فرنسا كثيراً إلا أنها كانت بعيدة ولم يعثر الفرنسيون فيها علي ذهب أو علي سكر، فلم يتحمس الفرنسيون للذهاب اليها. ورغم ذلك فقد عثر الفرنسيون فيها علي الحديد وأخذوا يصدرون منها الأخشاب، وبشكل جعل ميزانها التجاري متوازناً. ولكن الفرنسيين كانوا يفضلون عليها جزر الأنتيل.

حقيقة أنه كانت هناك بحار من المياه العذبة فيما وراء نهر سان لوران، وكانت هناك سهولا شاسعة إلي الجنوب منها، مع نهر كبير يسير صوب الجنوب وصوب خليج المكسيك. ولقد قامت إحدي الفرق العسكرية باحتلال النقط الاستراتيجية الواقعة عند مضايق البحيرات العظمي والتي نشأت فيها دتروات فيما بعد. وتوغل اليسوعيون والمبشرون صوب الغرب ووصلوا إلي نهاية البحيرة العليا وإلي الجبال الصخرية، كما وصلوا إلي النهر العظيم وهو الميسيسبي الذي سار معه كافالييه دي لاسال وأسس مدينة سان لوي، وبني

نصبا عند مصب هذا النهر كتب عليها اسم لوي الرابع عشر ملك فرنسا ونافار. فما الذي يمنع من إنشاء مستعمرة أخري في هذه المنطقة؟ إنها ليست كندا مع ثلوجها وأشجار الصنوبر المشهورة بها. إنها بلاد أخري تمتلأ بالنخيل وفي جو حار إنها ستصبح لويزيانا فيما بعد.

٤- المضاربة علي المستعمرات:

لقد حصل كافالييه دي لاسال علي أربع سفن لفرنسا وشحنها بمائتين وثمانين معمراً لكي يذهب إلي مصب النهر العظيم في لويزيانا ويؤسس مستعمرة هناك. ولكن الأسطول الصغير وصل إلي منطقة أبعد من التي كان [illegible] سنة ١٦٨٧ ونزل المعمرون علي ساحل آخر، ومات لاسال مقتولا، وكان هذا أول فشل لتعمير لويزيانا.

ووصل ليموان ديبر فيل إلي الميسيسبي الأسفل بعد ٢٠ سنة، وأسس مركزاً علي خليج المكسيك سنة ١٦٩٩ ولكن فرنسا كانت مشغولة في ذلك الوقت بمشكلات تمنعها من الألتفات إلي مستعمراتها البعيدة، فتدهورت أحوال لويزيانا ولم يصل عدد المعمرين فيها إلا ثلثمائة، وكان هذا الفشل الثاني للمستعمرة.

ولكن سرعان ماتنبه الرأي العام إلي لويزيانا وإنتشرت الأخبار بأنها تشتمل علي أكبر مناجم للذهب يمكن تصورها، ولكن دون أن يتأكد أحد من ذلك، وكان ناشر الفكرة هو جون لو.

وكان لو اسكتلنديا نابغا، ووجد في فرنسا في ذلك الوقت حقلا لتجاربه. وكان متقدما علي عصره ونادي بأن التجارة وعدد الأهالي الذين يعتبرون ثروة وقوة الدولة، يعتمدون علي كمية النقود وطرق تداولها. فباصدار العملة يمكن

خلق حركة وأعمال تثري الأمة وأخذ لو في تطبيق هذه النظرية وأسس مصرفا في سنة ١٧١٦ كان له الحق في اصدار أوراق البنكنوت، التي قبلت كنقود لدفع الضرائب، ثم عممت فيما بعد وشملت كل المدفوعات التي تزيد قيمتها علي ٦٠٠ جنيه، فنشأت بذلك الآلة الضرورية للعملية. ثم أخذ لو في الدخول في عمليات جديدة، الوحدة بعد الأخري، ومرتبطة بها، ونشر الأسهم والصكوك بين الجمهور وبشكل جعل الأهالي يقبلون عليها ويكثرون من المضاربة فيها، بل وبشكل جعل النقود المتداولة لا تكفيه لتغطية المدفوعات، وبشكل يتطلب زيادة أوراق العملة، وبالتالي إنخفاض قيمتها، حتي تتمكن من مواجهة المطالب النقدية.

وكانت هذه المشروعات اللازمة للو مشروعات استعمارية، خاصة وأن هذه الأقاليم البعيدة كانت محتاجة لكل شئ، كما كانت الشركات هي آخر بدع العصر، وكان ذلك يسمح بمشاركة الجمهور في هذه العملية أو هذه اللعبة. وكانت هناك لويزيانا التي فشل فيها غيره من قبل، فعرضوها علي لو وبشرط إستخدامه مليونين من الجنيهات لاستعمارها. فقبل الفكرة وقرر إستخدام مائة مليون جنيه مقسمة علي ٢٠٠ ألف سهم قيمة كل منها خمسائة جنيه وكان هذا هو رأس مال شركة الغرب التي حاولت أن تنافس الشركات الهولندية والانجليزية الكبيرة. وكان من الممكن دفع هذه الأسهم من مرتبات الحكومة مما جعل أصحاب الرواتب والمعاشات يؤيدونها كما كانت هذه الأسهم ملكا لحاملها، وكانت هذه البدعة تغري علي التوفير وتجعل الأسهم سهلة التداول.

ولم يتوقف لو عند هذا الحد، خاصة وأنه كان يعلم أنه من الممكن الحجز علي خزانة لويزيانا، وأن الإستعمار لا يعطي غلة إلا بعد فترة طويلة، فاحتاج

إلي السيطرة علي المشروعات الأخري وعلي التوسع في نطاق عملياته فسيطر علي إدارة الطباق بشكل يسمح له بتصريف الدخان الوارد له من أمريكا وبفرض الضرائب علي الدخان الأسباني، كما عمل علي فرض ضرائب عامة علي الملح وعلي تجارة الرقيق وضمن بذلك لنفسه موارد ثابتة كان في أشد الحاجة اليها في أول العملية، وتمكن من تحويل مصرفة إلي بنك ملكي، وذلك بتحويله كل مرتبات الدولة ومعاشاتها إلي أسهم في الشركة. فأصبح يمثل منقذ الخزانة العامة، وسيد المالية العامة في نفس الوقت الذي يسيطر فيه علي قطاع هام من التمويل الخاص.

ولقد سيطرت شركة الغرب علي الشركات الأخري وضمتها إليها وخاصة شركة السنغال، وشركة افريقية، وشركة الصين، وشركة غينيا، وشركة سان دومنجو، وحتي شركة الهند الشرقية. فأصبحت هي نفسها تسمي شركة الهند. وأصبحت تتاجر في السكر وفي التوابل في نفس الوقت، وأصبحت لها السيادة علي الأنتيل وعلي بون دي شيري وسيطرت علي الضرائب وعلي العملة والدخان والمستعمرات.

وكانت هذه الشركة الجديدة للهند بالنسبة للأهالي، هي نفس شركة الغرب، أو بمعني آخر هي الميسيسبي وأصبح الاسم الهندي للنهر العظيم يمثل السراب، وبذل لو كل مجهود للاحتفاظ بهذه الدعاية وإنتشرت الفكرة بوجود كميات كبيرة من الذهب ومن الفضة في لويزيانا وأخذت الدعاية تفرض هذه الفكرة وتنشرها بين الأهالي مستخدمة في ذلك الصور والإعلانات وغيرها. وإنتشرت اللوحات التي تمثل نزول المعمرين إلي بلاد الهنود الحمر وتحيط بهم البنات الهنديات الجميلات الناضجات وكتبت تحتها عبارات تدل علي وجود جبال في الميسيسبى مملوءة بالذهب والفضة والنحاس وأن الأهالي يبيعون قطع

الذهب والفضة ويبدلونها بالسكاكين والقدور وبقطع المرايا الصغيرة أو بالمشروبات الروحية. وإنتشرت الاشاعة بأن كمية المعادن الموجودة في لويزيانا تفوق كمية بوتوسي وقامت الشركة بعرض عشرة من الهنود الحمر في شوارع باريس. كما قامت بتزويج إحدي البنات الهنديات الصغيرات، والجميلات، مع أحد الجنود في كاتدارئية نوتردام. وأعطت هذه الدعاية نتيجتها. وكان في وسع لو أن يكتفي بمثل هذه الدعاية ما دام يؤمن بالخيالات وما دامت الأوراق النقدية يمكنها أن تحل محل الذهب. ولكنه كان مضطراً علي أي حال أن يقوم بعملية لاستعمار لويزيانا، أو كأنها تهدف إستعمارها. فأنشأ مركزاً صغيراً هناك وأرسل بعض المعمرين. ولكن سرعان ما تدهور هذا المركز ونسي الناس هؤلاء المعمرين. ثم قرر لو في سنة ١٧١٩ إرسال عشر سفن إلي لويزيانا تحمل ٧٠٠ جندي و ٥٠٠ متوطن. وجمعوا البنات شبه الساقطات ووعدهن بالعثور علي أزواج أغني مما يتصورون، وملأوا بهن سفينتين. وأخذوا في تزويج السجناء والسجينات في باريس نفسها وأصطحبوهم في حراسة مشددة وأرسلوهم إلي الميسيسبي. وأكمل العاطلون والساقطون والمتشردون هذه المجموعة التي أرسلت إلي لويزيانا. وكانوا يمنحون لمن يتطوع بالذهاب إلي لويزيانا قطعة كبيرة من الأرض وأحد الأسرة وبعض أدوات المطبخ، ويمنحون السماسرة عشرة جنيهات عن كل فرد يرسلونه هناك، أما المرتزقة الذين يعملون في الشركة فكانوا يحصلون علي كسوة زرقاء، وغطاء للرأس موشي بالفضة ويتقاضون جنيها كل يوم.

ولقد إختلط كل ذلك ببعضه في أمريكا ووصلت أعدادهم إلي بضعة آلاف وجاءت إليهم أعداد أخري من الألمان والسويسريين والكنديين الذين اعجبوا بهذا النظام. وأسس حاكم المستعمرة نيو أورليانز علي النهر العظيم

نسبة للوصي علي العرش، ونسبة إلي أن الجنود الذين يعملون هناك قد جاءوا بعدد من البنات من أورليان إلي منطقة الميسيسبي، وأصبحت هذه المدينة هي عاصمة لويزيانا.

وقد إختارت الشركة خط عرض ٤٠ْ شمالاً حداً يفصل لويزيانا عن كندا. وسار المستكشفون شمالا مع روافد الميسيسبي وأنشأ غيرهم القلاع التي حاصرت المستعمرات الإنجليزية من الغرب، وبين لويزيانا وكندا.

وإرتفعت الحمي في باريس مع إرتفاع قيمة الاسهم من ٥٠٠ جنيه إلي ١٠٠٠ إلي ٥٠٠٠ إلي ١٠,٠٠٠ إلي ١٨,٠٠٠ ، فعشرين ألف جنيه. وأضطر لو إلي إصدار أوراق عملة حتي يدعم هذا الارتفاع في الأسعار ويسمح ببيع ٤٠ ألف سهم جديد سنة ١٧١٩, فأصبحت المستعمرات هي دعامة هذه الأسهم، التي كانت بدورها دعامة أوراق النقد، والتي كانت عصب الحياة الاقتصادية، وسارت العملية وتضخم الإدخار، ازدهرت الأشغال العامة ونشأت المصانع، فتغير مظهر فرنسا كله. ولكن الأسعار إرتفعت وأخذ أصحاب الملايين يعيشون معيشة بذخ، وكل ذلك لأن أحد الأسكتلنديين قد تحدث عن لويزيانا وحاول إستغلالها.

ولم تكن هذه البدعة قد سيطرت علي فرنسا كما لم تكن فرنسا هي الدولة الوحيدة التي تركت نفسها تسكر بنشوتها ففي الوقت الذي كانت فيه باريس تضارب علي شركة الميسيسبي كانت لندن تضارب علي شركة بحر الجنوب.

وكانت المالية هي التي تسيطر علي لندن، كما كانت تسيطر علي باريس وإذا كان لو هو محافظ البنك في باريس فإن إسلابي كان وزير المالية في

لندن، ورجل شركة بحر الجنوب وكانت شركة بحر الجنوب قد حصلت بعد معاهدة أوترخت علي احتكار التجارة مع أمريكا الجنوبية واحتكار تجارة الرقيق، وكان عليها أن تورد للمستعمرات الاسبانية ٤٨٠٠ عبد كل سنة ولمدة ثلاثين سنة واضطرت إلي إنشاء عدد من القلاع في بضعة نقط علي الساحل الأمريكي. ولكن الاستعمار لم يكن بالنسبة إليها، كما كان بالنسبة للو، إلا ذريعة من الذرائع. فتحملت كل ديون الدولة وأصبح الملك هو مدير هذه الشركة، كما كان الوصي علي العرش في باريس هو حامي بنك لو. ولقد تضاعفت أسهم شركة بحر الجنوب عشر مرات في سبعة أشهر، ووصلت قيمة السهم إلي ١٠٠٠ جنيه وظل الاقبال عليها كبير، وكانت أوراق العملة التي يصدرها بنك انجلترا هي التي تمول هذه العملية.

وهكذا إزدهرت عملية المضاربة علي الهواء والفراغ، ونضجت الفضائح وعمليات النصب، وشعرت كل أوربا بهذه المضاربات وتأثرت بها فتشبهت فيينا بعمليات لو وأنشأت الشركة الامبراطورية للشرق، كما أخذت امستردام في اللعب علي أثمان الزئبق. وبعد أن مرت العاصفة أخذ الناس في إحصاء الخسائر.

كما إرتفعت درجة الحمي بسرعة، كان لانخفاض سريعاً، وحينما اقترح لو علي حملة الأسهم في باريس ربحا يصل إلي ٤٠٪ من المبلغ الأصلي وهو خمسائة جنيه، كان في واقع الأمر لا يدفع إلا ١٪ من أسهم وصل ثمنها إلي ٢٠ ألف جنيه. فاكتشفت الناس الحقيقة.

وكان التأثير علي الميسيسبي سريعا كذلك وإنتشرت الاشاعات السيئة أسرع من إنتشار الدعاية المغرية، وذكرت قتل ١٥٠٠ من المعمرين وإنتشرت

في الأسواق صور أخري، مطبوعة في هولندا تمثل إحدي الصحاري ومكتوب تحتها منظر الميسيسبي وأخذ الناس يستهزءون بلو وبالنظام الذي أنشأه وأخذوا يبيعون الأسهم لكي يحصلوا علي أوراق نقدية، ويبدلون الأوراق النقدية بقطع العملة الذهبية.

ولم يزد عدد العمرين في لويزيانا أثناء هذا التقهقر أكثر مما كان عليه أثناء الازدهار، وحتي إذا كانت هذه الأراضي تبشر بمستقبل، فلم يكن في وسعها تحقيق وعود لو في ذلك الوقت، ولقد قام منافسوا فرنسا في الميدان الاستعماري بدورهم في تحطيم هذه العملية، وخاصة الانجليز الذين كانوا يخشون علي ممتلكاتهم الأمريكية فطلبوا من الوصي علي العرش عزل لو، كما ضغطوا علي قيمة أسهم الميسيسبي في البورصة. ولقد حاول لو أن ينقذ الموقف ولكن دون جدوي، فضم البنك إلي الشركة ثم منع أي مدفوعات بقطع العملة المعدنية، وفرض أوراق العملة الكبيرة علي السوق ولكن كل ذلك لم يؤدي إلي نتيجة إيجابية، واستمر انهيار قيمة الأسهم، وعزف الناس عن أوراق العملة، واضطر لو إلي الهرب. ولكن الانجليز قد عملوا علي هز شركة البحر الجنوبي من أساسها بنفس العملية التي حاولو بها افلاس شركة الميسيسبي، وكانت هذه الشركة الانجليزية قد قامت ببعض العمليات التي مهدت للوصول إلي نفس النتيجة، فشاهدت انهيار قيمة أسهمها بعد بضعة أسابيع من انهيار شركة الميسيسبي سنة ١٧٢٠ ونزلت قيمة أسهمها من ١٠٠٠ جنيه للسهم إلي ٣٠٠ ثم إلي ١٣٥ جنيه. فأفلس آلاف من الانجليز واتهم في ذلك عدد من وزراء بريطانيا.

ورغم كل ذلك فإن هذه التغييرات قد أعطت بعد النتائج الإيجابية: ذلك أن لو قد حرر تجارة السكر في الانتيل، وبدأ عملية تعمير في لويزيانا. ورغم

انهيار هذا النظام فأن فرنسا قد احتفظت بشركة الهند وأعادت تنظيمها وأخضعتها لاشراف مجلس حتي تتمكن من مواصلة أعمالها.

وهكذا انتصرت الدولة علي المشروعات الخاصة وعلي الشركات التي كانت قد سيطرت عليها من قبل.

أما في إنجليزا فأن والبول قد أنقذ شركة بحر الجنوب، وكان قد عمل في المضاربة في أسهمها، وباع ما يمتلكه منها بأغلي ثمن، فكان رجلا حازما. كما أنه قد فضح أخطار هذه العملية، وأثبت بذلك ذكائه. وسارت لندن وراءه فلم يؤثر الانهيار علي العمليات المصرفية ولا علي العمليات الاستعمارية وذلك علي عكس فرنسا التي أهتز الرأي العام فيها بعد عملية تدهور القيمة النقدية، فأخذ يحذر من أوراق العملة وبشكل حرم الإقتصاد الفرنسي من وسائل عمله، كما حذر العمليات الاستعمارية ، فيما عدا جزر الأنتيل. وإنتشر في فرنسا في ذلك الوقت اتجاه ينادي بعدم الإلتفات إلي المشروعات البعيدة سواء لويزيانا أو كندا أو حتي الهند، والألتفات إلي فرنسا نفسها. وأثر هذا الاتجاه المختلف في كل من فرنسا وإنجلترا علي المستقبل الاستعماري لكل من هاتين الدولتين.

الفصل الثالث عشر

الروح التجارية

كانت المضاربة وإنتشارها عملية عارضة في تاريخ الشركات الاستعمارية أما الاستعمار فقد ظل خاضعا، لمدة قرنين لنظرية تربطه ربطا وثيقا بالمصالح الوطنية. أما من الناحية السياسية فقد هدفت الروح التجارية إلي تنافس هولندا علي البحار من ناحية، وتنافس اسبانيا بريا من ناحية أخري، مادامت الأراضي المنخفضة كانت تسيطر علي التجارة، واسبانيا تسيطر علي المستعمرات. فاذا ما تركت الدول نفسها لتمكنت أمستردام من احتكار الملاحة، وتمكنت مدريد من احتكار الملكية. ولذلك فإن الروح التجارية كانت تهدف تحطيم هذين الاحتكارين. أما من الناحية المالية فنلاحظ أن الثروة كانت تقاس بكمية المعادن التي تمتلكها كل دولة، ولذلك فقد كان من اللازم زيادة هذه الكمية، وذلك بتقليل الاستيراد وزيادة التصدير، بل يمكننا أن نقول أنه كان من اللازم تقليل المشتروات من الأدوات المصنوعة وزيادة المبيعات من هذه المصنوعات لأكبر درجة ممكنة. ولذلك فقد كان من اللازم فرض ضرائب جمركية ومنع دخول المصنوعات الوطنية عن طريق معونات مالية. وكان يعني ذلك حماية الصناعات الوطنية وحتي منتجات المستعمرات، وإبعاد المنافسة، والحصول علي أسواق أجنبية فكانت العملية إذاً تسير حسب المبدأ القائل بأن ما لدي لا يخص جيراني، أي أن الدولة تقوم بتجارتها بمفردها، وعلي سفنها وتحتفظ بالسيطرة علي النقل. وكان عليها أن تمول وحدها أملاكها أي أن تصبح المسيطر الوحيد علي التوريد. وتصبح كذلك العميل الوحيد.

وكانت اسبانيا قد سارت علي هذه المبادئ وصوب هذه الأهداف منذ أول نشأة امبراطوريتها، وجاءت الدول الأخري لكي تطبق نفس العملية وشعرت

بأنها عملية طبيعية. ولكن رجال الاقتصاد الذين جاؤا بعد فترة من الزمن ورغبوا في تصنيف السياسات الاقتصادية، سموا هذه الرغبة في تكديس المعادن الثمينة، وسيطرت الدولة علي الميزان التجاري بالروح التجارية أو المذهب التجاري. وحاولوا بذلك أن يخلقوا نظرية ثابتة من هذا النظام النسبي، وسيهاجمونه بشدة خاصة وأنهم هم الذين قاموا بتنفيذه.

والحقيقة هي أن رجال الإقتصاد لم يتأثروا بالدعاية حول كميات الاحتياطي الموجودة من المعادن في هذا الوقت، كما أنهم لم يحاولوا إقفال أسواقهم الوطنية وفصلها تماما عن الأسواق الأخري، فنجد أن مون كرتيان يذكر أن إزدياد الذهب أو الفضة ليس هو العامل الذي ينشأ دولا غنية وأن منابع الثروة الطبيعية والحقيقية والتي لا تنتهي هي القمح والنبيذ والملح والصوف والكتان. أما كولبير فأنه قد أصر علي أن العمل هو مصدر كل تقدم روحي وعلماني.

والواقع أن عصر الروح التجارية قد دفع السيطرة التامة إلي أقصي مدي وقام الهولنديون فيه بعمل خرائط خاطئة لابعاد منافسيهم عن طريق للهند، كما قام أحد القباطين الهولنديين باغراق سفينة حتي لاتقع في أيدي مطارديها فيعرفون طريق ملاحتها، كما قامت الشركة الهولندية للهند بمنع رجالها من الاحتفاظ بأقل مذكرة يمكنها أن تساعد البحارة الأجانب في الذهاب إلي أندونيسيا. والواقع أن هذه الرغبة في الاحتفاظ بالسر وبالاحتكار قد تظهر وكأنها متطرفة، ولكنها كانت في الواقع تتمشي مع تقاليد قرطاجة القديمة.

وكان من الطبيعي أن نجد عذرا لانجلترا حين تطبق سياسة الامتيازات والاحتكار، وأنها كانت دولة صغيرة بدأت في شق طريقها في البحار وصوب

الإستعمار، وواجهت دولا قوية ثابتة في هذا الميدان مثل هولندا وإسبانيا. ولقد نصح توماس مان بزيادة فائض الميزان المالي، وقام تشايلد باعتبار نهضة البحرية التجارية كأضمن وسيلة للوصول إلي هذا الهدف. فقامت الملكة اليزابيث بمنع وصول واردات كثيرة وأجبرت الأهالي علي إرتداء القبعات الانجليزية. وقام كرومبل بعدها بعرض قانون الملاحة علي البرلمان ونجح في موافقته عليه في سنة ١٦٥١، وكان هذا القانون يحتفظ للسفن الانجليزية ولسفن البلاد المنتجة بالدخول إلي الموانىء الانجليزية، أي أنه كان في نفس الوقت يحرم السفن الهولندية من الوصول إلي هذه الموانئ، أما منتجات المستعمرات فإن هذا القانون قد احتفظ بحق استيرادها للسفن الانجليزية وحدها. وكذلك المستعمرات الانجليزية لم يكن من حقها إستلام بضائع إلا إذا كانت منقولة علي سفن انجليزية وتأتي من انجلترا. ولقد أصبح قانون الملاحة دستوراً للتجارة البريطانية ومثلاً لسياسة المذهب التجاري. ولقد دعمته لندن بعملية معونات للتصدير وبمنعها لدخول بعض المنتجات الأجنبية، مثل المنسوجات الفرنسية. كما منعت تصدير الصوف لكي تحتفظ بهذه المادة الخام للصناعة المحلية. وذهبت انجلترا في ذلك إلي حد منعها قص أصواف الغنم في مسافة ٥ أميال من الساحل حتي تتأكد من عدم تهريب الصوف الخام إلي الخارج.

وكان هذا النظام يعطي المستعمرات حماية خاصة، ومجالا واحدا للبيع. واحتفظت انجلترا لنفسها بالطباق والسكر والقطن والنيلة المنتجة في مستعمراتها الامريكية، ومنعت علي نفسها زراعة الطباق حتي لا تنافس مستعمراتها في ذلك ولكنها حرمت علي هذه المستعمرات تحويل هذه المنتجات صناعيا كما حرمت عليها كل تجارة مباشرة مع الخارج. وكان في ذلك أكبر اغراء للعمل في التهريب.

ولقد سارت فرنسا علي نفس هذه السياسة. وقام كولبير بانشاء هذا النوع من الاحتكار الاستعماري لكي يحصل علي مواد المستعمرات دون أن يفقر فرنسا ولكي يوسع سوق المنتجات الوطنية. ولكنه وضع المستعمرات بهذا النظام في مرتبة المقاطعات الفرنسية الداخلية، ومنع عليها كل صلة مع الخارج ووجههم صوب التخلص من الأجانب وطردهم، وحرية العمل لكل الفرنسيين. وهكذا أصبحت المستعمرة أرض صيد خاصة وأصبحت ملكا للدولة المستعمرة حتي يمكنها أن تصبح عملية مربحة.

ولقد طبقت الدول نفس التطرف في المبدأ علي عمليات النقل التي كانت حكراً للدول المستعمرة. وقام الفرنسيون بمصادرة كل سفينة أجنبية ترسو أمام الجزر أو تقلع أمام السواحل، وكانت عقوبة بحارتها تصل إلي السجن لمدة ستة أشهر وعقوبة قبوداتها تصل إلي ثلاث سنوات من التجديف الاجباري في السفن الفرنسية وعقوبة المعمرين الذين يتعاملون مع هذه السفن هي غرامة تبلغ خمسمائة جنيه.

وكانت قسوة هذا المذهب التجاري تتفق مع روح العصر وروح القوميات الناشئة. ونتج عن هذه السياسة نمو قوة بريطانيا البحرية وتفوقها علي قوة الأراضي المنخفضة، وحصولها علي أول أسطول في العالم، وبنائها لامبراطورية إستعمارية كبيرة أما فرنسا فإنها قد أعادت بناء أسطولها في عصر كولبير، وبلغت مرحلة من الازدهار التجاري الواضحة في عصر لوي الخامس عشر، نتيجة لسيطرتها علي الجزر، وإذا كانت الروح التجارية قد أعطت بعض الضحايا فإنها كانت تتمثل في إسبانيا الذي تحول نظام الاحتكار فيها إلي نظام تهريب، وفي الأراضي المنخفضة التي لم تتمكن من الاحتفاظ باحتكارها للمناطق الواقعة فيما وراء البحار.

وكانت هناك كثير من الاختلافات بين المبدأ والتطبيق الذي لم يكن صارماً مثل صرامة المبدأ، فكانت هناك كثيراً من الاستثناءات وكثيراً من التحايل لتقليل صرامة الاحتكار. بل لقد تطور هذا المبدأ نفسه وادخل عليه كثير من التعديل الذي قلل من صرامته. ولم يكن كل الرجال الذين قاموا بتطبيقه يمثلون نفس الاتجاه، فكان التوري في انجلترا أقل اصراراً علي الحماية من الوجو ونادوا بأن تشريعات الدولة لا يمكنها أن تغني البلاد وأنه كلما كان تدخل الحكومة في التجارة أقل؛ كان يجمع نواب الموانى وبعض كبار الموظفين فقد عمل ضد اتجاه كولبير. ولم تكن السياسة التجارية في ذلك العصر بناءا صارما جامدا. لقد كان هذا المذهب يعني سيطرة الدولة، ولكن اعطاء عملية الاستعمار لشركات خاصة كان يعني عدم ترك كل شئ للدولة. وكانت الامتيازات الممنوحة للشركات تمنع كل منافسة، ولكن ذلك لم يكن بشكل نهائي خاصة وأن الحرية قد عادت إلي التجارة الفرنسية في كندا ثم الأنتيل. ولم تكن الرغبة في الحصول علي الذهب تمنع التجارة مع البلاد التي تبيع أكثر مما تشتري، خاصة وأن الغرب كان يتاجر مع الهند التي كانت تتجمع فيها كميات كبيرة من المعادن الثمينة وبشكل جعل أوربا تنزف ذهب أمريكا، لكي تغني به الهند. ولكن أحدا لم يكن يجبر أوربا علي ذلك، كما كانت الدول الأوربية تربح من جديد بتجارتها بين آسيا وآسيا بتجارتها في أمريكا.

والواقع أن العصر التجاري كان يشتمل علي بعض التسامح، فقامت المستعمرات باستقبال سفن الأجانب ومنتجاتهم بمجرد أن يصل أحد أفراد أسرة البوربون إلي عرش مدريد. وحصلت فرنسا علي حق التجارة في كل الامبراطورية الأسبانية كما حصلت انجلترا بمعاهدة أوترخت علي حق ارسال سفينة في كل عام إلي الممتلكات الاسبانية في أمريكا الجنوبية وكانت ترسلها

محملة بالسلع. ولكنها كانت مصحوبة بأسطول يعيد ملأها بالبضائع بعد كل عملية تفريغ في أحد الموانى. كما قامت البرتغال باعطاء انجلترا حق المتاجرة مع البرازيل، وقبلت فرنسا اللحوم في الأنتيل فلم يكن الاحتكار صارما وتاما.

ولم يكن من حق المستعمرات أن تبيع من حيث المبدأ إلا للدولة المستعمرة ولكنا نلاحظ أن كارولينا الجنوبية، ومن بعدها جزر الأنتيل الانجليزية تصرف أرزها مباشرة في بلاد أوربا الجنوبية. وتمكنت نفس هذه الجزر الانجليزية من المتاجرة رأسا مع أمريكا الشمالية ومع جزر الانتيل الفرنسية. وقامت جزر الأنتيل الفرنسية بدورها ببيع القهوة والعسل الأسود والروم إلي انجلترا الجديدة. كما قامت المارتينيك بالتجارة مع أمريكا الاسبانية، وخرجت تجارة الفلبين في معظمها من أيدي الاسبان.

وهكذا تظهر الروح التجارية والمذهب التجاري كمرحلة طبيعية في تاريخ الشعوب وتاريخ الاستعمار، مرحلة تحاول الإنسانية أن تعود اليها كلما بحثت عن توازن جديد. وإذا كانت هذه النظرية تحاول الحصول علي كل شئ، فإنها لم تكن إلا شكلا سهلا، وأكثر سلما من غيرها من أشكال التنافس الدولي. وكانت تمثل في الميدان التجاري حربا وقائية، وكانت في ذلك أقل وحشية من الحروب المسلحة الدموية.

ورغم ذلك فإن الإصطدامات كانت كثيرة، وأثرت في المستعمرات. وتمثل هذه الحروب قائمة طويلة معقدة وتشبه حرب مستمرة.

وهناك الحروب الهولندية البرتغالية، والهولندية الاسبانية التي تمكنت بها الأراضي المنخفضة من إنشاء امبراطوريتها، وعلي حساب البرتغال.

وهناك الحروب الإنجليزية الهولندية التي وقفت فيها لندن ضد امستردام والشركات ضد الشركات الأخري وتمكن الهولنديون من طرد الإنجليز من منطقة التوابل، وقام الانجليز بطرد الهولنديون من أمريكا الشمالية. ولم ينتهي هذا الصراع إلا بعد وصول أسرة أورانج وتربعها علي عرش إنجلترا.

وهناك الحروب الفرنسية الهولندية. فلقد قام الهولنديون باحراق السفن والبحارة الفرنسيين في أندونيسيا حتي يمنعونهم من العودة إليها، فقام لوي الرابع عشر بتغيير المعركة بطريقته.

وهناك الحروب الانجليزية الإسبانية التي واجه فيها بحارة كل دولة بحارة الدولة الأخري منذ عهد الارمادا. ووقعت عمليات الهجوم والسلب في جمايكا وهندوراس وجبل طارق، كما اشتبك المعمرون من الدولتين في معارك علي حدود فلوريدا وجورجيا.

وهناك حروب فرنسية انجليزية مع حرب الوراثة الإسبانية وحرب الوراثة النمساوية، وكانت كل الفرص تسمح باصطدام هاتين الدولتين وهما يسعيان إلي التفوق وإلي السيطرة. وكم من جزر الأنتيل من غير ملكيته من دولة إلي أخري. وإستولي الانجليز علي كويبيك ثم سلموها واحتفظوا بنيوفوندلاند. وإستولي الفرنسيون علي مدراس ثم سلموها، وإستمر التنافس.

ورغم كل ذلك فإن هذا الاصطدام لم يعبئ إلا قوة بسيطة من كل هذه الدول، ولم يؤثر علي مجموع الشعب. ولقد تمكنت الشركات نفسها في بعض الحالات من البقاء علي الحياد في وقت الإصطدام بين الدول. وربما كان هذا الموقف غريبا إذا كان الإستعمار سياسي، ولكن الإستعمار التجاري كان لا يهتم بالأراضي والأقاليم مثل إهتمامه بالتجارة، وكان يهتم بالإستراتيجية

أقل من إهتمامه بالأرباح، ولم يكن أي نصر حربي يعنيه إلا بذلك القدر الذي يزيد فيه من ميزانيته الإجتماعية أو المالية.

٢- اليسوعيون في بارجواي:

لقد ظهر في العصر الذي تختلط فيه السياسة الاستعمارية مع السياسة التجارية نوع جديد من الاستعمار لم يكن له أي مصلحة تجارية، أو الذي كان يخضع هذه المصلحة لطموح أكثر سموا. ولقد قامت به جماعة اليسوعيين التي عملت في بارجواي لإعلاء مجد الله.

وكانت باراجواي تمثل نهراً كبيراً ينتهي عند ريودي لابلاتا. وكان الإسبانيون قد تعرفوا علي ضفتيه وأخضعوها لسلطتهم ، وكان البرتغاليون جيرانه المشاغبين. وشهد إقليم باراجواي وهو في قلب قارة أمريكا اللاتينية مشروعا إستعماريا غريبا.

وعلينا قبل أن نروي القصة أن نرسم صورة لأمريكا التي كانت تتقاسمها الدولتان الأيبيريتان. فكانت البرتغال بعد أن تخلصت من السيطرة الإسبانية قد حصلت علي إستقلالها دون أن تحصل علي ممتلكاتها الخارجية. وكان عليها أن تعيد غزو البرازيل وتستخلصها من أيدي الهولنديين، وقبلت لذلك أن تدخل إليها التجارة الانجليزية فأصبحت البرازيل قاعدة للعمليات البريطانية في أمريكا الإسبانية ومركزاً للتجارة في المنطقة . وساعدت عمليات التهريب علي تقدم عمليات الكشوف الجغرافية، ووصل المستكشفون في الأمازون حتي ريو نجرو، وتأسست المدن حول الهضبة الداخلية بعيدا عن الساحل وقام البرتغاليون بإنشاء مستعمرة سكرا منتو في جنوب البرازيل بين نهر أورجواي ولابلاتا والبحر وقاموا بزراعتها بمساعدة الزنوج المستوردين من

افريقية، واكتشف البرتغاليون مناجم للذهب والماس في إحدي المناطق الجبلية الأخري للبرازيل والتي جعلت من البرازيل أكبر اقليم منتج للذهب في العالم، فعاد إلي لشبونة بعضا من هيبتها السابقة وأخذت تهتم باقليم باراجواي.

أما أمريكا الإسبانية فأنها لم تتغير كثيرا، بل ظلت تمثل تلك الإمبراطورية الشاسعة التي تحكمها مدريد دون أي منافس ولم يصل إليها أحد غير الهولنديين والفرنسيين عند أطرافها في غيانا، وجيرانها البرتغاليون من الشرق. وحينما أخذت أحوال قشتالة في التدهور زادت الأطماع الأجنبية حول ميراثها. ولكن هؤلاء المنافسين كانوا يعادلون الواحد الآخر. فقد قامت فرنسا والنمسا بالاتفاق علي التقسيم وعين لوي الرابع عشر أحد أفراد أسرة البوربون في مدريد وتقاتلت أوربا من أجل الاحتفاظ بالأراضي الاسبانية. ولكن انجلترا كانت تراقب ثم حاربت وساومت وإنتهي الأمر سنة ١٧١٣ باحتفاظ مدريد بأمريكتها.

ولقد إنخفض إنتاج المعادن في المناجم، ولكن إصلاح الأراضي وزراعتها كان يعوض فقر المناجم. وإزدهرت الكروم وأشجار الزيتون وإنتشرت زراعة الحبوب والطباق. ولكن هذه التجارة كانت مربحة للأجانب أكثر من ربحها لاسبانيا التي اضطرت إلي نقل مركز إدارتها التجارية من أشبيلية إلي قادس وتخلصت من نظام الأساطيل التجارية، وسمحت للأفراد بارسال سفنهم إلي أمريكا بعد أن يقوموا بتسجيلها لديها. ولقد اقتبست أسبانيا نظام الشركات التجارية فقامت إحدي هذه الشركات باستغلال فنزويلا ونقل الكاكاو من كراكاس إلي سباستيان، كما قامت شركة هافانا الملكية بنقل العبيد إلي كوبا، في الوقت الذي حاولت فيه شركة الفلبين منافسة الهولنديين فى المحيط الهادى. ولقد أدت عملية الاستكشافات، إلى القضاء على كثير من الغموض

الذى كان يحيط بالعالم الجديد فى الوقت الذى مدت فيه الإحتلال الاسبانى فى كل إتجاه ومع كل العناصر ومنهم اليسوعيون والفرنسسكانيون. وثبت الاسبانيون الهنود فى أماكنهم فى الوقت الذى حصلوا فيه علي مقاطعات جديدة لمزروعاتهم ومزارعهم.

وكان عدد سكان أمريكا الاسبانية يتراوح بين عشرة واثني عشرة مليونا من الأهالي وكانت الوظائف العامة العالية محجوزة للاسبانيين المولودين في اسبانيا، والوظائف الصغيرة محفوظة للاسبانيين المولودين في أمريكا. ويجئ بعد هذه الطبقات الحاكمة عناصر المخلطين من البيض والهنود وعناصر المخلطين من البيض والزنوج ثم الهنود ثم الزنوج الذين يعيشون معيشة خاصة. ولقد ظلت أمريكا محكومة علي أنها مقاطعات اسبانية، وكان هناك نائب لذلك في مكسيكو وآخر في ليما، ثم أنشأت اسبانيا منصبا ثالثا في غرناطة الجديدة، ورابعا في لابلاتا «بونس ايرس»، وعمل شارل الثالث علي زيادة السلطة الملكية بتقسيمه هذه النيابات الأربعة إلي اقاليم، وعين مشرفا علي رأس كل اقليم علاوة علي الحاكم وإلي جواره محكمة. وكان وزير الهند، ومجلس الهند يراقب أمريكا من مدريد، وبشكل مركزي، وكثيرا ما ثار الأهالي ولكنهم كانوا مسالمين غالبيتهم.

وأخضعت اسبانيا بهذه الطريقة امبراطورية شاسعة وبعدد بسيط من الحاميات، إذ لم يزد عدد قواتها في أمريكا الجنوبية علي عشرة آلاف رجل.

وفي هذا الجو قامت تجربة اليسوعيين في باراجواي وكانت بعثاتهم منتشرة في كل العالم من الصين إلي فنزويلا. أما تجربتهم في باراجواي فكانت استعمارية مادامت قد إنتهت بإنشاء دولة وحققت إنشاء جمهورية

ثيوقراطية. ولقد استند اليسوعيون إلي المرسومات الملكية التي منحتهم منطقة ساشعة بين البرازيل وشيلي ووصلوا إلي باراجواي وهم مصممين علي انتزاع الهنود من قبضة جماعات العمل الاجباري . وكان هنود هذه المنطقة مسالمين مما يسهل عمل المستعمرين من الناحية الحربية، ويصعبه من الناحية الاقتصادية. ولقد وجد اليسوعيون أمامهم ١٢٠ ألف من الهنود «الكفار» الذين كان عليهم أن يكسبوهم إلي المسيحية ويعلمونهم العمل ويقومون بحمايتهم والدفاع عنهم ولذلك فإن اليسوعيين قد حرموا دخول باراجواي علي الاسبانيين وعلي البرتغاليين.

وبدأ اليسوعيون بجمع الهنود في قري حتي يتمكنوا من تحويلهم إلي المسيحية والعمل علي كسبهم للمدنية، فأنشأوا ثلاثين قرية تخضع كلها لكبير الجماعة. وكانت كل قرية تتمركز حول كنيسة وحول ميدان مستطيل تحده من أحد الجوانب المدافن، ومن الجانب الآخر المدرسة وتحيط به أكواخ الهنود، وكانت القرية مركزا تعيش فيه الآباء اليسوعيون. وكان الهنود يحكمون أنفسهم بأنفسهم وينتخبون الموظفين العموميين للقرية، ولكن الآباء اليسوعيين كانوا يراجعون أسماء المرشحين ويوافقون عليها قبل الانتخابات ويبعدون العناصر غير المرغوب فيها.

أما الإنتخابات فكانت علنية، أي أنها كانت ديموقراطية في ظل دكتاتورية مقنعة. ولم يكن اليسوعيون إلا عبارة عن مستشارين من حيث المبدأ، ولكنهم كانوا في الواقع سادة مطلقين. وكان هناك في كل قرية أحد الاخوان لتعليم فنون الزراعة والآلات وإلي جواره أحد القسس للقيام بالصلوات. وكانوا يسيطرون علي كل الهنود الحمر.

أما الأراضي المحيطة فكانت تنقسم إلي قسمين: الأول عبارة عن مراعي ومزارع للجماعة، والثاني مقسم إلي قطع لكل أسرة. أما المنازل والبهائم والأدوات فكانت ملكا للجماعة، ولا يملك الفرد إلا الدواجن.

وكان العمل اليومي منظما علي طريقة الأديرة ومقسما بدقات الناقوس وبالصلوات فهناك النواقيس في الصباح للنهوض، وهناك النواقيس مع الشروق للصلاة، ثم يذهب كل إلي عمله سواء إلي الحقل أو إلي المصنع أو إلي المدرسة في التاسعة صباحا، وعند الظهر الغذاء والراحة لمدة ساعتين وبعد العمل في المساء يعود الهنود للكنيسة، وتدق النواقيس في منتصف الليل «لليقظة الزوجية» إذ أنه يظهر بأن هؤلاء الهنود الحمر لم يكونوا غيورين علي العمل من أجل زيادة نسلهم، وأعتقد اليسوعيون ذلك علي الأقل.

وإذا كان الوقت مقسما بهذه الطريقة. فإن الأعمال كانت موزعة حسب الرغبات. وكان لكل فرد نصيب يساوي نصيب أخيه في الإنتاج، الذي يقوم القسيس بتوزيعه. وكان الهندي يعمل ثلاثة أيام في كل أسبوع من أجل الجماعة والثلاثة أيام الأخري من أجل أسرته. أما يوم الأحد فكان هناك الرقص واللعب والموسيقي ومسابقة الثيران أو التمرن علي الاستعراض، وبإشراف أحد الآباء الجزويت، وكان علي الهنود بعد المناورات أن يعيدوا أسلحتهم إلي مخازن السلاح.

فهل كان هذا النظام موجها أو بدائيا؟ إنه كان نظاما يخضع للتوجيه الأبوي، وتوجيه علي أطفال سذج وكان العمل إجباريا، ولمدة ثلاثين ساعة كل أسبوع أما من لا يرغب في العمل فكان الآباء يوبخونه أو يعاقبونه بالصيام أو بخمسة وعشرين جلدة أو بالسجن، ولقد عمل هذا النظام علي تغيير حياة

الهنود البدائية المتوحشة، فتركوا تعدد الزوجات، وتعلموا بعض العلوم. ولكنهم كانوا يتعلمون بلغتهم الوطنية، وبشكل جعلهم يجهلون الاسبانية. أما الأطفال المتقدمين فكانوا يتعلمون اللاتينية، رغم أن اليسوعيين عملوا علي عدم تكوين كثير من المثقفين من بين الهنود، وعلموهم الحراثة بذر البذور والحصاد والبناء.

وازدهرت باراجواي وزاد عدد سكانها، وأصبح ٤٠٠ ألف هندي ينتجون الحبوب والقطن والشعير. وكانوا يبيعون الفائض عنهم في بونس ايرس التي كانوا يشترون منها ما يلزمهم من مواد تموين وأسلحة وملابس وأواني، وهي الأدوات التي لم يكونوا يصنعونها بأنفسهم. وكانوا يبيعون أكثر مما يشترون، وتمكنوا بذلك من أن يدفعوا الضريبة المتفق عليها إلي ملك اسبانيا بسهولة، وكانت قرشا واحداً، أو بيسيتا واحدة عن كل رأس في كل عام.

ولم تكن باراجواي جنة من الجنات، بل كانت تشبه إلي حد كبير المعسكرات والأديرة، فقد كانت هناك المساواة المطلقة في المساكن والملابس والطعام، ولم تكن هناك نقود، وكان العلاج مجانيا. ولكنها لم تعرف معنى الحرية، ومن أول حرية العقيدة، وحرية عدم القيام بأي عمل. وكان الجزويت قد أدخلوا الهنود في كتائبهم وأخضعوهم لرئاستهم البطريركية بدعوي تخليصهم من عبودية جماعات العمل الاجبارية، وربما ندم الهنود علي غاباتهم وحياتهم البدائية فيها دون دق النوافيس، ودون حرث الأرض، خاصة وأن المنتجات كانت تباع في الخارج.

ولم تكن حياة هؤلاء اليسوعيون هادئة طول الوقت، خاصة وأن سكان سان باولو كانوا يغيرون من وقت إلي آخر، وكانوا يهدمون قري اليسوعيون

ويجبرون الأهالي علي الهرب في رواقهم صوب الداخل وصوب الغابات الاستوائية. وكان هناك الاسبانيون، الذين أقاموا جماعات العمل الإجباري والذين كانوا يرغبون في الحصول علي ممتلكات الهنود الحمر وثرواتهم. وحتي كنيسة «الصعود» الاسبانية كانت تنافس الآباء اليسوعيين، واتهمت بونس إيرس هؤلاء الآباء باستغلال الهنود وبتكديس الأرباح، كما قامت حركة بين الفلاسفة ورجال الفكر في مدريد، وعملت علي فضح طغيان اليسوعيين. أما الانجليز فكانوا يأسفون لهذه الدولة التي كان وجودها يمنع التهريب، وقاموا بالنزول في مستعمرة سكر امنتو البرتغالية، حتي يمنعوا إمتدادها إلي شيلي وإلي بيرو.

ولقد شعر اليسوعيون بهذه الأخطار، فبدأوا في تدعيم مراكزهم، وقاموا في أيام الأحد بتدريب رجالهم علي حمل السلاح. ووصل عدد جيشهم إلي مائة ألف رجل، وكان لهذا الجيش مدفعية صنعت بأيدي الهنود، وقام البرتغاليون تحت ضغط الانجليز باقتراح مبادلة سكر امنتو مع اسبانيا نظير إعطائهم سبع قري أو مستعمرات يسوعية في باراجواي، وقام اليسوعيون بتوسيط تجار قادس والموظفين الاسبانيين في أمريكا، وأصدقائهم في مدريد، حتي يدافعوا عن أنفسهم ولكن روما أصدرت أمرها سنة ١٥٧٠ وكان علي اليسوعيين احترام هذا الأمر، رغم أن معظم الهنود الحمر في هذه القري قد أخلوها وتركوها إلي قري اليسوعيين الأخري، وكان عددها ثلاثة وعشرين. وأمتد أجل مشروع اليسوعيين، ولكن لفترة قصيرة.

٢- أوربا الشمالية:

لم تكن الهند الغربية، والهند الشرقية هي كل شئ في العالم، كما لم يكن عالم أوربا هو الوحيد الذي يمكنه أن يقوم بالاستعمار. وإذا كان نشاط

غرب أوربا قد تفوق في هذا العصر في مناطق معينة من العالم فأنه لم يطرق مناطق أخري لكي تقوم شعوب أخري باستعمارها.

ويمكننا أن نبدأ بذكر بعض المشروعات الصغيرة التي قامت بها البلاد الاسكندنيافية مثلا، ففي الوقت الذي تمام فيه تجار كوبنهاجن باحتكار التجارة مع ايسلندا، والتي قامت فيه شركة دانمركية باستعمار جرينلاند، ويمنع وصول الأجانب اليها، قامت الدانمارك بشراء مركز ترنكبار من أحد راجات الهند، وسلمته إلي بضع شركات للقيام باستغلاله؛ دون أن تربح من ذلك الكثير. واحتفظت الشركة الدانمركية للهند الغربية بجزر سان توما وسان جان في الأنتيل وقامت بزراعتها. واشترت الدانمارك بعد ذلك من فرنسا جزيرة الصليب المقدس المعروفة بخصبها. وأصبحت كل هذه الجزر مراكز للتهريب.

أما السويد فكانت قد بدأت عملياتها في أمريكا. وقام المعمرون الذين أرسلتهم الشركة السويدية للهند الغربية بشراء الأراضي علي ضفاف ديلاوز وبنوا إحدي القلاع وحاولوا تعليم الهنود الحمر. ولكن «السويد الجديدة» وقعت في أيدي الهولنديين في امستردام الجديدة، ثم وقعت بعد ذلك في أيدي الإنجليز.

وحتي النمسا التي ورثت الأراضي الواطئة الإسبانية حاولت أن تتقرب من رعاياها البلجيكيين بانشائها شركة أوستند للتجارة مع أقاليم ما وراء البحار. وحصلت علي بعض المراكز في البنغال وفي المحيط الهادي. ولكن الإنجليز والهولنديين خشوا هذا النشاط واحتجوا عليه ثم هاجموا سفن الشركة وأغرقوا الكثير منها واضطرت. فيينا إلي التراجع عن هذا المشروع.

ولقد فضلت النمسا المستعمرات التي ورثتها في أوربا علي المستعمرات البعيدة، وخاصة حينما أعطاها تقسيم العالم الإسباني سنة ١٧١٣ المقاطعات

البلجيكية ومقاطعات شمال إيطاليا. فأرسلت حاكما عاما إلي الأراضي المنخفضة التي كانت إسبانية وقام المجلس الأعلي للأراضي المنخفضة باتخاذ قراراته من فيينا، في الوقت الذي كانت فيه المجالس الخاصة في هولندا نفسها لا تحتفظ إلا بسلطة اسمية. أما في منطقة شمال إيطاليا فإن الحاكم العام كان أقل سلطة من الوزراء المفوضين. وكان هذا النظام عبارة عن إنتصار للادارة المركزية التي لم تأبه بتململ الأهالي.

وكذلك دوق براندبورج، وريث الفرسان التيوتونيين، فقد حاول أن يشارك في عملية الاستعمار وأخذ التعامل مع رؤساء الزنوج علي ساحل الذهب وحصل منهم علي منطقة قرب آكسيم. وأعطي فردريك جيوم شركة براندبورج الإفريقية احتكارا تجاريا سمح لها بانشاء بعض المراكز المحصنة في هذه المنطقة، والاستيلاء علي إحدي الجزر الواقعة في إحدي خلجان موريتانيا.

أما فردريك الثاني فقد كان عمليا أكثر من ذلك، واحتفظ بمجهوداته لعملية استعمارية برية وقامت وكالات همبورج وفرانكفورت بجمع المهاجرين من الهولنديين ومنطقة الراين والسويسريين وأرسلتهم صوب بروسيا وبوميرانيا وسيليزيا للعمل في تجفيف المستنقعات وفلاحة الأرض وانضم الفارين من الأضطهاد الديني إلي هؤلاء المعمرين المتطوعين، وكم من فتاة بولندية اختطفت لكي تتزوج بجنود فردريك. ورغم أن هذه العملية الاستعمارية كانت أقل شهرة من عمليات ما وراء البحار، إلا أنها كانت أطول عمراً في آثارها.

وقامت الروسيا بنفس العملية، خاصة وإن الأراضي لم تكن تنقصها، وكان القيصر بطرس الأول يعرف أن بلاده تمتاز علي كل البلاد الأخري بمواردها من المعادن والمناجم، الذي لم يحاول أي فرد، حتي ذلك الوقت، إستغلالها.

وكان شعبه يبلغ أربعة عشر مليونا من السكان موزعين بين الأورال والبحر البلطي. وكان القياصرة مصممين علي عدم إنتظام تكاثر السكان حتي يجدوا لهم منفسا، فمهدوا للمستقبل وفي كل اتجاه، ونظموا عملية التوسع الروسية.

أما في الغرب فإن نقل العاصمة من موسكو إلي بطرسبرج كانت تمثل سياسة الروس الجديدة التي اتجهت صوب الغرب وصوب البحر منذ سنة ١٧٠٣ كانت الروسيا ترغب في أن تصبح دولة أوربية ودولة بحرية. وقام الروسيين بقطع أشجار الغابات وتجفيف المستنقعات حول بطرسبرج، وقاموا بنفس الشئ في كل الحكومات الإثني عشر والأقاليم الثلاثة وأربعين التي تشتمل عليها الامبراطورية فقام الروس باخضاع القوزاق، وأقاليم، البحر البلطي، وأوكرانيا، وبولندا الشرقية، والقرم. وأعطت القيصرة كاترين للمعمرين، وكانوا في غالبيتهم من الألمان، سلفا مالية بدون أرباح لمدة عشر سنوات، ووعداً باعفائهم من الضرائب لمدة ثلاثين سنة واستقدم الروس الخبراء والمهندسين من الخارج وبنوا المدن التي حملت إسم الامبراطورة مثل آيا كاترينبرج وآيا كاترينوسلاف.

وأما في الشرق، وفيما وراء الأورال، فإن الروس قد تقدموا ببطء في منطقة الاستبس. وكان المجال متسعا أمام الفلاحين الذين كانوا يهربون من نظام عبيد الأرض والفقر للسير واستعمار المناطق الشرقية. وبدأ المستكشفون الزحف، وضغط قوزاق منطقة الدون علي التتار واستولوا علي سيبير التي اعطت اسمها لسيبيريا، وجاء بعد ذلك المعمرون واستوطنوا هذه المناطق. وكان كل مركز جديد يشتمل علي قلعة ومخزن لمواد التموين ومخزن للفراء، ويعتبر قاعدة لوثبة جديدة إلي الأمام. واستمر الاستعمار في هذه المناطق شبه الخالية بزحف الأهالي وبأستمرار بين الروسيا والأقاليم المجاورة لها حتي وصلوا

للمحيط الهادي وإلي كمتشكة سنة ١٦٩٦ . وكانت سرعة الزحف عبارة عن مائة ألف كيلو متر مربع في السنة. حقيقة أن جنكيز خان كان قد سار في الإتجاه المضاد بسرعة أكثر من ذلك، ولكن الإستيلاء الروسي علي هذه المناطق تحت سلطة الحكام كانت أكثر رسوخا. وإذا كان المناخ صعباً فإن القبائل كانت مبعثرة ومسالمة وكانت تقسم بسهولة بالولاء للقيصر. ولم يقابل الروس مقاومة جدية إلا في منطقة منشوريا التي دافعت عن نفسها وأبعدتهم عن حدودها.

وأما في الجنوب، وصوب بلاد تيمور لنك والهند؛ فإن الروسيا توسعت وبمنهج منظم. أما في الشمال فإن بيرنج، الذي كان ضابطا دانمركيا في خدمة القيصر، قد تمكن من استكشاف أبعد نقطة في القارة الآسيوية، وتأكد من أن آسيا منفصلة عن أمريكا، ووصل إلي سواحل العالم الجديد سنة ١٧٤١ . وأقام الروس علي بعض الجزر وأخذوا في صيد الحيوانات ذات الفراء، وعبروا المضيق واستعدوا للمطالبة بنصيبهم من الأراضي الأمريكية.

أما الصين فإنها قد شهدت مجئ سادة جدهم المانشو الذين احتلوا بكين وأنهوا حكم أسرة المنج، ثم توغلوا من الصين الشمالية إلي نانكين ثم وصلوا إلي كانتون، واخضعوا منغوليا وفرضوا عليها الجزية، ثم عادوا صوب التبت ودخلوا إلي الحسا ووضعوا مندوبين إلي جوار الدلا يلاما وكلفوهما بتصريف السياسة الخارجية والشئون الدينية في هذا الاقليم. وقامت أسرة تسينج المنشورية بالإلتفات إلي الفلاحين الذين كان المنج قد أنقلوا الضرائب علي كواهلهم. ولقد احترم التسينج الثقافة الصينية، وقبلوا الصينيين في الحكومة، وسووا بينهم وبين المنشوريين في الوظائف وأدخلوهم في المجالس العليا. والواقع أن الصينيين هم الذين بدأوا بهذه الطريقة باستعمار منشوريا، رغم أن الأسرة الحاكمة والمستعمرة كانت قد جاءت منها.

ولقد تمكنت فرموزا من صد الهولنديين، وحاولت تخليص مانيلا من الإسبانيين، ولكنها إنتهت بانضمامها إلي الامبراطورية المانشو.

ومع إزدياد نمو الصين خرجت عن حدودها فاخضعت جيرانها في كوريا وسيطرت علي أنام وسيام وقدم لها أمراء كابل وبخاري ولاءهم، وإنتشر بحارتها وتجارها في جاوه والفلبين وجزر التوابل.

أما اليابان فإنها قد بقيت منعزلة عن العالم. وذلك رغما عن أنها كانت قد بدأت في عملية توسع، وقام جيش ياباني بالنزول في كوريا التي لم يتمكن الصينيون من الدفاع عنها إلا بصعوبة كبيرة. وكان قراصنة اليابان قد ملأوا بحر الجنوب وأنشأوا قاعدة علي ساحل سيام، ووصل التجار اليابانيون إلي أنام وكمبودج وجاوة والفلبين وماليزيا. وكان اليابانيون قد التقوا هناك بالأوربيين، ومنهم رجال التبشير والتجار الذين نجح بعضهم في الوصول إلي اليابان ولكن أباطرة اليابان خشوا من طموح العناصر البيضاء، فأقفلوا حدودهم، وحكموا علي بلادهم بالعزلة، وبعد رجال التبشير الذين صدر الأمر بطردهم في فترة ٢٠ يوما حرمت الأراضي اليابانية علي كل الأجانب، فيما عدا الصينيين الذين سمح لهم بالبقاء في أحد أحياء ناجازاكي، المواجه لهذا الميناء. ولقد بقي اليابانيون أنفسهم داخل حدود بلادهم وحرم عليهم الخروج للخارج، وكانت جريمة من يرتكب ذلك هي الإعدام، ومنعتهم الحكومة من بناء السفن الكبيرة والتي لها أكثر من سارية واحدة حتي تحرمهم من وسائل السفر وظل اليابان عالما خارج هذا العالم، وتحت حكومة اوتوقراطية ووطنية، ولا يرغب في الاستعمار، ولا يقبل أن يستعمره الغير.

٣- نتائج العصر التجاري:

لقد إختلفت إتجاه السير في العالم، وبعد آلاف من السنين أخذت أوربا في الزحف علي آسيا، بعد أن كانت آسيا هي التي تزحف علي أوربا. وإنتهي بذلك عصر الجماعات المتنقلة والتي تشتغل بالرعي، وجاء دور الرجل الأبيض، الذي تمكن في خلال قرن ونصف، ومنذ أوائل القرن السابع عشر وحتي منتصف القرن الثامن عشر، من غزو الهند وسيبيريا، وإنتهي من التوغل في كل العالم الجديد.

ولقد إعتمد إنتصار البيض علي تفوق واضح مادي في فن الملاحة وفن الحرب وفنون الصناعة والفنون المالية، في الوقت الذي ظل فيه الشرق مقيدا بتقاليده.

وكان هنا التفوق المعنوي الذي رجع إلي روح المخاطرة والتحرر، حتي تحت إدارة ملكيات من الطراز الإسلامي أو الفرنسي، والتي كانت أكثر تحرراً من روح الطغيان الشرقي. وكان من نتيجة ذلك أن أعطي الغرب طلائع تتوغل في كل أنحاء العالم. وفي الوقت الذي أخذ فيه الغرب يخترع ويتقدم ظل فيه الشرق ثابتاً في مكانه.

وعلينا أن نلاحظ أن مركز التفوق عند الغربيين قد إنتقل من البحر المتوسط لكي يثبت علي بحر المانش وبحر الشمال. وأخذت اسبانيا في التقهقر وإنخفض عدد سكانها في منتصف القرن السابع عشر من ثمانية ملايين إلي أقل من خمسة. وتقهقرت صناعتها وتفتت امبراطوريتها الأوربية. حقيقة أن اسبانيا احتفظت بمراكزها الأساسية فيما وراء البحار ولم تخرج من أيديها إلا بعض جزر الأنتيل، ولكنها احتفظت بكوبا وبورتوريكو ونصف سان

دومنيجو الشرقي. أما في المحيط الهادي فقد إستولت علي جزر كارولينا وماريان التي سميت باسم شارل الثاني ووالدته ماري آن.

أما البرتغال فإنها قد نزلت عن قمة مجدها، وكان ضم اسبانيا لها مميتا لمتلكاتها. وبقي لها في الغرب جوا وسيلان وماكاو وجزء من تيمور، كما بقي لها علي المحيط الأطلسي مزاغان وماديرا وجزر الخالدات وسان توما وفرناند وبو، وبقي لها في أفريقية السوداء سواحل أنجولا وموزمبيق، وبقي لها في العالم الجديد البرازيل وسكرامنتو. ولكن بعض مستعمراتها أخذت في التحرر وقبلت لشبونة في بعض الحالات حماية إنجلترا التي أخذت تحصل علي بعض الإمتيازات في تجارة البرازيل.

آما البندقية فقد إنتهت، ورغم أنها بقيت مستقلة إلاإنها عاشت علي ذكرياتها وعلي ماضيها المجيد.

أما الامبراطورية العثمانية فأنها قد احتفظت بمظهر قوي، وتمكنت من إرهاب أوربا حينما قام سلطانها بحصار فيينا ولكنها كانت تحمل عوامل نهايتها وفنائها ذلك أن الفوضي قد أخذت تدب بين الجنود والفساديين بين الباشوات الذين أصبحوا مجرد حكام إسميين، بينما أصبحت السلطة الفعلية في أيدي دايات الجزائر وبايات تونس والمماليك في مصر، وكانوا مستقلين إستقلالا فعليا،إن لم يكن إستقلالا واقعيا وغير تام، وقامت العصابات بتحدي سلطة الدولة في الصرب وفي كردستان. وإضطرت القسطنطينية إلي ترك المجر ثم ترانسلفانيا وأوكرانيا.

وقامت ممالك متعددة في افريقية حاولت أن تجمع القبائل المتفرقة في مناطق الاشانتي ودارفور وداهومي. ولكن عملية تصدير العبيد استمرت،

واستمر ذلك النزيف من أبناء القارة وصوب العالم الجديد وظلت تجارة العبيد ضرورية ما دامت مزارع القطن كانت في خدمة المصانع، وكانت هذه المزارع محتاجة إلي سواعد الافريقيين.

أما الدول التي ظهرت فهي الأراضي المنخفضة التي حصلت علي إستقلالها واحتفظت بغيانا وبمستعمرة رأس الرجاء الصالح التي وصل المعمرون فيها حتي نهر أورانج وبعض المراكز التجارية في الهند، وبكنوز أندونيسيا ، ولكن هولندا كانت محتاجة لإنجلترا للاحتفاظ بأراضيها، ثم أصبحت هولندا أحد التابعين لإنجلترا ، ورغم أن قوتها المالية كانت متفوقة، إلا أن قوتها البحرية كانت قد بدأت في التقهقر أمام قوة انجلترا البحرية.

وكانت هناك امبراطوريتان قد أخذتا في النمو والإزدهار وهما فرنسا وإنجلترا وإذا كانت الامبراطورية الفرنسية لا تهم الرأي العام في بلادها في كثير أو قليل، وإذا كانت قد نشأت بدون تأييد من الرأي العام. فإن الإمبراطورية البريطانية كانت علي العكس من ذلك من عمل البريطانيين أنفسهم.

وكانت لفرنسا بعض المراكز في افريقية الشمالية وفي القاره ،لأفريقية من السنغال إلي الساحل الذهب، وكانت لها بعض الأطماع في مدغشقر، ووصلت إلي بعض النتائج في جزيرة فرنسا وجزيرة البوربون، وكانت لها امبراطورية لا تحلم بها في الهند، ومستعمرات في الانتيل ومنها سان دومينجو، ولها قوس كبير من مصب الميسيسبي إلي مصب سان لوران.

أما إنجلترا فكان لها، علي إيرلندا، ثلاثين مستعمرة موزعة في افريقية والهند والأنتيل وأمريكا ، خمسة منها ملك للتاج وهي جبل طارق ومينورقة

ونيوفوندلاند واسكتلندا الجديدة وجزر الأنتيل الصغري، وثلاثة منها ملك للشركات وهي خليج هدسن ومستعمرات أفريقية الغربية والهند الشرقية. أما المستعمرات الأمريكية فقد كانت لها مجالس تنفيذية، دون أن يمنع ذلك من أن تكون بعضها ملكا خاصة. وكان كل هذا المجموع يعيش علي الطريقة الانجليزية، فكان الناس يشربون الشاي في نيويورك ويلعبون الجولف في فرجينيا ويجتمع السادة في النادي في جمايكا كما يجتمعون في بمباي، لقد كانت إنجلترا تنتشر في العالم لكي تجد نفسها في كل مكان وكأنها في بلادها.

وكان كل من الانجليز والفرنسيين يعتقدون في نظرية سيادة الرجل الأبيض وتفوقه. وكانت التفرقة العنصرية طبيعية بالنسبة إليهم كما كانت بالنسبة للاسبانيين والهولنديين، فكانوا يعتقدون أنهم يأتون بالآله الحقيقي، والأخلاق الحقيقية، ونظرتهم إلي النظام والسلام. وليس معني ذلك أنهم كانوا يحتقرون الأهالي أو العبيد وكان المبشرون اليسوعيون في باراجواي يعاملون الأهالي بطريقة أبوية، كما كان قانون كولبير ينظم علاقات الرجل الملون ويحد من حقوق السيد ويفرض عليه ضرورة اطعام وحسن معاملة عبيده. ورغم فإنه لم يعطي للزنجي إلا وضعية الأدوات والمنقولات، وكانت الضرورات الاقتصادية أهم بكثير من النظرة الانسانية.

ورغم ذلك فإن المستعمرات قد تطورت رغم تغير العلاقة بين المستعمر والمستعمر. ولم تعد التوابل والذهب هي أساس هذه المستعمرات وأخذت مستعمرات كثيرة في التحول إلي مستعمرات فلاحية، أي مستعمرات توطين دون أن تترك دورها كمستعمرات تجارية. وأصبحت أهم الثروات هي ثروات السكر والطباق والكاكاو. ومع زيادة ضغط ونمو الحاجات اتسع النظام

التجاري، وتحولت الرحلات المثلثة والسفن ذات الامتياز للتجارة وعملية التهريب، وجاءت الاتفاقيات التجارية التي قللت الامتيازات وحدت منها، واستمرت الشركات الاستعمارية في طريقها ولكن احتكارها أصبح غير كاملا، وحلت بعضها لكي تترك المجال للدولة في الادارة، والمجال للأفراد في التجارة. وأصبح البحر حراً، فأصبح من الواجب أن تصبح التجارة حرة. وأخذ الأهالي يهتفون بحياة الملك في سان دومينجو، ولكن علي أساس إبعاد الشركات وهتف آخرون في عصر كولبير منادين بترك حرية التجارة والباب المفتوح التي أعطاها رجال الاقتصاد هيكلا واضحا فيما بعد Laissez faire laissez passer.

ولقد غرق الغرب في ذلك الوقت حتي الثمالة في نظرية تفوقه، وأصبحت الظاهرة الاستعمارية مهمة حتي أنها أخذت مكانها في اللغة وكانت الكلمة المشتقة من اللاتينية Colonia حتي ذلك الوقت لا تحمل إلا معني زراعي في البادية، ولكن هذه الكلمة أخذت معني ديموجرافيا، وبعد أن كانت المستعمرة في عصر تفوق البندقية تعني مجموعة من الرجال المهاجرين، إحتفظت بهذا المعني وأضافت إليه معني آخر في عصر الشركات، فأصبحت تعني منطقة يسكنها المهاجرون. ثم نشأ فعل يستعمر بعد ذلك ثم مذهب الاستعمار نفسه في أواسط القرن الثامن عشر. والواقع أن اللغة كانت تسير وراء الأفعال، أفعال الرجال، وتنطق بما يفعلون وكان الرجال يستعمرون منذ قرون طويلة، ولم يخترعوا الكثير حتي في عصر الشركات الاستعمارية، إذ أن العالم القديم كان قد شهد مستعمرات للفلاحة ومستعمرات للتجارة ومراكز بحرية ومستعمرات توطين. لقد كانت نظما قديمة ولكنها ظهرت من جديد وبشكل جديد، وفي آفاق جديدة وبوسائل جديدة، وبقوة تأثير جديدة وهامة علي الاقتصاد وعلي البشرية.

الباب الخامس

الثورات والاستعمار

الفصل الرابع عشر
التفكير الجديد

ما أن ظهرت كلمة الإستعمار في العصور الحديثة وبدأ الناس في استخدامها حتي حدثت تطورات خطيرة في تاريخ الاستعمار وانهارت أكبر الامبراطوريات الاستعمارية سواء أكانت في غالبيتها مستعمرات فرنسية، أو كانت هي أغني المستعمرات الانجليزية، ومعظم المستعمرات الهولندية والإسبانية والبرتغالية. وكان من حق العالم أن يتساءل عما إذا كان هذا العصر هو عصر الاستعمار أو عصر نهاية المستعمرات.

١- فرنسا تفقد الهند وكندا:

لم يكن فقد فرنسا للهند وكندا الا تغيير من يستعمر هذه المستعمرات خاصة وأن إنجلترا قد أخذت مكان فرنسا. وكانت هاتان الدولتان تتحاربان منذ ما يزيد علي أربعة قرون وبصفة شبه مستديمة سواء بشأن أكويتانيا أو كاليه أو مدراس أو كندا. وزاد الصراع في أثناء القرن الثامن عشر مع نمو المصالح وتضخمها. وأخذت الشركات المختلفة في التنازع علي أمراء الهند وتوابلها، أما في كندا فإن التجار والصيادين قد أخذوا يتنازعون الغابات والفراء. وكان الكنديون الفرنسيون يخشون من أن يهاجمهم الانجليز من واجهتين، الأولي في الشمال مع شركة خليج هدسن، والثانية في الجنوب مع معمري إنجلترا الجديدة. وأعتقدت مستعمرات إنجلترا الثلاثة عشر في أمريكا أن الممتلكات الفرنسية قد أخذت في تطويقها من كويبك حتي نيو أورليانز. وخشت نيويورك من أن تهاجم العناصر التي تسكن اقليم الهدسن. وتسببت هذه المناقشات والمخاوف المتبادلة في سوء تفاهم تطور إلي تنافس إستعماري.

وكانت العلاقة بين القوي تسمح بتوقع فوز فرنسا في حالة مواجهتها لإنجلترا، ولكن إنجلترا نجحت وبسهولة فيما وراء البحار، ونجحت بأساطيلها التي كانت أكثر عدداً، وبوسائلها المالية التي لم يكن مجلس العموم يناقشها ويتحكم فيها في الوقت الذي كانت فيه البرلمانات الفرنسية تدافع عمن لا يدفعون الضرائب ونجحت إنجلترا باستنادها إلي ذلك العدد الكبير من المعمرين الإنجليز، وعلي الأقل في أمريكا التي كان عددهم قد بلغ فيها ما يزيد علي مليونين، أما الفرنسيين في كندا فلم يكن عددهم قد زاد علي ٦٥ ألفا. فكيف يمكننا أن نشك في نتيجة صراع نسبة المتحاربين فيه ثلاثين أمام كل فرنسي؟

وهل كان في وسع باريس ارسال قوات لأمريكا أو كانت ترغب في ذلك؟ لقد كان علي فرنسا أن تدافع عن نفسها في أوربا حيث عملت بريطانيا علي تكوين المحالفات القارية ضدها، وكان مصير الحروب يتقرر في أوربا، حتي ولو كانت حروبا استعمارية، ولم يكن في وسع أحد أن يهتم بالاصطبلات إذا كانت النار مشتعلة في داره.

حقيقة أن الملك كان يهتم بالمستعمرات وكان البلاط مصمما علي الإستمرار، وطالب الفرنسيين بالمقاومة وبأي ثمن كان. وقام مونكالم بكل ما كان في وسعه أن يقوم به، ولكنه كان يحارب ضد الإنجليز وضد جزء هام من الرأي العام الفرنسي الذي كان لا يؤمن بالمستعمرات والذي كان يري أن الدفاع عنها يكلف ملايين الجنيهات كل سنة. وأخذ الناس يطالبون بترك المستعمرات وفض أيدي فرنسا من هذه المشكلات، وحتي شركة الهند قامت بسحب دوبلكس بعد أن زاد نشاطه بدرجة ملحوظة.

وعلي العكس من هذا الإتجاه في فرنسا نجد أن بت كان مصمما علي الوصول إلي إنتصار لبلاده، ولم يتراجع عن تضخم الميزانية وزيادة الضرائب ودين الحكومة وحصل الفرنسيون منه علي مينورقة وعلي كلكتا، وإنضم الهنود الحمر إلي الفرنسيين في كندا فزاد عزم بت وتصميمه علي الإستمرار في الحرب، واستند إلي تفوق إنجلترا البحري ونادي بأن من حق إنجلترا وحدها أن تحصل علي المستعمرات.

وبدأت الحرب في وادي أوهيو وجاء واشنجطن الشباب علي رأس المعمرين الانجليز في فرجينيا لكي يقف أمام الفرنسيين الذين بلغوا قلعة ديكن. أما في الباني فإن بنجامين فرانكلن قد حاول توحيد المستعمرات أمام الخطر الفرنسي، ولكن بدون جدوي واستولي الانجليز علي قلعة ديكن وسموها بتربرج، وقام الإنجليز بطرد الآلاف من المعمرين الفرنسيين من أكاديا بعد استيلائهم عليها وتحويلها إلي اسكتلندا الجديدة، وبنفس طريقة الاشوريين القديمة. وهاجم ولف مونكالم وسيطر الإنجليز علي كندا الفرنسية.

أما في الهند فإن كلايف قد غزا لاليتولندال وأصبحت هضبة الدكن في غالبيتها تحت سيطرة الانجليز. وكان مصير بوندشيري هو نفس مصير كويبك. وكان من الممكن أن تقل نتائج هذه الانهزامات في حالة ما إذا تطورت الحرب التي كانت مستمرة في أوربا منذ سبع سنوات في صالح فرنسا، خاصة وأن فرنسا كانت تحتل هانوفر موطن الأسرة المالكة البريطانية نفسها، وكاد فردريك ملك بروسيا أن يخرج عن تحالفه مع انجلترا. ولكن الحظ لعب دوره، وبدل أن يخرج عن تحالفه مع إنجلترا، خرجت الروسيا عن محالفتها مع فرنسا التي اضطرت إلي التفاوض من أجل الصلح.

وكـان شـوازيـل يعـتـقـد أن مـعـاهدة باريس سنة ١٧٦٣ لم تكن إلا هدنة تسمح له بالاستعداد وبالانتقام، ولذلك فإنه قبل أقسي الشروط المفروضة. وتخلت فرنسا عن كل كندا وعن كل المعمرين الموجودين فيها، ولم تحتفظ إلا ببعض الجزر الصغيرة وبحقها في الصيد إلي جوار نيوفوندلاند. كما تركت فرنسا لويزيانا لاسبانيا التي كانت قد دخلت في حرب خاسرة، ولكي تعوضها عن فقد فلوريدا التي كانت مدريد قد سلمتها لانجلترا. وتخلت فرنسا عن الانتيل وعو جزر توباجو وسان فانسان ودومينيك كما تخلت في افريقية عن السنغال التي كانت مركزا لتجارة العبيد. وتخلت فرنسا عن كل الهند فيما عدا خمس مراكز تعهدت بعدم وضع حاميات فيها. ودعت بذلك كنوز مالابار وكورماندل وامال البنغال وهضبة الدكن.

وكانت هذه المعاهدة القاسيـة التي أثبتت انتصار انجلترا، تعني تخلي فرنسا عن حركة الاستعمار ولم ترحب بها انجلترا، رغم أن فرنسا قد رحبت بها. وثار بت في لندن مستنداً إلي أن انجلترا قد أعادت جواديلوب والمارتنيك وسانتا لوتشيا وكوبا والفلبين، بعد أن كانت القوات الانجليزية قد استولت عليها. وكان في واقع الأمر يرغب في الاحتفاظ بكل المستعمرات الفرنسية والمستعمرات الاسبانية، وكان الانجليز يرون أن صحاري كندا الثلجية ليست لها قيمة غابات ونباتات جواديلوب.

ونفس هذا التفكير والموازنة جعل الفرنسيين يفرحون بهذه المعاهدة وجعلهم يعتقدون بأنهم قد ضحكوا علي الانجليز وأعطوهم بعض الصحاري الثلجية، مع الهند التي كانت مركزاً للحروب التجارية، واعتقدوا أنهم قد احنفظوا بالأهم ما داموا قد احتفظوا بسان دومنجو وبالجزر. ولم تكن للفرنسيين صلات وثيقة بكندا والهند، خاصة وأن المعمرين الكنديين كانوا يتزوجون فيما

بينهم، أما معمري الانتيل فكانوا علي العكس من ذلك يتزوجون من بنات فرنسيات، ويتزوجون البنات هناك من أزواج فرنسيين. وكان لمعظم الأسر الفرنسية بنتاً أو أختاً أو إبن عم في برزخ السكر، وكان معني التخلي عنها للانجليز تقطيع روابط الأسر. أما بالنسبة للهنود الحمر في كندا أو في لويزيانا فإن صلات الفرنسيين كانت أقل، وتسمح لهم بالتخلي عن هذه المناطق.

ولقد وافق الملك نفسه علي هذه المعاهدة وقبل هذه الحلول رغم ظهوره بمظهر مختلف، ولقد حاول كل من لوي الخامس عشر ولوي السادس عشر أن يصلحوا ما أفسدته هذه المعاهدة فجمعوا بين أيديهم، وتحت سلطتهم المباشرة، ما بقي لهم من مستعمرات، وإشتروا من شركة الهند جزر فرنسا والبوربون، ثم كل ممتلكاتها السابقة وتعهدوا بدفع معاش يبلغ ٥٪ إلي حملة الأسهم من قيمة أسهمهم سنة ١٧٧٠ . وإذا كانت هذه الشركة قد أعيد تكوينها سنة ١٧٨٥ فإنه لم يصبح لها من إمتيازاتها السابقة إلا الامتيازات التجارية، دون أي امتيازات اقليمية.

وحاولت فرنسا أن تعوض ما فقدته وإتجهت صوب غيانا وأرسلت إحدي الحملات بسرعة وبدون كبير اعداد وانزلت ١٣ ألف مهاجر من كل الجنسيات ومن كل الديانات، ولكن المناخ كان معاديا ومات كثير من المعمرين. وفشلت فرنسا كذلك في جزر مالوين التي حاول شوازيل إحتلالها، وجاءت أسبانيا لكي تعارض عمليته. وكان الفشل كذلك من نصيب الفرنسيين في مدغشقر. ولكن بيجو نفيل استكشف تاهايتي، واستكشف غيره جزراً أخري جنوبية، وإنتشرت بعثات الاستكشاف الفرنسية في المحيط الهادي الجنوبي وحاولت فرنسا أن تبني إمبراطورية إستعمارية في هذه المناطق.

وزاد أزدهار جزر فرنسا والبوربون وخاصة بعد أن دخلتها زراعة القرنفل والمسك الذي نافس الاحتكار الهولندي، وأصبحت هذه الجزر ديكورا جميلا يمكن تمثيل مسرحية بول وفرجيني فيه.

أما الأنتيل فقد أثبتت أنها أصلح من سهول كندا الثلجية. وقام ١٨ ألف رجل أبيض و٧ آلاف ملون حر بتشغيل ٢٠٠ ألف عبد في سان دومنجو وفي مزارع قصب السكر والنيلة، وكانت كل المستعمرات الأوربية مجتمعة لا تنتج من السكر نصف ما تنتجه هذه الجزيرة. وكانت فرنسا لا تستهلك إلا ثمن السكر الذي تنتجه هناك. وكان مجموع التجارة الخارجية الفرنسية، بما في ذلك تجارة هذه الجزر، تصل إلي نفس مجموع تجارة بريطانيا الخارجية. وكان هذا عاملا أساسيا يساعد علي نسيان كندا والهند.

وعلاوة علي ذلك فإن عزاءاً آخر كان يطمئن الفرنسيين، ذلك أن شوازيل الذي كان قد ضحي بالأمبراطورية الفرنسية فيما وراء البحار قد حصل لفرنسا علي جزيرة البحر المتوسط، جزيرة فقيرة ولكنها جميلة ويمكنها أن تصبح قاعدة أمام الإنجليز في هذا البحر. وكانت جنوا تمتلكها دون أن تتمكن من اخضاعها فأعطتها لفرنسا سنة ١٧٦٨ نظير إعفائها من ديونها القديمة

أنها هذه الجزيرة العذراء المتعصبة التي رأت منذ عهد أبناء قرطاجة عدداً كبيراً من الغزاة دون أن تخضع لهم. وحتي مع الفرنسيين ظهرت وكأنها لم تخضع. ذلك أن باولي قد قاوم الفرنسيين، وكان أن قواده هو شارل بونابرت.

ولكن كورسيكا كانت أقل بعدا عن سان لوران ووضعت فرنسا حامياتها فيها. كما أن فرنسا حاولت كسب الثوار وأنشأت مجلسا في الجزيرة وأصبح شارل برنابرت نائبا عنها. وأعطت فرنسا المنح لشبان كورسيكا الذين يرغبون

في الدراسة في فرنسا، وحصل نابليون بونابرت علي إحدي هذه المنح للدراسة في برلين. فهل تنجح التهدئة وتسير مع سياسة الاستعمار؟ بدون شك، وبسرعة، ولكن كورسيكا هي التي ستستعمر فرنسا مع نابليون بونابرت.

٢- الفلاسفة والاستعمار:

علم الفلاسفة الرأي العام طريقة التفكير، وعلموه في نفس الوقت إحتقار كندا بنوع خاص والمستعمرات كلها بنوع عام. ولقد تمني فولتير أن يري كندا تغرق كلها في المحيط المتجمد الشمالي بما عليها من آباء يسوعيين في كويبك، وفضحها كأكره بلاد الشمال إلي قلبه وكأقليم لا يمكن الاحتفاظ به إلا بحروب مخربة وكان فولتير يفضل إستعمار كورسيكا وذكر أنه إذا كانت فرنسا قد إستخدمت عشر الأموال التي أنفقتها في كندا في تفليح الأراضي البور في فرنسا نفسها، لكسبت كثيراً، ولكن فرنسا فقدت سنوات مليئة بالشقاء وفقدت الأموال إلي غير رجعة. وجاء بعده ميرابو وأكد في كتابه «صديق الرجال» ضرورة عدم التأسف، وأشار إلي أن التجارة هي التي يمكنها أن تحدد قيمة المستعمرات، وكانت كندا تظهر كآخر مستعمرة تجارية في العالم في هذا الميدان.

ولم يكن هناك داع للتأسف علي الهند كذلك، ولم يسامح فولتير الشركة التي أهملت حملة الأسهم والتي لم تقدم لهم أي ربح ناتج عن تجارتها، وبشكل جعل منها الشركة الوحيدة الموجودة في أوربا، ومن هذا النوع. أما رجال الصناعة الفرنسيين فكانوا يشتكون من موضوع آخر، ذلك أن منافسة الأقطان الهندية كانت شديدة. وبفقد الهند تخلصوا من هذه المنافسة.

ولم يمل الفلاسفة إلي المستعمرات إلا فيما يخص الجزر وربما لويزيانا. وقام مونتسكيو بقبول فكرة المستعمرات التجارية، ولكنه فضح مستعمرات

التوطين، إذ أنها تضعف البلاد الأصلية. أما فولتير فقد رأي أن طبيعة الإنسان كانت تخالف الهجرة، وعند شعوب تتضارب عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد المهاجرين، وتعرض صحة الأهالي لأمراض جديدة ولمناخ لم يتعودوا عليه منذ ميلادهم. ولقد هاجم الفلاسفة بعض المستعمرات علي أنها تستورد الأواني من الصين والأنسجة والملابس من الهند والعبيد والبهائم من مدغشقر، وبعض النبيذ من رأس الرجاء الصالح، وادارتها من فرنسا. واعتقدوا أنهم يقومون بواجب وطني حينما يفضحون هذه الأخطاء ويمنعون الرجال من الخروج عن بلادهم ويبقونهم لتفليح الأراضي الفرنسية نفسها. وظهرت هذه الفكرة في الانسيكلوبيديا التي تساءلت عن إمكانية إنشاء مستعمرات داخل فرنسا نفسها، وإمكانية توجيه الرجال عن المغامرات البعيدة، ولقد تنبأت الانسيكلوبيديا بمصير المستعمرات وقالت بأنه لا يمكن لأمة أن تخضع باستمرار لأمة أخري، ولمدة أطول مما تتطلبه مصالحها أما مصالح المستعمرات فهي مرتبطة بالاستقلال وهذا هو ما سيدفع المستعمرات إلي التحرر بمجرد شعورها بعدم حاجتها إلي الحماية الأجنبية. واستشهدت في ذلك بالأب الذي يفرض علي ابنه بعد البلوغ نفس الطاعة التي كان يقدمها في أيام طفولته وذكرت أن العلاقات ستنفصل بين الاثنين، وأن هذا هو ما يحدث بين المستعمرات والوطن الأم.

وقام رينال في كتابه عن التاريخ الفلسفي والسياسي للمنشآت الأوربية في الهند الشرقية والغربية سنة ١٧٧٠، بمهاجمة المستعمرين الذين يبقون وراء التحصينات إذا ما شعروا بالتهديد والذين يصلون إلي درجة العنف حينما يشعرون بالقوة، والذين كانوا شغوفين بالحصول علي الأشياء والاستيلاء علي الأراضي، ومتمرغين في الملذات، وقادرين علي إرتكاب كل الجرائم. ولقد وصف كل صفحات تاريخ الاستعمار بأنها مخضبة بالدماء ووصف الشعوب

المستعمرة بالجبن وطالب بقرب قيام قيامتهم وهدم بلادهم. ولقد أعيد طبع هذا الكتاب عشرين مرة.

وجاء الفلاسفة الانجليز بعد الفلاسفة الفرنسيين ولكنهم كانوا استعماريين حتي ولو كانوا من رجال الاصلاح. فنجد أن لوك رغم إصراره علي أن الشرعية تستند إلي الرغبة الوطنية، وإلي أن الشعب من حقه دائما أن يتحرر، لم يمد هذه النظرية إلي المستعمرات التي قال بأنه لا يمكنها أن تتخلص من السلطة الملكية. وبالتالي من وصاية الوطن الأم. أما جيبون فإنه قد أخذ لوك كمثل له عند كتابته تاريخ الامبراطورية الرومانية، ولكن دون أن يفكر في أن مثل هذا الانهيار يمكن أن يحدث يوما للامبراطوريات الحديثة، وفي نفس الوقت الذي فكر فيه مونتيسكيو في هذه النقطة. وربما كل بنتام هو المفكر الوحيد في انجلترا الذي تمكن من إثارة بعض الشك علي مبادئ الاستعمار.

ولكن هناك بعض الكتاب مثل سويفت الذي كان قد نقد الاستعمار وبشدة في كتابه عن جوليفر الذي روي فيه ذلك العالم الغريب الذي شاهده أثناء زياراته للمحيطين الهندي والهادي، والذي ذكر فيه أن بعض القراصنة قد دفعتهم إحدي العواصف إلي إحدي المناطق المجهولة، وأن أحدهم قد إكتشف الأرض من أعلي أحد الساريات فنزل إليها لكي يسرق وينهب. وأنه شاهد هناك شعبا مسالما استقبله بترحيب، ولكن القرصان أعطي اسما جديدا لهذا الاقليم وإستولي عليه بإسم الملك ونصب لوحا قديما من الخشب وقطعه من الحجر كشاهد علي ذلك. ثم قام القراصنة بقتل بضع عشرات من الأهالي وعادوا باثنين منهما وبالقوة كعينة يعرضونها في بلادهم. وهنا بدأ حكم يستند إلي الحق المقدس وحضرت السفن في أول فرصة وقتل كثير من الأهالي

أو ابعدوا عن أراضيهم وعذب أمراءهم حتي يعترفوا بأماكن الذهب الذي يمتلكونه. ولقد سمح القراصنة لأنفسهم بارتكاب كل شئ ممكن من القسوة والفساد والانحلال، وسالت الدماء علي الأرض، ودماء الوطنيين، وتمكن هؤلاء القتلة الذين يعملون في حملة دينية من إنشاء مستعمرة مثالية، وأخذوا في تحويل الأهالي عن عبادة الأصنام وعن البربرية.

إن الانجليزي الذي يقرء سويفت يضحك، ولكنه يستمر في عمليات الاستعمار. أما القارئ الفرنسي الذي يقرأ جوليفر فإنه ينظر إلي العملية نظرة أكثر جدية، خاصة وأن المستعمر كان محتقراً في أعين الفلاسفة وأن الوطنيين كانوا يوصفون بأنهم شعوب مسالمة تقابل الغزاة بكل ترحيب، وهذا ما جعل فرنسا تعطف علي المستعمرات في الوقت الذي فقدت فيها مستعمراتها.

٣- أبناء المستعمرات:

أصبح العطف علي أبناء المستعمرات دعامة أساسية لحركة الكفاح ضد الاستعمار . فإذا كانت طبيعة الوطنيين وأخلاقهم من طبائع المستعمرين وطرقهم، فعلي أي أساس يسمحون لأنفسهم باستبعاد هذه الشعوب. وجاء مونتني بعد لاس كازاس وكتب عن آكلي لحوم البشر وذكر أنهم ليسوا متبربرين ولا متوحشين، رغم أن العالم كله ينعتهم بهذه الصفة. وذكر أنهم ليسوا متوحشين ولكنهم طبيعيين مثل الثمار التي تعطيها الأشجار في الغابات البكر، وحتي قوانينهم الطبيعية كانت أقل تعقيداً من القوانين الأوربية وأن الأوربيين يصرون علي إتهامهم بالبربرية والوحشية. وتغني أوربيون آخرون بفضائل الوطنيين في جزر الأنتيل، وذكروا كيف أنهم كانوا راضين بأحوالهم، سعداء محبين للعشرة ولم تأكل الأمراض بعد أجسامهم، كما

أكلت أجساد وعقول الأوربين إنهم يعيشون في توافق مع الطبيعة التي خلقتهم في بساطة تامة وسماحة بدائية، والكل متساوون فليس هناك فرد أغني من فرد آخر، وتقتصر رغباتهم فيما يحتاجون اليه ويستغنون عن الزائد منها. وكما أن أجسادهم صحيحة فكذلك عقولهم. بل ذهب البعض إلي أنهم هم الرجال الأحرار وأن الأوربين هم العبيد، رغم رغبة الأوربيين في استعبادهم. وذكر روسو أن هؤلاء الوطنيين وكل ما يعيش في الطبيعة من حيوانات، أصحاء، وأن الأوربيين يرغبون في تحويلهم إلي مرحلة مرضية. عمل الفلاسفة اذا علي وضع الوطنيين في مستوي أعلي من مستوي الأوربيين ووصفوهم بالحرية وبالسيادة وبمعرفة الشرف، وذكروا أنهم أحسن من الآباء اليسوعيين وأن آكلي لحوم البشر أحسن من أفراد الحاشية والبلاط.

ولقد ساعد الكتاب بيجونفيل وديديرو في رسم لوحات فنية تظهر الوطنيين بشكل معين ممتلئين بالصحة، مرحبين بالضيوف، كرماء وسمحاء ويرغبون العيش في سلام مع كل العالم، وكم من فقرة من كتاباتهم فضحت نبات الاستعمار وكتبت علي لسان الوطنيين متهمة الأوربيين بأنهم رؤساء عصابات وعليهم أن يبعدو سفنهم عن سواحل الوطنيين ويتركوهم سعداء مع حياتهم البدائية خاصة وأن هذه السواحل ليست للأوربيين حتي ولو وطأتها أقدامهم. ولقد جعل الكتاب الوطنيين يسألون الأوربيين في كتاباتهم عما إذا كان من حقهم أن يستولوا علي البلاد الأوربية في حالة ذهابهم اليها، كما فعل الأوربيون في بلاد الوطنيين، ويسألونهم عن السبب في هذا التصرف، أهو الاعتماد علي القوة. ومع من؟ إنهم إخوان في الإنسانية، وكل منهم ابن للطبيعة. ومن الذي يجعل الأوربي يفرض عاداته وتقاليده علي أخيه في الإنسانية؟ خاصة وإذا كان الوطني يرفض هذا التغيير الإجباري. وكانت كل هذه الحجج دعامات قوية ضد حركة الاستعمار.

لم يكن هناك كثير يمكنه أمام هذه الحركة الفكرية والأدبية والانسانية أن يصر علي أن بعض الوطنيين كانوا يسلخون جلود أسراهم، ويقدمون الضحايا البشرية للالهة، ويقتلون الأبناء الذكور لأعدائهم، ويقتلون رجال التبشير، وربما يأكلون لحومهم. ولكن بعض رجال الإستعمار واصلوا شرح هذه الأمور واتهموا الفلاسفة بأنهم يكتبون كتبهم في أبراجهم العاجية، وأن الرجال الذين يعيشون معيشة طبيعية لا يختلفون عن البهائم في شئ.

وكان الرأي العام بعيدا عن الحقائق وأصبح عليه أن ينقسم علي نفسه بين الإعجاب بمزايا أبناء المستعمرات والوطنيين وبين الإعجاب بالحضارة والمدنية وضرورة إدخالها لديهم. وظهرت كثير من المسرحيات التي امتلأت إعجابا بأبناء المستعمرات وباخلاصهم . وقرأ الناس روبنسون التي جعلت من «جمعة» ثمرة جميلة من أبناء الطبيعة . وتبلورت الفكرة شيئاً فشيئاً عن براءة الوطنيين وأبناء المستعمرات، في الوقت الذي تثبت فيه صورة وحشية وبربرية المستعمرين الغربيين.

كان هذا في أوربا نفسها. أما في أمريكا فقد كان المستعمرون متصلين بالهنود الحمر. وكان الانجلو سكسون يفضلون الهندي المقتول علي الهندي الحي. وكم من كاتب شرح أن خطأ الهنود الوحيد هو أنهم قد ولدوا ولجلودهم لون آخر، ولكن ذلك لم يمنع أو يقلل من قتلهم. والواقع أن الفلاسفة قد ظهروا في أوربا لا في العالم الجديد، وربما رجع ذلك إلي أن الفلاسفة لم يحتكوا بالوطنيين، ولم تكن حياتهم مهددة في الأراضي الجديدة التي ذهبوا إليها. ولكن أحداً لم يجبر المستعمرين علي الذهاب إليها.

ومع مشكلة الإستعمار ظهرت مشكلة الرق. ذلك أن آلاف من الرجال قد أصبحوا ملكا لرجال آخرين، وذلك طبقا لرغبة تجار العبيد الذين أثروا من هذه النجارة، ولرغبة كبار المزارعين الذين كانوا في حاجة إلي أيدي عاملة رخيصة. لقد فضح روسو نظام العبودية وذكر أن قانون الاستعباد غير موجود، وليس من حق الرجل الأبيض أن يستعمر غيره ما دام يعتقد في الحرية. وشرح غيره ضرورة أحجام الرجل الأبيض عن حقه في استعباد غيره إذا كان يعتقد في نفسه كانسان وكرجل مسيحي.

وانشغل الرأي العام في أوربا، وصدر مرسوم ملكي سنة ١٧٨٥ يعطي للمحررين من العبيد في المستعمرات نفس حقوق الرجل الأبيض، وتكونت جميعة لإلغاء الرق، وجميعة أصدقاء الزنوج التي نشأت في انجلترا الجديدة وفي بريطانيا سنة ١٧٨٨، وأصبح لها فرع في فرنسا. ورغم ذلك فقد واصل تجار العبيد عملياتهم المربحة، كما واصل الفلاسفة كتاباتهم، وواصل الأوربيون قراءة هذه الكتب، وواصل الجميع المضاربة علي أسهم شركات الهند، وفي إنتظار استمرار نضوج الفكرة ونضوج التيار السياسي.

٤- نهاية باراجواي اليسوعية:

إذا كان الهجوم علي نظام الرق قد اصطدم بتقاليد جامدة فإن الهجوم علي النظام الاستعماري قد بدأ في إعطاء ثماره. ذلك أن العلاقات بين الدول الأوربية وممتلكاتها البعيدة قد أصبحت أقل جموداً، وحتي الامبراطورية الاسبانية التي كانت تمثل كتلة متوازنة، فإن الحرية التجارية فيها قد إزدادت مع إنتشار الآراء الجديدة، ففقدت قادس احتكارها سنة ١٧٧٥ وفتحت ثلاثة عشر ميناءاً في اسبانيا و ٢٤ في أمريكا للتجارة. وحرر شارل الثالث الهنود

وذلك بإبداله استعبادهم بنظام جديد قام باستغلالهم فيه كدافعي ضرائب مباشرة.

ولقد قام شارل الثالث ببعض الإصلاحات وكان له بعض الوزراء الإيطاليين وبعض الوزراء والمفكرين الذي نظروا إلي غزالة العالم الجديد علي أنه رجال العصابات. ولقد كان الهجوم عنيفا علي الاستعمار الاسباني خاصة وأنه كان استعماراً كاثوليكيا. فماذا كان في وسع هذا الملك الذي صمم علي أن يكون متحرراً أن يفعله، وأي مستعمرة يمكنه أن يضحي بها علي مذبح الفلاسفة والمتحررين؟ لقد كانت مستعمرة بعينها أصلح من غيرها لذلك، وهي مستعمرة باراجواي اليسوعية.

وكان كل الفلاسفة قد إتفقوا فيما بينهم ضد اليسوعيين علي أنهم يكونون مجتمعا خاضعاً لطغيانهم وعلي أنهم من الرهبان الذين يضطهدون أبناء غير مذهبهم. ولقد ذكر روسو أن اليسوعيين قد دعموا نفوذهم بتطبيقهم سياسة الحق المقدس وبتنصيبهم أنفسهم قضاة يميزون بين الحسنة والسيئة وباسم الرب ولذلك فقد كان من المتوقع أن يطرد اليسوعيون وخاصة من بعثاتهم الأمريكية. وكانت البرتغال قد بدأت بالهجوم عليهم وذلك بحصولها علي سبع من مستعمراتهم في باراجواي نظير قلعة علي لابلاتا سنة ١٧٥٠، ثم قامت لشبونة بالهجوم علي كل الجماعة وطردت اليسوعيين من كل البرتغال. ثم جاء دور اسبانيا للعمل فاتهمت اليسوعيين بنشر آراء تتضارب مع الحقوق الملكية وقوانين الكنيسة وبتعطيل التجارة. وإتفق نائب الملك في بيرو مع أسقف بونس إيرس علي فضح تطرف اليسوعيين وسلطتهم ومؤامراتهم وتعصبهم وانفصاليتهم. وكان شارل الثالث يعرف ما يقولون، ويعرف ما يقوله الفلاسفة وكيف أنهم كانوا يفرضون العمل المنهك علي الهنود

الحمر ويربحون من عرق جبين الآخرين، دون أن يتركوا لهم أي حق من حقوق الملكية، وأنهم كانوا يسيرون بينهم يحملون الكرابيج التي تنزل علي ظهر أي فرد من الهنود دون تفريق بالنسبة للسن أو للجنس. كما أن فولتير كان قد شرح أنهم كانوا يضربون بالسياط الآباء والأمهات وأن هذا السبب وحده يكفي لطردهم من كل مكان. ولقد ذهب فولتير إلي أبعد من ذلك وحاول أن يجعل شارل الثالث يخشي من استيلاء اليسوعيين علي السلطة في المنطقة، وذكر أنهم قد انتخبوا أحد آبائهم ملكا علي باراجواي، وأنه حتي إذا لم يكن هناك أي ملك من بينهم فقد كانوا يملكون باراجواي بالفعل.

فلم يتردد شارل الثالث بعد ذلك، ووقع علي أمر طردهم سنة ١٧٦٦ وكان عددهم يبلغ ثلاثة آلاف في أمريكا، مقسمين إلي مائة وعشرين بعثة. ولقد احتج الأهالي في سنتياجو وفي المكسيك وحاولوا مقاومة هذه الأوامر. ولكن اليسوعيين اضطروا إلي إخلاء باراجواي التي إزدهرت نتيجة لمجهوداتهم وودعوا الهنود الحمر وخرجوا من البلاد، وأصبح من السهل بعد ذلك علي الهنود الحمر أن ينسوا اليسوعيين ما دامت مدريد قد وعدتهم بملكية أراضيهم أو بغلة هذه الأرض، وعلي أساس دفعهم للضرائب. ولكنهم اضطروا إلي الهرب داخل الغابات فرارا من النظام الحكومي الجديد.

وحينما إحتج البابا علي هذا القرار أجابة شارل الثالث بأنه مسئول وحده مع الله عن معرفة الأسباب التي دفعته لإتخاذ هذا القرار. والغريب أن فولتير قد خالف شارل الثالث في هذا الموقف تجاه البابا ونادي بضرورة نشر شارل الثالث لأسباب هذا القرار، ثم تحول فولتير بعد ذلك من مهاجمة نظام الاستغلال اليسوعي إلي مهاجمة شارل الثالث، وأخذ يندم علي الاستعمار اليسوعي وعلي حكومتهم في باراجواي التي لم يشهد العالم مثلها من قبل.

وجاء شاتو بريان فيما بعد لكي يملأ الدنيا إعجابا بتجربة باراجواي، كأجمل عمل خلقته أيدي الرجال في الأقاليم المتوحشة حتي الآن. ولكن هذا الندم كان قد جاء متأخرا وماتت هذه المستعمرة. أما اليسوعيين الذين طردوا من اسبانيا ومن الهند ومن جزر الفلبين فقد أصبحوا أعداء مدريد. والتجأ كثير منهم إلي بولونيا وإلي فراري ثم إنتشروا في بقية العالم وأخذوا إلي مهاجمة الملكة الإسبانية. وتحالفوا مع الفلاسفة وسيصلوا معهم إلي القضاء علي كل الإمبراطورية الإسبانية.

وهكذا نجد أن الدور الذي لعبة الكتاب والمفكرين في فرنسا في ذلك العصر قد أثر تأثيرا كبيرا في تاريخ الاستعمار وجعل فرنسا ترضي دون أسف بفقد الهند ويفقد كندا وتتجه صوب بلادها نفسها وصوب أوربا. وكانت آراء الفلاسفة متحررة إلا أنهم نظروا إلي أبناء المستعمرات علي أنهم اجناس سامية في البشرية، بل وأجناس أكثر سموا من الأوربيين ولقد وصل هذا التفكير الجديد إلي نتائج هامة وأيد سلطة الدولة الاسبانية في القضاء علي سلطة الجماعات الدينية التي تقوم بالاستعمار، وتشرف علي الاستغلال. ولقد إستمر هذا التفكير الجديد وأثر علي مستعمرات الجليزية، بل كان سببا أساسيا في نشوب الثورة الفرنسية.

ولكن هل كان إستعمار الدولة أكثر مثالية من إستعمار اليسوعيين؟ وهل يمكن لدولة ما أن تتحرر ما دام لها مستعمرات؟ وما دامت المستعمرات تشتمل علي عبيد؟ أو حتي لو أصرت علي ضرورة التفرقة العنصرية؟

لقد بدأ العالم يفكر، وبدأ في محاربة الاستعمار، ولكنه كان لا يزال في أول الطريق، وكانت هناك عوامل سياسية وإقتصادية تدفعه إلي هذا التفكير، وتوصيله إلي هذه المرحلة منه.

الفصل الخامس عشر
الثورة الامريكية

في الوقت الذي كان فيه الفلاسفة يفكرون كان معمري أمريكا الشمالية يعملون. وكان عددهم قد بلغ المليونين، وكانوا مقسمين علي ثلاث عشرة ولاية. كانوا في أغلبهم من الانجليز، ولكن عدداً كبيراً من الاسكندنافيين والألمان والايرلنديين كان مختلطا بهم، وكان الجميع قد جاءوا للحصول علي أراضي بأرخص الأثمان. وكان الفرنسيين يسمونهم الإنجليز، أما الهنود الحمر فقد حرفوا هذه الكلمة حتي أصبحت تنطق «يانكي» فيما بعد.

وكان الامريكيون قد بدأوا في الوصول إلي مرحلة الاكتفاء الذاتي في شئون كثيرة، وأصبحت لهم جامعتهم ومكتباتهم وصحفهم وعلمائهم. وبلغ عدد سكان فيلادلفيا ٤٠ ألف نسمة، وسكان بوسطن ٢٠ ألف ونفس العدد تقريبا في نيويورك. وكانت مستعمرات الشمال تصدر الأخشاب والقمح، بينما كانت مستعمرات الجنوب تصدر الطباق والارز والسكر والقطن وساعد نموهم المعنوي والمادي علي وصولهم إلي مرحلة النضج، فهل فكروا في التحرر؟

١- الثورة:

واصل الانجليز معاملة مستعمراتهم الامريكية كما كانوا يعاملونها في أول الأمر، وأصبحوا بذلك يشبهون الآباء الذين لا يقتنعون بأن أبنائهم قد بلغوا سن الشباب. وكان الإنجليز علاوة علي ذلك ينظرون إلي سكان أمريكا علي أنهم من العناصر غير الراضية، وينظرون إلي الايرلنديين منهم علي أنهم أتباع البابا، وعلي أن طلباتهم وتصرفاتهم لا يمكن الموافقة عليها.

ولكن المعمرين كانت لهم مطالب مختلفة: فأما مطالبهم التجارية فكانت تتلخص في الاحتجاج ضد قانون الملاحة، وكانوا يرغبون في الحصول علي حرية الشراء والبيع، لمن يرغبون في البيع اليه، وكانت لهم مطالب صناعية، خاصة وأن انجلترا كانت قد منعت تحويل المواد في أمريكا، بما في ذلك صناعة الحديد، وذلك حتي تبعد كل امكانية لنشأة منافس جديد لها. ومن المعروف أن وليام بت كان قد صرح بأنه سيملأ المستعمرات بالجنود إذا قامت هذه المستعمرات بصنع خيط واحد من الصوف، أو صنع حدوة حصان واحدة. وكان المعمرين في الشمال لا يرضون بهذه السياسة وطالبوا بالاعتراف بحقهم في إنشاء الصناعة.

وكانت هناك مطالب إقليمية، خاصة وأن انجلترا كانت قد منعت دخول الأمريكيين إلي الأقاليم الغربية التي كانت قد استولت عليها من الفرنسيين، وذلك بدعوي منع وقوع صدام مع الهنود. فأخذت شركات امريكية في المطالبة بهذا الحق، خاصة وأن هذه الأقاليم كانت بكراً وكانت لها إمكانيات كبيرة.

وكانت هناك مطالب سياسية، خاصة وأن المعمرين كانوا خاضعين للقوانين الانجليزية، والتي يصدرها برلمان لندن، ودون أن يكون الامريكيين ممثلين فيه. واعتقد الامريكيون أنهم قادرون علي وضع تشريعاتهم بأنفسهم. وكان النظام المتبع هو أن الملك في مجلسه الخاص يقوم بدور المشرع للمستعمرات، وحينما تصل تعليمات جلالته إلي أمريكا، وكانت هذه التعليمات تتحول إلي قوانين للأمريكيين، وكان علي الامريكيين إطاعتها وتنفيذها. ولكن الأمريكيين اعتقدوا علي العكس من ذلك بأن من حق مجالسهم في المستعمرات أن تصوت علي القوانين اللازمة لهم ثم ترفع هذه المشروعات بقوانين إلي لندن لكي تحصل علي موافقة الملك.

وكانت هناك مطالب مالية، ولم تكن أقل من غيرها أهمية. وكان تنظيم الأقاليم التي انتزعت من فرنسا، واحتلال كندا بجيش بلغ عشرة آلاف جندي انجليزي، وغيرها يتطلب كثيراً من النفقات، وعملت إنجلترا علي تغطية هذه النفقات بفرضها ضرائب علي المستعمرات الأمريكية، واحتج الأمريكيون علي ذلك بأنهم كانوا لا يزالون في عهد الصبا، وأن من واجب بريطانيا عدم اثقال كواهلهم بالضرائب في ذلك الوقت. ولكنهم كانوا يتضاربون مع أنفسهم، خاصة وأنهم كانوا يعتقدون بأنهم بلغوا مرحلة البرلمان البريطاني أن يفرض الضرائب علي المعمرين الأمريكيين وبصفتهم رعايا بريطانيين، ورد المعمرون علي ذلك بأنهم لن يدفعوا إلا الضرائب التي وافقت عليها مجالسهم، وأن فرض ضرائب لم يصوتوا عليها يعتبر مماثلا لجمع الجزية أو الغرامة الحربية في بلاد معادية.

ورغم ذلك فإن وضع الأمريكيين كان صعبا خاصة وأن كل مستعمرة كانت تجهل المستعمرة المجاورة لهم، ولم يكن من السهل علي المعمرين أن يتحدوا ضد الأمة التي جاءوا منها والتي كانوا لا يزالوان يرتبطون بها بروابط الدم والمصلحة والعاطفة، والتي كانوا يحبونها أكثر مما يحبون أنفسهم، ولم يكن المعمرين متحدين فيما بينهم حتي في داخل المستعمرة الواحدة، ذلك أن البعض كانوا يفكرون في استمرار ولائهم لانجلترا، في الوقت الذي كان فيه غيرهم يفكرون في استقلال ذاتي بدرجة معينة من المرونة، ولكن أنصار الحرية كانوا كلهم يعارضون في الخضوع.

وكان ابتعاد الخطر الفرنسي يخدم أهداف الأمريكيين، خاصة وأن انجلترا كانت تستند اليه كحجة هامة للاحتفاظ بخضوع مستعمراتها لها ولقد فكر الفرنسيون أنفسهم في هذه الوضعية الجديدة التي ستنشأ بين الأمريكيين

والإنجليز بعد خروجهم من كندا سنة ١٧٦٣، وعرفوا أن لندن ستفقد حجتها في فرض حمايتها علي أمريكا. حقيقة أنه كان في وسع بريطانيا أن تلوح بخطر الهنود الحمر، ولكن المستعمرات كانت قادرة وبمفردها علي مواجهته وبدون حاجة إلي معونة إنجليزية. ولقد نجح هذا التقدير، ومنذ اليوم التالي لمعاهدة باريس سنة ١٧٦٤ اصطدم الشعبان حول موضوع الضرائب. وكان مجلس العموم يبحث موارد جديدة، فصوت علي قوانين تفرض الضرائب علي استيراد السكر والعسل الأسود إلي أمريكا. كما حاول الانجليز أن يتدخلوا لمنع عمليات التهريب، وحاولت لندن أن تنفذ ما قررته فأطرت المستعمرات إلي التسليم أمام قانون السكر. ولكن الاحتياجات المالية دفعت البرلمان في السنة التالية إلي فرض استخدام طوابع الدمغة علي كل وثيقة أو شهادة أو صحيفة أو اعلان أو كتاب يتداول في أمريكا، فبدأت الإحتجاجات في الظهور، وكانت العاصفة، ونادي المعمرون في مساشوست بضرورة منع استخدام البضائع الانجليزية مما آثار تجار انجلترا، واضطرت الأوساط المالية إلي الضغط علي البرلمان لكي يلغي قانون الدمغة. ولكن تراجع الانجليز لم يكن كافيا لتصفية الجو بين الامريكيين والإنجليز، بل عمل علي العكس من ذلك علي تغير الموقف وبرد فعل قوي، خاصة وأن الأمريكيين قد شعروا بامكانية إنتصارهم، وما دامت إنجلترا قد تراجعت مرة، ففي وسعهم أن يجبروها علي التراجع مرات جديدة.

وسرعان ما جاءت مناسبة جديدة، ذلك أن لندن قد وجدت أن الأمريكيين يعارضون الضرائب الداخلية، فحاولت أن تفرض عليهم ضرائب خارجية وصوت مجلس العموم علي فرض ضرائب بسيطة علي إستيراد الزجاج والرصاص والألوان والورق والشاي. فقام المعمرون نتيجة لذلك يرفض التعامل

في السلع البريطانية، وبشكل أجبر الرأي العام البريطاني علي الضغط ثانية علي حكومته، التي تراجعت من جديد في هذه القرارات. وألغيت كل هذه الضرائب ما عدا الضريبة الخاصة بالشاي سنة ١٧٧٠ . ولم تعرف إنجلترا أنها قد إرتكبت بذلك خطأ مضاعفا: ذلك أن التنازل لم يكن يؤدي إلا إلي تدعيم المطالب الأمريكية، كما كان الإحتفاظ بضريبة إسمية يعني تحدي المعمرين. ولم يبق هناك إلا المبدأ الذي يطلب قراراً، وكانت هذه المبادئ هي أسباب إعلان الحروب ونشوب الثورات.

لقد كان من الممكن تسوية المسألة إذا كان الأمريكيون لم يحاولوا زيادة إشعال النيران، وإذا كان الإنجليز لم يعملوا علي تكرير الأخطاء، وعملت لندن علي إلغاء هذه الضرائب بالنسبة لشركة الهند وحدها، والتي كانت لديها كميات كبيرة من الشاي ترغب في بيعها، وللأمريكيين. ولكن التجار الذين كانت لديهم كميات من الشاي الهولندي عارضوا في ذلك، وفضحوا نيات الحكومة. فكانت النتيجة، وفي هذا الجو، هو القاء أول شحنة من الشاي الانجليزي إلي البحر في بوسطن سنة ١٧٧٣، ورد البرلمان علي ذلك باغلاق الميناء وبمنع الاجتماعات. وفي هذه المرة أصبح لدي الأمريكيين سببا قويا وهو الاعتداء علي حرياتهم، فأعلنت المستعمرات تضامنها مع بوسطن سنة ١٧٧٥ . واجتمع أول مؤتمر، أو كونجرس في فيلادلفيا لدراسة وسائل المقاومة. وبدأ الاتحاد بين مستعمرات متفرقة وأمام دولة كانت هي الدولة الأم بالنسبة إليهم.

وسرعان ما بدأت الحوادث والاشيباكات خاصة وأن الانجليز قد عملوا علي تعزيز حامياتهم في أمريكا، وبدأ الانجليز يحتكون بالحرس المسلح الذي كونه أبناء الحرية في أمريكا. ولقد أطلقت أولي طلقات الرصاص قرب

بوسطن بين الطرفين، وسالت الدماء، سنة ١٧٧٥. ولقد اعتبرت إنجلترا أن المستعمرات قد أعلنت تمردها، وكان أبناء المستعمرات يعرفون أنهم قد أعلنوا الثورة.

٢- إنجلترا تفقد أمريكا:

ظهر أن إنجلترا كانت تستخدم سياسة الضعف في الوقت الذي كان في وسعها أن تستخدم فيه الشدة، وقامت إنجلترا بمنع كل تجارة مع المستعمرات الثائرة وأعلنت أنها ستأخذ غنيمة كل السفن الامريكية التي تأسرها في البحر. ورد المعمرون علي ذلك بمؤتمر جديد عقدوه في فيلادلفيا سنة ١٧٧٦. وانتخبوا فيه المزارع جورج واشنطون لقيادة قوات الحرس الوطني. وتمكن واشنطون من الاستيلاء علي بوسطن.

ولقد عمل هذا المؤتمر علي إبعاد أي قلقلة في الوضعية، فأعلن إستقلال أمريكا. وقام جيفرسون بكتابة إعلان الاستقلال الذي وافق عليه ممثلوا المستعمرات الثلاثة عشر: «نحن، ممثلو الولايات المتحدة الأمريكية، المجتمعون في مؤتمر عام، ننشر ونعلن رسميا أن المستعمرات المتحدة قد حصلت علي حقها لكي تصبح دولا حرة ومستقلة، وأنها قد تخلصت من كل خضوع تجاه تاج بريطانيا العظمي، وأن صلة سياسة بينها وبين دولة بريطانيا العظمي هي مقطوعة تماما، ويجب أن تكون كذلك".

ولقد بقي الثوار منقسمون رغم إجماعهم الذي وصلوا إليه في المؤتمر. ولم يتمكن واشنطون من تجميع ٢٠ ألف رجل. وكانت الأقوات والذخائر تنقصه فماذا كان في وسعه أن يعمل أمام إنجلترا سيدة البحار، التي كانت تقيم في كندا، وفي وسعها استخدام قوات مرتزقة؟ لقد أخلي الأمريكيون نيويورك ثم

فيلادلفيا وقاموا في مساشوست. أما الانجليز فقد خسروا الوقت وقاموا بمناورات خاسرة، وكانوا واثقين من نتيجة عملياتهم.

ولم يكن من السهل علي المستعمرات المتحدة أن تكسب الحرب بدون معونة فرنسا. وكانت فرنسا ترحب بمساعدتهم ولكن علي أساس عدم إشتباكها في الحرب. فقام فرجين بتسليم المدافع والبنادق والذخائر إلي الثوار، وعمل بومارشية وسيطا في هذه العمليات. وذهب فرنكلين إلي باريس بصفته سفيراً وداعياً لتأييد أمريكا، وقابله الفرنسيون بحماسة كبيرة وقبله فولتير، وحيا الفرنسيون فكرة تحرير العالم الجديد وسط هذا الحماس الشعبي، وفي الوقت الذي لم يكن الاتحاد قد تم فيه بعد بين صفوف الثوار الأمريكيين أنفسهم.

وإذا كان البلاط الفرنسي قد بقى حذراً، فإن المتطوعين قد قيدوا أسمائهم،وكانوا يرغبون في الإنتقام من إنجلترا، كما كانت الغابات العذراء وبنات الهنود الحمر تجذبهم أكثر من حبهم للحرية، التي لم يكونوا قد حصلوا عليها بعد في بلادهم. أما لافاييت فإنه قد أخذ يحلم بإعادة غزو كندا بعد أن أصبح قائدا للمتطوعين، ولم يكن قد بلغ العشرين بعد. ويمكننا أن نذكر بعد ذلك من الألمان كالب واستوين الذي عمل على تنظيم الحرس الأمريكي على الطريقة البروسية. ورغم ذلك فإن الثوار لم يكونوا في حاجة إلى قادة بنفس درجة إحتياجهم إلي تدخل جماعي مع إمداد في المعدات والأموال.

ولقد قررت فرنسا وإسبانيا، وكانت مرتبطتين بحلف أسرة واحدة، الاعتراف باستقلال أمريكا، وبمساعدة الثوار. وكان الفرنسيون يعلمون أن النصر سيكلفهم الكثير، وأن الهزيمة ستكون مميتة للملكية. فهل فكروا في

إعادة غزو كندا؟ لم يكن هناك من يرحب بهذه الفكرة. وتعهدوا من أول الأمر للأمريكيين بعدم المطالبة بها. أما الإسبانيين فقد رأوا أن الثورة ستعطي مثلا سيئا لمستعمراتهم الأمريكية. ورغم ذلك فإن كل من باريس ومدريد قد دخلت الحرب: أما باريس فقد فعلت ذلك لضرب قوة بريطانيا ضربة شديدة، وأما اسبانيا فأنها كانت تأمل في الحصول علي جبل طارق.

وكان الوقت قد أزف، ولم يكن لدي واشنطون الا حفنة من الاتباع. فأنضم روشامبو مع رجاله الفرنسيين إلي الأمريكيين. وأضطر كورنواليس الانجليزي إلي التسليم في يوركتون سنة ١٨٧١ . وإذا كان الإسبانيون قد فشلوا أمام جبل طارق فأنهم قد نجحوا في الاستيلاء علي مينورقة وفي ابعاد البريطانيين عن لويزيانا. أما الفرنسيون فقد ظلوا محتفظين بتفوقهم في الأنتيل حتي قام رودني بانقاذ جامايكا سنة ١٧٨٢، ونجح سوفران في الهند وعاد حزب الويجز إلي السلطة، بعد أن تعب الرأي العام البريطاني، وقام الانجليز بالمفاوضة من أجل الصلح. وأعترفت معاهدة باريس سنة ١٧٨٢، بين الانجليز والأمريكيين باستقلال الولايات المتحدة، وسيادتها، وحتي خط الميسيسبي، والتي كانت لويزيانا الإسبانية تقع فيما وراءه. أما معاهدة فرساي بين الإنجليز والاسبانيين والفرنسيين،والمعقودة في العام التالي، فأنها سمحت لاسبانيا باستعادة فلوريدا ومينورقة. واعترفت لفرنسا بالإستيلاء علي بعض الجزر الصغيرة في الأنتيل، وأعطت لها السنغال. وكانت نتائج هذه المعاهدات مهمة. أما بالنسبة لفرنسا فأنها قد تذكرت هزائمها الماضية، ولكنها جعلت منها دولة استعمارية لها امبراطورية تتسع علي ١٤٠ ألف كيلو متر مربع، يسكنها مليون من السكان وتمتد إلي أنام. أما بالنسبة لأمريكا فأنها قد أصبحت مستقلة . ونجحت ثلاث عشرة مستعمرة في التحرر

دفعة واحدة، وكانت سابقة خطيرة. ولكن علينا هنا أن نعترف بأن المعمرين هم الذين حصلوا علي إستقلالهم، لا العناصر الوطنية. أي أن الانجلو سكسون هم الذين انفصلوا عن الوطن الأم الانجلوسكسوني، دون أن يدخل الهنود في هذه العملية. بل علي العكس من ذلك نجد أن الانجليز والهنود قد تعاونوا أكثر من مرة ضد المعمرين الثائرين. ولذلك فإن استقلال أمريكا وحريتها لن يكون إستقلالا أو حرية للهنود.

وإجتمع خمس وخمسين ممثلا للدول الحديثة في مؤتمر في فيلادلفيا علي طريقة مونتسكيو، وفي جلسة سرية سنة ١٧٨٧ أخذوا في وضع دستور أمريكي ينص علي رئيس، وهو الذي سيصبح واشنطن، ومجلسين، وانتخاب يقوم به الملاك. وكان تقسيم الدوائر الانتخابية علي الأهالي في التمثيل يعني أن العبد الأسود يعادل ثلاثة أخماس مواطن، وأن الهندي يعادل الصفر. ولقد أعطي الدستور لكل المواطنين في كل دولة أو ولاية الحق في كل الإمتيازات التي تعطي للمــــواطنين، ولكنه لم يدخل الهنود ولا الزنوج داخل نطاق المواطنين.

ولكن، هل كانت الولايات الثلاثة عشر متحدة حقا؟ إن صلتها الحقيقية، والرباط بينها لم يكن يتمثل في الدستور بقدر ما كان يتمثل في هذه الأقاليم الواسعة الواقعة إلي الغرب والتي سيستمر فيها التوسع الأمريكي لطرد الهنود ونزع ممتلكاتهم. وستقوم الدولة الفدرالية بتقسيم الأراضي التي يستولي عليها إلي مربعات تبيعها ولصالحها ويسعر دولار واحد للفدان. وعمل ذلك علي نشأة ولايات جديدة كلما يصل عدد سكان أي أقليم إلي ٦٠ ألف نسمة . وحينما تأخذ أوربا في مناقشة مشكلاتها الديموقراطية والاجتماعية، ستظل أمريكا تجهل هذه المشكلات عملياً كل الجهل، ما دام

أقصي الغرب مفتوح أمامها ، وسيعمل هذا الغرب علي تدعيم الصلة والاتحاد بين الأمريكيين أنفسهم.

أما بالنسبة لانجلترا فإن الخسارة كانت شديدة بعد أن فقدت أحسن مستعمراتها ، ولقد حاولت بريطانيا أن تقصر خسارتها علي الناحية السياسية وتحتفظ بامتيازاتها الاقتصادية، خاصة وأن صلاة لغوية وتقاليد معينة كانت تدفع بأمريكا إلي أن تظل علي تعامل مع الوطن الأم القديم، والواقع أن أمريكا قد ظلت تشتري من إنجلترا أغلب ما كانت تحتاج إليه في السنوات التالية للصلح . ورضي الانجليز بذلك معتقدين بأنه ليس من الضروري أن يستعمروا لكي يبيعوا لولا أن يحكموا لكي يتاجروا. ولكن الأمريكيين سيتملصون من هذه العلاقات وسرعان ما سيأتي الاستقلال الاقتصادي بعد الاستقلال السياسي ولقد حاولت الحكومة الانجليزية بعد هذه الهزيمة أن تعمل علي تعويضها ، وبنفس الطريقة التي قامت بها فرنسا منذ ٢٠ سنة سابقة، فعملت إنجلترا علي محاولة تأسيس منشآت جديدة وعلي تدعيم المراكز البريطانية في المستعمرات القديمة، وعلي الاستعداد لكي تنتقم هي الأخري من فرنسا.

وكانت إنجلترا في حاجة ملحة إلي مستعمرة جديدة وخاصة لنفي المجرمين. ففكرت إنجلترا في جبل طارق ثم في سواحل افريقية الغربية، ولكن كوك الذي كان يبحث عن قارة جنوبية كان قد عثر علي إستراليا سنة ١٧٧٠، وقبل أن يصل إلي أراض جديدة في جنوب المحيط الهادي وإلي نيوزيلاند وفي سنة ١٧٨٧ أنزلت ست سفن سبعمائة وخمسين من المجرمين في أحد الخلجان قريبا من المكان الذي ستنشأ سدني فيما بعد.

وعملت إنجلترا علي ألا تفقد كندا التي كانت آخر ممتلكاتها في أمريكا الشمالية. ووضعت لذلك سياسة حكيمة وذلك باعطاء الحرية الدينية إلي الكاثوليك الفرنسيين، وذلك بقانون كويبيك سنة ١٧٧٤، وأبعدت بذلك كندا عن المستعمرات الثائرة ووصلت بينها وبين التاج. وإذا كانت إنجلترا قد أدخلت في كندا قانون العقوبات والقانون التجاري الإنجليزيين، فأنها إحتفظت لها وفي شئونها المدنية بقوانين وتقاليد باريس وحينما تحصل كندا علي دستورها ستحصل المقاطعة الفرنسية فيها علي حاكم خاص بها وعلي مجلس منتخب. وكان من نتيجة ذلك خروج بضعة عشرات من الآلاف من الأمريكيين الموالين لبريطانيا من الولايات المتحدة ومجيئهم لتدعيم السكان الإنجليز في اسكتلندا الجديدة وبقية المقاطعات الكندية.

أما في الهند فإن إنجلترا قد إستخدمت المدة لتوسيع امبراطوريتها وللحصول علي ميراث المغول، وفرضت سلطتها علي الأقاليم وإشتدت علي نوابها ثم عينت حاكما عاما في سنة ١٧٧٣ إمتدت سلطته وأشرفت علي كل عمليات شركة الهند. وأصبح الملك يعين المديرين الذين يشرفون علي الادارات وبشكل لم يجعل من الشركة أكثر من واجهة تخفي وراءها سلطة الحكومة.

وعملت بريطانيا علي إنهام مديري شركة الهند حتي تدعم سلطة الدولة علي هذه الأقاليم وتساوي في ذلك كل من كلايف الذي كان قد غزا البنغال وهاستنجز الذي كان قد دافع عن الهند أثناء الحرب الأمريكية. ولقد برأت كل منهم رغم أنهم كانوا قد استغلوا الراجات والبيجومات، ما داموا قد عملوا ذلك من أجل عظمة بريطانيا. ولكن هذه المحاكمات أظهرت حزم حكومة لندن وأظهرت عزمها علي تأييد الرجال الذين يعملون من أجل إنجلترا. وكانت إنجلترا قد تركت بضعفها مستعمراتها الأمريكية تفلت من بين أيديها، ولذلك

فأنها قررت هذه المرة ألا تترك رعاياها الهنود يفلتون من بين أيديها. وكان عددهم ثلاثين مليونا ووصل سريعا إلي مائة مليون.

أما إيرلندا فأن مشكلاتها كانت تشبه مشكلات أمريكا، فقد كان فيها معمرين من الإنجليز، وكان لهم برلمان في دبلن يرفض أن يقوم برلمان لندن بسن القوانين لهم. وبدلا من الهنود الحمر فقد كان هناك الايرلنديون الكاثوليك الذين حرموا من حقوقهم السياسية وكانوا يرسفون في أغلال البؤس. وكانوا مستعدين دائما للثورة. وفي الوقت الذي طالب فيه المعمرون الانجليز بالحرية التجارية طالب فيه الوطنيون الايرلنديون بحرية العبادة. ولقد قام كل من الانجليز والوطنيين في إيرلندا بنفس وسائل الأمريكيين من الاضراب عن التعامل في المنتجات الانجليزية سنة ١٧٧٩. وحاول مجلس العموم البريطاني مع بعض التسهيلات للتصدير إلي إيرلندا، ولكن المنتجين البريطانيين كانوا يخشون المنافسة وعرضوا كل توسع في صالحها.

ولم تتساهل إنجلترا أمام ثورة إيرلندا سنة ١٧٩٨ بعد أن تساهلت في ثورة أمريكا، خاصة وأن إيرلندا كانت قريبة منها. فحلت إنجلترا برلمان دبلن وأجبرت نواب إيرلندا إلي الحضور علي مجلس العموم كنواب لبريطانيا العظمي التي ستصبح المملكة المتحدة سنة ١٨٠١ .

وهكذا تري أن دروس أمريكا قد أفادت حكومة لندن وجعلتها تصبح أكثر تشدداً عما سبق. وإن كان رد الفعل الحقيقي لانجلترا سيتجه صوب فرنسا خاصة وأنها كانت تلك الدولة التي حاولت أن تنتقم لفقد مستعمراتها بتأييد الثورة الأمريكية. ولذلك فإن انجلترا ستنتقم بدورها لما حدث لها وذلك بتأييدها للثورة الفرنسية.

٣- لتسقط المستعمرات:

لقد جاء إعلان حقوق الإنسان الذي صوت عليه المجلس الوطني بعد شهر ونصف من سقوط الباستيل بشكل يتعارض مع النظام الاستعماري. وأعلنت المادة الأولي منه أن الرجال يولدون ويبقوا أحراراً ومتساويين في الحقوق، كما أعلنت المادة السادسة منه أن القانون هو التعبير عن الادارة العامة وأن كل المواطنين لهم الحق في المشاركة فيه شخصيا أو عن طريق ممثليهم؛ وفي تكوينه، ومن الواجب أن يكون القانون واحداً بالنسبة للجميع.

ولقد رفضت حقوق الإنسان إخضاع وطني واحد مهما كان لونه. وأصبحت مبادئ سنة ١٧٨٩ مصدراً دائماً لا ينضب لأعداء الاستعمار، ولكن الغريب في الأمر هو أن هذه القوانين قد صوت عليها مجموعة من المستعمرين خاصة وأن غالبية المجلس التشريعي كانت تدين بالآراء الاستعمارية رغم أنها كانت لا تدري أن إعلان حقوق الانسان الذي أصدرته كان ضد مبادئها. ولقد وضعوا الاعلان لكل الرجال، ولكل وقت ولكل إقليم وحتي يكون مثلا للعالم. ولكنهم نسوا أن فرنسا نفسها كانت لها مستعمرات لا يزيد عدد الرجال البيض فيها علي مائة ألف رجل، في الوقت الذي يصل فيه عدد العبيد إلي ٧٥٠ ألف، ويصل فيه عدد الرجال الأحرار من الملونين إلي ٥٠ ألف، وكان لها مائة ألف من الهنود في جزر المحيط الهندي ولن يترددا كثير في المطالبة بحقوقهم الجديدة حسب مبادئ المساواة والحرية.

ولم تتمكن الثورة الفرنسية من الخروج من هذا المأزق الذي أدخلت نفسها فيه بكل بساطة. واعترفت في السنة الأخيرة للجمعية التشريعية بأن عليها أن تختار بين إعلان حقوق الإنسان وبين المستعمرات، ولم تقدر علي إتخاذ قرار في هذا الشأن.

وظهر إتجاهان وحزبان في الميدان كان أولهما يفضل المصالح علي المبادئ، ويفضل المستعمرات مع الاحتفاظ بعدم المساواة والتحكم . وظهر في هذا الاتجاه ممثلين للجزر ونواب بعض الموانئ التي تهتم بتجارة ما وراء البحار، وأقارب المزارعين: أما الحزب الثاني فقد فضل المبادئ وقبل ما يترتب عليها من نتائج وكانوا أكثر نقاءا وأكثر عمقا وظهر من قوادهم روبسبير وذهبوا في منطقهم حتي إلغاء نظام الرق والتخلي عن المستعمرات. ولكن المجلس الوطني إمتنع عن إختيار هذا الطريق أو ذلك، وأقفل علي نفسه الباب وإستمر في المناقشة وهو مصمم علي عدم الوصول إلي نتيجة.

وكان من غير الممكن تجاهل هذه المستعمرات خاصة وأنها كانت تتسبب في مشكلات تتطلب الحلول. وكانت أولي هذه المشكلات هي مشكلة تمثيلهم في الجمعية التأسيسية وأرسل المزارعين وأرسل المزارعين نوابهم إلي باريس بعد أن حرموا من المشاركة في مجلس طبقات الأمة. واضطرت الجمعية التشريعية لاستقبالهم ولكنها فكرت في أن يصبح لكل مستعمرة مجلسها الخاص كما كان عليه الحال في المستعمرات الانجليزية، فنشأت مجالس مستعمرات ووعدت باريس باستشارتها في نصوص القوانين التي تخصها. والنقطة الثانية كانت هي تحديد من يشاركهم في إنتخابات نواب هذه المجالس، وأستقر الرأى علي أن يكونوا هم دافعي الضرائب. وترتب علي ذلك مشكلة جديدة وهي مشكلة الزنوج، خاصة وأنهم قد أصبحوا أحرار ويدفعون الضرائب، أي أن في امكانهم الاشتراك في الانتخابات، رغم معارضة المزارعين السماح للزنوج بالمشاركة في الانتخابات، وذلك لخوفهم من إمتداد هذا الحق من الزنوج المحررين إلي الزنوج العبيد الذين كانوا لا يزالون يعملون في مزارعهم. وكان كبار المزارعين يخشون من صغار البيض أو من فقراء

البيض الذين يمكنهم أن يتغلبوا عدديا علي كبار البيض أي علي المعمرين الأغنياء. ولقد أكد المزارعون البيض أن لرجال الملونين ليست لهم أية حقوق في المستعمرات الانجليزية ولا في الولايات المتحدة، وأنهم سيصبحون ملوكا للمستعمرات بمجرد دخولهم في مجالس هذه المستعمرات، وذكروا بأن هذه السياسة ستضطر البيض إلي هجرة المستعمرات وإلي بيع ممتلكاتهم، وأن المستعمرات لن تري إلا تغير سيد بسيد آخر. وأكد غيرهم أن التأييد المعنوي لازم لسيطرة عدد بسيط من الرجال البيض والملونين، وأن هذه المسافة التي تفصل بينهم هي أساس بقاء الهدوء في المستعمرات، وأن الزنجي سيتغير بمجرد معرفته لمساواته بالرجل الأبيض، وسيتغير بالتالي هدوء المستعمرات وامكانية معيشة البيض فيها. ورغم أن نظام الرق كان غير منطقي إلا أنه كان قائما بالفعل ولا يمكن تغييره فجأة دون أن يتسبب ذلك في مصائب كبيرة.

أما أنصار الزنوج فكانوا يتساءلون عما إذا لم يكن الزنوج من البشر وعما إذا كان اللون يغير طبيعة شعور وقلوب المواطنين . وتساءلوا عن امكانية التضحية بالمبادئ الانسانية من أجل بعض المعمرين، كما تساءلوا عما إذا كان الابقاء علي طبقتين من الرجال يعرفون حقوقهم، الواحدة مستعبدة والثانية مستعبدة يمكنه أن يحتفظ بالمستعمرات في حالة من الهدود والاستقرار، وطالبو بألا ينسخ إعلان قانون الانسان وعلي حساب طبقة من الرجال الأحرار من ذوي الأملاك ودافعي الضرائب والوطنيين في المستعمرات والذين يسمون بالملونين وتساءلوا عما إذا كان منحهم حقوقهم سيفقد فرنسا مستعمراتها، في الوقت الذي منحت فيه فرنسا هذه الحقوق لكل أبناءها ولم يزد بنيانها إلا صلابة. ونادي آخرون بضرورة التنازل عن المصالح من أجل

العدالة وضرورة التنازل عن المستعمرات من أجل المبادئ ونادي روبسبير بسقوط المستعمرات إذا كانت ستكلف فرنسا شرفها ومجدها وحريتها. كما نادي بسقوطها إذا كان المعمرون يرغبون في إجبار الفرنسيين علي تقرير ما هو مجرد مصالح لهم. إن الشعب لا يخضع لرجل واحد، فلينطلق الجميع إلي الأمام وليعلموا أنه ليس هناك شعب ملك لشعب آخر.

ولكن الاتجاه العملي كان يعارض هذه المنفرجات فوافقت الجمعية التأسيسية علي حل وسط ينص علي أن الرجال الملونين المولودين من آباء أحرار يحصلون علي حقوق المواطن. وقامت نفس الجمعية بالغاء إمتيازات شركة الهند وأعلنت حرية التجارة مع المستعمرات وأنها تجارة بين أخوان وتجارة الأمة مع جزء من الأمة واحتفظت حكومة الوفاق بهذه التجارة للعام الفرنسي سنة ١٧٩٣، وبشكل يدعم البحرية الفرنسية أمام البحرية البريطانية . وكان معني ذلك إعادة العمل بقانون الملاحة. والاحتفاظ بالمستعمرات التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الجمهورية الفرنسية.

ورغم ذلك فلم يكن من السهل تناسي مشكلة الرق. ورغم مناداة أصدقاء الملونين بالغاء هذا النظام، فإن المعمرين قد وضعوا ممتلكاتهم في حماية الأمة وكان العبيد يكونون جزءاً من هذه الممتلكات. وجاء الوقت الذي أصبح هذا الموقف يتضارب تماما مع مبادئ الثورة وأصبح فيه المواطن الملون يمثل الشعب ، وكان تحرير العبيد يعني خلق المشكلات أمام إنجلترا التي سينضم عبيدها إلي مبدأ الثورة الفرنسية.

وشهد عام ١٧٩٤ مظاهر فريدة في نوعها حين جاء ثلاث نواب من سان دومنجو للاشتراك في المجلس أحدهما أسود والثاني أصفر والثالث أبيض

وكـانوا أول رجـال ملونين يجلسـون في المجلس ودل ذلك علي المسـاواة بين الجميع. وكان استقبالهم حماسيا واقترح النواب في الجلسة التالية إلغاء نظام الرق في كل أقاليم وأراضي الجمهورية وأعلن النواب أنهم قد حطموا اغلالهم وأن من واجبهم القيام بنفس العمل تجاه الرجال الملونين. ووقف كل النواب وأعلن رئيس المجلس إلغاء نظام الرق وسط آلاف الصيحات والهتافات للجمهورية . وأصبح كل الرجال الذين يقومون في المستعمرات، ودون اعتبار الوانهم، مواطنين فرنسيين ولهم نفس الحقوق التي يضمنها الدستور وأعلن دانتون وسط هذا الحماس لنواب الشعب الفرنسي أنهم كانوا لم يعلنوا الحرية حتي ذلك الوقت إلا بطريقة أنانية ولأنفسهم فقط، وأنهم يعلنونها اليوم أمام العالم حرية عالمية. أنه اليوم الذي تموت فيه النظم الانجليزية. ولكنه فشل في منحهم هذه النقطة الأخيرة. ذلك أن انجلترا كانت قد ساعدت الثورة الفرنسية، ومن أولها، ولكي تهدم فرنسا وستقوم الآن بانتهاز فرصة الثورة لمحاربة فرنسا. ولم تأبه إنجلترا لالغاء الرق، إذ أنها كانت تستعد لنهب المستعمرات ولاستعباد العالم.

٤- النهب البريطاني:

كانت جزيرة سان دومنجو أعز الجزر علي الفرنسيين. كانت هي جزيرة هسبانيولا السابقة التي أكتشفها كولومب وهايتى التي إحتفظ الاسبانيون بنصفها الشرقي. وكانت سان دو مينجو سببا في إثراء تجار نانت وبوردو والهافر. ولكن سكانها كانوا ينقسمون إلي طوائف كثيرة، وكان كبار البيض يحتقرون صغارهم، وهؤلاء بدورهم يحتقرون المخلطين، ويحتقر المخلطون الرجال الملونين الأحرار، ويقوم هؤلاء باحتقار العبيد الذين كانوا أكبر طائفة من السكان.

ولقد كون المزارعون والذين كانت لهم في عهد الملكية غرفة تجارية، بتكوين مجلس له إتجاه إستقلالي بمجرد إعلان الثورة الفرنسية. ووضعوا دستورا وعرضوه علي الملك سنة ١٧٩٠ وكانت هذه العملية صدمة للمجلس الوطني في باريس، فقام بالقبض علي عدد كبير من أعضاء مجلس سان دومنجو وفرنسا في ظل الفوضي التي سادت مع الثورة . وأخذ أنصار الثورة يقاتلون رجال الملكية في الجزيرة، وحاول المخلطون أن يستفيدوا من الموقف ثم حاول العبيد بعد إعطاء حقوق المواطنين للرجال الملونين الأحرار أن يعلنوا الثورة. ولكن الجزيرة بقيت في أيدي الزنوج الثائرين بعد سنوات طويلة من الحروب الداخلية المستمرة.

وكان رئيس الزنوج هو توسان ذلك الرجل الطموح الفخور الحازم البليغ. وتمكن من التخلص من الانجليز كما تخلص من مندوبي الجمهورية وحكم القسم الاسباني من الجزيرة كما حكم القسم الفرنسي. ومد حمايته علي الرجال البيض الذي كان محتاجا لهم، ولكنه كان يصادر ممتلكاتهم في حالة رفضهم العودة إلي الجزيرة. وقام بتحرير الزنوج، ولكنه أرغمهم تحت ضرب السياط علي أن يعملوا إجباريا علي أراضي سادتهم السابقين، وأعطاهم ربع غلة هذه الأراضي. ولم يعترف لفرنسا إلا بسلطة اسمية، رغم أنه نظم جيشه من الزنوج علي الطريقة الفرنسية، وحينما أصبح بونابرت قنصلا أعلن توسان نفسه رئيسا مدي الحياة وإحتفظ لنفسه بالحق في تعيين خلفائه. وكان له حرسه الخاص، وبلاطه، وقصره، وستراته الجميلة.

ولقد كتب الجنرال الرئيس توسان لوفويتر إلي بونابرت بصفته رئيسا للزنوج إلي رئيس البيض، وعرض عليه سنة ١٨٠١ مشروع دستوره الذي لم تكمن فيه أية إشارة إلي الروابط مع فرنسا. ولقد ضحك بونابرت من هذه

الطريقة وأنعم علي توسان برتبة فريق ولكنه أرسل إلي الجزيرة فريقا أول هو ليكليرك، زوج أخته بولين. وأرسل القنصل الأول مع ليكليرك أسطولا يتكون من عشرين سفينة وعشرين فرقاطة تحمل عشرين ألف جندي حتي لا يحدث لبس عند توسان في نوايا فرنسا.

ونجحت عملية إنزال الجنود إلي البر. ولم يتمكن توسان إلا من أشعال الحرائق ثم الهرب إلي الجبال ومعه الاسري من البيض لقتلهم. ولكنه سلم بعد ذلك فأعاد الفرنسيون له لقبه ورتبته، كما أعادوا له ممتلكاته ولكنه حاول القيام بثورة جديدة، فلستدرجه الفرنسيون إلي أحد الكمائن وأسروه إلي فرنسا حيث مات سنة ١٨٠٢. وكان توسان قد أعلن أن الفرنسيين بأسقاطهم أياه لم يقوموا إلا باسقاط جذع شجرة حرية الزنوج، ولكن الجذور باقية وستنبت من جديد لأنها عميقة وكثيرة.

وكانت أقواله حقيقية، خاصة وأن مناخ سان دومنجو كان يخدم الزنوج وينهك البيض. فمات ليكليرك، وقضت الحمي الصفراء علي ١٥ ألف رجل من جنوده، فقام أنصار توسان بدعوة الزنوج إلي الثورة وذبحوا المحتلين وأصبحوا سادة علي جزيرتهم. ولم يتمكن الفرنسيون من البقاء بصعوبة علي بعض نقط من المنطقة الاسبانية الا حتي ذلك اليوم الذي نزل فيه الانجليز في الجزيرة وأنهوا هذه المغامرة سنة ١٨٠٩ .

إن هذه القصة المؤثرة كانت الكثير إلي تاريخ الاستعمار، خاصة وأنها روت قصة أول دولة وطنية تحاول أن تدعم استقلالها . حقيقة أن الوطنيين لم يكونوا من أبناء الجزيرة الذين قابلهم كولومب عند مجيئة إليها، والذي كان جنسهم قد قضي عليه، وأن الزنوج لم يكونوا إلا مهاجرين من هذه الجزيرة،

ولكنهم كانوا يمثلون «الشعب» حسب تعريف الثورة. ولم يكن توسان يمثل واشنطن أسود ولكنه كان يمثل قائداً للعبيد في المستعمرات الجنوبية يحاول أن يلقي بواشطن إلي البحر.

وإنتهت هذه التجربة الفريدة في نوعها بعملية غزو بريطاني، وكان هذا هو مصير المستعمرات الأوربية في ذلك الوقت. لقد حاربت إنجلترا الثورة حتي صلح إميين، وحاربت الامبراطورية حتي سقوط نابليون. وكانت إنجلترا هي سيدة البحار والمحيطات، وتمكنت من جمع ونهب المستعمرات ونهب كل المستعمرات الفرنسية، ومستعمرات حلفاء فرنسا ومستعمرات الدول التي تحتلها فرنسا.

وكان ويليام بت هو الذي يحرك المقاومة والهجوم البريطاني. كان ابنا لذلك الرجل الذي أعطي كندا والهند لانجلترا. ولم يتردد كما لم يتردد والده من قبل في تعبئة كل موارد بلاده من أجل هذه الغاية. وتمكن أسطوله الذي إنتصر علي البحرية الفرنسية والاسبانية والهولندية من السيطرة علي كل أسواق التصدير فيما وراء البحار، وبشكل جعلة لا يأبة كثيراً بالحصار البري الذي فرضة نابليون على إنجلترا. وتمكن من عزل المستعمرات البعيدة ومنع وصول الإمداد لها من فرنسا. فسقطت في أيدي إنجلترا الواحدة بعد الأخرى.

وتمكن الإنجليز في المرحلة الأولى، مرحلة الثورة، من الإستيلاء على معظم جزر الأنتيل وعلى مراكز الهند. كما تمكنوا من الإستيلاء على مستعمرة الرأس وملقة ثم غيانا وسيلان من هولندا التي إحتلتها الجيوش الفرنسية. وأفلست الشركة الهولندية للهند بعد أن عجزت عن منافسة البريطانيين. وإستولى الإنجليز على ترينداد من أسبانيا بعد أن خرجت من التحالف المضاد لفرنسا.

أما في المرحلة الثانية، مرحلة حكم نابليون، فإن لندن قد جددت عملية الحصاد. وإستولى سنة ١٨١٠ على كل الممتلكات الفرنسية بما فيها سان دومنجو وجزر فرنسا والبوربون، التي ستصبح جزيرة ريونيون ثم جزيرة بونابرت. ولقيت جزر الأنتيل الدانمركية نفس المصير. وفقد الهولنديون مستعمرة الرأس مرة ثانية، ومستعمرة جاوة، بعد أن دخلوا في النظام القاري الذي أنشأة نابليون.

وكانت إنجلترا تبحث عن قواعد إستراتيجية أكثر من بحثها عن المستعمرات الواسعة وعن الأسواق اللازمة لتصريف المنتجات فإختارت نقطها على جزر، أو شبه جزر، وعند تقاطع الطرق وعند مدخل المضايق ولم تترك إنجلترا جبل طارق وأنشأت قواعد مشابهة له في كل الآفاق، عند هليجولاند التي إحتفظت بها لمدة قرن وجعلت منها مركزا وقلعة عند مصب الإلب والويزر، وفي ملطة التي رفضت إعادتها بعد صلح إميان، والتي أعطتها الإشراف على البحر المتوسط، وفي جزيرة بينانج التي حصل عليها أحد القباطين الإنجليز عند زواجة بإبنة سلطان هذه الناحية، والتي أعطاها إلى حكومة الهند كميناء ممتاز عند مضيق ملقة، وفي سنغافورة التي إشتروها من أحد السلاطين المحليين نظير دفع معاش له والتي أصبحت نقطة حراسة هامة لجزر التوابل قبل أن ينشأ فيها ميناء يجذب إليه معظم حركة التجارة الخاصة بالمنطقة. وكذلك نزل الإنجليز في مديرا وفي البليار وفي كورسيكا، وحتى على الجزر الصغيرة القريبة من السواحل الفرنسية. ونزل الإنجليز في الجزر الأيونية وفي جزر بحر دلماشيا، وكأن كل الجزر قد أصبحت من حقهم.

ولقد ظهرت الثورة الفرنسية مع الإمبراطورية لفرصة مواتية لإنجلترا. رغم أنها كانت تكلفها الكثير. ذلك أنها قد أبعدت كاثوليك كندا عن فرنسا

بشكل نهائي، وحطمت نفوذ الملكية الفرنسية في أنام وانهارت تجارة فرنسا الخارجية وإحتاجت فرنسا إلي ٣٦ سنة لكي تعود إلي نفس الأهمية الدولية والتجارية التي إحتلتها قبل الثورة وعلي العكس من ذلك نجد أن الانجليز قد تخلصوا من منافسيهم وأصبحت لهم كل الحرية في توسيع ممتلكاتهم .فتمكنوا سنة ١٧٩٢ من إنشاء سير اليونان، وعلي ساحل أفريقية الغربية، بمساعدة الزنوج التي حصلوا عليهم من تجار العبيد، واستكشفوا النيجر. وتمكنوا من إستعمار الهند، وكانت هذه العملية هي أهم العمليات.

وما الذي كان في وسع فرنسا أن تفعله لإمداد تيبو صاحب، نواب ميسور، الذي حاول أن يقف في وجه ولسلي؟ لقد أرسلت إليه فرنسا ثلثمائة رجل من جزيرة فرنسا، وكان لا يمكنهم القيام بشيئ يذكر فقتل تيبو صاحب عند حصار البريطانيين لآخر معقل له وإستولي الإنجليز علي ميسور، واستندوا في كل الهند إلي طبقة حاكمة كانت تعمل سابقا مع المغول وعهدوا إليها بأعمال القضاء والأمن تحت إشرافهم وكان من الطبيعي أن يصبح الإنجليز هم الطائفة السامية في بلاد الطوائف. وأصبحت الهند إنجليزية بعد تيبو صاحب، رغم أن سان دومنجو قد خرجت من أيدي فرنسا بعد توسان. وبدأت عملية إستعمار جديدة، بعد أن إنتهت عملية سابقة، وأصبحت المراسيم الثورية لا تؤثر كثيراً في مجالس المستعمرات أو في عمليات الاسترقاق؛ ما دامت فرنسا قد أصبحت بدون مستعمرات تطبق فيها هذه المراسيم وهذه المبادئ.

الفصل السادس عشر

الثورة ونابليون

لم تجد الثورة الفرنسية رغم نجاحها الوقت الكافى للتنظيم. لقد استولت وصادرت وضحت وفرضت مبادئها باسم الحرية ، وأنهت حكم الطغاة ، فكيف يمكن أن تتهم بالطغيان. وكانت جيوشها تهاجم وتنسحب مثل موجات البحر، وارتبط بهذه العملية وبسرعتها، وباختلاف نظمها المتعاقبة تعيين المندوبين والمديرين. واختلفت المسألة تماما مع بونابرت لأنه عمل على وضع كل شيء طبقا لنظام معين. وأصبحت كورسيكا تستعمر فرنسا بالفعل، خاصة وأن جماعة معينة كورسيكية قد جاءت إلى فرنسا مع الامبراطور واحتلت أحسن المراكز فيها. وأصبح لفرنسا لفترة طويلة موظفين من كورسيكا ويحتلون كل درجات الوظائف من أول حارس الجمارك إلى المحافظين والحكام. وقد كانت كورسيكا فخورة بأنها أعطت امبراطورا لفرنسا، فزادت التصاقا بالوطن الأم. وبعد أن كانت كورسيكا تثور على كل مستعمر سابق، اتحدت فرنسا وبكل قواها، وحاولت أن تصبغ فرنسا بصبغة كورسيكية. وربما كان ذلك هو النتيجة الطبيعية للاستعمار والتى رأتها فرنسا من قبل مع هنرى الرابع ونافار، وهى أن تقوم إحدى الأمم بأستعارة رجل عظيم من مستعمراتها لكى يقودها .

(١) أمبراطورية نابليون:

كان نابليون رجل دولة يمتاز بطموحه الاستعماري. وتمكن من إنهاء تاريخ البندقية ثم قضى على جماعة فرسان مالطة ، وبدأ مشروعاته الكبيرة ولحسابه الخاص، وكان يحلم بالمشروعات الاستعمارية ، فاقترح على القيصر تقسيم الامبراطورية العثمانية ، وذهب بنفسه حتى مصر.

وكانت الأطماع الاستعمارية واضحة فى الحملة الفرنسية على مصر. لقد كان من الممكن إعتبارها مجرد مناورة لسياسة دولية تحاول إقفال الطريق البرى المؤدى الى الهند أمام إنجلترا ، أو مجرد مناورة لسياسة داخلية عمدت من ورائها حكومة الديركتوار إلى أبعاد أحد الجنرالات الذين تخشى منهم، أو أن بونابرت كان يرغب فى زيادة مجده الشخصي. ولكن الحملة الفرنسية على مصر كانت ستعود بالفوائد على فرنسا.

ولقد اصطحب بونابرت معه عدداً من الاداريين والمهندسين والعلماء ، وعمل فى مصر وكأن البقاء الفرنسى سيكون فيها مستمراً، فاهتم بالرى وبالترع وفكر فى وصل النيل بالبحر الأحمر وأنشأ إدارة للبريد وأدخل نظام طواحين الهواء ونظم مجمع القاهرة أو المجمع المصرى . وترك بونابرت الادارة فى مصر كما هي، ولكنه أخضعها للاشراف الفرنسي، وأخذ يختار بعض الشخصيات المصرية من بين الأعيان. وحاول أن يشكل مجلسا إستشاريا محليا أما بالنسبة إلى الاسلام فان سياسة بونابرت كانت تحمل كثيراً من المتناقضات، فكان يظهر كل إحترام تجاه دين البلاد ويشارك فى الأعياد الاسلامية ويعطى المنح لرجال الدين ويرتدى الملابس العثمانية ويعد ببناء أحد المساجد حتى سماه بعض الأهالى بالسلطان الكبير. ولكن بونابرت تدخل باسم الصحة العامة لابعاد المدافن عن المدن، وتدخل باسم الأمن لهدم الأبواب التى تسد مداخل الحارات، ومنع إستخدام الحجاب، وتدخل باسم العدالة لفرض ضرائب معينة على المنازل والحوانيت فى المدن. وتسببت هذه الاجراءات فى اغضاب عدد من الزعماء المصريين، وتكاتفت عوامل تسجيل الأملاك وإنشاء الإدارة المدنية وحماية الأقباط واليهود، وفرض الضرائب على المؤن والأسلحة فى إثارة الأهالي. أما التقارب بين حقوق الإنسان وبين القرآن، ذلك التقارب

الذى حاول بونابرت أن يشرحه لهم، فان المسلمين قد رفضوا الاعتراف بمنطقيته ، وبدأت النفوس فى التغير، ثم نشبت الثورة.

وإذا كان بونابرت قد أراد أن يخلق من مصر إحدى المقاطعات الفرنسية فان ذلك لم يكن إلا وسيلة وإلا مرحلة من المراحل، خاصة وأنه ترك مصر لكى يعود إلى فرنسا ويقوم بأعمال أخري. وفكر بونابرت بعد بضعة شهر من عودته من مصر فى العالم الجديد، وفكر فى استعادة لويزيانا التى كانت فرنسا قد تركتها لاسبانيا منذ ثلاثين سنة . وعرض القنصل الأول سنة ١٨٠٠ على مدريد إستبدال لويزيانا بتوسكانا . وكانت هذه هى الفترة التى بدأت فيها أحلام بونابرت الاستعمارية فى النضوج وساعد صلح إميان، الذى لم يكن إلا هدنة مؤقتة ، على إعطائه الوقت اللازم للتفكير. وقام بعقد عدة معاهدات مع طرابلس وترنس، وتباحث مع داى الجزائر وأرسل سباستسيان فى مهمة فى الشرق الأوسط، ورأيناه يرسل ليكليرك إلى سان دومنجو، وعين الجنرال فيكتور فريقا أول على لويزيانا، ويقرر إرسال أحد المحافظين معه، ومع اثنتى عشر سفينة وأحد آلايات المدفعية ، وآلاى آخر من المشاة ولكن الأمريكيين لم يرغبوا فى رؤية الفرنسيين جيرانا لهم مع الميسيسبى ، فهاجموا فلوريدا الاسبانية، وحاولوا الاحتفاظ بحرية التجارة على الميسيسبى وتسببت عودة الفرنسيين إلى نيواورليانز فى إلقاء الأمريكيين فى أحضان انجلترا. وكانت الحرب قد بدأت بين لندن وباريس ، وفشلت حملة سان دومنجو، وكانت مشاغل بونابرت كثيرة، كما كان لا ينظر إلى حملة لويزيانا إل كوسيلة للتسلية فى وقت السلم وكان بونابرت لا يرغب فى الاحتفاظ بإحدى الممتلكات التى تسوء علاقته بالأمريكيين أو تعمل على فتور علاقاته معهم،

بل كان يرغب فى إستخدامها وسيلة للايقاع بينهم وبين الإنجليز ، ولذلك فانه قرر بيع لويزيانا للولايات المتحدة.

ووصل مونرو الأمريكى إلى باريس وهو يأمل فى الوصول إلى الحصول على حق الملاحة على الميسيسبى ، أو ربما شراء نيو أورليانز وكانت دهشته كبيرة حين عرض عليه تاليران كل لويزيانا . فنقل الاقتراح إلى الرئيس جيفرسون الذى كان رغم بخله ، لا يمكنه أن يرفض السماح بمضاعفة مساحة الولايات المتحدة وفتح طريق الغرب أمامها نظير مبلغ ٦٠ أو ٨٠ مليون فرنك . وإنتهت الصفقة سنة ١٨٠٢ وبعد تخفيض التعويضات الخاصة بالأمريكين بقى لفرنسا أن تتسلم ٥٤ مليون فرنك.

ولم تذهب سياسة بونابرت الاستعمارية إلى أبعد من ذلك . فلقد حاول أن يدعم ما بقى له من سلطة على بعض الممتلكات فيما وراء البحار، وألغى مجالس المستعمرات رغم أنف المعمرين، وأعاد للعمل بنظام الرق الذى لم يكن قد ألغى فى الحقيقة إلا فى جزيرة سان دومنجو. وعوض فرح المعمرين بهذه القرارات الاخيرة غضبهم لإلغاء المجالس، وربما كانت جوزفين زوجته المخلصة ، لها أصبع أو أصابع فى هذه القرارات .

وحاول نابليون أن يبنى امبراطورية من نوع جديد، امبراطورية أوربية، وعلى القارة وتشبه امبراطورية روما. وكان نابليون يعرف ذلك جيدا ، وأخذ من روما ألفاظها ونظام حكام المقاطعات، وقصورها وكانت امبراطورية نابليون إستعمارية مثل امبراطورية أغسطس وجاءت نتيجة لظروف أكثر من كونها تتجه لطموح نابليون ذلك أنه كان يفضل أن يكون امبراطورا للسلم، ولكن نظام المخالفات الذى قامت به إنجلترا ، وظروف الحصار القارى التى

حاول عن طريقه أن يقفل أوربا فى وجه الصادرات البريطانية أجبره على الإستمرار فى حرب مستديمة ، وعلى الظهر بمظهر الامبريالى المتسلط.

ولقد قام نابليون باسقاط أسر حاكمه قديمة وبتعيين قواده وأفراد أسرته وتوزيع التيجان والامتيازات . لقد عزل نابليون أسترة بيزنطة وأبعد البوربون فى أسبانيا عن الحكم، واعتبر البابا خاضعا له ولقد ظهر نابليون فى أول الأمر وكأنه يرغب فى إنشاء نظام إتحادى أو فيدرالي، يمكنه أن يبقى على النظم والتقاليد الموجودة فى الدول الخاضعة. فاحتفظ لجنوة بدوقها ومجلس شيوخها ، رغم أنه عين أعضائه، واحتفظ لجمهورية سويسرا بسبعة عشر كنتون شبه مستقلة ومجلس شيوخ اتحادي، كما احتفظ لإيطاليا بتنصلها ولهولندا بالوصى عليها.

ولكن ظروف الحصار اضطرت الامبراطور سنة ١٨١١ إلى ترك المبادىء الإتحادية إلى مبادىء الوحده. فضم ممالك وجمهوريات لبعضها وبشكل جعل امبراطورية الغرب تشتمل على ١٣٨ مقاطعة ويعيش فيها ٤٢ مليون نسمة فأصبح هناك محافظين فرنسيين فى همبورج وفى لاهاى وفى فلورنسا وتورينو، وأصبحت أسماء المقاطعات تشبه أسماء المقاطعات الفرنسية ومرتبطة بالطبيعة.

أما على الحدود فقد كانت هناك دول خاضعة للامبراطورية. دون أن تدخل فى النظام، وذلك مثل حالة مملكة إيطاليا التى كان نابليون ملكا عليها وايوجين نائبا للملك. وكانت ميلانو هى عاصمتها، وتشتمل على ٣٤ مقاطعة وكانت هذه أيضا هى حالة الأقاليم الأربع الواقعة فى شمال اسبانيا والمقاطعات السبعة فى دلماشيا.

وكانت الدول الخاضعة تكمل المجموعه فكانت هناك الممالك غير المضمومة مثل اسبانيا التى تولاها جوزيف . ونابلى التى حكمها مورا ، ووستفاليا التى حكمها جيروم ، وكانت كل هذه الممالك تأخذ اوامرها من نابليون . وكان هناك إتحاد الراين الذى جمع فيه نابليون ٣٧ دولة والإتحاد السويسري ودوقية وارسو التى عين عليها أميراً يدين له بالولاء.

وكانت باريس هى مركز كل هذا المجموع، وكان التويلرى هو مركز باريس وقلبها. ولم يعد أكبر مستعمري الماضى إلا رعايا ومحميين للامبراطورية الفرنسية، وتساوت فى ذلك روما وجنوه وأمستردام والبندقية وأشبيلية .لقد أصبحت باريس عاصمة للعواصم وأصبح نابليون حاكما على حكام أوربا.

وكان النظام المركزى الذي اتبعه نابليون دقيقا فى تطبيقه وينتهى الى شخصه سواء أكانت السلطة تمر عن طريق اخوانه أو مساعديه. وكان من رجال الوحدة وأنشأ نظاماً موحداً للموظفين ونظاما قضائيا واحداً وجيشاً واحداً. وسارت الإدارة والعدالة على الطريقة الفرنسية حتى فى دوقية وارسو، ودخل القانون المدنى كل البلاد الخاضعة وبشكل ساعد على توحيد أوربا وجعلها أسرة واحدة . وساعد اهتمام نابليون بانشاء الطرق وتمهيدها على توحيد أوربا ، ومرت الطرق فى الممرات الجبلية بين شمال أوربا وجنوبها ووحدت بين شرقها وغربها ، ووصلت إلى البلقان ، كما كانت روما قد عملت من قبل.

أما الجيش الامبراطوري فكان يجمع الجنود من كل الدول وزاد عدد الاجانب فيه على عدد الفرنسيين وشارك فيه البولنديون والبافاريون والسكسون والهولنديون والدانماركيون. وأعتقد نابليون أن هذا الجيش يساعد على انهاك أوربا ، ولكنه فى الواقع كان يزيد عوامل ضعفه عن حكم القارة .

لقد كانت الوحدة التى فرضها نابليون على أوربا ضعيفة، ولم يستمر الملوك والأمراء التى صنعهم نابليون على ولائهم له ، وكان بعضهم يفضل مصالح الشعوب التى يحكمها والتى يرغب فى الاستمرار فى حكمها على ارضاء قرارات نابليون، ولكن الامبراطور كان يرى فى قراراته وسائل لوصول الشعوب إلى سعادتها، وأن رفض الشعوب تطبيق هذه القرارات يستتبع عقوبتها، وهو نفس مبدأ الإستعمار القديم الخاص بالعمل على رفع مستوى الشعوب واسعادها رغما عنها.

ولكن الشعوب الخاضعة كانت ترفض هذه السلطة وكانت لا تأبه كثيراً بالمشاركة فى مجد الامبراطورية ، خاصة وأن ضرائب الحرب وعمليات التجنيد والحصار كانت تتعارض مع مصالحهم كأهالى ومستهلكين واختفت سلع كثيرة من الأسواق وحاولت الدولة أن تشجع زراعة القطن فى نابلى والاندلس لكى تواجه اختفاء المنسوجات وجاء استخدام القانون المدنى متضاربا مع العادات والتقاليد القديمة، وجاء نزع حقوق الإقطاعيين ومصادرة أملاكهم سببا فى خلق أعداء جدد سيئة وقابل الناس هذه القوانين الجديدة مقابلة سيئة خاصة وأنها كانت علمانية وتساوى بين الجميع وتحرر اليهود وتعترف بالطلاق وتقسم الميراث. ورفض البروتستانت فى هولندا الإعتراف للكاثوليك بنفس حقوقهم. أما فى بولندا فان رجال الكنيسة قد أظهروا قلقهم ، فى الوقت الذى أظهر فيه النبلاء اشمئزازهم. وساعدت كل هذه الحركات غير الراضية على تهيئة الجو لنشأة القوميات الجديدة.

ولقد بدأ هذا النظام فى التفكك بعد الرجوع من الروسيا سنة ١٨١٢ ، وأخذت الشعوب فى التحرير ، وبعد سنتين من دخوله إلى موسكو أصبح

نابليون سيداً اسميا على جزيرة البا. وجاءت المعاهدات التى أنهت هذه المغامرة لكى تعيد وضع الحدود وتعيد توزيع الامبراطوريات الاستعمارية . واستعادت فرنسا مراكزها التجارية الخمسة فى الهند كما استعادت جزيرة بوربون ونقط السنغال وغيانا والمارتنيك وجواد يلوب وسان دومنجو . ولكن إنجلترا إحتفظت لنفسها بجزر بتاجو وسانتا لوتشيا وجزيرة فرنسا لؤلؤة المحيط الهندى والتى كان الإنجليز يخشون من عودة فرنسا إليها على ممتلكاتهم فى الهند. ولذلك فان انجلترا ستحتفظ بها وتحولها إلى جزيرة موريس. وإذا كانت إنجلترا قد أعادت جاوة إلى هولندا فانها قد إحتفظت بمستعمرة الرأس وسيلان. كما أنها لم تترك مالطة ولا هليجولاندو لاكورفو أما جزر الأيونية فانها وضعت تحت الحماية البريطانية .

ولقد خرجت فرنسا من الثورة ومغامرة نابليون منهكة ، ومستعمراتها مسلوبة أما إنجلترا فانها قد خرجت بامبراطورية كبيرة تسمح لها بالاحتفاظ بالسيادة طوال القرن التاسع عشر. لقد أصبحت انجلترا ملكة البحار والنقل وملكة البنوك والأموال، وبدون منافس. وكانت فرنسا تنزف دما على القارة، أما فى بقية العالم فان آخر منافس ممكن للعظمة البريطانية وآخر وارث لامبراطورية شارل الخامس كان هو الامبراطورية الاسبانية والتى كانت قد إنتهت .

(٢) تحرر أمريكا اللاتينية :-

لقد عاشت هذه الامبراطورية الأمريكية التى منحها الغزاة لقشتالة مدة ثلاثة قرون عاشت مع التحكم ومع الروتين، ولكنها عاشت على أي حال، واستمر الإسبانيون فى إستغلال الوطنيين وفى إجبارهم على شراء ملابسهم

وتموينهم بأعلى سعر ممكن ومنعوا زراعة عدد من المحصولات ومنعوا عدد من الصناعات حتى لا ينافسوا إسبانيا. وأهمل الاسبانيون بعض المقاطعات، مثل الجزء الاسباني من سان دومنجو . ورغم كل ذلك فقد احتفظت اسبانيا بممتلكاتها ودون أن تكون سياستها هي سياسة الطغيان على طول الخط فنلاحظ أن بعض الاصلاحات المتحررة قد عملت على إستقرار نظام التجارة الخارجية ، ووضعية الهنود ، فازدهرت االزراعة ونمت المدن. أما فى كاليفورنيا فان الاستعمار قد تقدم. وأخذت المكسيك تنتج ثلثى معدن الفضة فى العالم، وأخذ ميناء بونس ايرس فى تصدير جلود مواشى البمبا.

وإذا كانت أمريكا قد أخذت فى التحرك ثم فى الغليان فان الاسبانيين كانوا مسئولين عن ذلك إلى درجة كبيرة. لقد إحتفظت اسبانيا للاسبانيين المولودين فيها بشغل وإحتلال الوظائف العامة. أما المخلطين، وعددمنهم من دماء اسبانية ، رغم أنهم ولدوا فى أمريكا ، فانهم قد اخذوا يحسدون ثم يحقدون على من ولدوا فى اسبانيا . وأما المخلطين من الهنود والزنوج ، والذين كاوا يكونون طوائف أدني، فقد كان لهم أن يشتكوا أكثر من غيرهم. وحينما أعلن توباك أمادرو الثورة ثم قتل اعتبره الهنود آخر أبناء الشمس، رغم أنهم احتفظوا باتجاه سلبى تجاه الحكومة .

وكان الاسبانيون المولودون فى أمريكا هم العناصر الرئيسية التى يمكنها أن تتخلص من الطغيان وكانوا قد قرأوا روسو ورينال وديديرو وعرفوا كيف قام روبيرتسن بالقضاء على الطغيان الاسبانى فى كتابه عن تاريخ أمريكا التى منعت مدريد نشره وتداوله . وكانوا يعرفون مثل التحرر الذى أعطاه لهم معمروا أمريكا الانجليزية وزنوج سان دومنجو. وساعدت كل هذه العوامل على إرتفاع درجة الحمى تحت شمس المناطق المدارية.

وكان للحركة التحررية أنصارها فى مدريد نفسها فنجد ، أن الكونت دارندا يقترح الا تحتفظ اسبانيا إلابكوبا وبورتوريكو وبجزء من أمريكا الجنوبية ، وتضحى ببقية امبراطوريتها، وتنشأ عددا من الممالك المستقلة فى المكسيك وفنزويلا وبيرو ، ولصالح أبنائها فى العالم الجديد ولم يهتم أحد بهذا المشروع .ولكن الاسبانيين فى أمريكا اللاتينية كانوا يعرفون أن البذور قد أخذت فى الانبات.

ووجد الاسبانيون فى أمريكا خلفاءاً يعضدونهم ، خاصة وأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تعارض الاتجاه التجاري الاسبانى ، وكانت انجلترا قد بدأت فى الاتصال بالصادرات الامريكية ، أما اليسوعيون الذين كانوا بعيدين عن نسيان الظروف التى طردوا فيها من باراجواى فانهم قد رحبوا بالآراء الثورية فى العالم الجديد وعضدوها ضد مدريد.

ولم يكن من السهل قيام ثورة بدون قيادة، ولم يفتقر العالم الجديد لقواد ثوار فى هذا العصر. فنجد أن ميراندا قد ولد فى كاراكاس من أبوين اسبانيين، ودرس الثورة على واشنطون ثم فى جيش دوموربيه ، ثم يقوم ببعض المناورات والمؤمرات فى فرنسا ويفاوض فى إنجلترا وفى الولايات المتحدة ويبدأ أولى عمليات الثورة أما سان مارتان فكان من أبناء منطقة لابلاتا وبطلا مصمما يمكنه أن يصل إلى الاستقلال. وأخيراً فهناك بوليفار الذي ولد فى كاراكاس والذى قرأ بلوتارك وروسو وكان رومانتيكا أمام الرومانتيكيين فى الوقت الذى كان فيه عمليا ومنظما. وامتاز على الآخرين بشعبيته وكرمه، وكان لا يخشى شيئا كما كان يحب المواقف الطيبة والبلاغات. لقد أقسم أمام محفل قادس الماسونى على ألا يعترف بحكومة

وطنية إلا تلك التى تنتخبها الإرادة الحرة والتلقائية للشعب. كما أقسم في روما وهو راكع على تحرير وطنه. ورغم هذه الحركات المسرحية فقد كان مخلصاً ومصمماً على الوصول إلى مبتغاه . كان ذلك فى سنتى ١٨٠٣ ، ١٨٠٤ ، وبقى عليه أن ينتهز الفرصة التى سنحت حينما طرد نابليون البوربون من مدريد وترك أمريكا يتيمة بدون أسرة حاكمة. وحينما ثارت اسبانيا حاولت أمريكا الاسبانية أن تبقى مخلصة للبوربون ، ولكن نابليون أعلن أنه لن يعارض فى تكوين دول مستقلة فيها. وسمح هذا لأحد رجال الدين القرويين فى المكسيك، وهو ميجويل هيدالجو باعلان الإستقلال الذاتى أما فى بونس ايرس فان الثوار قد أعدموا نائب الملك رميا بالرصاص. وتكونت جماعة حربية ، أو مجلس ثورة فى فنزويلا وادعت أنها تحتفظ بحقوق السيادة الشرعية وسمحت بانتخاب مؤتمر تضاربت فيه وجهات نظر الملكيين أنصار اسبانيا ووجهات نظر الجمهوريين أنصار الحرية. واختار هذا المؤتمر ميراندا قائدا عاما سنة ١٨١١ مما سمح له بالوصول إلى سلطات الدكتاتور فيما بعد.

ورغم كل ذلك فان العملية لم تكن قد انتهت بعد. ذلك أن الانجليز ، حلفاء اسبانيا ، كانوا لا يقدرون على تعضيد الثوار واكتفوا بالحصول على حرية التجارة مع أمريكا. وساعد ذلك على عودة الإسبانيين إلى السلطة هناك. أما المكسيك فانهم قد تمكنوا من القضاء على هيدالجو ، أما فى فنزويلا فانهم قد نجحوا فى إثارة الزنوج ضد المخلطين، وجاءت إحدى الزلازل لكى تثبت أن السماء كانت ضد الحكومة الثورية وتدفع السذاج إلى ضرورة العودة للولاء للحكم الشرعى ولقد اضطر ميراندا إلى التسليم وأنهى حياته فى سجون أسبانيا.

وجاءت بعد هذه موجة ثانية قام فيها بوليفار بالسيطرة على العمليات وبدون رحمة وفضح فيها الاسبانيين كأعداء طبيعين لا يمكن مهادنتهم بل من الواجب محاربتهم حتى الموت وبدون شفقة أو رحمة ولكن مع العزم والتصميم على انهاء الطغيان ، حتى ولو كان ذلك عن طريق مواجهتهم بطغيان آخر. لقد كانت حربا أهلية بين الأمريكيين تتواجه فيها قوات أنصار التحرر وأنصار الولاء لمدريد. أما الاسبانيين المولودين فى أمريكا والذى نجح بوليفار فى اثارتهم فانهم قد اضطروا إلى مواجهة المخلطين الذين يسكنون السهول ويعملون كمعمرين ويحصلون على الأسلحة من اسبانيا. ولقد نجح بوليفار فى أخذ كاراكاس، ولكنه فقدها بعد ذلك وحينما عاد البوربون إلى عرش مدريد سنة ١٨١٥ أرسلوا جيشا يبلغ عشرة آلاف رجل، مزودا بالمدفعية ، وتمكنوا من إعادة غزو أمريكا، فيما عدا الأرجنتين، فاضطر بوليفار إلى الالتجاء الى جامايكا.

ولكن إنتصار الاسبانيين كان ضعيفا، ولم يكن فى وسع اسبانيا ان تستمر فى كبت الشباب الأمريكي. وكانت اسبانيا قد ضعفت فحاولت أن تجد لها مخرجا مع مباديء الحرية التى كانت قد أخذت فى الانتشار فى كل مكان. واعطى الاسبانيون أنفسهم مثلا لاسبانيى أمريكا حين غيروا نظمهم الدستورية فى الوطن الأم، وكان ذلك مثلا يمكن لأبناء أمريكا أن يفيدوا منه.

وجاءت عملية الهجوم الثالث ونجحت فى كل مكان . فتمكن إيتوربيد باستناده إلى اليسوعيين فى المكسيك من إعلان العصيان، وأعلن نفسه امبراطوراً. أما بوليفار فقد اختارته فنزويلا رئيسا للجمهورية . فزحف عبر

المناطق الهندية وفاجأ الحاميات الاسبانية فى غرناطة الجديدة سنة ١٨١٩ ، ووحد الأمتين تحت اسم كولومبيا العظمى وأعترف بأن هذه التسميه كانت لتخليد ذكرى هؤلاء الرجال الذين عملوا من أجل الإنسانية. وكان كولومب اسبانيا فى نظر الاسبانيين، كما كان واشنطون انجليزيا فى نظر الانجليز، انهم أبناء أوربا الذين يتحررون من الوصايا الأوربية، وفى الوقت الذى لا يكسب فيه الوطنيون أى شيء لقد أعلن بوليفار أنه ورجاله ليسوا من الهنود ولا من الأوربيين، ولكن من عنصر متوسط يقف بين الملاك الشرعيين للبلاد والمغتصبين الاسبانيين. أى أنهم أمريكيون بالمولد وأن حقوقهم هى حقوق الأوربيين وعليهم بعد ذلك أن ينتزعوا بقية حقوقهم من الأهالي.

ولقد تمكن الجنرال سان مارتان سنة ١٨١٧ من المجيء من لابلاتا ومن عبور مناطق الهنود ومن تحرير شيلى ثم بيرو حيث إتصل ببوليفار الذى أتى من كولومبيا فى سنة ١٨٢٤ . وقامت حملات أخرى برئاسة الجنرار سكر وانتهت بتحرير الأقاليم التى أصبحت بوليفيا وإبعاد الاسبانيين منها نهائيا سنة ١٨٢١ أما الولايات المتحدة فأنها كانت قد حصلت من مدريد على فلوريدا، فلم تتمالك إلا إعلان اعجابها بتحرر العالم الجديد.

لقد انهارت الامبراطورية التى عشات ثلاثة قرون فى عشر سنوات ورغم فظاعة القواد وجنرالات المنتصرين فان الحرب لم تكن قاسية. لقد كان من الطبيعى قتل أسرى الحرب ومشاهدة انتشار السلب والنهب والسبى الذى يريح الجنود بعد عملياتهم الحربية، ولكن اعداد هذه الجيوش كانت لا تزيد على بضعة آلاف أو بضعة مئات، ونجحت فى هذه العمليات. ووصل الحال إلى أن تنتهى بعض المعارك بأقل من عشرين قتيل. وربما كان تحرير أمريكا من هذه الناحية لا يثير إهتمام دارسى الحروب إلى مدى بعيد.

وعلينا أن نقرر بأن أغلبية سكان أمريكا سواء أكانوا من المخلطين بين الاسبانيين والهنود، أو من المخلطين بين الاسبانيين والزنوج أو من الزنوج، لم يتغير حالهم لدرجة كبيرة، رغم أن الاسبانيين المولودين فى أمريكا كانوا قد تمكنوا من التخلص من منافسة الاسبانيين القادمين من الوطن الأم وبدأوا فى التنازع على السلطة ، وبعد عصر طويل من السلم الاسبانى الذى يمكن تشبيهه بالسلم الذى فرضته روما فى العصور القديمة جاء عصر مليء بالثورات والفورات والخصومات بين الأحزاب وبين المدن والمناطق والاقاليم والدول. ولقد فشلت أمريكا الاسبانية فى التخلص من مؤامراتها ومن بلاغاتها ومن ظهور الدكتوريات فيها. وكم من رجال عملوا باسم تحريرها أنهوا حياتهم كمجرمين أطلق عليهم الرصاص أو فى المنفى مثل سان مارتان وبوليفار نفسه.

وكذلك نجحت البرازيل فى الإنفصال عن البرتغال، إن كان ذلك الانفصال قد حدث دون مشكلات، فعندما طرد الفرنسيون الملك يوحنا السادس من دولته ذهب وأقام فى ريو سنة ١٨٠٨ وفتح البرازيل للتجارة الأجنبية . وأعجبته البرازيل بدرجة أنه نسى أن يعود إلى بلاده بعد إنهيار امبراطورية نابليون. فاضطر الكورتيز إلى الاصرار على ضرورة عودته إلى البرتغال سنة ١٨٢١ وسمحوا له بترك ابنه بيدرو نائبا عنه هناك ووصيا على العشر، ولكن كل المستعمرات الإسبانية المجاورة كانت قد نجحت فى التخلص من سيطرة مدريد، ولذلك فانه حينما قام الكورتيز فى لشبونة بمحاولة اعادة البرازيل الى وضعيتها المستعمرة وطلب من بيدرو فى سنة ١٨٢٢ العودة إلى البرتغال، أعلن البرازيليون أن بيدرو هو حاميهم ثم امبراطورهم الدستورى فانتهى الانفصال برئاسة اباطرة من نفس الأسرة المالكة فى البرتغال قبل أن تأخذ البرازيل سيرها فى شكل جمهورية لها معيشتها الخاصة .

لقد تحررت كل أمريكا اللاتينية ولم يبق فيها إلا المستعمرات الأوربية فى غيابا وهندوراس البريطانية . ورغم ذلك فان اسبانيا قد إحتفظت بجزر الأنتيل وخاصة كوبا التى حضر إليها أنصار الملكية بعد طردهم من شبه جزيرة إيبيريا. أما إذا تساءلنا عن السبب الذى لم تسمح لكوبا بالتحرر فاننا نلاحظ أن الولايات المتحدة بعد ضمها لفلوريدا كانت تعتبر أن كوبا هى إمتداد طبيعى لشبه جزيرة فلوريدا، فلنترك فيها الاسبانيين حتى لا تقع فى أيدى الانجلوسكسون.

وكانت سان دومنجو آخر هذه المستعمرات لقد عاد القسم الغربى من هذه الجزيرة لفرنسا على الورق سنة ١٨١٥ وفى أثناء معاهدات الصلح. ولكن المخلطين والزنوج كانوا يسيطرون عليها، رغم أنهم كانوا يتحاربون فيما بينهم، فرفضوا المفاوضة مع مندوبى باريس. ولم يكن هناك داع للاصرار ، خاصة وأن تحرير العبيد كان يغير أحوال الانتاج، كما كانت منافسة سكر البنجر قد هزت احتكار سكر قصب السكر من أساسه ولذلك فان حكومة باريس قد تنازلت عن ادعاءاتها سنة ١٨٢٥ نظير وعد بتعويض المتوطنين القدماء .وأصدرت فرنسا مرسوما ملكيا فى نفس السنة منحت فيه الاستقلال للمواطنين فى سان دومنجو ، رغم أنهم كانوا مستقلين بالفعل منذ سنوات طويلة .

وحينما إشتملت جمهورية هايتى على كل الجزيرة كانت تختلف عن جمهوريات أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، لأنها لم تكن دولة للمعمرين، بل كانت أولى العمليات التى ينجح فيها الرجال الملونون أمام إستعمار الرجل الأبيض .

(٣) مونرو ومذهبه :-

لقد مر الوقت سريعاً ، ومرت سبعون سنة منذ أن فقدت فرنسا الهند وكندا ، ولم تكن فرنسا قد قبلت هذه الخسارة إلا لأنها كانت تختفظ بسان دومنجو. ولكن الوقت جاء لكى تفقد فرنسا سان دومنجو بعد أن فقدت جزيرة فرنسا ، «ابل دى فرانس».

وكانت انجلترا فى أثناء ذلك الوقت قد قبلت فقدان مستعمراتها الثلاثة عشر الأمريكية ، كما كانت هولندا قد فقدت مستعمرة الرأس وسيلاز ، أما البرتغال فانها كانت قد فقدت البرازيل، وأما إسبانيا فانها كانت قد فقدت كل ممتلكاتها على القارة الأمريكية ، لقد أصاب النظام الاستعمارى إضطراب عنيف وأثر هذا الاضطراب على كل الدول الاستعمارية. فهل كان ذلك نهاية حكم أوربا للعالم؟

لقد كانت أسباب هذا الاضطراب معروفة وترجع فى غالبيتها إلى موقف الرأى العام وخاصة المثقفين الذين هاجموا النظام الاستعمارى تحت شعار المساواة . ولم يكن من مجرد الصدفة إشتراك كل من لافاييت وواشنطن وسان مارتان وبوليفار فى الواج الماسونيين الأحرار. لقد درسوا فى هذه الألواج الماسونية روح التحرير والتحرر.

والواقع أن حركة الاستقلال كانت قد بدأت فى أوربا قبل أن تبدأ فى المستعمرات. وإذا كان بعض الناس قد نظر إليها كعملية سلمية ، فان غيرهم قد اعتبرها علامة ضعف من الدول الاستعمارية. ولذلك فان إلغاء قانون الدمغة ثم تراجع إنجلترا فى أمر رسوم الاستيراد لأمريكا الانجليزية ، وكذلك إصلاحات شارل الثالث وطرد اليسوعيين من أمريكا الاسبانية، وكذلك

المرسوم الذى أعطى حق الانتخاب للرجال الملونيين فى سان دومنجو، وموقف جان السادس البرتغالى الذى ترك إبنه بدور للبرازيليين ، كانت كلها تعتبر مظاهر لضعف الدول الأوربية .

وكانت مواقف الشدة لا تأتى فى الوقت المناسب لها ، بل كانت تجيء فى أوقات يظهر فيها ضعف الوطن الأم أو إشتداد الروح التحررية فى المستعمرات وعدم التمكن من كبحها. فاذا كانت إنجلترا قد حاولت أن تفرض نفسها على أمريكا، وإذا كان بونابرت قد حاول إعادة غزو سان دومنجو، وإذا كان البوربون الإسبانيون قد حاولوا إستعادة امبراطوريتهم الأمريكية، فان هذه القرارات كانت قد جاءت متأخرة ، وبعد فوات الفرصة.

وأخيراً فان المواطنين فى دول أوربا نفسها كانوا قد بدؤا فى الثورة باسم الحرية، وأخذ المعمرون فى التأثر بهذه الآراء. فاذا كان الفرنسيون قد استولوا على الباستيل فما الذى يمنع الزنوج من التحرر؟ وإذا كان الاسبانيون قد ثاروا ضد رجوع البوربون فلم يشارك المعمرون فى هذه الحركة؟

كانت أخطاء أوربا هى السبب فى فقدها لمستعمراتها نتيجة لضعف السلطة المركزية فى بلادها. وكان هذا المثل ينطبق على الدولة العثمانية والتى اخذت فى الضعف والتفكك وحاول بونابرت أن يأخذ نصيبه من ميراث الرجل المريض، فاحتل مصر ومهد بذلك لظهور محمد على تحت السيادة الاسمية للسلطان وقامت ثورات أخرى فى جانينا والمورة وانتهت باستقلال اليونان. لقد بدأت الدول الأوربية القديمة فى التفكك ، فما هو موقف رؤساء الدول؟

ولقد كان أول صوت إتفع هو صوت مونرو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، والذى كان قد فاوض فرنسا لشراء لويزيانا. لقد أخذ موقفا

صريحا هذه المرة مع إستقلال الشعوب المستعمرة وإلى جانبها. وبعد تحطيم الأسطول العثمانى فى موقعه نافارين حصلت اليونان على إستقلالها سنة ١٨٢٧ وبعد ذلك نجح السلاف والرومانيون فى التحرك داخل نطاق الامبراطورية العثمانية التى عجزت عن الاحتفاظ بسلطتها عليهم وإن كانت سكرات موتها قد إمتدت لمدة سنوات.

وليس معنى ذلك أن كل المشروعات الاستعمارية قد إنتهت، بل انها لم تنتهى إلا تلك المشروعات التى عجز القائمون عليها عن مواصلتها وإستمرت دول ثلاث فى عملية توسعها الاستعمارى وهى إنجلترا، والولايات المتحدة الأمريكية، والروسيا ، التى مدت حدودها إلى أقصى درجة ممكنة.

ولقد اختار التوسع الانجليزى نصف الكرة الأرضية الجنوبى ميدانا لتوسعه بعد أن أخذ الهنود وكندا من فرنسا. واختار مستعمرة الرأس التى لم تعد مجرد محطة بحرية ، واستراليا التى أنزل اليها قطعان الأغنام فى نفس الوقت الذى أرسل اليها المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، والتى ستصبح مستعمرة للصوف.

وتوسع الأمريكيون فى سهول الغرب وأخذوا فى تكوين ولايات جديدة، الواحدة بعد الأخرى وبعد أن كان النهر الكبير هو حد الولايات المتحدة الغربي، نشأت ولاياة ميسورى على الضفة المقابلة ، وأخذ المضاربون فى شراء الاراضى وأخذ المزارعون فى فلاحتها، فى الوقت الذى استمر فيه المضاربون فى عمليات البيع والشراء. ووصل بعض الأمريكيين إلى الغرب من جبال روكى الصخرية وحتى المحيط الهادى ولم يكن الامريكيون بمفردهم على هذا الساحل إذ أن الأسبانيين كانوا قد وصلوا اليه فى الجنوب ، كما أن الكنديين كانوا قد وصولا اليه فى الشمال، وبدؤا إتصالهم مع الروس.

وكان الروس قد وصلوا إلى القارة الأمريكية بعد أن عبروا سيبيريا وهاجموا سخالين ووصلت شركة بيرنج الى الاسكا. وأعطى القيصر بولس عقد إمتياز لشركة روسية أمريكية لاستكشاف هذه المناطق وللاتجار فى أنحائها والقيام بإنشاء التحصينات الحربية، ولكنها أعلنت إفلاسها وخاصة بعد أن بدأ المعمرون يموتون من الجوع والإسقربوط وحاولت الروسيا أن تستغل زراعة القمح إلى الجنوب من هذه المستعمرة التى لا تشتهر إلا بالفراء حتى تدعم بقاءها فيها. ووصل ريزانوف إلى سان فرنسيسكو فى سنة ١٨٠٨ ، وكان الأسبانيرن يقيمون فيها، فتزوج من ابنة الحاكم المحلي، وعاد بسفنه محملة بالقمح واللحوم اللازمة لمستعمرة الاسكا. وأنشأ الروس قلعة إلى شمال سان فرنسيسكو وحجزوا لنفسهم التجارة فى الجزء الشمالى من المحيط الهادى سنة ١٨٢١ .

لقد كان هذا سببا أساسيا فى تدخل الأمريكيين الذين يعتبرون أنفسهم فى بلادهم ، ويعتبرون ساحل المحيط الهادى ملكا لهم، مثل ساحل المحيط الأطلسى وإذا كان الأمريكيون قد تخلصوا من الفرنسيين والإسبانيين فإنهم لن يقبلوا مجيء الروس ، خاصة وأن الأمريكيين يعتبرون أنفسهم فى ذلك الوقت أعداء الاستعمار ، الاستعمار الأوربى فى المناطق التى حجزوها لأنفسهم . فوقف مونرو فى الكونجرس وأعلن موقف الولايات المتحدة سنة ١٨٢٣ .

« إننا مضطرون ، مع العلاقات الودية القائمة بين الولايات المتحدة والدول الأوربية ، إلى أن نعلن أننا نعتبر كل من جانبهم لمد نظمهم إلى أى جزء من نصف العالم هذا كخطر يهدد أمننا وسلامتنا، إننا لم نتدخل ولن

نتدخل فى شئون المستعمرات الحالية للدول الأوربية . ولكننا لا نتمكن من قبول أى تدخل من أى سلطة أوربية كانت فى الدول التى أعلنت وحافظت على إستقلالها، وأي تدخل يهدف للتحكم فيها أو السيطرة على مستقبلها بأى شكل من الأشكال».

لقد كان ذلك إنذار للاسبانيين إذا ما أرادوا إعادة غزو ممتلكاتهم الأمريكية : «فمن المحال أن يمد الحلفاء نظمهم السياسية إلى جزء من إحدى القارات الأمريكية دون أن يهددوا سلامنا وسعادتنا ، ولا يمكن لأحد أن يعتقد أن اخواننا الجنوبيين سيقبلون أنفسهم الخضوع لمثل هذا النظام».

وكان هذا تهديداً للروس إذا ما فكروا فى التوسع صوب كاليفورنيا: «إن القارات الأمريكية لا يمكنها، بعد أن انتزعت استقلالها، أن تقبل أبدا العودة إلى نظام المستعمرات لأى دولة أوربية كانت»».

لقد كان هذا الإنذار واضحا، وكان على أوربا أن تفهمه جيدا. ولم يكن فى وسع اسبانيا أن تتحرك . أما الروسيا فقد فهمت، وأما انجلترا فقد وافقت لأنها كانت ترغب فى ابعاد المنافسين ، رغم أنها كانت قد اخطأت فى حساب مقومات الإستقلال الأمريكى خاصة وأن الولايات المتحدة كانت قد بدأت فى التصنيع وعملت على فرض الرسوم الجمركية لحماية صناعتها ومصنوعاتها واستغنت عن المصنوعات البريطانية .

لقد دلت كل الدلائل على أن الإستعمار الأوربى قد بدأ فى الإنهيار خاصة وأن الروح التحررية القومية قد أخذت فى الإنتشار فى أوربا نفسها سواء فى بلجيكا أو فى بولندا أو فى إيرلندا وأخذ الرأى العام ينظر إلى مذابح الأتراك فى خيوس نفس نظرتهم لعمليات القمم التى يقع بها

النمساويون ضد الثوار الإيطاليين وبدأ أن مناجم الذهب قد أخذت فى النضوب، أما التوابل فتوجد فى كل مكان، وأما السكر فقد وجد منافسات قوية. وأصبحت القوة من صفات الدول التى تمتلك الفحم، وظهر أن النمو الصناعى مربح أكثر من المنتجات الاستوائية. لقد دخل العالم عصر البخار وأخذ الناس يظهرون دهشتهم لإهتمام أسلافهم بالقرفة والجنزبيل، وأخذ غيرهم يفكر فى قيمة الاستغلال الزراعى فى المستعمرات بعد تحرير العبيد.

لقد كانت إنجلترا أول دولة أعلنت الغاء نظام الرق والاتجار فى الرقيق سنة ١٨٠٧، وان كانت تفكر فى تحطيم المستعمرات الأمريكية السابقة، وبشلك يسمح لها بالتفوق فى الاستغلال الزراعى والتجارى فى الهند . وأعلن نابليون فى أثناء حكم المائة يوم سنة ١٨١٥ إلغاء الرقيق وتمكنت إنجلترا فى مؤتمر فيينا من الحصول على إعلان دولى ضد هذه التجارة الشائنة، رغم أن عدم انضمام اسبانيا والبرتغال كان يجعله غير كبير قيمة ولكن الدول العظمى كررت تعهداتها فى كل مؤتمر دولي. وألغت الولايات الشمالية، من الولايات المتحدة الأمريكية، والتى لم تكن فى حاجة إلى العبيد. نظام الرق فيها، وأعلنت كل من واشنطن ولندن أن تجارة الرقيق تعتبر عملا من أعمال القراصنة . وأستندت البحرية البريطانية إلى ذلك لزيارة السفن وتفتيشها فى المحيطات. والسيطرة بالتالى على كل بحار العالم.

لقد كان الغاء تجارة الرقيق وتغير طرق استغلال المستعمرات ، واقفال أمريكا أمام المشروعات الأوربية يعتبر أساساً لمناقشة مبدأ الاستعمار وإلغاء ضروريته . وذكر بوليفار أن حالة أمريكا فى ذلك الوقت تشبه حالة إنهيار الإمبراطورية الرومانية . أما نابليون فقد ذكر وهو فى سانت هيلانه أن العصر

الإستعماری الذی عرفه الأوربيين قد إنتهى بالنسبة إليهم وانتهى بالنسبة لكل القارة الأوربية ، وأن على الأوربيين أن يقبلوا ذلك . ولكن عظماء الرجال كانوا يعتقدون دائما أن العالم سيتغير ما داموا قد تغيروا ، وأنه سينتهى مادامـوا قد انتهوا . وكان هذا السؤال قد وضع من قبل ولمرات عديدة، ولم ينتهى الإستعمار .

الباب السادس

الامبراطوريات الجديدة

الفصل السابع عشر
الهند

لقد شهد القرن التاسع عشر تطوراً ونمواً وتوسعاً في الإستعمار لم يشهده أي قرن من القرون السابقة، ووصل بتوسع العناصر البيضاء إلي قمتها وأعطي لأوربا ثروات لم تشهد مثلها من قبل. ورجع ذلك إلي تفوق أوربا والأوربيين، وشعورهم بهذا التفوق علي غيرهم واستنادهم اليه. وكما تفوقت أوربا تفوقت بريطانيا بنوع خاص. وأثر ذلك علي الهند وعلي البلاد الواقعة علي طريق الهند.

(١) التفوق الأوربي:

لقد كان القرن التاسع عشر قرن سلام بالنسبة لأوربا ومرت مائة سنة بعد حروب نابليون لم يقع فيها صراع شديد علي القارة. لقد حدثت اصطدامات يمكننا إعتبارها علي أنها محلية، وكانت عبارة عن حروب سريعة ولا تؤثر إلا في الشعب المهزوم. واحتفظت الدول العظمي بشكل عام بحرية التصرف واستندت إلي التفكير وإلي الثروات لكي تشغل نفسها في أماكن أخري. وشغل الإستعمار أوقات فراغهم وأرضي شراهيتهم للعظمة والمجد.

وجاءت العملة لكي تكمل العمليات الحربية ذلك أن الجنيه الاسترليني والفرنك قد أعطوا مثلا للثبات الذي يساعد علي الإدخار وعلي إزدهار رؤوس الأموال وعلي تمويل المشروعات الإستعمارية طوال هذا القرن. ولم ينهزم في هذا الميدان إلا أسبانيا وتركيا، وكانت كل منهما لا تستند إلي عملة ثابتة القيمة، وأدي ذلك إلي تفكك امبراطورياتهم، وشهد القرن التاسع عشر فشلهم في السياسة الإستعمارية.

ولقد نمت الثروات وزاد تعداد الأهالي داخل ذلك الأطار من الأمن المادي فزدات نسبة المواليد بدرجة جعلت مالتوس يخشي منها. وإذا كان سكان أوربا لا يتضاعفون كل ٢٥ سنة فإن عددهم قد زاد من مائة وثمانين إلي اربعمائة وستين مليون نسمة وكانت الهجرة وسيلة من وسائل التخلص من زيادة السكان. وشهد هذا القرن هجرة ستين مليونا من الأوربيين إلي ما وراء البحار.

ولكن، هل كانت الثروة أو الفقر هو سبب هذه الهجرة؟ لقد كانا سويا أسبابا لها، خاصة وأن الثروة هي حقيقة جماعية والفقر حقيقة فردية، وكل منهما مرتبط بالثورة الصناعية، بما اشتملت عليه من معرفة موارد جديدة للطاقة، مثل البخار ثم الكهرباء، وظهور الآلة وانتشار الرأسمالية التي تعني الرخاء والأزمات في نفس الوقت. لقد شهدت أوربا ازدهار البورجوازية وأزمات المزارعين والعمال، وزيادة المكاسب، وصغر الرواتب، وزيادة الإنتاج، وتقلب عمليات التسويق. لقد زادت الثروة في أوربا بشكل يسمح لها بالحصول علي مستعمرات بعيدة، وبنفس طريقة الأثرياء الذين يمكنهم شراء الضياع والقصور. أما الأوربيين الذين أجبرتهم ظروف العمل الجديده علي أن يتحولوا إلي بروليتاريا والذين هددتهم الأزمات الاقتصادية بالبطالة فقد أخذوا في البحث عن الهجرة لكي ينتقموا من البؤس أو يفروا منه. وهكذا تجمعت كل أسباب التوسع لكي تتمكن أوربا من الحصول علي المستعمرات، ومن تزويدها بالمعمرين.

وكان المهاجرون يتركون بلادا مزدحمة أو فقيرة والحياة فيها صعبة، وظهر ذلك واضحا في إيرلندا التي زاد فيها عدد الأطفال علي طاقة الأراضي وعلي إحتكار الصناعة الإنجليزية لهم، وظهر ذلك في اسكتلندا حيث تزايدت قطعان

الأغنام، دون أن تسمح بتحمل زيادة الأهالي، وفي ألمانيا التي كانت أجزاء كبيرة منها غير صالحة للزراعة، وجاء بعد ذلك السلاف واللاتين الذين شعروا بفقر بلادهم وتأخرها في الميدان الصناعي.

وكانوا يهاجرون صوب أراضي جديدة تحتاج لأيدي عاملة وتتوفر فيها الأراضي الزراعية وكان عدد منهم يسير وهو يحلم بالذهب مثل الغزاة الإسبانيين في القرن السادس عشر. إلا أن أغلبهم كان يعمل في الفلاحة وفي تربية المواشي، وكان عليه أن يعمل ويستمر في عمله قبل أن يتمكن من النجاح. ولكن المستعمرة كانت تمنحه فرصا يعجز الوطن الأم عن منحه اياها.

ورغم أن دولا كثيرة كانت تفقد أبناءها إلا أنها كانت تقبل دفع ضريبة الدم هذه ومنعت بعض الدول الدعاية للهجرة وحددت من خروج رعاياها كما حددت من خروج رؤوس الأموال منها، إلا أنها اعترفت بحق الهجرة للمواطن. وساعدت قوانين إلغاء عبودية الأرض في كل من ألمانيا والروسيا علي تحرير أعداد كبيرة من الفلاحين ، وقامت الجمعيات الإنسانية والدينية بتنظيم نقل المهاجرين وساعد علي ذلك تطور وسائل النقل وزيادة سرعة السفن ذات الساريات الثلاث أو الخمسة، ثم البدء في إستخدام السفن البخارية المصنوعة من الحديد والتي تستخدم الرفاصات ويمكنها شحن ونقل أعداد كبيرة من المهاجرين وبأجور منخفضة. فلقد إنخفضت أسعار النقل في مدة قرن من مائة إلي خمسة. وزادت وسائل الأمن في الملاحة كما زادت سلامة السفن. وجاءت السكك الحديدية لكي تنقل المهاجرين وتقربهم من مناطق التوغل. فخدم التقدم التقنى عملية الاستعمار وجعلها في متناول الأهالي حتي وإن كانوا لا يرغبون في القيام بها.

ورغم ذلك فإن عملية الاستعمار لم تكن سهلة، فكانت الأراضي الحالية صعبة في الوصول إليها أو صعبة في ظروفها الصحية. وكانت أشهر الأراضي المغرية وأغناها هي التي تقع في غرب أمريكا أما أوسع الأراضي فكانت في قلب أفريقية وفي وسط الغابات الاستوائية أو السافانا أو الصحراء. وكانت أبعدها تقع في المحيط الهادي. وكانت في مجموعها تمثل قارات بأكملها، وكان علي الإنسان الأبيض أو يغزوها.

لقد كان هناك مكان لكل فرد في هذه المناطق الشاسعة، ولكن أحسن الثمرات أقتطفت قبل غيرها وبدأ تسابق بين الدول الأوربية للحصول علي المستعمرات، ونشأ عن ذلك تنافس فيما بينها لاحتلال الأراضي الموجودة أو المفضلة. وشهد العالم تنافس المستكشفين وتصادم القواد وتضارب النشاط بين بعثات التبشير. ولم يكن الأمر يقتصر علي مجرد النفوذ السياسي، إذ أن البحث عن المستعمرات كان يعني الحصول علي المواد الأولية والسيطرة علي الأسواق، وكما قام الفينيقيون بالبحث عن القصدير أو الهولنديون بالجري وراء التوابل فإن مستعمري القرن التاسع عشر كانوا يبحثون عن الأخشاب والمطاط والقهوة والقطن والفول السوداني، وكانت شهيتهم تتسع مع إرتفاع الأسعار. ولكنهم فكروا في توسيع أسواقهم وزيادة عدد المستهلكين لمنسوجاتهم القطنية ولمصنوعاتهم الحديدية وتزايدت شهيتهم مع إرتفاع الأسعار ومع تهديد الأزمات الإقتصادية.

وإذا كان التنافس الدولي هو الدافع الرئيسي للمستعمرين والمظهر الأساسي لحركة الإستعمار، فإن الغزو كان يكفي غالبا لإثارة سلسلة من الغزوات والحروب تهدف اكمال الميدان الأساسي باعطائها نافذة علي الخارج أو إعطاء ظهير لإحدي القواعد ولتوسيع الحدود أو لإبعاد بعض الجيران الخطرين.

فنجد أن المعمرين في مستعمرة الرأس يحاولون السيطرة جزءاً فجزء علي الأراضي الواقعة إلي الشمال من منطقتهم، وأن إحتلال الجزائر تسبب في إحتلال كل من تونس والمغرب، وأن احتلال الإرتريا يعطي فكرة السيطرة علي أثيوبيا. وأن المعمرين في جزيرة ريونيون يفكروا في مدغشقر، ومعمري كاليدونيا الجديدة يفكروا في هبريدة الجديدة. وأصبح أصعب شئ هو التمكن من الوقوف، أو وقف الحركة.

وليس معني ذلك أن حركة الإستعمار قد سارت رغم أنف الأوربيين ورغم أنف الرأي العام ورغم أنف الحكومات في بعض الحالات. ولكنها سارت كذلك نتيجة لعوامل إقتصادية عميقة ولقد نظر كل من جلادستون وبسمارك وكليمانصو إلي الاستعمار نظرة الحذر، وتردد الإنجليزي المتوسط عند رؤية تلك المبالغ الضخمة تنفق في سبيل الاستعمار، وتردد الفرنسي من الذهاب إلي ما وراء البحار وتبرأ من إرسال الحملات إلي المستعمرات، وأظهر أنه لم يترك كندا لكي يعطوا له مستعمرات جديدة. وسقط شارل العاشر بعد ثلاثة أسابيع من إحتلال قواته لمدينة الجزائر، كما سقطلوى فيليب بعد إستسلام الأمير عبد القادر بشهرين . أما نابليون الثالث فقد سقط بعد إفتتاح قناة السويس بعشرة أشهر وكانت المجالس الوطنية ترفض الموافقة علي الميزانية اللازمة للعمليات في المستعمرات أو تقلل منها وتقلل من عدد الجنود المشتركين فيها، كما كان الفرنسيون يفضلون الاستماع إلي رجال السياسة الذين يتحدثون عن الانتقام في الشرق أو يتحدثون عن العمل في فرنسا علي الاستماع إلي جول فيري وهو يتحدث عن تونس أو الهند الصينية.

ولكن قادة الإستعمار اضطروا إلي الإلتجاء إلي الأغلبية وعمدوا إلي وضع السلطات العامة أمام الأمر الواقع. وشارك في هذا الميدان رجال التبشير

الذين يعملون باسم الدين، والجنود الذين يعملون باسم الوطن، والرياضيون الذين يحققون أرقاما قياسية ودون أن يفكروا في الأحزاب والإنتخابات. وكان الرأي العام بعد تردده في البداية يستجيب فيما بعد لعمليات ظهر نجاحها، ويؤيد المواقف الوطنية في الخارج خاصة أما المنافسين الأجانب. وهكذا راقب الإنجليز حرب جنوب أفريقية بشغف، وتبني البلجيكيون الكونغو، وأظهر الفرنسيون إعجابهم بتلك المساحات التي إزدادت إتساعا علي الأطلس وعرفوا أنها تمثل امبراطوريتهم. فأخذ الأوربيون جميعاً في تعضيد حركة التوسع الاستعماري وأصبحت التسلطية تستند إلي مجموعات من الرجال، وتحولت إنجلترا إلي بريطانيا العظمي، كما تحولت فرنسا إلي «الإمبراطورية الفرنسية الكبيرة». وبعد هذا جاء دور الروس والألمان والأمريكان والإيطاليين ثم اليابانيين. أنها امبراطوريات جديدة وتعتمد كلها علي التفوق لكي تستعمر غيرها.

٢- التفوق البريطاني:

كانت انجلترا هي أحسن الدول الأوربية وضعا بالنسبة للاستعمار وخاصة بعد أن خرجت منتصرة من حروبها مع نابليون وأصبحت لها كل مقومات التفوق. فكان شعبها في إزدياد مستمر، وكان لديها الفحم والحديد، وكانت صناعتها متقدمة عن صناعة غيرها وكانت أثمان منتجاتها أقل بكثير من أثمان مصنوعات الآخرين. وكان لها نظام تأمين متفوق ونظام مصرفي وتجاري مهيأ لغزو الأسواق، كما كانت لها بحرية تجارية معدة لتوزيع السلع، فظهرت لندن بشكل متفوق. ولكن ضعف المملكة المتحدة الوحيد هو أن وحدتها لم تكن تامة ولا قوية. ورغم أنها كانت قادرة علي استعمار العالم فأنها لم تتمكن من التغلب علي تلك الجزيرة الايرلندية التي كانت تقف منها موقف

التحدي وإستمرت في هذا التحدي طوال القرن التاسع عشر رغم محاولات بريطانيا العديدة للسيطرة عليها.

ورغم ذلك فقد إستمرت إنجلترا في توسعها الاستعماري وساهم كل من المستكشفين أمثال لفنجستون وبناة الامبراطورية أمثال سيسل رودس، والوزراء أمثال دزرائيلي في هذه العملية. لقد عمل الجميع وأسهم في بناء الإمبراطورية، وحول الملكية البريطانية المتمثلة في الملكة فيكتوريا ، وحول نظرية هي حرية التجارة.

كانت فيكتوريا تمثل كل من إنجلترا والإمبراطورية في نفس الوقت وأصبح عيد ميلادها هو عيد الإمبراطورية، وأوصل حكمها الطويل والذي بلغ ثلاثة وستين عاما الإمبراطورية البريطانية إلي أوج قوتها. وكان من حقها أن تستشار وأن تشجع وأن تحذر، وتمكنت بنفوذها وهيبتها من اعطاء اسمها لقرن من الزمان ولسياسة ولطريقة معينة للحياة.

وإذا كانت فيكتوريا هي صورة الامبراطورية فإن حرية التجارة كانت وسيلة هذه الامبراطورية. وكانت إنجلترا حتي ذلك الوقت قد عاشت في ظل قانون الملاحة الذي أعطي الحماية الجمركية لها ولمستعمراتها، ولكنها شعرت بعد ذلك بقوتها أمام كل المنافسات. وأعتقدت أن سيرها طبقا لمبدأ الحرية سيدفع بعض الدول الأخري إلي التشبه بها ، مما يسمح لها بغزو الأسواق المفتوحة. وكان مبدأ حرية التجارة هو سلاح الاقتصاد القوي ويخدم مصالح المستهلكين، ولم تكن انجلترا تأبه كثيراً لتحطيم المنتجين الأجانب رغم أنها كانت تهدف إثراء المنتجين البريطانين وكان مبدأ حرية التجارة هو وسيلتها في غزو العالم.

وكام مبدأ حرية التجارة بالنسبة للمستعمرات هو إلغاء المذهب التجاري السابق. فقامت لندن في سنة ١٨٢٣ بانهاء حلف المستعمرات، ثم قامت في سنة ١٨٤٩ بالقضاء علي قانون الملاحة الذي كان الاثر الأخير الباقي من هذا الحلف. وبعد اختفاء المستعمرات المملوكة وهضم مستعمرات الشركات ذات المراسيم لم يبق إلا مستعمرات التاج وبدون أي امتيازات. وبعد أن كان النظام الاقتصادي السابق يجبر الممتلكات البعيدة علي إعطاء المواد الأولية والمنتجات الزراعية نظير استيرادها لبعض المصنوعات الإنجليزية، جاء نظام حرية التجارة الذي سمح بندفلا أثمان غالية للمواد الأولية والمنتجات الزراعية حتي يتمكن المنتجون في المستعمرات من الحصول علي أكبر كمية ممكنة من مصنوعات الوطن الأم. لقد أصبحت انجلترا في حاجة إلي إثراء عملائها حتي يتمكنوا بدورهم من إثرائها وأصبح علي تجار وصانعي المنسوجات القطنية في منسشتر أن يشتروا أكبر كمية من المنسوجات القطنية.

ولكن الحرية التجارية كانت تستتبع الحرية السياسية، وما دامت لندن لا ترغب في ارغام المعمرين فيما وراء البحار علي أن يزودوها بالمواد الأولية أو يصبحوا عملاء للصناعات البريطانية، فمن واجبها أن تعطيهم الثقة في كل ميدان. وما داموا قد أصبحوا سادة في إقتصادهم فمن الطبيعي أن يصبحوا سادة في نظمهم السياسية، ومن الطبيعي إذا إن تحصل المستعمرات علي حريتها. وسار جلادستون علي هذه السياسة في برنامجه.

وما دامت المستعمرات ستنشئ حكوماتها، فعليها أن تتولي الانفاق علي هذه الحكومات. ولقد أعطت بريطانيا في خلال القرن التاسع عشر نظام التمثيل السياسي لمستعمراتها التي عمرت بأبنائها، ثم أعطتها النظام البرلماني، ثم نظام الدومنيون الذي يبعد بعض المسئوليات الداخلية عن الوطن

الأم، ولكنها احتفظت باشراف دقيق علي مستعمراتها الاستوائية والتي كان معظم أهلها من الوطنيين وأدعت أنهم لم يصلوا بعد إلي مرحلة حكم أنفسهم بأنفسهم.

ولقد راقت هذه السياسة في أنظار بعض الدول الأخري وبشكل مريح لانجلترا. فنجد أن نابليون الثالث قد فتح حدوده للمنتجات والمصنوعات البريطانية ووحد الرسوم الجمركية في المستعمرات علي المنتجات الواردة من أية دولة سنة ١٨٦٠ ، أما هولندا فأنها قد منحت المساواة للعمل في موانيها وفي مستعمراتها للسفن التي تحمل العلم البريطاني ثم لكل سفن العالم أما الدانمارك فأنها قد تركت مراكزها في الهند، فاشترتها إنجلترا منها.

ولكن بريطانيا نجحت في التوفيق بين حرية التجارة والتسلطية. ذلك أن التنافس قد سمح بنجاحها في السيطرة التجارية، وسمح أكثر من ذلك باستغلالها لموارد جديدة فيما وراء، فأخذت في تمويل زراعات القطن والشاي والأشغال العمومية والاستكشافات واستغلال المناجم.

وإستعدت رؤوس الأموال البريطانية لكي تحل محل الموظفين في النظم الاستعمارية السابقة.

وكان دزرائيلي استعمارياً من الدرجة الأولي، وخاصة ذلك النوع من الاستعمار الاقتصادي، وكان من أبناء بعض اليهود من البندقية، وكان كيهودي يعرف كيف يمكن للمال أن يغزو العالم. وتأكد في عصره ومن بعده تضامنا ماديا ومعنويا بين هذه المستعمرات المبعثرة في جميع أنحاء العالم. وكان هذا التضامن ماديا ما دامت المواصلات البحرية قد أصبحت منتظمة، وما دام التبادل قد زاد كما توطدت الروابط المالية والمصرفية. وكان هذا

التضامن معنويا بذلك اللون الانجلوسكسونى وبتلك العزيمة التي أظهرها سكان المجموعة البريطانية في العيش بنفس الطريقة وفي مشاركة نفس الانتصارات.

وكان شعار دزرائيلي هو الاحتفاظ بالامبراطورية وكان هو نفس شعار فيكتوريا. وأصبحت هذه الامبراطورية في نهاية القرن التاسع عشر تشتمل علي خمسة وعشرين مليونا من الكيلو مترات المربعة وتشتمل علي ثلاثمائة وتسعين مليونا من السكان، أو ربع سكان العالم في ذلك الوقت. لقد كانت الامبراطورية البريطانية أوسع الامبراطوريات التي نشأت حتي ذلك الوقت، وأعلن جوزيف تشمبرلين فيما بعد أنه لا يمكن لأي امبراطورية في العالم أن تفوقها في العظمة أو في السكان أو الثروة في تنوع الموارد.

وسارت اللغة اليومية مع تلك الحمي التي نادت بالمستعمرات ثم تغنت بها فظهرت كلمة المستعمر ويستعمر والاستعمار ثم كلمة المتسلط والتسلطية، وعبرت هذه الألفاظ الخليج البريطاني لكي تدخل القارة الأوربية وتدخل كل اللغات الأوربية.

وجاء العيد الماسي بعد حكم فيكتوريا بستين عاما في سنة ١٨٩٧ لكي يشهد العالم مئات الشعوب المتجمعة حول التاج البريطاني. وجاء رؤساؤهم ووزراؤهم، ومن الزنوج والهنود الحمر الكنديين والهنود والصينيين ورؤساء الزولو وشيوخ النيجر والسودان، وكل في ملابسه الوطنية لكي يعلنوا ولاءهم لتلك الملكة التي أعطت إسمها لإحدي الدول الاسترالية ولأكبر بحيرة وأكبر شلال في افريقية ولمدينة في كندا وأخري في تكساس. لقد ثبت أن لندن وملكتها يسيطران علي العالم وبدرجة لم يصل إليها الاسكندر أو قيصر أو

شارل الخامس، رغم أن انجلترا تقل عن واحد من مائة من هذه الامبراطورية الشاسعة.

٣- الهند جوهرة التاج:

كانت الهند هي أجمل الأملاك الاستعمارية وأكثرها إزدحاماً بالسكان. وإذا كانت كل من لشبونة وباريس قد احتفظت فيها ببعض المراكز التجارية المتواضعة، فإن انجلترا كانت في وضع يجعلها تسيطر عليها.

وتمكنت انجلترا من توسيع أملاكها في الهند، بفرض سيادتها علي الأمراء الوطنيين الذين إحتفظوا باستقلالهم المحلي، وباحتلال بعض المقاطعات التي نشبت علي إستقلالها، وباخضاع بعض القبائل التي كانت ثائرة، وبتوكيد سيطرتها علي الجنوب، وبالسير صوب الشرق والشمال والغرب، وبضم آسام وبغزو السند والبنجاب سنة ١٨٤٩، الذي أوصل البريطانيين إلي نهر السند بعد ثلاث سنوات، والذي أعطاهم الواجهة البحرية لبورما في نفس الوقت. لقد تمكنت بريطانيا من إخضاع مناطق الوهابيين ونبيبال وإحتلال مرتفعات بورما، وضحت بريطانيا كثيراً لكي تصل إلي هذه النتيجة.

وكان البريطانيون يجدون في طريقهم الفهود والأفاعي والأمراء المعادين والقبائل الثائرة. وقابلوا كذلك الروس الذين كانوا قد وصلوا عن طريق بحر قزوين والأورال وحاولوا الوصول إلي الهند.

وكان الزحف الروسي صوب الجنوب والجنوب الشرقي يحمل معني الحرب المقدسة، وكان المسيحيون الأرثوذكسيون يحاولون إبعاد المسلمين الذين تمكنوا من الاستيلاء علي بيزنطة وعلي بيت المقدس، ويحاولون تقديم الحماية للمسيحيين الذين خضعوا للأتراك وللفرس. ولكن الهدف الديني تحول سريعاً

إلي حجة، خاصة وأن القياصرة كانوا يطمعون في القوقاز، وأرمينيا وأواسط آسيا. وأستولت جيوشهم علي ما وراء القوقاز، ببلاد الجراكسة، ثم علي التركستان، ثم وصلت إلي طشقند وإلي سمر قند في سنة ١٨٦٦ وتداخلت حدود القياصرة بعد ذلك مع الفرس والأفغانستان. فهل تقع هاتان الدولتان التي تمر فيها طرق الحرير القديمة تحت رحمة الروس أو تحت السيطرة البريطانية؟ إنهما دولتان استعماريتان متسلطتان يتنافسان علي هذه المنطقة الهامة من العالم.

ولقد تتالت الحملات، وتوالت الاصطدامات. وتحارب الروس والفرس ضد الهنود والبريطانيين. وكانوا يتنازعون المدن الهامة والممرات الأساسية وتمكن الانجليز من ابعاد الخطر الروسي ثلاث مرات. وأضطر جلادستون إلي الجلاء عن الأفغانستان حتي يبعد المشكلات في سنة ١٨٨١. وأخيراً تعادلت القوي المتنافسة، ولن يصبح الخليج الفارسي خاضعاً لأي منها، وكذلك التبت التي شاهدت نفس التنافس. وتعهدت الدولتان باحترام السلامة الاقليمية، وبالامتناع عن كل تدخل في الشئون الداخلية في سنة ١٩٠٧ .

وتمكنت الهند. في ظل هذا التنافس وحمايته من أن تصبح إنجليزية. ورغم ظروف المناخ لم تكن تسمح باستعمار توطن إنجليزي في الهند فإن حكومة لندن قد عملت علي أن تخلق من شبه القارة الهندية إحدي الممتلكات المثالية.

فهل كان من الممكن ترك شركة الهند، وهي تستغل منذ عهد الملكة اليزابيث الأولي؟ كانت هذه الشركة قد أنشأت من أجل التجارة وظهر أن العملية الاستعمارية قد أصبحت أضخم من مجرد إستغلال خاص. ولذلك فإن

انجلترا قد تركت هذه الطريقة وبدأت، حسب طريقة الأحرار بسحب الاحتكار التجاري من هذه الشركة التجارية في سنة ١٨٣٣، ولم تترك لها إلا إدارة الأقاليم التي كانت تمتلك بعضا منها، وكان البعض الآخر يخضع لها أو يتحالف معها. وبقي سلطان دلهي صاحب السيادة الاسمية، ولكن الشركة كانت تحكم بطريق مباشر ثلثي الهند. وعن طريق إدارة إنجليزية.

وكان في وسع بريطانيا أن تحافظ علي هذا النظام الذي يعطي الأرباح لحملة الأسهم الانجليز دون أن يكلف دافعي الضرائب أي شئ. ولكن الثورات قلبت الأوضاع رأساً علي عقب. ذلك أن الشركة التي عملت لمدة سنوات طويلة علي احترام العادات والتقاليد المحلية، وأعطت المعونات للمعابد وللاحتفالات الدينية ولمدارس البراهمة بدأت في شن حرب ضد العادات البربرية، وأشتدت ضد عادة تقديم القرابين البشرية التي كان الهندوس يقدمونها لكي يحصلوا من الآلهة علي محاصيل جيدة، ومنعت أحراق الأرامل أحياء، وسمحت حتي بإعادة زواجهن، كما سمحت بزواج الرجال والنساء من طوائف مختلفة. نظر الهنود إلي ذلك نظرتهم إلي مهزلة، وإلي تدخل في شئونهم الخاصة. فاضطر الانجليز إلي وقف معوناتهم للمعابد، وسمحوا لرجال التبشير بزيادة نشاطهم وبفتح مدارس مسيحية. وإذا تركوا العادات والتقاليد الشخصية فأنهم حاربوا تطبيق قوانين العقوبات الخاصة بالهنود. ولا شك أن الانجليز كانوا يحاولوا في هذه العملية تحطيم نظام الطوائف الموجود في الهند. ولكن، فما هو معني هذه السكك الحديدية التي تسير وسط الأراضي الزراعية، وما هو معني مد خطوط أسلاك البرق؟ لقد بدأ البراهمة في التململ، وبدأ الشعب في الهمس، وظهر عدم الرضا علي الجنود الوطنيين الذين يخدمون الشركة والذين بلغ عددهم ستة أضعاف العسكريين البيض في

نفس الشركة وأعلنت إحدي الفرق العسكرية التمرد في سنة ١٨٥٧ ثم أعلنت دلهي الثورة، وبدأت في قتل الانجليز، وأعلن السلطان بهادور، حفيد تيمور لنك أمبراطورا وحملته عبء الوقوف أمام الغاصبين البريطانيين.

ولكن هذا السلطان المغولي كان مسلما، وكانت الهند ملأي بالأجناس والديانات التي تقسمها وتمنعها من الوقوف أمام الانجليز في شكل جبهة متحدة فنجحت بريطانيا بمساعدة السيخ في إعادة النظام إلي نصابه، وكانت هذه الثورة سبباً في تفكير إنجلترا في تغيير أسس حكمها في الهند.

لقد أنهت بريطانيا الشركة البريطانية التي ألغاها البرلمان بعد تاريخ أمتد إلي قرنين ونصف قرن من الزمن. وأنتقلت كل إختصاصاتها وسلطاتها إلي التاج سنة ١٨٥٨. وبدلا من مجلس المديرين أصبح هناك وزيراً للدولة، ومجلسا للهند في لندن. أما كاليكوت فان نائب الملك قد أستند إلي معاونة مجلس يشبه وزارة محلية، ونشأت أربع رئاسات لكي تسيطر علي أقاليم الهند الأولي في البنغال والثانية في البنجاب والثالثة في مدراس والرابعة في بمباي، وتمكن خمسة آلاف موظف بمساعدة سبعين ألف جندي بريطاني، ومائة وثلاثين ألف من الجنود الوطنيين من الاحتفاظ بالسلم في الهند.

وبعد أن قتل أحفاد المغول بقي العرش خالياً، فهل تحتله فيكتوريا ؟ لقد فكوت في ذلك، وكانت ترغب في ذلك، وشجعها عليه دزرائيلي ذلك الصديق المخلص بحركاته وبألقابه. ولكن الانجليز لم يكونوا قد تعودوا بعد سماع ذلك اللقب الامبراطوري، وكانوا لا يرغبون في التجديد. ولكن الملكة أصرت، وما دام القيصر ينافس إنجلترا، فمن الواجب رفع الملكة إلي المصاف الامبراطوري. ووافق دزرائيلي، وحصل هو نفسه علي لقب لوردبيكو نزفيلد،

وحصل من البرلمان علي قرار بأن تحمل الملكة في الخارج لقب امبراطوره الهند في سنة ١٨٧٦ .

لقد توحدت الهند وهدأت وخضعت. ولكن هل إزدهرت؟ لقد إزدهرت في مجموعها وفي ظاهرها، مثل إنجلترا، ولكن هذا الإزدهار لم يكن عميقا ولم يكن بنفس بؤس الطبقات الشعبية. كانت الهند تصدر أقطانها وكانت منشستر سعيدة بحصولها علي هذه الأقطان وخاصة في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية. وكانت الهند تصدر كذلك الأفيون والأرز والجوت والقمح والشاي، وبعد الثورة تضاعفت تجارة الهند الخارجية في مدة عشرين سنة، وتضاعفت خمس مرات في مدة خمسين سنة. ولكن صناعة الغزل والنسج فيها، والتي كانت تنافس إنجلترا وجدت صعوبة كبيرة في أن تقف علي أرجلها وزاد شعب الهند نتيجة لمحاربة المجاعات والكوليرا من ١٣٠ إلي ٣٠٠ مليون في مدة قرن واحد من الحكم البريطاني، وأصبحت المشكلة هي إيجاد الطعام الكافي لتلك الافواه المتزايدة في الهند لقد نشأت حركة هجرة من الهند صوب ماليزيا وجنوب افريقية وجزيرة موريس وترينيداد وجامايكا، وبدأوا ينسون بؤسهم من منفاهم وهم يعلمون أنهم يحلون محل العبيد والزنوج وأنهم يأتون لكي يصبحوا شبه خدم.

ولقد أثارت الهند مشكلة الاستعمار الحديث في أجلي معانيها، إذ أنها كانت فريسة لمستعمر أناني ليس له هدف إلا السيطرة والربح. لقد خضعت وأستعبدت رغم مساواة البريطانيين بين الطوائف ورغم إنتشار الطرق والقنوات ومشروعات الري واختفاء الأمراض. لقد تزايد سكانها، وتناقص مستوي معيشة أهلها، وإذا كان الحكم البريطاني قد أتي لها بالفوائد، فأنه قد أكمل لها المتناقضات.

ورغم ذلك فإن انجلترا قد اعتزت بمجدها، ومجد ملكتها الامبراطورة وواصل الجنود والموظفون الرحلات لصيد النمر ولعب البولو في الوقت الذي كان فيه الفقراء والشحاذين يأكلون النار وينامون علي المسامير لكي يحصلوا علي بعض قطع من النقود من السادة المستعمرين. لقد أصبحت الهند أكبر جوهرة في تاج فيكتوريا، ولكن بالنسبة للانجليز.

٤- علي طريقي الهند:

عملت لندن علي الاحتفاظ بالاشراف والسيطرة علي الطرق المؤدية إلي الهند، وهما طريق الشمال الذي يمر من البحر المتوسط ومصر، وطريق الجنوب الذي يمر بجوار رأس الرجاء الصالح، وكان من الواجب أن يتحول المحيط الهندي الذي يلتقي هذان الطريقان إلي بحر بريطاني. وكان هذا هو السبب الذي دفع بريطانيا لاحتلال المواقع الهامة المحيط به، في سنغافورة التي تحرس شبه جزيرة ملقه، وسيلان جزيرة المطاط والتي تشرف علي الهند، وسيشل التي تشرف علي الهند. وكانت أشهر قلعة وأهمها هي جزيرة موريس التي بقي معظم أهلها من الفرنسيين، والذين رفضت بريطانيا أعطاءهم حقوق المستعمرين البيض.

أما في البحر المتوسط فأن حكومة لندن قد إحتفظت كذلك بالنقط الاستراتيجية التي تسمح لها بحرية المواصلات، ورغم أنها كانت قد تركت مينورقة لإسبانيا منذ صلح إميان فأنها إحتفظت بجبل طارق وبمالطة وبالجزر الايونية التي خضعت لحمايتها رغم أن الأهالي كانوا يطالبون فيها بوحدتهم مع اليونان ولقد أعطاهم جلادستون إستقلالهم في سنة ١٨٦٣، ولكن دزرائيلي عوض هذه الخسارة باستيلائه علي قبرص ١٨٧٨، وفي نظير تحالف

بريطانيا مع الدولة العثمانية ضد روسيا وكان ضعف الامبراطورية العثمانية وبدء تفككها عاملا يساعد في تغيير القوي الموجودة في البحر المتوسط، وخاصة أمام نمو وزيادة الأطماع الروسية والنمساوية والانجليزية. ورأت انجلترا أن مصر هي أحسن فريسة بالنسبة إليها، وبالنسبة للهند.

وكانت مصر تعيش داخل نطاق الامبرطورية العثمانية دون أن تكون جزءاً منها، وتغير لقب حاكمها من وال إلي خديو، وبدأت مصر تصبح دولة حديثة في نظمها وإدارتها. وتأثرت مصر بمشروع ربط البحر المتوسط مع مياه الهند بقناة السويس.

وكان مشروع قناة السويس قد بدأ في التنفيذ باشراف أحد الفرنسيين، وهو فرديناند ديليسبس، وبرؤوس أموال فرنسية، وبمهندسين فرنسيين، وإنتصر علي الصحراء وحقق نصراً للملاحة والمواصلات. ووافقت مصر علي اعطاء إمتياز القناة لمدة ٩٩ سنة، ووافقت تركيا، وانزعجت بريطانيا وكان فرديناندديليسبس، بعد سان لوي والجنرال بونابرت يمثل خطراً علي بريطانيا بوجود فرنسا في مصر. ألم تكن القناة تهدد أمن الهند؟ لقد كافح بالمرستون ضد هذا المشروع بكل قواه. ولكن المشروع تم رغم كل ذلك، وافتتحته الامبراطورية يوجيني بين مظاهر العظمة والرخاء في سنة ١٨٦٩. فأضطرت لندن إلي تغيير موقفها، خاصة وأن المسافة بين ليفربول والهند قد نقصت إلي النصف. ووجدت بريطانيا أن من مصلحتها إستخدام قناة السويس، حتي تعمل علي زيادة الروابط بين امبراطوريتها، ولكن علي أساس أن تبقي سيدة للبحر المتوسط. لقد أصبح في وسع تجار الأقطان والمنسوجات الانجليز استيراد المواد الأولية، وتصدير المصنوعات بتكاليف أقل ولذلك فأن دزرائيلي قد أمر وزير الخزانة البريطانية في سنة ١٨٧٥ بشراء ١٧٦ ألف سهم كانت ملك

الخديوي ورغب في بيعها، فأصبحت الحكومة البريطانية عضواً مساهماً في شركة قناة السويس، وأصبحت هذه القناة إحدي الطرق الامبراطورية البريطانية.

وكانت هذه خطوة أولي في سبيل السيطرة علي الخديو وعلي مصر، ولما كان الخدير محباً للعظمة والفخفخة وتسبب في اضطرابات المالية المصرية ولم يضمن مصالح الدائنين الغربيين فتدخلت بريطانيا وأنشأت صندوقا للدين تحت إشراف فرنسي بريطاني علي الميزانية في سنة ١٨٧٦. وتسبب هذا الحكم الثنائي في رد فعل قومي في مصر وتزرعت كل من باريس ولندن بالذرائع لتحويل الاشراف المالي إلي سيطرة سياسية ولكن حكومة باريس ترددت، ولم يكن كليمو نصو يرغب في القيام بمغامرات بعيدة، فنزلت إحدي الفرق البريطانية في الاسكندرية، ونزلت حملة أخري عند القناة وسارت إلي القاهرة وإحتلت مصر سنة ١٨٨٢ . ورغم أن بريطانيا لم تعلن حمايتها علي مصر، وأعلنت أن بقائها فيها كان بقاءاً مؤقتاً، إلا أنه لم يكن له زمن معين.

وكان معني الاشراف البريطاني في مصر هو مد النفوذ البريطانى الي السودان، ولم يكن في وسع بريطانيا السيطرة علي مصر دون أن تضمن السيطرة علي أعالي النيل. وبعد محاصرة غوردون في الخرطوم وصلت الامدادات البريطانية سنة ١٨٨٥ لإنقاذه ولكنها وصلت متأخرة ووجدت أن الدراويش قد قتلوه، فحزنت عليه الملكة، وكل الرأي العام البريطاني، وإستمروا في حزنهم مدة أثنتى عشر سنة إلي أن تحول هذا الحزن إلي غضب ومطالبة بالثأر. وتوغل كتشنر في السودان وأخذ في قتل السودانيين وإستولي علي الخرطوم، وأنشأ حكما ثنائيا انجليزيا مصريا، وتحت السيادة البريطانية. وهنا إنتهت الأحزان، وهدأ الرأي العام البريطاني بعد أن حصل

علي السودان، وصاحب فيكتوريا بأنها قد انتقمت لغوردون، وكأنها كانت تعرفه.

أما علي الطريق الشمالي للهند فإن انجلترا قد تمكنت من انشاء المحطات في البحر الأحمر وعلي المحيط الهندي وتمكنت من السيطرة علي مضيق باب المندب من جزيرة بريم التي استولت عليها سنة ١٨٣٩ . أما عدن التي استولت عليها في نفس السنة فأنها قد تحولت إلي محطة للفحم وإلي قلعة حصينة. ومدت بريطانيا حمايتها علي طول الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية والسلاطين الموجودين فيه، والذين اعترفوا بالمقيم البريطاني كقاض وحكم ووسيط بينهم في سنة ١٨٦١ . وتمكنت بريطانيا من زنزبار التي أبعدت عنها المنافسة الألمانية من الإشراف علي ساحل افريقية الشرقية، وزادت بريطانيا من ممتلكاتها علي القارة نفسها بين البحيرات العظمي الافريقية والمحيط، فحصلت علي كينيا ثم علي الهضاب العالية في أوغندا.وأصبحت تحكم على سلسلة مستمرة من الممتلكات تمتد من القاهرة إلي ممبسة وتدور حول أثيوبيا وتصل البحر المتوسط بالمحيط الهندي.

أما طريق الهند الجنوبي فإنه قد فقد أهميته في الوقت الحاضر الذي غيرت فيه قناة السويس طريق المواصلات التجارية. ولكن القناة كانت مهددة، وكان الحصول علي طريقين أسلم من الحصول علي طريق واحد، ولذلك فإن بريطانيا لم تتخلي عن مراكزها الافريقية ولاسانت هيلانه ولا رأس الرجاء الصالح. حتي إذا كانت السفن التي تصل إليها قد أصبحت نادرة فإن مستعمرة الرأس كانت تحتل موقعاً فريداً وكانت تبشر بمستقبل باهر. وكانت أفريقية الجنوبية تسمح باستيعاب عدد من المتوطنين الأوربيين، وأرسلت إنجلترا إليها عدد من المعمرين حتي لا تترك المجال خاليا أمام البوير، والذين

كانوا من أصل هولندي. وإكتشفت أول ماسة بجوار نهر أورانج في سنة ١٨٦٧ وتسببت في مجئ أفواج كثيرة من المهاجرين والمعمرين وأصبحت مناجم كمبرلي من أشهر مناجم العالم. ثم إكتشفت أكبر مناجم للذهب هناك في سنة ١٨١٤ وتسبب ذلك في مجئ أفواج جديدة. وعملت بريطانيا علي الاحتفاظ بهذه المستعمرة وبأي ثمن كان.

أما البوير فأنهم كانوا قد سئموا البريطانيين فحل عدد منهم أمتعته علي عرباته وسار شمالا وأسسوا جمهورية ناتال. ولكن الانجليز أقتفوا أثرهم وضموا جمهورية ناتال في سنة ١٨٤١ . فواصل البوير سيرهم بعد الأورانج وأسسوا جمهوريات أورانج والترنسفال، وإضطرت بريطانيا إلي الاعتراف باستقلالها. ولكنها تدور حول دول البوير وتسيطر علي قبائل الزولو وتتوسع صوب الشمال وصوب البحيرات العظمي وكأنها تحاول الاتصال من رأس الرجاء الصالح بوادي النيل والقاهرة.

ولقد فكر أحد الرجال من أجلها وهو سيسل رودس، أبن راعي الكنيسة الذي أصبح رجل أعمال. وكان قد كون ثروة كبيرة من الماس في سنة ١٨٨٠ ونجح في تجميع جملة شركات صغيرة في شركة واحدة أصبحت لها حقوق احتكارية. ثم عمل من أجل الذهب نفس العملية التي قام بها من أجل الماس فكون مجموعة رأسمالية باسم جولد فيلد في سنة ١٨٨٦ . وكانت لسيسل رودس موارد ضخمة، وكان عضوا في برلمان مستعمرة الرأس، ثم وزيراً. ولما كانت الشركات ناجحة، فهو يواصل تكوين شركات جديدة، والإستعمار أقاليم السافانا في الشمال، وحصل علي إمتياز من حكومة لندن لشركة في سنة ١٨٨٩ سماها شركة جنوب افريقية البريطانية التي أصبح لها جيشاً وخزانة، وأصبحت تبني القلاع وتقيم المدن. وتحظي وكلاؤها منطقة الزمبيزي ووصلوا إلي بحيرة نياسا.

وبفضل سيسل رودس تمكنت إنجلترا من منع الألمان المقيمون في جنوب غرب افريقية من الاتصال بجمهوريات البوير، ومنع البرتغاليين في أنجولا من الاتصال بالبرتغاليين في موزمبيق وبدلا من أن تنقسم إفريقية بين الغرب الشرق بأراضي أجنبية، أنقسمت افريقية بين الشمال والجنوب بممتلكات انجليزية وصدر مرسوم ملكي يسمي هذه الأراضي التي تصل بين الممتلكات البريطانية في جنوب افريقية ووسطها وحوض النيل باسم روديسيا.

ولكن جمهوريات البوير كانت عاملا مضايقا للبريطانيين علي جانب افريقية الجنوبية وأتهم رجال التبشير الانجليكانيون البوير بالاحتفاظ بالزنوج كعبيد وكانت مستعمرة الرأس قد ضمت مقاطعة كمبرلي في سنة ١٨٧١ وحاولت شركة جنوب افريقية البريطانية الأغارة علي جوهانسبرج عاصمة الذهب، وأعلنت لندن الحرب ضد الترنسفال والأورانج في سنة ١٨٩٩ .

ولقد قاوم فلاحوا كروجر جنود الملكة لمدة تقرب من ثلاث سنوات وكانت حربا بين البيض، أما الوطنيون فكانوا يميلون إلي جانب الانجليز أكثر من ميلهم إلي جانب البوير. ولم يخسر الانجليز في هذه الحرب إلا ستة آلاف قتيل.

ولم يكن هناك أحد يشك في نتيجة هذه الحرب. فما الذي يمكن لتسعين ألف رجل وبدون أسلحة حديثة أن يفعلوه أمام مائة وخمسين قامت كبري دول العالم بتسليحهم؟ لقد سقطت بريتوريا في سنة ١٩٠٢ وضم التاج أورانج والترنسفال، وأنتهت حرب العصابات، وأقيمت الزينات في لندن.

وكانت إنجلترا تعرف كيف تسيطر علي نفسها ساعة الانتصار رغم أنها لا تتورع عن القسوة في أثناء الحرب، وهي أكثر تفاهما في مدة السلم، وبكل

روح رياضية هتف سكان لندن للقواد البوير الذين جاءوا للأنفاق علي شروط السلم مع حكومتهم. ودفعت لندن ثلاثة ملايين جنيه للمزارعين لإعادة إنشاء مزارعهم. وأحتفظت الدولتان المقهورتان بلغتهما وأعترفت لهما بريطانيا بالحق في إنشاء حكومة برلمانية. ودخلوا في اتحاد جنوب افريقية في سنة ١٩٠٩ .

وكان لمستعمرة الرأس برلمان وحكومة مسئولة منذ وقت طويل ولكنها كونت بعد ذلك مع ناتال وأورانج والترنسفال نوعا من الدومينيين الذي تجتمع هيئة التشريعية في مدينة الرأس وهيئته التنفيذية في بريتوريا. أما المملكة المتحدة فأن حمايتها تمتد علي الأقاليم السوداء مثل بتشو انالاند وشوازيلاند، وسنري البوير مثل بوتا وسمطس، والذين كانوا رؤساء عصابات ثائرة، يحلون محل رودس في منصب رئيس وزراء هذا الدومينين الجديد. ولكهن المهم هو أن البوير بعد وصولهم إلي السلطة والحكم وبعد أندماجهم وإعلان ولائهم مع الانجليز قد أستمروا في أبعاد الزنوج عن الحياة العامة والحياة السياسية.

لقد أصبحت دولة اتحاد جنوب افريقية أول منتج للذهب في العالم، وأصبح صوف الرأس، مثل قطن وادي النيل، مادة أساسية للغزل والنسج البريطاني. وجاء المعدن النفيس لكي يزيد رصيد بنك إنجلترا، وغطاء الجنيه الإسترليني، زعيم العملة المستقرة.

وعلي طول طريقي الهند حافظت بريطانيا علي ممتلكاتها، وبنت امبراطورية جديدة.

الفصل الثامن عشر

المحيط الهادي وأمريكا

شهد الشرق الأقصي تنافساً استعمارياً وأطماعاً شاركت فيها كل من انجلترا والروسيا وفرنسا والبرتغال وأمريكا وألمانيا بعد ذلك . وكان لهذا الميدان خصائصه التي أعطت له استراتيجية خاصة أثرت علي توازن القوي فيه وأثرت علي مستقبله. وكان نزول الولايات المتحدة الأمريكية إلي هذا الميدان ، بعد اقترابها منه عاملا هاما في تغيير توازن القوي ، وعاملا أساسيا في ظهور الإمبريالية الأمريكية بجوار غيرها من الإمبرياليات.

(١) الشرق الأقصي:

لقد اصطدمت انجلترا في الشرق الأقصي بحضارات قديمة وتسبب ذلك في إثارة المنافسات الأوربية وكانت الروسيا هي أول المنافسين، وذلك بضغطها المستمر علي القارة الأسيوية وزحفها في سيبيريا ، وغزوها لآسيا. وتمكنت من توطين مئات الآلاف من المجرمين السياسيين ومن البولنديين المنقولين ومن عبيد الأرض تحت إدارة بيروقراطية طاغية . وتمكن خط سكة الحديد العابر لسيبيريا بعد عشر سنوات من العمل المتواصل من عبور عشرة آلاف كيلومتر والوصول حتي المحيط الهادي، فوصل أولا إلي فلاديفوسنك، ثم إلي بورت آرثر سنة ١٩٠١.

وكانت الصين تحت حكم الأباطرة من أسرة المنج قد بدأت في التدهور وفي الخوف من كل ما يحمله اليها الأجانب ، سواء أكان ذلك تقدما فنيا أو سياسياً. وكانت ترفض التجديد، كما كانت تقبل بعثات التبشير المسيحية في بعض الأفات وتطردهم في أوقات أخري. ولم تكن تقبل التجار الغربيين

إلا في بعض الأماكن والمدن والموانى، فكان البرتغاليون يعملون في مكاو، وباع الانجليز أفيون الهند في كانتون واشتروا بأثمانه شاي الصين.

وظهر الغربيون في الصين علي أنهم تجار مخدرات، ولكن الصين سايرت تجارة الأفيون وانتشرت فيها أماكن تدخينه . ورغم أن السلطات منعت استيراد هذه المواد، إلا أن الإنجليز أخذوا في تنظيم عمليات تهريبها بالإتفاق مع بعض الموظفين الصينين. وألقت سلطات كانتون عشرين ألف صندوق من الافيون في البحر سنة ١٨٣٩، وكان الانجليز يبيعون الافيون بخمسة أضعاف ثمنه، فطالبوا بتعويض رفضته الصين ، وتدخل الاسطول البريطاني في سنة ١٨٤٢ واضطرت بكين إلي التراجع، وفتحت معاهدة ناتكين خمس موان للتجارة، وأعطت لانجلترا مدخل نهر كانتون وجزيرة هونج كونج ملكا لها.

وكان هذا مثلا علي أن الصين غير قادرة علي أن تعارض النفوذ الأوربي بالقوة وحينما كان الاوربيون يتحدثون إليها عن التجارة كانت ترد عليهم بالبروتوكول والإحتفالات ، وعاشت وهي تحقر الغرب، ولكنها عجزت عن مقاومته. واضطرت الصين شيئا فشيئا إلي أن تقدم تسهيلات تجارية جديدة للأمريكيين ثم قبلت دخول بعثات التبشير المسيحية فيها. ولكن أوربا كانت تنتظر أقل حادثة لكي تستند اليها وتحصل علي إمتيازات جديدة. فاذا صادفت بعض بعثات التبشير صعوبات. أو أصاب بعض التجار غبن كانت الدول الأوربية تسرع بتدخلها العسكري لكي تؤكد تفوق البيض. وحدث ذلك في سنة ١٨٥٨ حينما ذهبت حملة فرنسية انجليزية واحتلت تان تسن، وحملة أخري دخلت بكين. ونظراً لأن الصينين قد قتلوا بعض الضباط الأسري، فان الأوربيين قد أحرقوا قصر الشتاء التي روت القصص عن عضمته ودقة فنه.

فاضطرت الصين الي الاستسلام سنة ١٨٦٠ ودفعت كل التعويضات المطلوبة ووسعت منطقة هونج كونج التي أصبحت ملجأ لرجال العصابات الصينيين ومركزا للتجارة الأوربية، وفتحت للتجارة عشرة موان جديدة وقبلت إعادة تنظيم الجمارك وباشراف أحد الانجليز . وانتهز الروس فرصة إنهيار الصين لكي يحصلوا علي الضفة الغربية لنهر آمور والمناطق الواقعة الي جنوبه علي ساحل البحر حتي كوريا. فأصبحت نهاية سيبيريا في مواجهة اليابان .

وبدلا من أن تقتنع أوربا بهذه المكاسب، بدأت شهيتها في الظهور ، وظهرت الصين وكأنها ثمرة ناضجة أمام من يرغب في الإستيلاء عليها. وبدأت الدول الأوربية نشاطها دون أن تعمل علي تقسيم الصين، فاستولي الألماني علي كياوتشيو سنة ١٨٩٧ ، وحصل الروس علي إمتداد خط سيبريا عبر منشوريا وحصلوا علي امتياز بورت آرثر سنة ١٨٩٨، أما الانجليز فانهم قد إحتلوا بعض المواقع عند مدخل خليج بتشيلي وحصلوا علي حقوق الملاحة علي النهر الأزرق، وحصل الفرنسيون علي إيجار خليج كوانج تشيو وحق بناء سكة حديد يونان سنة ١٨٩٨. وفكر المستعمرون الغربيون في أن شمال الصين سيصبح روسيا، أما الوسط فسيصبح بريطانيا مع منطقة للنفوذ الألماني، وأما الجنوب فسيصبح فرنسيا. وجعلت هذه الأخطار الصين تفكر في أنه ليس لها جنود أو أسلحة أو ذخائر . فاضطر القصر إلى إثارة أهالي بكين مع جمعية البوكسير السرية سنة ١٩٠٠ ، وقتل في هذه الحوادث عدد من الدبلوماسيين وأدي الأمر الي تدخل أجنبي جديد وتمكنت الروسيا من إحتلال منشوريا عسكريا.

ولقد ساعدت زيادة السكان في الصين علي هجرة عدد من الصينيين الي الأقاليم المحيطة بالمحيط الهادي، إلي جاوة وسومطرة وماليزيا وأمريكا، في نفس الوقت الذي أصبحت فيه هونج كونج مخزنا وقاعدة للتجارة البريطانية وتمت المستعمرة الانجليزية في شنغهاي وخاصة بعد أن اتخذت معها المستعمرة الأمريكية . وأخذ البيض يتجمعون في بلاد الصفر، وفي أحياء خاصة بهم وفي حراسة شرطتهم وحماية السفن الحربية الراسية في الميناء، وأصبح للبيض حقوقاً وإمتيازات في جميع أنحاء الصين ولم يخضعوا إلا لحكم المحاكم القنصلية .

وحاول الأوربيون أن يفعلوا في اليابان مافعلوه في الصين وكانت اليابان علي طريق الملاحة الأمريكي بين سان فرانسيسكو وكانتون. ونزل الكومودور بري في خليج ايدو وتمكن من فتح مينائي شيموداوها كودات للتجارة الأمريكية وكانت هذه أول مرة تسمح اليابان باعطاء امتيازات للأجانب في سنة ١٨٥٣، بعد الامتيازات التي أعطتها للهولنديين وللصينيين للمتاجرة مع ناجازاكي وحاولت انجلترا بعد ذلك الوصول الي اليابان والمتاجرة في الموانى المفتوحة ، ثم جاءت الروسيا وشاركت في العملية. ونجحت كل هذه العمليات بعد عدد من قذائف المدفعية ، إنتهت بعقد معاهدات مع الدول العظمي.

ولكن إذا كانت الصين تستسلم دون مقاومة، فان اليابان كانت تلاحظ أسباب تفوق البيض، فعملت علي إصلاح أداتها الادارية، وبدأت في إنشاء أسطول وصناعة وتمرنت علي يد الأجانب، ثم تفوقت عليهم بعد أن استخدمت وسائلهم الفنية وأسلحتهم. ومعني ذلك أن اليابان لن يسهل استعمارها، بل انها هي نفسها التي ستستعمر الغير. واتخذت الشعارات الحديثة وعملت

علي نسفها شعار «آسيا للاسيويين» ولليابانيين قبل غيرهم لقد نجحت اليابان في أن تفرض علي الصين الضعيفة أمر سيادتها علي كوريا ، وترك فرموزا وجنوب منشوريا سنة ١٨٩٥ ، ولكن الموقف كان يهدد باصطدام مع الروس، أي إصطدام بين دولتين متوسعتين. وتراجعت طوكيو في أول الأمر، ولكنها ضمنت موافقة الإنجليز وهاجمت امبراطورية القياصره وتعقبت جيوشهم وأغرقت أسطولهم في سنة ١٩٠٥. قرأت الروسيا التي كان توسعها صوب الشرق قد اصطدم علي القارة الأمريكية بمذهب مونرو، أن توسعها علي القارة الآسيوية قد توقف ، واضطرت إلي الإعتراف بنفوذ اليابان وتفوقها في كرويا وفي جنوب منشوريا، وأصبح بورت آرثر يابانياً، وضمت اليابان كوريا سنة ١٦١٠. ونجح امبراطور اليابان في إبعاد النفوذ الأجنبي عن بلاده وفي صد أحد المستعمرين البيض وكانت لهذا الإنتصار آثار بعيدة واستمرت طوال سنوات القرن الذي شاهد بدايته هذا الإنتصار.

ولكن الدول الأوربية نجحت في الهند الصينية. وورثت فرنسا منذ عهد الملكية ذكري امتيازات حاول نابليون الثالث الإفادة منها واستغلالها باحتلال سايجون وثلاث مقاطعات من الكوشين صين ، ثم الكوشين الغربية، مع فرض حماية علي مملكة كمبودج في سنة ١٨٦٢. فهل كان يحاول حماية بعثات التبشير الكاثوليكية؟ أو كان يحاول فتح أسواق جديدة؟. لم تكن الصين ولا آنام ولا سيام في موقف يسمح لها بمعارضة التدخل الفرنسي ومعارضة انشاء امبراطورية فرنسية في الشرق الأقصي. واذا كانت بداية الإمبريالية الفرنسية في عصر نابليون الثالث تحمل بعض المسئولية في الهند الصينية ، فان المسئولية في غالبيتها تقع علي كاهل الجمهورية الثالثة التي مدت احتلالها علي كل الهند الصينية واستولت علي هانوي ودلتا النهر الأحمر، ثم تدخل

جول فيري وعقد معاهدة حماية علي آنام. وتمكن الأسطول الفرنسي من تحطيم الأسطول الصـيني الجنوبي، واضطرت الصين في سنة ١٨٨٦ إلي ترك آنام وتونكين. ورغم ذلك فان الرأي العام الفرنسي لم يقدر هذه الامبراطورية حق قدرها، بل أظهر قلقه من هذه المغامرة ومما تكلفه لفرنسا التي حاولت أن تنسي في الشرق الأقصي مقاطعتي الإلزاس واللورين ولكن رجال الأعمال وبعض الضباط أفادوا من هذه المغامرات الإستعمارية وعوضوا عن نفسهم مافاتهم في الحرب الفرنسية الألمانية. ويمكننا أن نضيف اليهم جول فيري نفسه الذي لم تكن له نظرية محددة، وأخذ ينادي «بعظمة الأمة، وشرف العلم». وتمكنت أقلية من بناء الهند الصينية الفرنسية رغم الرأي العام الفرنسي. وبعد القضاء علي القراصنة والعصابات والدخول إلى لاوس سنة ١٨٨٧ انتهت عملية التهدئة، وأعلن اتحاد الهند الصينية. فتعددت الطرق وبنيت الموانى واحيي الري إقتصاداً بعد عصور طويلة من الذبول .

واحتفظت سيام الواقعة بين الهند الصينية الفرنسية، وبورما الإنجليزية باستقلالها، نتيجة للتنافس الفرنسي البريطاني. ومادام الطرفان يتنازعانها فانهما لن تصبح لأي منهما ولقد أجبرت فرنسا انجلترا علي الإعتراف بضم لاوس الي الهند الصينية في سنة ١٨٩٣. وتمكنت انجلترا من عقد معاهدات حماية مع بعض سلاطين شبه جزيرة ماليزيا وحصلت من سيام علي سلطنات الشمال في سنة ١٩٠٩ ونتيجة لذلك تعهدت كل من باريس ولندن باحترام بانجوك .

ولم ينجو من أيدي المستعمرين البيض إلا اليابان والأفغانستان وفارس وسيام، أما بقية آسيا فانها قد خضعت للأوربيين ، سيبيريا للروس والهند

للانجليز ، والهند الصينية للفرنسيين، والصين لكل الغرب ولم تعد آسيا إلا شبه جزيرة صغيرة تخضع لأوربا .

(٢) إستراليا والمحيط الهادي:-

كان كوك قد استكشف أجزاءاً كثيرة من ذلك المحيط ، ثم جاء الانجليز لكي يرسلوا إلي إستراليا بالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وبالمساجين. ولكن المناخ كان يسمح بتوطن عناصر بيضاء، وكانت الأراضي تسمح بتربية الأغنام التي ستنتج نصف مايستهلكه العالم من الصوف. ثم ظهرت الثروة المعدنية وأكتشف الذهب في استراليا سنة ١٨٥٠ ، فأسرع إليها المهاجرون الذين ضاعفوا شكّل أهلها. وحينما إنتهت عروق الذهب الواضحة علي سطح الارض أحد المتوطنون في تربية الأغنام وزراعة القمح. ومع زيادة المتوطنين وإنتشارهم داخل القارة نشأت دول جديدة باستمرار. ولما كان معظم المهاجرين من الانجليز فقد وافقت لندن علي اعطائهم استقلالهم السياسي الداخلي بمجالس تمثيلية وإنتخابات عامة وحكومات مسئولة. وإنتهي الأمر بإنشاء الاتحاد الاسترالي الذي ضم عدة دول، أصبحت عاصمتها في كانبيرا، التي تمثل واشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الأهالي فقد كان عددهم صغيرا ولم يأبه بهم أحد، أي أنهم كانوا يقتلون دون أن يتحدث أحد عنهم ، فأنتهت بذلك المشكلة.

وكانت زيلاندا الجديدة عبارة عن جزيرتين علي بعد ألف وخمسمائة كيلومتر إلي شرق إستراليا ، وكانت كل من فرنسا وانجلترا قد حاولت إحتلال هذه الجزر التي كان تاسمان الهولندي قد اكتشفها، وكان كوك الانجليزي قد زارها، وأرسلت كل من الدولتين سفينة إليها، ولكن السفينة الانجليزية بلغتها

قبل السفينة الفرنسية بثلاثة أيام فأصبحت زيلاندا الجديدة انجليزية سنة ١٨٣٩، وأصبحت مستعمرة للتاج، وهي جزر خصبة مناخها معتدل وبدأت في الازدهار بالمعمرين ولقد حصلت زيلاندا الجديدة علي برلمان لها سنة ١٨٥٣ ، ثم أصبحت دومنيون سنة ١٩٠٧.

وكان الهولانديون في جزر التوابل يستغلون الأهالي في زراعة النيلة والشاي والطباق. وكان هناك الاسبانيون كذلك في الفلبين ، ولم يحدث تغيير يذكر في هذين الاقليمين ، أما بقية المحيط الهادي، الممتليء بآلاف الجزر فقد أصبح ميدانا للتنافس الاستعماري بين الدول البيضاء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان ذلك هو التسابق من أجل الأراضي الأخيرة الباقية. ومن أجل آخر المراكز الاستراتيجية. وقامت الدول برفع أعلامها علي جزر مجهولة وشبه خالية من السكان. ، ولكن الحظ أثبت أن بعض هذه الجزر كانت لها قيمتها. وإستولي الانجليز علي جزر كثيرة منها فاستولوا علي فيجي وعلي ايليس وعلي كونجا وعلي فينيكس وارخبيل كوك وغينيا الجديدة، أما الفرنسيون فانهم قد استولوا علي جزري ماركيز وتاهايتي وتواموتو وجمبيه وضموا كاليدونيا الجديدة التي استخدموها لنفي المجرمين ثم إكتشفوا فيها النيكل والكروم والكوبالت. أما الألمان فانهم قد حضروا إلي ساموا وتاجروا في ملح البارود وفي جوز الهند ثم استولوا علي جزء من غينيا الجديدة ومن ساموا ، وأما الأمريكيون فانهم قد اعتبروا أن جزر المحيط الهادي متممة لقاراتهم، فاعلنوا حمايتهم علي هاواي التي ضموها بعد ذلك ، ووصلوا الي ويك ثم إلي مارشال. وأصبحت كل جزر المحيط الهادي خاضعة للعناصر البيضاء. ولم تتم هذه العملية دون اصطدامات، بل لقد شهدت تنافساً بين بعثات التبشير الكاثوليكيين والبروتستانتيين كما حدث في هاواي. أما

تاهايتي فان الملكة كانت تحبك المؤتمرات مرة مع القنصل البريطاني ومرة مع الكاثوليك الفرنسيين، وأما الألمان والاسبانيون فانهم قد تخاصموا بشأن كارولينا، كما تخاصم الألمان مع الأمريكين بشأن ساموا، وتخاصم الألمان مع الانجليز في غينيا الجديدة، والانجليز والفرنسيين بشأن هبريدة الجديدة، وكانت معظم هذه المنافسات لا تتعدي المشكلات الدبلوماسية أو المظاهرات البحرية ولكن صرعاً أهم من ذلك نشأ في الفيلبين بين مستعمرين جدد ذلك أن اسبانيا لم تكن ترغب في ترك أملاكها بعد طردها من العالم الجديد. وفي الوقت الذي أخذت فيه الولايات المتحدة الأمريكية تعمل ما تعمله الدول العظمي الاخري. وكانت الحرب بين الدولتين ظاهرة هامة تدل علي بدء التوسع الأمريكي.

٣- التوسع الأمريكي:

كان نمو أمريكا الانجلوسكسونية واضحاً من الناحية الديموجرافية ومن الناحية الاقتصادية. فهل كان نمو الشعب هو الذي يؤدي الي نمو الاقتصاد؟ أو كان الازدهار الاقتصادي هو الذي يساعد علي زيادة السكان؟ الواقع أن العاملين مرتبطان. ولم يحصر الأمريكيون أنفسهم في مكان واحد أو في إطار المقاطعات الشرقية التي كانت مهد الأمريكيين، بل إتسعوا من الشرق صوب الغرب، مثل الرومان في أوربا ومثل الروس في سيبيريا، ومثل الاستراليون في جزيرتهم، وقاموا الاستعمار. وتكفي بعض الأرقام لتحديد زيادة الأهالي في القرن الممتد من نهاية الحروب الامبراطورية حتي الحرب العالمية الأولي. لقد زادت كندا من مليون الي ثمانية ملايين في السكان، أما الولايات المتحدة فقد زاد عددها من ثمانية الي مائة مليون وجاءت أفواج من المهاجرين

الأوربيين في كل عـام وبمئـات الآلاف، وكـان بينهم الفـلاحـون والمحـامـون والمتـعطلون والحطابون واللاجئـون السـياسـيـون والباحـثـون عن الثروة، وكـان الجميع يبحث عن وطن جديد ويحاول إنشـاء دار جديدة، لقد جاء إلي العالم الجديد كل من الانجليز الذين طردهم بؤس الصناعة والايرلنديون الذين طردهم الجـوع والألمان الذين استـمعـوا الي نداء الغـرب والبـولـنديون الذين هربوا من الظلم والإيطاليون الذين كانوا يحلمون بالثروات. وكانوا يقنعون بعد وصولهم بمهنة صغيرة، وبالمعيشة في أحد الأحياء التي تجمع بين أبناء جنسهم وكأنهم يحاولون الاحتفـاظ بدمائهم نقيـة وبلغـتهـم وبتقـاليدهم. ولكن أمريكا مزجت بينهم جميعا، وأنشأت منهم شيئا خاصاً.

كانوا يصلون الي مواني الشرق، وكان معظمهم يبقي فيها، وقليل منهم من وصل الي المناطق الصـخـرية وإلي سـاحل المحـيط الهـادي. وكـانـوا في غالبتهم يبتعدون عن ولايات الجنوب التي يعمل فيها الزنوج. وغـالبا مـا كان قدماء المهاجرين الذين يعيشـون في الشمال الشرقي هم الذين يهاجرون صوب الغرب نتيجة لمنافسة المهاجرين الجدد، وبأمل تحسين مستقبلهم. ولذلك فـان أوربا لم تكن تعمر غرب أمريكا، بل كان شرق أمريكا هو الذي يعمر غربها.

وكـانوا يسـافـرون علي الخـيل أو في العـربـات المغطاة التـي تجـرها الخـيل والبغـال والثـيران، ويعـبرون الأنهـار، ويحصلون علي قطع من الأراضي غـالبا مـاتكون في الغـابات، فـيقطعـون الأشـجار التي تسـاعدهم علي إنشـاء أحـد الأكـواخ، وإذا كـان الموقـع ممتـازا فـانه يتـحـول الي قـرية، وإذا كـان علي تقـاطع طرق أو قريبا من أحد المناجم فيمكنه أن يتحول بسرعة إلي مدينة.

واستمر حركة الاستعمار في النمو الي أن جاء عصر القنوات واتصل الهدسن بالبحيرات العظمي وبشكل ضمن فوز نيويورك علي فيلادلفيا، كما إتصلت البحيرات فيما بينها ومع الأهيووالمسيسبي، فسهلت الهجرة صوب وسط الغرب ، وزودت ولايات كثيرة بالمهاجرين.

ثم جاءت بعد ذلك حمي السكك الحديدية، ونشأت شركات متنافسة في الولايات المتحدة وفي كندا لإنشاء السكك الحديدية عبر السهول. وبدأت هذه السكك الحديدية إمتدادها صوب الغرب مع «اتحاد الباسيفيكي» ومن سان فرانسيسكو صوب الشرق مع «الباسيفيكي المركزي»، وتقابلت السكتان الحديدي- ان بسرعة، لأن كل ميل من السكك الحديدية الممدودة كان يعني معونة بالدولارات للشركة التي بنته، ومساحة من الأرض علي جانبي الخط تمنح لها. وكان المهاجرون يسيرون مع السكة الحديدية في تقدمها، وكانت الشركات تبيع الأراضي بأسعار متهاودة، وتمنحهم المساكن وتعطيهم السلفيات حتي تضمن زبائن لها ونشأت المدن علي طول هذا الطريق.

وكانت كل محطة للسكك الحديدية عبارة عن مفرق طرق يسافر عليها المعمرون بوسائلهم الخاصة.، بمفردهم أو في قوافل. فكانوا يتقدمون صوب الشمال وكندا، وصوب المكسيك الجديدة، ويعبرون الصحاري ويمرون في الجبال رغم البرد والحر والديبة والهنود. فاكتشفوا النحاس والرصاص والفضة والبترول، وتمكنوا من تربية البهائم في السهول ووردوا لحومها لمصانع اللحوم المحفوظة في وسط الولايات المتحدة .

أما كندا التي كانت تعيش من غاباتها ومن تجارة الفراء فانها قد تخصصت في تربية المواشي، وإهتمت بزراعة القمح قبل أن تعثر علي

النيكل، وتقدمت عناصر المهاجرين فيها صوب الغرب وصوب كولومبيا البريطانية. وبعد أن أصبحت دومنيون سنة ١٨٦٧ كونت دولة فيدرالية كان لكل اقليم فيها مجلسه التشريعي وحكومته المسئولة. وإحتفظت مقاطعة كويبيك بلغتها الفرنسية، وتعاون أبناء كندا علي إستعمار السهول، ووجدوا في هذه العملية أساس وحدتهم ودعامتها. وحصلت كندا علي أقاليم واسعة كانت ملكا لشركة خليج هدسن، ثم حصلت علي كولومبيا البريطانية، وحاولت أن تحصل علي نيوفوندلاند، ولكن هذه الجزيرة كانت تخشي من أن يؤدي ضمها إلي كندا إلي زيادة الضرائب التي تدفعها، كما كانت تخشي من زيادة ضغط العناصر الكاثوليكية في كويبيك، فبقيت بصفتها مستعمرة للتاج.

وكانت هذه الولايات المتحدة الحديثة عامرة بالصحة وتمثل أمام الأوربيين المحصورين داخل نطاق تقاليدهم وطن التقدم والحرية، التي يمكنهم أن يجدوا فيه الأرض وحتي الذهب، والقوانين والنظم التي تعطي الحظ والأمل للرجال.

ورغم ذلك فان الولايات المتحدة قد عملت علي الاحتفاظ بنمط معين للأمريكيين يقوم أساسا علي العناصر البريطانية الممزوجة ببعض الألمان والاسكندافيين والإيرلنديين واليهود. كما يقول اندريه سيجفريد، وعملت علي منع أو تقليل الهجرة الزائدة التي هددت بقلب التوازن الموجود بين الأجناس في أمريكا، فحددت دخول العناصر اللاتينية والسلافية ومنعت دخول الصينيين فهل كانت هذه السياسة أساساً لنشأة قومية جديدة مع نشأة الجنسية الأمريكية؟

واخذت الحكومة في بيع الأراضي في الغرب للمتوطنين وبأسعار زهيدة، واشتري المتوطنون هذه الأراضي وحسب امكانياتهم، وإن كان ذلك لم يمنع فقراءهم من إحتلال أي منطقة من الأرض تروق في أعينهم. واستمرت الهجرة صوب الغرب منذ عام ١٨٤٧ وساعد ذلك علي نمو المدن وعلي نشأة الولايات وامتدادها حتي المحيط الهادي. ورغم أن الإتحاد قد شعر بضرورة التوسع، إلا أن معاهدتين قد حددتا من الشمال حدوده مع كندا، خاصة وأن واشنطن كانت تشعر بخطورة مهاجمة انجلترا. أما من الجنوب فان الولايات المتحدة كانت متصلة ببقايا الإمبراطورية الإسبانية وبتكساس التي استقلت عن المكسيك وانضمت الي الولايات، وبالمكسيك نفسها . وجاءت حرب سنة ١٨٤٨ السريعة لكي تنظم الحدود في هذه المنطقة وتركت المكسيك للولايات المتحدة منطقة مكسيكو الجديدة وشمال كاليفورنيا نظير مبلغ خمسة عشر مليونا من الدولارات. وبعد بضعة أيام من التوقيع علي هذه الإتفاقية اكتشف عامل من عمال أحد المتوطنين السويسريين بعض التب في أحد روافد نهر السكرامنتو الذي يصب في خليج سان فرنسيسكو، فأخذت كاليفورنيا شكل الإلدورادوا وحضر اليها آلاف من الرجال باحثين عن الذهب.

ولقد آثارت هذه العملية شهية الولايات المتحدة التي اشترت بعد ذلك من المكسيك أراض جديدة في سنة ١٨٥٣ دخلت في نطاق ولايات الأمازون ومكسيك الجديدة ، وبمبلغ عشرة ملايين من الدولارات ولما كانت دبلوماسية الدولار قوية فان الحكومة الفدرالية استخدمتها لكي تتوسع أكثر من ذلك . وسمحت لها هذه السياسة بأن تصبح مالكة لصحروات الالسكا في سنة ١٨٦٧، تلك الصحراوات التي كانت مساحتها تبلغ ٥/١ مساحة الولايات المتحدة ، والتي دفعت فيها سبعة ملايين دولار للروس الذي قد بدأوا في

اهمالها بعد أن قضوا علي مظعم الوحوش والحيوانات ذات الفراء الموجودة فيها. ورغم أن الأمريكيين قد نظروا إي سيوارد الذي فاوض هذه العملية مع الروس علي أنه مخبول، فانهم سرعان ماقدروا قيمة هذه الأراضي المغطاة بالثلوج ، حين اكتشفوا فيها الذهب سنة ١٨٨٠.

(٤) الامبريالية الأمريكية:

لم تكن التسلطية الأمريكية تعني توسعا استعماريا في أراض مجاورة، خاصة وأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد قفزت هذه المرة، عبر كندا، لكي تصل إلي الألاسكا، وظهر أن أمريكا قد أخذت في السير بنفس خطوات الامبرياليين الأوربيين، رغم إعلامها إحتقارها لعملياتهم.

واستمر عملية التسلط الامبريالي الامريكي في توسعها وتمكنت الولايات المتحدة من ضم جزر هاواي في سنة ١٨٩٨. وإذا كان الأهالي قد عزلوا ملكتهم وطالبوا بانضمامهم الي الجمهورية الأمريكية الكبري فان هذه الجمهورية من جانبها لم ترفض طلب هذه الجزيرة المملوءة بقصب السكر والأناناس. واعتبرت أمريكا أن الأنتيل أحد ملحقاتها، ومثل هاواي تماما، واشترت واشنطن جزيرة سانتوما ثم انتهزت فرصة محاولة كوبا التخلص من السيطرة الإسبانية وإصرار مدريد علي اعتبار مستعمراتها وسيلة لتعيين الموظفين الفاشلين، وتدخلت واشنطن في ثورة كوبا، وطالبت برحيل وجلاء الإسبانيين. ونشبت الحرب بعد انفجار وقع في إحدي المدرعات الامريكية الراسية في هافانا، وكانت حربا صغيرة تمكنت فيها الأساطيل الأمريكية الحديثة من تحطيم الاسطول العتيق الذي ورثته اسبانيا عن شارل الخامس، وتمكن الامريكيون من الإستيلاء علي مانيلا في الفلبين ، وفي الوقت الذي

أعلن فيه سكان الفلبين استقلالهم. وقعت هذه الحرب الصغيرة السريعة سنة ١٨٩٨ واضطرت مدريد إلي طلب الصلح للانسحاب من الحرب، وتركت كوبا وبورتوريكو والفلبين وبعض الجزر الصغيرة.

ولم تتراجع الولايات المتحدة من عمليات الاستعمار رغم إحتجاج بعض الأمريكيين وخاصة منتجي السكر الذين خشوا المنافسة الجديدة. ونشأت جمهورية مستقلة في كوبا ولكنها تعهدت بالا تتنازل عن أي قواعد أو محصل علي سلف أو ديون من دولة أجنبية ، واعترفت في سنة ١٩٠٣ للولايات المتحدة بحق التدخل لحمايتها ضد أي إعتداء ولتأييد حكومتها وحماية الحرية ونظام المليكة . وأعطت كوبا للولايات المتحدة الأمريكية في نظير ذلك قاعدتين بحريتين وبعض مخازن الفحم، واحتفظت أمريكا لمدة سنوات عديدة بعد ذلك بحكام أمريكيين في هافانا وادعت أن وجودها هناك يساعد علي الازدهار الاقتصادي .

أما في بورتوريكو فان اسبانيا كانت قد منحتها الاستقلال الذاتي من قبل واعطتها الولايات المتحدة حق انتخاب برلمان رغم اختيار الأمريكيين لأحد المجالس والمحاكم الجزيرة. ثم تطور الأمر فيما بعد وأصبح هذا المجلس منتخبا كما أصبح سكان بورتوريكو مواطنين أمريكيين في سنة ١٩٠٠ .

أما في الفلبين فان أمريكا قد بدأت باعلان ضم الأرخبيل في سنة ١٨٩٩ رغم اعلان الاستقلال. وادعت أمريكا أن ألمانيا كانت تفكر في هذه الجزر، مثلها في ذلك مثل اليابان. وكانت هذه الجزر تمتاز بأهميتها الاستراتيجية وثرواتها الطبيعية.

أما في بنما، تلك المنطقة التي توصل الأمريكيتين ، والتي نزل فيها كريستوف كولمب، والتي حاول فيها ديليسبس حفر القناة فان أمريكا اشترت إمتيازات فرنسا هنا بأربعين مليون دولار في سنة ١٩٠٣ ، وأعلن رئيس الولايات المتحدة في ذلك الوقت أن السياسة الأمريكية تحتاج إلي قناة تخضع للسيطرة الأمريكية ، ووافقت كولومبيا، التي كان البرزخ في أرضها، علي إعطاء القناة الجديدة للولايات المتحدة لمدة مائة سنة، أراض يبلغ عرضها خمسة أميال، ونظير مبلغ عشرة ملايين من الدولارات نقداً، وربع مليون دولار كل سنة. ولكن كولومبيا شعرت بالخطأ وبالغبن، ونشبت فيها ثورة بسبب بنما، وأعلنت فيها جمهورية مستقلة. ولكن الجمهورية الجديدة أعادت منح منطقة القناة لأمريكا بعد أن وسعت منطقتها إلي عشرة أميال، ومنحت لأمريكا حق تحصينها ووضع الحاميات فيها. وحينما انتقد أعضاء الكونجرس الرئيس تيودور روزفلت علي هذه السياسة أجاب بأنه وفر علي بلاده نصف قرن من المناقشات، وأنه اختصر الطريق، وبطريقة أمريكية، لكي يحصل لأمريكا علي القناة، ثم يسمح لها بنصف قرن من المناقشة بعد ذلك . ويعتبر الحاكم الأمريكي في منطقة بنما مسئولا عن الادارة ، ورئيسا لشركة القناة في نفس الوقت .

وحصلت أمريكا علي الجانب الآخر من المحيط الأطلسي وعلي ساحل افريقية علي أرض ضمتها إليها كان بعض رجال الجمعيات الانسانية قد حاولوا إعادة الزنوج من أمريكا إليها في سنة ١٨٢٢ . وحصلت شركة الاستعمار الأمريكي علي قطعة من الأرض سمتها ليبيريا، أو أرض الحرية وتحول هذا الاقليم إلي جمهورية للسود تحت حكم وكلاء الشركة في أول الأمر ثم إلي جمهورية مستقلة بعد ذلك ، ولكن ليبيريا الحرة ليست في واقع الأمر

إلا جزءاً من أمريكا، وكانت عاصمتها مونروفيا تحاول تخليد اسم مونرو، أما الرجال السود الأمريكيون فيها فقد أخذوا في محاربة «الوطنيين» الافريقيين حتي يتمكنوا من المعيشة في افريقية، وكان علم ليبيريا يشبه العلم الأمريكي ، المهم هو أن إقتصاد هذه الدولة كان خاضعا لسيطرة الشركات الأمريكية، وأن أسطول ليبيريا سيمثل بعد ذلك جزءاً من اسطول الولايات الأمريكية، مثله في ذلك مثل أسطول بنما.

ولم تنفي أمريكا عن نفسها أنها عرفت حمي الاستعمار وأنها قد بدأت عصر تسلطيتها وذكر تيودور روزفلت أن مذهب مونرو يمكنه أن يجبر الولايات المتحدة رغم أنفها علي أن تقوم في حالات الفوضي أو الضعف بعمليات وسلطات البوليس الدولي وطبقا لهذا المبدأ كانت الولايات المتحدة قد طلبت من فرنسا في عصر نابليون الثالث أن تتراجع في أمر حملة المكسيك ، وسيطرت علي الإدارة المالية وإدارة الجمارك في هايتي، وتوسطت في مشكلة بين انجلترا وفنزويلا بشأن حدود غيانا، وامتد طموح الأمريكيين إلي أبعد من ذلك، وبدأوا يتحدثون عن الجامعة الأمريكية، ونادي السناتور هنري كابوت لودج بضرورة وجود علم واحد ودولة واحدة من ربو جراند إلي المحيط المتجمد الشمالي. واجتمع مؤتمر أمريكي في واشنطن سنة ١٨٨٩ وإقترح علي كل القارة توحيد نظم الجمارك والنظم المالية فيها، أي اقترح سيادة وسيطرة صناعة الولايات المتحدة والدولار علي الجميع. ولكن أمريكا اللاتينية خشيت من الأمر، واكتفت بانشاء مكتب للجامعة الأمريكية وبدون إختصاصات واضحة.

ولم يصطدم هذا التوسع الأمريكي بشعوب ملونة ، إذ أن الأمريكيون كانوا قد قرروا عدم الاعتراف للهنود والزنوج بأي حق أمام تفوق الأمريكي ورغما عن أن الهنود كانوا بضعة ملايين في بداية الاستعمار الانجليزي في أمريكا، فان عددهم قد إنخفض كثيراً بعد ذلك، فاذا كانوا قد انهزموا وهم كثرة، فهل يمكنهم المطالبة بأي حقوق وهم قلة واضحة؟. لقد قام المعمرون الأول في زحفهم نحو الغرب بنقض معظم الانفاقات المعقودة مع الوطنيين، وأبعدوهم عن طريقهم وعاملوهم معاملة الحيوانات التي يتعقبها الصيادون ولقد طالب الأمريكيون بحق المرور ثم استولوا علي الأراضي التي رفض الهنود بيعها لهم، وامتلأت كتابات الأمريكيين بأوصاف خاصة للهنود الحمر، أظهرتهم علي أنهم متوحشين يهاجمون القوافل، ويسلخون جلود المسافرين ويهاجمون القطارات ويستخدمون الأسلحة النارية ضد الأمريكيين ونادي غلاة المستعمرين الأمريكين بضرورة القضاء علي الهنود الحمر قضاءاً تاماً. بما فيهم من رجال ونساء وأطفال، أو بتقليل عددهم الي درجة تمنعهم من القيام بأي هجمة، ولو مفردة. واستخدم الأمريكيون المشروبات الروحية والويسكي للقضاء علي الهنود الحمر.

ولقد قام البيض ببناء القلاع لصد الهنود الحمر وإبعادهم، ثم نظموا الحملات التي إمتدت حتي سنة ١٨٩٠ حين قتل آخر زعيم وطني من الهنود الحمر، فقلت مقاومة من بقي منهم ، خاصة وأن عددهم قد إنخفض إلى بضع مئات من الآلاف ، وسمحوا للأمريكيين بالاحتفاظ بهم في بضع مناطق محددة لهم، وكأنهم وحوش في حديقة الحيوانات، ويمكنهم أن يعيشوا في سلام ويحصلوا علي الجنسية الأمريكية ويأخذوا بعض عادات وتقاليد الأمريكيين.

أما مشكلة الزنوج فانها قد ظهرت بشكل آخر. وهي ليست مطابقة تماما لمشكلة الرق التي جعلت من الولايات الشمالية التي لم تكن لديها الأيدي العاملة الكافية تتصادم مع الولايات الجنوبية والتي استخدمت الزنوج بكثرة في حقول القطن، ولقد بدأ إتحاد الولايات الأمريكية بمنع تجارة الرقيق، ولكن بعض الولايات من المنطقة الوسطي، مثل فرجينيا وماريلاند، كانت متخصصة في تربية الزنوج وكانت تبيعهم كعبيد لكبار الزراع في الجنوب فتطورت المناقشات كلما نشأت ولاية جديدة ، عما إذا كانت هذه الولاية ستبيح أو تمنع تجارة الرقيق فيها، وبالتالي عما إذا كانت أغلبية الولايات ستصبح من أنصار أو من أعداء تجارة الرقيق. ونشأت حرب أهلية طاحنة بين الطرفين في سنة ١٨٦٢، لا أن إنتصار الشمال في سنة ١٨٦٥ واعلان تحرير الرقيق لم ينهي المشكلة ذلك أن الزنوج قد أصبحوا فجأة بدون سادة، وبدون مأوي. وقبل الجنوب حريتهم ولكنه رفض مساواتهم بالبيض. وظلت قوانين الزنوج تحكم علي الزواج المختلط وتنظم عملية الفصل بين الأجناس. وكان علي الزنوج أن ينتظروا طويلا قبل أن يحصلوا في الواقع علي تطبيق عملي لتلك الحقوق التي يطالبون بها، والتي ظل الأمريكيون يرفضونها لهم . ولذلك فان الأمريكي الأبيض له سلوك عنصري واضح حينما يمنع هجرة ودخول العناصر الصفراء، وحينما يحتفظ للزنوج بوضعية خاصة، وحينما يحتفظ بالهنود في مزارع معينة .

الفصل التاسـع عشر

أفريقيـــة

كانت افـريقيـة قد بقيت بعيدة عن نفـوذ وسلطة المسـتعمـرين الأوربيين نتـيجة لمناخها ونبـاتاتها وحيـواناتهـا التى كانت معـادية للأوربيين. فبـعد السـاحل كـانت هناك الصحـارى والغـابات ، خطوطا طبيـعيـة تدافع عن هذه القارة ضد الدخلاء، وكانت مليئة بالثعابين والوحوش وذئاب تسى تسى ، كما كـانت الحـمى الصـفـراء والطاعـون والجـذام والملاريا تحـد كثيـراً من شجـاعـة المغـامـرين الأوربيـون. فـهل يمكن بعد ذلك لأفـريقـيـة أن تصبح أمـريكة جديدة بالنسبة لأوربا ؟ كان من الواجب أن يدفـع الفضول العلمى أو الإيمان بالرسالات السـمـاوية بعض الرجـال دفـعـا إلى دخول مـثل هـذه القـارة. وقـد عـملوا سـويا ، المبشرون والمستكشفون، لكى يمهدوا الطريق للتسلطية الأوربيـة على افريقـية، سواء علموا أو جهلوا ذلك.

(١) تقسيم افريقية السوداء:

لقد تسـاءل الناس كثيراً عما يشتمل عليه رمل الصحراء من معادن، كما تساءلوا عن أسرار تمبكتو وعن مكان منابع النيل، وعن الإقليم الذى يبدأ منه نهر الكونـغو. وحاولت الجـمعيـات الجغرافـية والمجامع العلمية والرحالة فى كل من لندن وباريس إيجـاد حل لهذه المشكلات، والإجابة على هذه الأسئلة. وبدأ المستكشفون يتوغلون فى ذلك العالم كما جاء التبشير معهم وبعدهم، وأعلنوا أنهم يحاربون تجارة الرقيق.

ويمكننا أن نذكر من بين طلائع رجال الإستكشاف والإستعمار ويليه كابيه الفـرنسي، الذى تمكن من الوصول مـتنكرا إلى تمبكتـو سنة ١٨٥٤ ، وبارت

الألماني الذى استكشف تشاد والنيجر الأسفل سنة ١٨٧١ ، ولفنجستون الإنجليزي، والذى كان طبيبا ومبشرا فى نفس الوقت ، وصل إلى الزمبيزى فى نفس السنة ثم ساح فى منطقة البحيرات العظمي. وهناك أيضا ستانلى الأمريكى الذى أرسلته جريدة نيويورك هيرالد للبحث عن لفنجستون، والذى نزل للكونغو وعبر افريقية من الشرق الى الغرب. لقد أصبحت أفريقية مفتوحة بعد ذلك ، وعرف العالم أنها غنية بالأخشاب النادرة وبالمنتجات الإستوائية وبالفول السوداني، واعتقدوا أنها غنية بالمعادن النفيسة بعد أن قرأوا الكثير عن دولة غانا القديمة. وكان فى وسع افريقية أن تصبح ميدانا ممتازا للاستعمار فى اليوم الذى يتمكن فيه الرجل الأبيض من الكفاح ضد الحميات والأمراض والأوبئة أن يتأقلم فيها.

وكانت أوربا تحتل القواعد اللازمة لبداية الزحف من الساحل صوب داخل القارة، وتحتل بعضها منذ زمن طويل لقد كان البرتغاليون موجودين فى أنجولا وموزمبيق. وكذلك الإنجليز الذين تمسكنوا فى غرب القارة من مد مراكزهم ومن الإستيلاء على المراكز الدانماركية والهولندية الموجودة فى خليج غينيا، وكانوا فى جامبيا وفى سيراليون عند مصب النيجر. وأخذ الإيطاليون يبحثون عن محطة فى البحر الأحمر، وقد ظهر أن الألمان والفرنسيين كانوا أكثر الناس شراهة لالتهام هذه القارة العذراء.

أما بالنسبة للألمان فان فردريك غليوم قد أنشأ شركة خاصة لافريقية ، وقام ودلف لودرتز بانشاء محطة على الساحل الغربى لافريقية الجنوبية فى إقليم الهوتنتوت، واشترى من أحد الملوك المحليين كل المنطقة الساحلية فى سنة ١٨٨٢ وان بسمارك معاديا لمثل هذه المشروعات الإستعمارية ، وكان

يصرح بأنه لا يسيرمع الإستعمار وأن ألمانيا ليست من الغنى والثروة بدرجة تسمح لها بمثل هذه الكماليات. وكان بسمارك يفضل أن تنهك الدول الأخرى قواها فى افريقية، ويفضل أن يعاونها على ذلك حتى يحصل على الحرية الكاملة فى أوربا. ولكنه غيـر أفكاره فى هذا الميـدان ونزل الى الميـدان الإستعماري، وضم بلاد لودرتز، وأخذ فى المفاوضة مع الوطنيين، وفرض عليهم الحاية الألمانية ومنح هذا الإقليم الذى بلغت مساحته ٨٢٥ الف كيلو متر مربع لإحدى الشركات الألمانية لاستغلاله سنة ١٨٨٤ . ولقد قام الدكتور ناشتيجال باستكشاف الكاميرون وتوجو الذين وضعتهم ألمانيا تحت حمايتها. أما كارل بيترز فانه قد سار من زنزبار ووقع على عقود واتفاقيات مع بعض رؤساء الزنوج فى شرق افـريقيـة، وأسلم هذه المناطق لإشراف دولتـه سنة ١٨٨٤.

أما الفرنسيون فانهم كانوا يعرفون افريقية السوداء منذ زمن. وكانت محطة السنغال قد تبقت لهم بعد إنهيار امبراطوريتهم الأولي. ولكن الفرنسيين استندوا اليها ونظمها فيدرب، وأنشأ ميناءا فى دكار سنة ١٨٧٥ ثم تقدم جاليينى حتى النيجر وأنشأ بعض القرى لتجميع قدماء انعبيد فيها. واتسعت منطقة الإحتلال الفرنسى من القواعد القديمة فى غينيا وعلى ساحل العاج حتى مملكة داهومى سنة ١٨٩٣. أما فى جابون فان برازا الإيطالى والذى حصل على الجنسية الفرنسية وأصبح ضابطا فى بحريتها قد اتصل بالأهالى ووقع على اتفاقيات وأخذ فى توزيع العلم الفرنسى على الوطنيين وأنشأوا المعسكرات فى كل مكان .

أما فى منطقة مدغشقر فان فرنسا كانت قد احتلت منذ عهد لوى فيليب أحد المواقع وأجرته من أحد الرؤساء الوطنيين الذين كانوا يقيمون فى جزر القمورولكن البرلمان الفرنسى لم يشجع على أرسال حملة اليها ورفض التوسع أكثر من ذلك، رغم أن الفرنسيين ظلوا ينافسون البريطانيين فى جزيرة مدغشقر. ولكن فرنسا حصلت على أحد المراكز التى تتحكم فى البحر الأحمر، وفى الوقت الذى ظهر فيه أن أهميته ستزداد بعد فتح قناة السويس. ومادام الإنجليز قد احتلوا عدن وبريم فيمكن لفرنسا أن تحصل على أوبوك وأشترت فرنسا هذا الموق سنة ١٨٦٢ الذى سيصبح مركزاً لمستعمرة جيبوتى أو ساحل الصومال الفرنسي، والذى سيبدأ منه الطريق صوب الداخل وهرر والحبشه. ولقد قام بعض الفرنسيين باستكشاف منطقة جنوب الحبشة ابتداء من هذه القاعدة وعملوا على تزويد ملوكها بالأسلحة والذخائر .

كان هذا هو موقف كل المتنافسين وقت تقسيم القارة الافريقية. وكانوا كلهم على خط البدء حينما ظهر منافس غير منتظر هو ليوبولد الثانى ملك البلجيك الذى شعر أن بلاده لا تكفيه. والذى كانت له روح رجال الأعمال، ويشجع المستكشفين أصحاب البنوك ومديرى الشركات ولقد سافر ليوبولد الثانى كثيراً، وكانت بلاده صناعية وتجارية، فأخذ يحلم بأسواق تجارية كبيرة. وفكر فى إنشاء شركة تجارية فى فرموزا، وإنشاء مؤسسة فى المغرب، وفى طلب الفلبيين من اسبانيا، كما حاول شراء كناريا . لقد كان ينادى بضرورة حصول بلجيكا على مستعمرات، ولكنه كان فى واقع الأمر يحاول الحصول على مستعمرات لنفسه لا لبلجيكا.

ولقد استدعى ليوبولد الثانى مؤتمرا دوليا جغرافيا للانعقاد فى بروكسل سنة ١٨٧٦ وجمع فيه معظم مستكشفى القارة الإفريقية. وأعلن أن أهدافه إنسانية ، وأنه لا يسعى إلا لإدخال الحضارة والمدنية فى أرض افريقية الوسطي. ونتج عن هذا المؤتمر إنشاء الجمعية الإفريقية الدولية التى أصبح رئيسا لها، وأصبح لها عليها الازرق ذى النجم الذهبي. ولما كان ستانلى قد وصل إلى الكونغو بعد أن نجح فى أول عبور لافريقية حاول ليوبولد أن يضمه الى الجمعية، ثم إلى لجنة دراسات أعالى الكونغو التى أنشأها سنة ١٨٧٨ للبحث عن أسواق جديدة وطلب ليوبولد من برازا كذلك أن يعاون معه، ولكن هذا الأخير كان يعمل من أجل فرنسا، ولا يرضى بالعمل مع ملك البلجيك ، وحاول ليوبولد بعد ذلك أن يستخدم فرديناند ديليسبس ثم غوردون باشا ، الكولونيل الإنجليزى .

وتقابلت الأطماع الإستعمارية على جوانب الكونغو. فلقد كان هناك ستانلى الذى كان يبحث عن أقاليم ليوبولد الثاني، والذى حصل على تنازل من بعض الرؤساء الوطنيين عن سيادتهم نظير بعض الأنسجة والخرز ، وكان هناك برازا والفرنسيون ، كما كان هناك البرتغاليون الذين استندوا إلى حقوق تاريخية قديمة، وكان هناك الإنجليز الذين يؤيدون إدعاءات لشبونة، وكانت هناك الدولة العمثانية التى امتدت أعلامها وأعلام الإسلام ذات الأهلة مع المصريين إلى هذه المنطقة . ولكن ليوبولد نجح حينما اعترفت الولايات المتحدة الامريكية بالعلم الازرق ذى النجمة الذهبية، ودون أن يعرفوا إن كان هذا الاعتراف يؤيد ليوبولد أو ستانلي، يؤيد مشروعاً يحارب الرق أو مشروعاً للاستعمار البلجيكى . لقد لعب ليوبولد رسميا البطاقة العالمية ، رغم أنه قد أفهم كل من فرنسا وانجلترا على حده بأنه يعمل من أجلهما ، وأفهم بسمارك أن حوض الكونغو سيصبح ألمانيا فى يوم من الأيام.

وانعقد مؤتمر فى برلين لحل المشكلات الإفريقيـة سنة ١٨٨٤ وكان هدفه الرسمى هو «تنظيم أحسن الشروط لتنمية التجارة وإزدهار المدنية فى بعض المناطق الإفريقية» أما الهدف الألمانى الفرنسى فكان محاولة موازنة التفوق الإستعمارى البريطانى فى افريقية ، وأما هدف ليوبولد فكان يتلخص فى الحصول على اعتراف بدولة الكونغو الحرة ، أى دولته هو ، وعمل ليوبولد من وراء الكواليس وانتهى المؤتمر باتفاق الجميع على شروط تقسيم افريقية فى فبراير سنة ١٨٨٥.

لقد انفقت الدول الأوربية فيما بينها على أن كل دولة متحضرة تحتل جزءا من الساحل وتبلغ ذلك الإحتلال الى غيرها ، لها الحق فى ظهير هذا الإقليم الساحلي، وأن الإحتلال ضرورى للاحتفاظ بالحقوق . أما حوض الكونغو فانه تنشأ فيه دولة مستقلة ومحايدة . ومفتوحة لتجارة كل الدول. وكانت هذه القرارات هزيمة للبرتغال التى لم يترك لها المؤتمر إلا ميناءين صغيرين فى شمال الكونغو، وانتصرت الجمعية البلجيكية ، أو الدولية التى اعترف بها ذات سيادة، كما انتصر ليوبولد الذى أصبح سيدا مطلقا على الكونغو.

ولم يعد ليوبولد بعد ذلك فى حاجة الى الجمعية الدولية، التى احرق وثائقها، ولا إلى لجنة الدراسات التى أصبحت غير ذات موضوع. لقد أصبح مسيطراً على اقليم يمتلكه شخصيا، وفى الوقت الذى حاولت فيه معظم الدول الإستيلاء على الساحل، أهمل ليوبولد هذا الساحل وتوسع فى الداخل وسيطر على مساحة تبلغ عشرين مرة مساحة بلجيكا، وأخذ فى إرسال الحملات وفى كل الإتجاهات، وضم أوربا وكاتنجا، وكل المقاطعات التى لم يفكر فيها مؤتمر

برلين، وأنشأ شركات مالية لإستغلال هذه الدولة، واقترض، وأنفق، واستغل ، وبدأت الطرق، وبدأت السكك الحديدية ونشأت ليوبولد فيل وستانلى فيل ، وجاء الأبنوس والعالج والمطاط . وحاول ليوبولد أن يكون مثاليا فى استعماره وفى مستعمرته التى اوصى بها فى سنة ١٨٨٩ الى بلجيكا بعد موته، وحال وأن يضمن لبلجيكا بذلك أسواقا ضرورية لتجارتها ولتصريف مصنوعاتها . وحتى هذه الوصية كانت مناورة سياسية من ليوبولد ، وأستخدمها للحصول على قرض بلغ ٢٥ مليون فرنك بلجيكى لإكمال خط السكة الحديد فى الداخل حتى الشلالات.

ولقد حاول ليوبولد الحصول على موارد أخرى للانفاق على مشروعاته الكبرى ففرض رسوما جمركية ، وفرض الضرائب على الأهالي، وأجبرهم على أحضار كميات معينة من الأخشاب لموظفى الضرائب ولقد قامت بريطانيا بفضح جرائم استعمار ليوبولد فى الكونغو وأعمال السخرة وإستخدام السياط، وشرحت أنها مشينة للحضارة والمدنية واضطر ليوبولد سنة ١٩٠٥ الى قبول تحقيق لجنة دولية فى المظالم وفى مساويء الحكم فى الكونغو. وقررت هذه اللجنة وجود الظلم والطغيان والإستبداد ولم يتراجع الملك عن إعطاء الكونغو بدون تأخير الى بلجيكا سنة ١٩٠٦ ، ولكنه قام بعد عامين بانشاء اتحاد مناجم كاتنجا العليا، وشركة البحيرات العظمى التى شارك فى تمويل كل منها تاج بلجيكا.

ولقد وافق برلمان بروكسل على الضم وبوثيقة استعمارية النص على إنشاء مجلس برئاسة وزير المستعمرات. ورغم ذلك فان بلجيكا كانت ترهب الكونغو وكانت ترى فى الاستعمار عبئا ثقيلا.

وكان تقسيم افريقية قد سار ببطء بعد مؤتمر برلين، وطبقا لمناورات الدول العظمى وأطماعها، فامتد النفوذ الفرنسى على غينيا وعلى ساحل العاج وداهومى والسودان، واحتل جوفر وتمبكتو، وجانتيل تشاد، ووصل مارشان إلى النيل حيث تقابل مع كنشنر ، وعبر لامى الصحراء الكبري. فأصبحت الأقاليم المنفصلة على الساحل متصلة ببعضها من الداخل، وتحيط بممتلكات الدول الاخرى وانقسمت إداريا إلى قسمين: افريقية الغربية وعاصمتها داكار، وافريقية الإستوائية وعاصمتها برازفيل أما فى مدغشقر فان فرنسا قد أنشأت إحدى القواعد البحرية، ثم فرضت حمايتها على الهوفا، ثم احتلت تاناناريف وضمت كل الجزيرة ، وأضافت اليها فيما بعد جزر أخرى محيطة بها اهمها جزر القمور .

أما انجلترا فانها حاولت أن تمنع فرنسا من احتلال القارة الافريقية بين الشرق والغرب، وسارت هى طبقا لمشروع سيسل رودس لتوحيد افريقية من الشمال الى الجنوب ، ومن القاهرة إلى رأس الرجاء الصالح، تحت سيطرتها وامتدت سلطتها على كينيا وحمايتها على أغندا وعلى نياسلاند، ولم يفصل بين هذه الممتلكات إلا الألمان الذين استولوا على تنجانيقا.

وكانت ألمانيا قد شاركت فى هذا التكالب على المستعمرات فى افريقية، ووسعت حدود مستعمراتها وممتلكاتها فى افريقية الشرقية وفى توجو والكاميرون وفى افريقية الجنوبية الغربية. ورغم ذلك فان عوامل المناخ فى تلك الأقاليم لم تساعد الألمان على التوطن .

أما إيطاليا ، وريثة روما، فانها لم تكن ترغب فى البقاء بعيدا عن هذه المنافسة. فأنشأت مستعمرة الارتريا على البحر الاحمر عند عصب، واحتلت

جزءا من بلاد الصوما المطلة على المحيط الهندى سنة ١٨٨٥ . وحاول كريسبى أن يسيطر على الحبشة، ولكن الجيش الإيطالى انهزم أمام قوات النجاشى فى عدوة سنة ١٨٩٦ ، وكانت أول هزيمة للرجال البيض فى افريقية.

ولقد نشأت مشكلات حول تقسيم افريقية ، وكانت مسألة فاشودة أن تصل إلى اصطدام بين الفرنسيين والانجليز ولكننا نلاحظ أن معظم هذه المشكلات بين الدول المتنافسة، كانت تسوى عن طريق الاتفاقات أو عن طريق التبادل ، ولو بين حق فتح فى منطقة نظير حق فتح فى منطقة أخري. وهكذا نجد أن فرنسا تترك أعالى النيل لانجلترا، وأن انجلترا تترك لها فى نظير ذلك منطقة تشاد، ونجد أن فرنسا تتنازل عن إدعاءاتها فى زنزبار، حينما تتنازل انجلترا عن إدعاداتها فى مدغشقر ، وأن فرنسا تترك لألمانيا إقليما فى الكونغو حينما تترك ألمانيا لفرنسا حرية العمل فى سلطة المغرب.

لقد غمر المد الإستعمارى كل القارة الافريقية فى مدة ربع قرن، وأصبحت ثلث مساحة افريقية تخضع لفرنسا وثلثا آخر يخضع لإنجلترا، أما الباقى فكان مقسما بين البلجيكيين والألمان والإيطاليين والبرتغاليين والإسبانيين.

(٢) افريقية الشمالية:

كانت ظروف افريقية الشمالية تختلف عن ظروف افريقية السوداء، ذلك انها كانت تواجه أوربا، وتغريها على المجيء اليها من ناحية ، وكانت من ناحية أخرى متحدة مع الدولة العثمانية. ولكن الدولة العثمانية كانت قد بدأت فى الإحتضار، وعجزت عن الإحتفاظ بقوتها الأولى أو عن النهوض من جديد كما حدث فى العالم الغربى وكانت ميزانيتها مضطربة ، وجنودها بدون رواتب ، فسرت الفوضى فى كل مكان . وكان العرب والبربر فى افريقية قد

بدأوا فى تقليل طاعتهم وولائهم لمثلى السلطان حينما حدثت حادثة بين داى الجزائر وفرنسا فى عهد شارل العاشر. وبعد ظهور الأطماع الفرنسية فى اقليم الجزائر ومعرفتها بأهميته من الناحية الاستراتيجية وأهمية موارده الإقتصادية ، وخصوصا القمح الذى ذاقت طعمه فى عهد نابليون ورفضت دفع ثمنه، استندت فرنسا إلى ما سمته ضربة المروحة ، واتخذت ذلك ذريعة لإعلان الحصار البحرى ثم مهاجمة الجزائر، لقد إدعت فرنسا أنها تحاول القضاء على حركة القرصنة فى شمال افريقية، ورغم ذلك فان شارل العاشر كان من أنصار العظمة الفرنسية وكانت حكومته ترغب فى توجيه الانظار إلى الخارج . ولقد عارض البرلمان ارسال الحملة إلى الجزائر، وهاجمت صحف المعارضة المشروعت، ولكن سرعان ما استسلم الداى وكذلك البكوات فى وهوان وتتيري، ووجدت فرنسا نفسها على أبواب اقليم كبير ويلزمها المجهودات والإمكانيات للسيطرة عليه وجاء لوى فيليب وهو لا يعرف ماذا يفعل بالجزائر ، وكان لا يرغب فى الإصطدام بلندن ، ولكنه اذا كان من السهل النزول الى الجزائر فلم يكن من السهل الخروج منها ، خاصة وأن المستعمرين الذى كان من بينهم عدد من تجار مرسيليا وعدد من العسكريين الذى يعشقون الحرب، طالبوا بالإستمرار فى المغامرة. وظهر بوجو فى هذا الميدان. وحاولت فرنسا أن توفق بين سياسة الاحتلال فى مناطق معينة والتوسع فى كل اتجاه. وغيرت فرنسا سياستها فى الجزائر أكثر من مرة ، كما غيرت حكامها هناك .

ولقد استمرت عملية الغزو لمدة ثمانية عشر سنة، خاصة وأن أهداف فرنسا لم تكن محددة، وبدأ بوجو ، وهو من أنصار الأحتلال التام فى تطبيق سياسة الإنتقام ، حتى يخضع القبائل عن طريق الجوع، وجند بعض القوات الاحتياطية من الوطنيين ، واستخدم الجنود فى جميع المحصول، وعمل على

تحويلهم الى معمرين. ، ولكن الأمير عبد القادر نادى بالجهاد ، وعمل عى توحيد صفوف المقاومة التى استمرت مدة طويلة، وساعد فيها أبناء المغرب وبعد صفحات مجيدة من المقاومة أضطر عبد القادر الى الإستسلام للدوق دومار سنة ١٨٤٧. وانتهت عملية اخضاع الجزائر بالإستمرار فى العمليات فى منطقة القبائل والتوغل فى منطقة الواحات.

ثم عملت فرنسا بعد ذلك على تنظيم الأقاليم التى احتلتها. فهل تصبح الجزائر مستعمرة توطين كما هو الحال فى استرالي، أو مستعمرة استغلال كما هو الحال فى الهند؟ لم تتمكن فرنسا من اختيار هذا الشكل أو ذلك، إذ أنها اختارت الشكلين مندمجين معاً. وكان مناخ الجزائر يسمح باقامة الأوربيين ، إلا أن الجزائر لم تكن خالية من السكان. وكانت أرض الجزائر تنبت القمح والكروم والموالح ومنتجات زراعية تشبه منتجات فرنسا أكثر من شبهها بمنتجات دولى اخري. واحتارت فرنسا بين اعتبار الجزائر امتداداً أو تكملة لها أو مقاطعة منها ، وبين اعتبارها إحدى الممتكلات فيما وراء البحار وعجزت فرنسا عن حل هذا الإشكال المليء بالتناقضات .

وجاء المعمرون من كل جهة، ومن فرنسيين واسبانيين وايطاليين، وكانت الأراضى تجذبهم إلى الجزائر، وحضروا كعمال وإن كانوا قد فشلوا ، ثم كمزارعين تمكنوا من التأقلم ومن العمل وانتهز عدد من أبناء الإلزاس واللورين تغيرات سنة ١٨٧٠ لكى يهربوا ويقيموا فى الجزائر بدلا من أن يخضعوا للحكم الألماني. وكانت بعض أوبئة وأمراض الغابات التى تجتاح منطقة جنوب فرنسا تشجع على التوسع فى الزراعة فى الجزائر. وساعدت المدخرات الفرنسية على تمويل سريع لإستغلال الجزائر، وعلى ازدهار الإقتصاد

وبشكل واضح . واشتهرت الجزائر بزراعة الخضروات البكرية فى منطقة متيجة والكلمنتير فى منطقة وهران وبالحديد والفوسفات والطباق وغيرها .

ولكن سياسة فرنسا تجاه الأهالى كانت مترددة ، وكان فى هذا خطر جسيم وترددت فرنسا بين ضم الجزائر تماما وبين الإحتفاظ لها بشخصية معينة . لقد قسمت فرنسا الجزائر الى مقاطعات وألحقتها فى أول الأمر بوزارة المستعمرات ثم بوزارة الداخلية. وادعى نابليون الثالث أنه امبراطور العرب، فى نفس الوقت الذى كان فيه امبراطوراً على الفرنسيين. كما ادعى اعطاءه للجزائريين حقوق الفرنسيين المدنية. ولكن هذا الإدعاد كان على غير أساس ، إذ لم يكن من السهل على المسلم الجزائرى أن يخضع للقانون المدنى فى الأحوال الشخصية دون أن يترك حقوقه فى قانون الأحوال الشخصية الإسلامي. ولذلك فان المعمرين الفرنسيين تمتعوا وحدهم فعليا بهذه الحقوق واستمروا فى انتخاب ممثيلهم فى برلمان باريس. ولكن فرنسا أعطت اليهود الجزائريين حقوق الجنسية الفرنسية سنة ١٨٧١ وعمل ذلك على إثارة المسلمين وثورتهم. ثم عملت فرنسا على تنظيم اللجان المالية التى شارك فيها الأهالى والتى كانت تقرر الضرائب والميزانية فى الجزائر. فهل معنى ذلك أن الجزائر كانت تسير صوب الحكم الذاتي؟ لقد كان كل ذلك مجرد تجارب، وظلت السياسة الفرنسية متجهة صوب الضم التام.

ووجدت فرنسا أنه يصعب عليها البقاء فى الجزائر مادامت حدودها تتصل بكل من تونس والمغرب. فبدأت فرنسا بالصحراء فى الجنوب وتوغل فلارز فيها وفى بلاد الطوارق. واعترفت الحكومة البريطانية بأن كل الصحارى الممتدة بين ممتلكات فرنسا على البحر المتوسط ، وبين خط يمر من النيجر إلى تشاد هى ملك لفرنسا فى سنة ١٨٩٠.

أما من جانب تونس فان فرنسا قد استندت الى وجود بعض هجمات من رجال القبائل على الحدود وتدخلت فى الولاياة. والمهم هو أن الدول الأوربية الأخرى لم تتدخل ضد فرنسا فى هذه العملية . فكانت ألمانيا فى عهد بسمارك ترغب فى الاحتفاظ بحرية العمل فى قبرص. ولمن يكن فى وصع تركيا أن تقاوم، أما ايطاليا التى كانت قد حصلت فى تونس على امتيازات للسكك الحديدية وعلى مزارع للزيتون. فانها لم تتمكن من سبق فرنسا. وتولى جول فيرى العملية، ووافق الباى فى معاهدة الباردو سنة ١٨٨١ على نوع من الحماية. وأرغى سلطان القسطنطينية أزبد، ولكن ذلك لم يغير من واقع الأمر شيئاً، وجاء موظفون فرنسيون لإدارة تونس .

وأما من ناحية المغرب فان الحوادث قد استمرت على الحدود. وكانت السلطنة الشريفة المغربية قد احتفظت حتى ذلك الوقت باستقلالها حيال الدولة العثمانية وحيال الغرب. وتمكن الاسبانيون وحدهم منذ القرن السادس عشر من الإحتفاظ ببعض المواقع على ساحل البحر المتوسط، وخاصة فى سبتة ومليلة ووعدتهم فرنسا بمنطقة نفوذ فى المغرب فوافقوا على ترك حرية العمل لها سنة ١٩٠٤. أما الانجليز المقيمون فى جبل طارق فانهم قد رفضوا رؤية دولة جديدة فى منطقة المضيق، فاضطرت فرنسا إلى التساهل معهم فى أمر مصر، وفى إحدى القواعد فى سنيوفوندلاند حتى تحصل على موافقتهم . أما الايطاليين فان فرنسا قد أعطتهم حرية العمل فى طرابلس. ولكن الألمان قد أظهروا أطماعهم صوب المغرب وكرروا الحادث وصعب أمر التفاهم معهم، ورغم ذلك فان فرنسا قد تركت لهم ٢٧٥ ألف كيلو مترا مربعاً فى افريقية الاستوائية تسمح لمستعمرتهم فى الكاميرون بالوصول حتى حدود الكونغو، وذلك فى سنة ١٩١١.

ولقد اعترف مؤتمرا الجزيرة الخضراء المنعقد سنة ١٩٠٦ بحقوق فرنسا واسبانيا فى موانى المغرب فى نفس الوقت الذى أكد فيه سيادة السلطان. ولتكن هذه السيادة لم تكن فعلية، إذ أن المغرب لم يكن أكثر من منطقة تسودها الفوضى الإقطاعية .

وإمتد النفوذ الفرنسى على الامبراطورية المغربية فى بضع سنوات، وبدأ من وجدة التى احتلها ليوتى سنة ١٩٠٧، ثم امتد على ميناء الدار البيضاء، وعلى فاس التى طلب السلطان فيها الحماية سنة ١٩١٢ بعد أن هددته إحدى الثورات ، لقد أعلنت فرنسا حمايتها على المغرب وحدثت منطقة النفوذ الاسبانى من العرائش الى الملوية ، واستمر ليوتى المقيم العام فى إخضاع القبائل ، وحاول التعاون مع الأهالى [١] .

ولقد أنشىء نظام خاص لطنجة التى تتحكم فى منطقة استراتيجية هامة، والتى أصبحت مركز لمنطقة دولية داخل المنطقة الاسبانية، واشتركت فى إدارتها كل من اسبانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا، وأصبحت مدينة مفتوحة لكل العالم.

أما ايطاليا التى فشلت فى تونس فانها قد حاولت العثور على تعويض فى طرابلس سنة ١٩١٢. وهكذا أصبحت كل افريقية الشمالية خاضعة للدول الأوربية من القاهرة التى خضعت للانجليز حتى موجادور التى خضعت للفرنسيين. ومع نزول الاستعمار الى هذه المناطق بدأت صفحة جديدة من تاريخها، وإذا كان الاستعمار قد عمل على استغلال افريقية السوداء والبيضاء ، فان افريقية قد أفادت من وجود الاوربيين معرفتها لشخصيتها وبدؤها العمل على التحرير من السيطرة الأجنبية .

(١) أنظر "المغرب الكبير" للمؤلف - الجزء الثانى - الدار القومية ١٩٦٥.

الفصل العشـــــرون

إنهيار الغرب وفقره

شهدت السنوات الأولي من القرن العشرين إنهيار امبراطوريتين من أكبر الامبراطوريات في العالم وهما الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الألمانية. وتسبب هذا الانهيار عن ظهور الحركات القومية واشتداد ساعدها ومحاولتها الانفصال بنفسها عن الوطن الأم ولقد أثر ذلك علي خريطة أوربا، كما أثر علي خريطة العالم كلها ، وخاصة مع تسويات الحرب العالمية الأولي. ومع توالي السنوات ظهرت قوي جديدة، وخاصة في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين. وجاءت الحرب العالمية الثانية لكي تتم إنهيار الامبراطوريات الأوربية وتنزل بدولة التي كانت مركزاً لامبراطوريات واسعة الي دول من الدرجة الثانية .

١- إنهيار الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الألمانية:-

كانت الامبراطورية العثمانية قد بدأت في التفكك التام مع بداية القرن العشرين، وأصبح السلطان يختلف تماما عن جده الأكبر سليمان القانوني، وأصبح الأجانب سادة في بلاده ، ولا يدفعون الضرائب ولا يخضعون للمحاكم العثمانية. وتمكنت الأقاليم ، الواحد بعد الآخر، من الحصول علي إستقلالها، وبعد اليونان جاء دور رومانيا ثم بلغاريا ثم الصرب. وسيطرت النمسا علي البوسنة، كما سيطرت فرنسا في شمال افريقية، وانجلترا علي مصر وايطاليا علي ليبيا وجزر الدوديكانيز. ولقد حاولت جمعية تركيا الفتاة أن تعيد بعث الامبراطورية سنة ١٩٠٨ ، ولكن الوقت كان متأخراً، وجاءت حروب البلقان لكي تحرم تركيا من معظم أراضيها الأوربية، إلا شريطاً صغيراً يحيط

بالمضايق. وكان لدخول تركيا الحرب إلي جانب المانيا أكبر أثر في فقدها بقية ممتلكاتها في العالم الغربي.

أما ألمانيا فكانت قد نشأت من تجميع عدد من الدول الجرمانية الصغيرة التي حاول ريشيليو أن يحتفظ بها متفرقة. وكان نمو القومية الألمانية يعني إنهيار فرنسا، ونشأ إتحاد جمركي ثم إتحاد سياسي وجمع بين معظم الألمان حول بروسيا وتمكنت هذه الامبراطورية الشابة من التفرغ لعملية التصنيع، ثم بدأت في الاستعمار، واعترف لها مؤتمر برلين بمناطق نفوذ تشتمل في ، افريقية علي تنجانيقا ، وافريقية الجنوبية والغربية وتوجو والكميرون التي نمت علي حساب افريقية الاستوائية الفرنسية، كما حصلت ألمانيا علي بعض الجزر في المحيط الهادي . وقد بلغت مساحة المستعمرات الألمانية ما يقرب من مليونين ونصف مليون كيلو متر مربع، وسكنها ما يقرب من ١٢ مليون نسمة. وكانت لألمانيا مصالح إقتصادية هامة في تركيا، وعلي طريق الهند.

ولقد سقطت كل من الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الألمانية في الحرب العالمية الأولي. ولقد حاولت ألمانيا أن ترسل حملة صغيرة من جنوب غرب افريقية لتهديد مستعمرة الرأس في سنة ١٩١٦، وحاولت جماعات المانية قيادة العرب وارشادهم في مهاجمة بعض المواقع الفرنسية في قلب الصحراء، ولكن الممتلكات الألمانية كانت مفصولة كلها عن أوربا ، وانتهت بأن خضعت للاحتلال الانجليزي أو الفرنسي أو البلجيكي أو الياباني أما علي الجبهة التركية فان جيوش «الحلفاء» قد تمكنت من دخول القدس بعد أن تحالفت بريطانيا مع أمراء الصحراء في الجزيرة العربية . ودارت المعارك الفاصلة في شمال فرنسا وأثرت نتيجة هذه المعارك علي مستقبل المستعمرات.

وجاءت عملية الصلح، وأصبح علي المهزوم أن يدفع ثمن هزيمته وأن يسلم كل مستعمراته سنة ١٩١٩. واذا كانت ألمانيا قد إحتفظت بوحدتها في أوربا فانها قد تركت مستعمراتها في افريقية وفي المحيط الهادي كما نصت علي ذلك المادة ١١٨ من معاهدة فرساي. فأصبحت ألمانيا فجأة دولة داخل حدود القارة الأوربية وبعد توزيع هذه المستعمرات علي المنتصرين وجدوا أنها غير ذات قيمة كبيرة، ثم إكتشفوا أن حرمان ألمانيا من مستعمراتها قد ساعدها علي تركيز مجهوداتها في الصناعة، وفي الدول والأقاليم المحيطة بها والتي تسكنها عناصر جرمانية .

أما تركيا فانها قد خسرت أقاليمها العربية، وأصبحت دولة أناضولية محصورة بين القوقاز وبحر إيجة. وخسرت بلاد ما بين النهرين وسواحل الشام المطلة علي البحر المتوسط، كما خسرت مصر نهائيا، وخسرت كل الجزيرة العربية. ولقد فهم الاتراك هذا الدرس القاسي ووجدوا أنه من الضروري ترك الخلافة وأعبائها لكي يتمكنوا من إعادة بناء دولتهم التركية. واحتل كمال أتاتورك مكان آل عثمان، وأصبحت أنقرة عاصمة بدلا من إستانبول، وألغت الدولة المدارس الاسلامية والمحاكم الشرعية، كما ألغت الطرق الصوفية وأقفلت التكايا. وسارت تركيا علي سياسة علمانية ، وعل نهج أوربي، وكأنها تعطي المثل للدول الأوربية التي تستعمر المناطق الاسلامية. ولكن هذه الدول إستمرت في احتفاظها واحترامها للعادات والمعتقدات الإسلامية، حتي تتمكن من الحصول علي تأييد العناصر التي تسهل لها علمية الإستغلال .

ولم توافق الدول المنتصرة علي منح الإستقلال للشعوب التي كانت خاضعة لألمانيا وتركيا، بل كان عليها أن تغير مستعمر بمستعمر آخر. ومع

ذلك فان المستعمرين الجدد قد كتبوا عناوين جديدة لهذه المستعمرات. وقام ممثلوا جنوب افريقية ، التي أصبحت من الممتلكات المستقلة، والولايات المتحدة الأمريكية برفض إستخدام الألفاظ الاستعمارية. ورأي الجنرال سمطس، الذي كان قائدا في حرب البوير ثم أصبح وزيرا لاتحاد جنوب افريقية، رأي في عصبة الأمم التي كانت قد أنشئت حديثاً، الوارث الطبيعي للامبراطوريات المهزومة. وأحضر الرئيس ويلسون مبادىء جديدة في هذا الموضوع، فوضعت كلمة الانتداب بدلا من كلمة الاستعمار، وعلي أساس أنه لن تكون هناك دولة تستبعد دولة أخري، بل إن عصبة الأمم هي التي «تنتدب» أحد أعضاءها للسير بالشعوب إلي مرحلة الوصول إلي النضج وحكم أنفسهم بأنفسهم ، وأن تساعد علي إزدياد تطورهم ووصولهم الي الاستقلال. ولذلك فان المستعمرات الألمانية السابقة، والأقاليم العربية في الشرق الأوسط والتي أعطيت لعصبة الأمم، قد عهد بها إلي دول يمكنها ، بامكانياتها وتجاربها وموقعها الجغرافي، أن تقوم بهذه المهمة. ولم يؤثر هذا اللعب بالألفاظ علي الدول المستعمرة ، خاصة وأن العصبة لا تطالبهم بأكثر من تقديم تقرير سنوي إلي لجنة الوصاية، التي كان من المفروض أن تشرف علي هذه التجربة. والواقع أن المستعمرين لم يغيروا من طريقتهم ولا من أهدافهم .

ولقد إستولت بريطانيا العظمي بهذه الطريقة علي جزء من توجو ، وجزء من الكاميرون ، وشرق افريقية التي أكملت الاتصال بين القاهرة ورأس الرجاء الصالح. كما استولت علي بعض أجزاء علي الامبراطورية العثمانية ، مثل فلسطين التي ستنشيء فيها وطنا قوميا لليهود، وشرق الأردن، والعراف التي كان البترول قد ظهر فيها قبيل الحرب.

أمـا فـرنسـا فـانهـا قـد إستولت علي بقيـة توجـو وبقيـة الكاميرون، وعلي سوريا ولبنان.

وحـصل إتحـاد جنوب افـريقـيـة علي إنتـداب علي جنوب غـرب افـريقـيـة الألمانيـة ، كـمـا حصلت إسـتراليا علي إنتداب علي غينيا الجديدة وأرخبيل بسمارك وجزر سالمون ، وحصلت زيلندا الجديدة علي انتداب علي جزر ساموا، واليـابـان علي جزر مـاريان ومـارشـال وكـارولين ، والبلجيك علي إنتـداب علي رواندا وأوروندي التي تعتبر من أخصب أقاليم تنجانيقا.

ووضـعت عـصبـة الأمم نظم إنتداب مـختلفـة لهـذه المستعمرات ، وفـصلت بينهـا علي أسـاس درجـة تطورها، وقـسـمتـهـا إلى إنتـداب (أ)، وهي الأقـاليم التي لها درجة من النمو يسمح لها بأن تصل الي مرحلة الأمم المستقلة بعد أن تشرف الدول صـاحبـة الانتداب عليها، مـثل سوريا ولبنان والعـراق. أما مناطق الانتداب (ب)، فانهـا مناطق أقل نموا مثل مـناطق وسط افريقـيـة. ولقد منعت عـصبـة الأمم بناء القواعد الحربيـة فـيـهـا وفـرضت نظام المساواة في التـعـامل التجـاري معـهـا. أمـا المناطق (حــ) فـانهـا الأكبر تخلفا، مـثل جنوب غـرب افريقيـة وجزر المحيط الهادي، ويمكن للدولة صاحبة الانتداب أن تفعل ما يحلو لها فيها .

ولكن هذا التـقـسـيم والتـفـريق كـان صـعـبـا علي فـهم الدول المستـعـمـرة، وخاصـة في منطقـة الشرق الأدني العربيـة التي كان أهلها يتـمتعون بدرجـة من التـقـدم الظاهرة، وكـانت المنافـسـة بين الأوربيين فـيـهـا علي أشـدهـا. وكـان الكولونـيـل لورنس يحلم بامبـراطورية عـربيـة خـاضـعـة لانجلتـرا، ومـعني ذلك الاسـتـمـرار في عـمـل الدسـائس ضد الأطماع والمصالح الفرنسيـة. وتمكن ابن

سعود من توحيد شبه الجزيرة العربية، كما تمكنت لندن من تعيين أحد الأمراء علي عرش العراق، وتعيين أميراً آخر في عمان أما اليهود فانهم قد اصطدموا بالعرب في فلسطين، وأما الفرنسيون فانهم قد واجهوا الأتراك ثم واجهوا الدروز، ودخلوا في الخصامات الطائفية والدينية .

وهكذا نري أن ماورثه الغرب الاستعماري من الامبراطوريتين العثمانية والألمانية لم يكن سهلا، بل كان عبئا ثقيلا حملته الدول الاستعمارية علي أكتافها.

(٢) ما بين الحربين :-

حاولت أوربا بكل شكل من الأشكال أن تحتفظ تسلطيتها علي العالم في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين .

فنجد أن ليوتي قد عمل بين الرؤساء الاقطاعيين وضمن المغرب لفرنسا. وكانت فرنسا تسيطر علي امبراطورية تشتمل علي مائة مليون نسمة، وأعطي معرض المستعمرات الذي أقيم في باريس صورة واضحة لتلك الأراضي والشعوب والامكانيات التي كانت فرنسا تسيطر عليها .

أما البريطانيون فانهم قد إستمروا في السيطرة علي امبراطورية أكبر، وتشتمل علي عدد أكبر من السكان، وخاصة بعد أن أضيفت إليها الأراضي والأقاليم الخاضعة للانتداب . وساعدت سياسة تفضيل التعامل مع الامبراطورية علي زيادة الرخاء في إنجلترا، وأصبحت المدينة في لندن هي التي تمول عمليات ما وراء البحار، كما أصبحت وزارة المستعمرات ووزارة الممتلكات المستقلة ووزارة الهند دعائم التسليطة البريطانية في هذا العصر.

أما بقية الامبراطوريات الأوربية فلم يكن من السهل تجاهلها وكان البلجيكيون يستغلون مناجم وموارد الكونغو كما كان الإيطاليون يقومون بتجاربهم في ليبيا وفي الصومال وفي جزر الدوديكانيز. وأما الاسبانيون فانهم قد حاولوا التشبث بشمال المغرب وبصحراء جنوب المغرب وبأحد المراكز في خليج غينيا، وأما البرتغاليون فانهم قد أصروا علي ادماج مستعمراتهم في افريقية وفي الهند، وكان الهولنديون يعيشون في رخاء من اندونيسيا ومن الهند الغربية، ومع شركة رويال دتش التي سيطرت علي جزء هام من بترول العالم. وأما الامبراطورية الدانماركية فقد إمتدت علي آيلاند وجرينلاند التي منحتها محكمة العدل الدولية في لاهاي إلي الدانمارك بعد تنافسها مع النرويج ، وأما النرويج فانها قد مدت نفوذها الي سبتزبرجن.

وكانت الآراء الاستعمارية تعيش وتزدهر في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وأيدها رجال الأعمال ورجال الصناعة وإستندوا إلي إنشاء الطرق وإنشاء المدن الحديثة في المغرب، أو في رودس وطرابلس وبنغازي لكي يتغنوا بفوائد الاستعمار ومزاياه . وإذا كان هناك قسم كبير من المفكرين والفلاسفة قد فضحوا الاستعمار ، فان بعض الكتاب قد تغني بمزاياه في هده الفترة . ووصلت كلمة الاستعمار الي أقصي درجة في إزدهارها، رغم أن الزوبعة واليقظة كانت قريبة الحدوث. وعلي أي حال فان الاستعمار لن ينهدم في هذه الفترة بل ستؤدي العلاقات بين الدول المستعمرة إي خروج البعض من الميدان وتركه للاخرين ولدولة تسلطية جديدة .

وأخذت مظاهر إنهيار الدول الاستعمارية في الظهور: فقلت نسبة العناصر الأوربية بين سكان العالم ، ونسبة رؤوس الأموال الأوربية في العالم.

ولم تعد أوربا هي أكبر منطقة للانتاج الصناعي علي وجه الأرض. وتدهورت قيمة العملات الأوربية بأجمعها، وحتي الجنيه الاسترليني، وكانت هذه المظاهر تبشر بانهيار الغرب وتبشر بتحول أوربا إلي شبه جزيرة ملحقة بآسيا .

ولقد شعرت المستعمرات بهذا التحول، وانتشرت فيها الثورات ، خاصة وأن معاهدات الصلح كانت قد تحدث عن حقوق القوميات وحقوق الأقليات بالنسبة للبولنديين والتشيكيين والمجريين، فلم لا تطبق هذه المبادىء علي كل شعوب العالم؟. واذا كانت الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الألمانية والامبراطورية النمساوية المجرية قد إنهارت وتفككت ، فلم لا يطبق هذا المبدأ علي الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية؟

وكانت إيرلندا هي أولي الدول التي التجأت إلي الثورة والعنف سنة ١٩٢١ ونشبت فيها الحرائق وتوقف العمل بالسكك الحديدية وتمكنت من إنتزاع نظام الممتلكات المستقلة من إنجلترا . ولكن المقاطعات البروتستانتية في أولستر بقيت إنجليزية . ولم يرض الإيرلنديون بحل يقوم علي تقسيم جزيرتهم وتشويه إستقلالهم . ولقد أصبحت لهم حكومة وبرلمان وجيش وعلم، وتحدثوا من جديد بلغتهم الأصلية، ولكنهم لم يوافقوا علي بقاء قوات إنجليزية أو رؤية حاكم إنجليزي ، حتي ولو كان وجوده شكليا لا يمثل سوي رباط الولاء للتاج . ولم يعارض الرئيس فاليرا أعمال العنف إلا بعد جلاء آخر جندي بريطاني من بلاده سنة ١٩٢٢. ثم تحولت ايرلنده في سنة ١٩٣٧ إلي جمهورية وقطعت علاقتها بلندن وبالتاج، وأصبحت دولة مستقلة.

أما الهند فانها كانت قد حصلت من إنجلترا علي وعود في سنة ١٩١٧، وفي أثناء أزمة الحرب، وكان الهنود المتعلمين علي الطريقة الانجليزية

يسيطرون علي معظم مراكز الإدارة ولم تكن حكومة لندن تحتفظ إلا بالسيطرة علي الجيش والشرطة. وأعطي قانون الهند الصادر في سنة ١٩١٩ لشبه القارة مجلسيين نيابيين، وعدداً من مجالس الأقاليم المنتخبة، ووزرا يختارون من بين أعضاء هذه المجالس، ومجلس لأمراء الدول السبع الرئيسية في الهند. وكانت حكومة لندن تعرف أنها تسير صوب إنشاء حكومة هندية مسئولة، ولكن بعد عشر سنوات .

وقاوم غاندي ، ذلك المحامي الذي دافع عن قضية بلاده بنضج، تلك الحضارة التي جاءت لاستعباد بلاده بما تقدمه من آلات وما تعبده من مادة، ولم يكن مثل الإيرلنديين يرغب في العنف، بل نادي باللا تعاون، فهجر الهنود المدارس والمحاكم ورفضوا دفع الضرائب وقاطعوا المنسوجات الإنجليزية وهم يعلمون أنهم سيجبرون عمال لانكشير إلي التحول إلي البطالة. وعارض غاندي آلات مانشستر بالأنوال البدائية، كما عارض قوات الامبراطورية ونائب الملك بموقف سلبي وبالاضراب عن الطعام .ومع ذلك فقد تحول موقف عدم إستخدام العنف، إلي تمرد في نظر البريطانيين ، وثورة في نظر الوطنيين.

وإضطرت إنجلترا إلي التنازل تدريجيا وأرسلت لجنة للتحقيق ولكتابة تقرير عن الهند، ثم حولت الهند في سنة ١٩٣٦ إلي اتحاد الجامعة الهندية، الذي أصبح إحدي الممتلكات المستقلة ، وأصبحت له مجالسه المنتخبة ولكن قراراته كانت تخضع لفيتو نائب الملك. وكانت هذه أول مرة في التاريخ يحصل فيها أبناء إحدي المستعمرات، من غير الغربيين ، علي مركز الممتلكات المستقلة، ولكن غاندي إستمر في المطالبة بالاستقلال التام ورفض حزب المؤتمر، مع نهرو ، إنشاء حكومات في المقاطعات التي يكون الهنود فيها أغلبية ساحقة .

أما في البلاد العربية فان حكومة لندن قد اضطرت إلي التراجع في سياستها، وبعد أن كانت قد إستخدمت العنف ضد مصر ونفت زعماء الوفد إضطرت إلي اعطاء الإستقلال للبلاد سنة ١٩٢٢. وكان هذا الإستقلال مشوها، فاستمرت عمليات الاضراب والتخريب، وإضطرت إنجلترا إلي تقليل نفوذها رغم احتفاظها بحاميات عسكرية. ثم وافقت إنجلترا في سنة ١٩٣٦ علي الاعتراف باستقلال مصر التام، وتعهدت بعدم وضع قواتها إلا في منطقة قناة السويس وسيناء ، وتمكنت مصر من إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية وأصبحت عضوا في عصبة الأمم.

وكذلك اضطرت بريطانيا إلي التنازل عن انتدابها علي العراق سنة ١٩٣٢ وعلي شرقي الأردن ، ولكن نظير تحالفهما معها.

وكانت الممتلكات المستقلة حتي ذلك الوقت تعتبر نفسها خاضعة لانجلترا، ولكنها أصبحت منذ سنة ١٩٢٦ تتعامل مع بريطانيا علي قدم المساواة. ثم أصبح لهم طبقا لقانون ويست منستر سنة ١٩٣١ برلمانات تعادل في إختصاصاتها مجلس العموم، وأصبحت لهم إدارتهم وهيئاتهم الدبلوماسية واعلامهم وعملتهم، وأصبحوا أعضاء في عصبة الأمم. حقيقة أن الملك ظل يتمتع بالسيادة علي الممتلكات الحرة فيما وراء البحار، ويعين الحكام الذين يوافق عليهم الوزراء المحليين ، ولكن هؤلاء الحكام كانوا بغير سلطة .

وبعد اسم الدومنيون تحولت الامبراطورية البريطانية إلي الكومنولث في سنة ١٩٢٦ ، كمجموعة من الأمم البريطانية، وأصبحت درجة ولاء الأعضاء مهددة. وإذا كانت زيلاندة الجديدة هي أكثرهم ولاءاً، واستراليا تتأقلم داخل هذا النظام الجديد، فان كندا لم تترك فرصة لتوكيد حريتها والمسير صوب

أمريكا وكانت، جنوب أفريقية تطالب بالإستقلال التام، واحتفظت الهند بموقف عدائي تجاه هذا النظام .

وإذا كانت مسألة السيادة دعامة لوحدة الكرمنولث، فان هناك دعامة مادية أقوي منها كانت هي الرابطة الفعلية بين هذه المجموعة من الأمم، وخاصة أمام الأزمة الإقتصادية التي اجتاحت العالم سنة ١٩٢٩، وأمام المنافسة المتزايدة للصناعات الأجنبية، وخاصة اليابانية والألمانية. لقد إظطرت مجموعة الأمم البريطانية إلي التضامن حول الجنيه الإسترليني، وجاءت إتفاقيات أتاوة سنة ١٩٣١ راسمة لاستراتيجية خاصة تحمي بها الأعضاء، دون أن تقفل حدود الامبراطورية وجماركها، وذلك بإنشاء كتلة الجنيه الاسترليني التي تدعم العملة الامبراطورية وتصهرها مع الجنيه الانجليزي، وهكذا تحولت هذه الرابطة السياسية إلي رابطة إقتصادية ومالية.

أما بقية الدول المستعمرة الأخري فكانت أقل مرونه من بريطانيا ، وحاولت أن تقف في وجه التطور والثورات. ففي الوقت الذي منحت فيه هولندا نظاما جديدا لاندونيسيا مع برلمان إستشاري معظم أعضائه من الوطنيين في سنة ١٩٢٥، قامت فرنسا باتخاذ موقف جامد في الغرب مع ثوار الريف، ورفضت في تونس مطالب حزب الدستور وحزب الأحرار الدستوريين الجديد، ورفضت إستقلال سوريا بدعوي حمايتها للأقليات، ولم تقم إلا باصلاحات بسيطة في كل من الجزائر والهند الصينية ، أما بلجيكا فانها قد قسمت الكونغو إلي أقاليم ومقاطعات، واستغلت البرتغال الوطنيين السود في مستعمراتها.

لقد كانت أوربا تقف موقف الدفاع ولكنها كانت تتقهقر، وعلي طول الخط. فلقد تمكنت إيران من الغاء الامتيازات الاجنبية وتخلصت من احتكار بريطانيا للبترول. أما الصين فانها قد أصبحت جمهورية وطالبت بإلغاء الإمتيازات والحقوق التي حصل البيض عليها، وأخذت جموع كبيرة من المهاجرين الصينين تتوغل في سهول منشوريا وفي آنام وفي الهند الصينية وفي ماليزيا. لقد كانت تستعمر بطريقتها، وإن كانت هذه الأقاليم، أو معظمها ، تخضع لاستعمار الأوربيين. وعلي أي حال فان زيادة سكان آسيا ، وزيادة وتضخم الإقتصاد الأمريكي ، كانا عاملان لهدم السيطرة الاوربية.

(٣) ثلاث امبراطوريات صغيرة :

حاولت كل من اليابان وإيطاليا وألمانيا بناء امبراطوريات جديدة ، وذلك للحصول علي المواد الأولية والأسواق اللازمة لمصنوعاتهم.

أما اليابان فقد تضاعف عدد سكانها في نصف قرن، وحاول اليابانيون الهرب والهجرة من جزرهم. ولكن البلاد الانجلوسكسونية كانت تحدد من الهجرة الصفراء أو تمنعها، ولم تتمكن طوكيو مع معاهدات الصلح من الحصول علي إعتراف بالمساواة بين الأجناس البشريه.

وكان اليابانيون قد إنتصروا علي الروس، وشعروا بقوتهم، وأصبحوا يسيطرون علي كوريا. ودفعهم ذلك الي التوسع في الإستعمار علي القارة . ولقد شعروا بعد إستيلائهم علي بعض القواعد الألمانية في المحيط الهادي بالأمن في هذا المحيط. وبدأ اليابانيون بمنشوريا سنة ١٩٣١ والتي كانت تعتبر حتي ذلك الوقت منطقة نفوذ روسي. ثم استمروا في شمال الصين سنة ١٩٣٧ واحتلوا بكين ثم شنغاي ونانكين وكانتون، وسيطروا علي كل الواجهة

البحرية للصين. ولم يتركوا للحكومة الصينية إلا داخلية البلاد. ولقد حولت اليابان منشوريا الي منشوكو، ووضعت علي رأسها آخر أباطرة الصين قبل إعلان الجمهوريه، ولم يكن في وسعه رفض أي شيء لليابان. وكذلك الحال في مقاطعات شمال الصين التي خضعت لحكومات تابعة لليابان.

حقيقة أن هذه الامبراطورية كانت تزود اليابان بالأرز والقمح وحتي الفحم والحديد، ولكنها كانت مناطق مزدحمه بالسكان، ولا يمكنها حل كل المشكلات اليابانية، فأصبح علي اليابان أن تبحث عن حل في مكان آخر. ولذلك فان اليابان قد حاولت الافادة من الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤١ خاصه وأن المحيط الهادي كان مفتوحا أمامها. فاستولت علي الفلبين من أمريكا ، وعلي أندونيسيا من الهولنديين، وعلي جزء كبير من الأرخبيل. ونزل اليابانيون في الهند الصينية الفرنسية في نفس السنه، وإستولوا علي هونج كونج وسنغافورة من إنجلترا ، واحتلوا بورما وهددوا الهند واستراليا . وإمتدت امبراطورية الشمس المشرقه علي سومطره، وإمتدت من نهر آمور إلي بحر المرجان، ووصلت إلي جزر سالمون ومارشال.

ولقد عمل اليابانيون علي تنظيم «ممتلكاتهم». واستعانوا بعض الأهالي «المتعاونين» لإنشاء إدارة حديثة، واستغلوا كل مايلزمهم من أجل الحرب ومن أجل السلم. وأعلنوا أنفسهم محررين المحيط الهادي بعد أن طردوا البيض، والغربيين والمسيحيين ، الذين كانوا يستغلون الوطنيين منذ قرون طويلة.

أما إيطاليا الفاشستية فانها قد اعتبرت نفسها وريثة عظمة روما . كانوا يقطعون الرخام، وأعتقدوا أن في امكانهم تقطيع القارات، كانت لهم الدوديكاينز وقسم من الصومال والارتيريا وليبيا، فأقاموا المعمرين علي

حدود الرمال وفي الوحدات.، ولكنهم لم ينسوا الهزيمة التي أذاقها لهم الأثيوبيون ، فصمموا علي الإنتقام وحاولوا تجميع ممتلكاتهم في شرق افريقية، ومن البحر الأحمر حتي المحيط الهندي. وصمم موسوليني علي الإستيلاء علي أثيوبيا سنة ١٩٣٥ . وبعد حادثة حدود، توغلت القوات في بلاد النجاشي، ملك الملوك ، هايلاسلاسي. لقد انزعجت أوربا ، وانزعجت عصبة الأمم، ولكن بأي حق يمكن للندن أن تتدخل، ولها امبراطورية، لكي تمنع إيطاليا من الحصول علي امبراطوريه أخري؟. أنا نفس المشكلة التي تواجه بريطانيا صوب اعطاء مصر استقلالها، وإعطاء الهند نظام الممتلكات المستقلة، حتي تظهر أن عهد الاستعمار قد إنتهي .

ولكن هذه المظاهر والشكليات لا توقف ايطاليا التي تمكنت قواتها من دخول أديس أبابا. وأعل الدوتشي مولد الامبراطورية الجديدة، وأعلن فيكتور أمانويل امبراطوراً علي الحبشة وحفر الإيطاليون علي رخام كنيسة قسطنطين مراحل نمو الامبراطورية الرومانية ومراحل نمو الامبراطورية الايطالية في افريقية . وإزدانت روما بالاعلام ، واستسلمت عصبة الأمم للمرة الثانية، بعد أن كانت قد إستسلمت أمام اعتداء اليابان علي منشوريا.

ولقد عمل الإيطاليون كما عمل أجدادهم الرومان، فاستغلوا وبنوا وجملوا وإحترموا عادات الأهالي وتقاليدهم، وان كان ذلك لمجرد المظهر الفولكورى، وعينوا نائباً للملك علي أثيوبيا وجاءت سياسة تطبيق العقوبات علي إيطاليا لكي تدفعها صوب ألمانيا وتجعل منها حليفة لها وتشترك معها في تقسيم الاسلاب، فاستولت إيطاليا علي ألبانيا سنة ١٩٣٩ ، وهي بلاد جبلية وفقيرة. ولكنها تشتمل علي قواعد هامه في البحر الادرياتى. وأضاف

فيكتور امانويل لقب ملك ألبانيا إلي مجموعة القابه. وحينما دخلت ايطاليا الحرب العالمية الثانية ضمت اقليم الكروات الذي عينت له نائبا للملك، وطالبت بتونس وكورسيكا ونيس وسافوا. وكانت تحلم بأن تجعل من البحر المتوسط بحراً يخضع لروما.

وفي كل هذه العملية لم تستخدم إيطاليا كلمة «الاستعمار» أو كلمة «مستعمرة» بل إنها كلها مجرد أقاليم. وربما كان الفاشيست يرغبون في أعادة النظام الامبراطوري القديم، بمرونته وشكلياته، ولكن أحداث الحرب لم تترك لهم الوقت الكافي لتحقيق أحلامهم .

أما المانيا فكانت هي مركز كل هذه العمليات وكان لها رئيساً له طابع خاص هو هتلر، الذي قدم لها نظرية ونظاما معيناً. لقد كان يعتقد في تفوق الجنس الآري ،.ويعتقد أن الألمان يمثلونه أصدق تمثيل. ونادي بضرورة سيادة هذا الجنس لمختار علي كل الأجناس الأخري، وشرح ذلك في كتابه «كفاحي» الذي كان يطالب بإستخدام العنف وسيلة لتحقيق هذه السيطرة العنصرية.

ولكن هتلر كان يشبه بسمارك في أنه يفضل الأقاليم الأوربية المضمونه علي المغامرات البعيدة. ولما كانت معظم الأماكن والأراضي الواقعة فيما وراء البحار قد توزعت ، فقد كان عليه أن يعمل علي القارة الأوربية نفسها . وادعي هتلر أنه يرغب في عدم الاصدام مع انجلترا ، وأنه لا يرغب في الاحتكاك بالأجناس غير الأوربية ، وخاصة الزنوج ، وأنصاف القردة ، وأنه يخشي من حدوث تخليط مع دماء هذه الشعوب ولذلك فانه يفضل السيطرة علي القارة، وعلي أن تكون هذه السيطرة طبقا لسياسه عنصريه محددة.

وبدأ هتلر في العمل منذ سنة ١٩٣٨ حتي يتمكن الشبان الألمان من أي يرسموا خريطة دولة عنصرية جديدة ، ويوسعوها إلي الأبعاد اللازمة لها. فضم النمسا سنة ١٩٣٩ ، ثم ضم اقليم السوديت، وابتلع تشيكوسلوفاكيا، وإستولي علي ميمل ودانزيج وغزا بولنده وإحتل الدانمارك والنرويج وفرنسا ويوجوسلافيا واليونان، ثم غزا الروسيا سنة ١٩٤١.

ولكن ألمانيا الاشتراكيه القومية أخطأت خطأ كبيرا باحتلالها لأراضي غير ألمانيه وكان من السهل علي ألمانيا أن تبقي في النمسا والإلزاس واللورين، ولكنها وجدت صعوبة في إستعمار بوهيميا ومورافيا، واضطرت إلي إنشاء نظام حماية جمركي ووضعت حاميات لضمان ولاء هذه الاقاليم واعتبر هتلر سلوفاكيا مستقلة تحت سيطرة الرايخ، وترك لها حق إقامة المعسكرات وتجنيد جيش صغير. أما بولندا فقد أصبحت حكومة عامة وأشرفت ألمانيا عليها إشرافا تاماً . وأما أوكرانيا فانها قد أصبحت دولة مضمومة والواقع أن ألمانيا قد فرضت نفسها بالارهاب ، وفرضت تعاونا إقتصادياً إجبارياً يشبه نظام الاستيلاء علي كل الأقاليم التي احتلتها.

وعين هتلر رئيس الجستابو ، هيملر رئيسا لعملية الاستعمار، أو مندوبا عاما لتدعيم النظرية الجرمانية . وكان معني ذلك نقل جماعات بأكملها من الأهالي، والقضاء علي العناصر المشكوك في ولائها، وتجميع العناصر الألمانية الموزعه في أقاليم البحر البلطي وفي التيرول الجنوبي وفي بولندا وبسارابيا وقامت شركة إعادة توزيع الألمان بتجميع المعمرين ، وبمئات الآلاف ، وفي معسكرات خاصه مثل لودز، حيث يصورون ويفحصون ويقاسون ويكشف عليهم طبياً، ويخضعون لبعض الاختبارات والامتحانات، ثم يزودوا بشهادات

طبية ووراثية وسياسية. وكانت العناصر الألمانية تحصل علي مساحات من الأراضي الزراعية وخصوصاً في الشرق وهكذا أخذ هتلر في بناء هذه الدولة الألمانية الحديثة، وبالشكل الذي اقترحه في كتابه «كفاحي».

ويمكننا أن نتصور ، في حالة نجاح هذه السياسة ، مجموعات متتالية من الأمم، مصنفة حسب درجة نقائها العنصري. ويمكننا أن نجد علي رأسها الدول الألمانية الحقيقية، من فينيا إلي لوبيك ، ثم منطقة ثانية من أقاليم تعتبر شبه جرمانية، مثل هولندا وأراضي الفلمنكيين والالزاس واللورين وبورجاندى ونورماندي ، إذ أنه اعتبر الاولي من أملاك الامبراطورية ، والثانية من سلالة الفايكنج، ثم أراضي الشرق المستعمرة واسكندينافيا. أما المنطقة الثالة فتشتمل علي الدول التي تسكنها أجناس أقل سموا، وتشتمل علي السلاف واللاتين، ومن الضروري أن تبقي خاضعة وأما المنطقة الرابعة فتشتمل علي القارة الأفريقية، وهي القارة التي ضمها الجغرافيون إلي أوربا لكي يسمحوا لألمانيا باستغلالها. أما بقية العالم القديم فيمكن لألمانيا أن تتركه لحلفائها فتترك حوض البحر المتوسط إلي ايطاليا والشرق لليابان ، أما أمريكا فان المانيا كانت ترسم أمر فرض سيطرتها الجرمانية عليها بدون أدني شك.

وكانت لهتلر أطماعا كبيرة في المكسيك وفي البرازيل التي كان يرغب في إخراج العناصر اللاتينية منها ويرغب في تحويلها إلي نظرية الاشتراكية القومية ، وفكر هتلر كذلك في الولايات المتحدة الامريكية وفكر في تحويلهم إلي الحضارة الجرمانية ، وتحويلهم إلي النظام النازي قبل أن يسمح بدخولهم في الرايخ الاعظم . وكان الفوهرر يحلم بغينيا الجديدة وباندونيسيا، وعلي أساس أبعاد اليابان عنها صوب القارة الآسيوية. ولكن كل هذه الخطة بقيت

في عقله، ووقفت انجلترا أمامه موقفا ثابتا، وتعاونت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والروسيا في الهجوم المضاد عليه. وقامت ثورة في روما، ووقعت حادثة إنتحار في مقر حكومة الرايخ، والقت أمريكا قنبلة ذرية علي هيروشيما. وانتهت بذلك تلك الامبراطوريات الثلاث الصغيرة.

(٤) تحرر الغرب وفقره:

لقد عاد كل شيء إلي نصابه ، أو بدا علي أنه قد عاد إلي نصابه في سنة ١٩٤٥ ففقدت الامبراطوريات المهزومة ما كانت قد غزته، وإضطرت ألمانيا إلي الجلاء عن البلاد التي أخضعتها، وجردت إيطاليا من ممتلكاتها الافريقية ، وعاد النجاشي واعتلي عرش إثيوبيا ، وفقدت اليابان كل ملحقاتها في آسيا والمحيط الهادي، وحتي فرموزا عادت إلي الصين ، أما كوريا فانها قد استقلت وقسمت نصفين كما حدث في ألمانيا. وانتهي حلم ألمانيا لاستعباد العالم وحلم موسوليني لبعث امبراطورية روما وحلم اليابان لاستعمار الشرق الأقصي. واضطرت "الدول الكادحة" التي حاولت الاستيلاء علي ممتلكات الأغنياء إلي العودة الي كدحها من جديد.

ولكن بعض الدول الغنية كانت قد أنهكت وتحطمت من الحرب والحصار والاحتلال التي أثرت علي مراكز الإنتاج وحطمتها ، وأثرت علي الصلات التجارية وقطعتها، وعلي العملاء الذين أصبح من الضروري إعادة إخضاعهم، وأثرت علي النشاط المصرفي ، وعلي العملة التي انهارت، وأثرت علي البشر وعلي المادة بتلك الأعداد من القتلي وتلك المصانع المحطمة ، وبعد أن كانت إنجلتر وفرنسا أكبر مركزين لتمويل العالم أصبحوا من المدينين. وبعد أن كانت لندن توزع رؤوس الأموال علي أمبراطوريتها أصبحت تطلب المعونة والسلفيات من الممتلكات المستقلة ، وخضعت لالتزامات ثقيلة تجاه كل دول

الكومنولث، وخاصة تجاه الهند. لقد انقلبت الأوضاع، ورأساً علي عقب . أما باريس فانها قد اضطرت من جانبها إلي خفض قيمة الفرنك مرات متتالية، حتي انفصل الفرنك الفرنسي عن فرنك افريقية السوداء وعن فرانك جيبوتي ، وأصبح من الصعب إعادة التوازن بينهم.

وقلت قيمة أوربا بالنسبة للعالم، وذلك بالنسبة لسكانها ، وبالنسبة لصناعتها وتجارتها ، وأصبح الميزان التجاري في غير صالح أوربا ، وإضطرت أمريكا إلي تمويل العمليات الأوربية.

لقد فقدت أوربا نفوذها، ورأي الوطنيون في المستعمرات أن الشعوب البيضاء تتحارب فيما بينها، ورأوا هزيمة تلك الشعوب التي تستعمرها، سواء أكان ذلك علي أيدي شعوب بيضاء أخري، أو شعوب صفراء.

وكان الوطنيون قد شاركوا في هذه العمليات، وتعلموا إستخدام الأسلحة الحديثة ، وتعلموا تنظيم عمليات المقاومة في المناطق المحتلة ، وقطع المواصلات وأعمال التخريب. لقد تعلموا حرب العصابات ورأوا أن الغرب نفسه يرفع رجال المقاومة إلي مرتبة الأبطال، ويعلم ضرورة مقاومة المحتلين الاجانب، فكيف يمكننا بعد ذلك بأن نفاجأ حينما تثمر هذه الدروس في جاوة وتونكين والهند وفلسطين وشمال افريقية؟ إنها المقاومة ، إنها التحرير. لقد مرت هذه الكلمات من لغة الأوربيين إلي لغة الوطنيين.

ولقد ساعد التقدم الفني علي إنتشار الآراء وإنتشار الرجال والمصنوعات في نفس الوقت. لقد إنتشرت الطرق وعربات النقل والطائرات وأجهزة اللاسلكي، بدلا من وسائل النقل والاتصال القديمة. ولقد استمرت أجهزة الراديو تنادي بالتحرر والتحرير مدة طويلة. وشعر الوطني أنه رغم فقره يمتلك

أرضاً غنية، وأن الأوربي قد جاء لكي يسرق ما تشتمل عليه هذه الأرض من حديد وقصدير وبترول. وتجمعت بذلك الأسباب والعوامل لثورته. وإذا كان المستعمر يرفض تصنيع المستعمرات، فمعني ذلك أنه يرغب في الاحتفاظ بها خاضعة إقتصاديا، وإذا عمل علي تصنيعها فانه يجمع آلاف من العمال في ضواحي فقيرة وفي حالة بؤس واضحة . وإذا فتح المستعمر المدارس فانه يكون طبقة تحاول الوصول إلي الحكم والاستقلال ، وإذا أهمل التعليم فانه سيتهم بالعمل علي الاحتفاظ بالوطنيين في الجهل، وإذا أبعد المستعمر المثقفين فانه يصبح متحكما ، وإذا أعطاهم المسئوليات فانه يقضي علي حكمه.

لقد تغيرت عقلية الوطنيين ، في نفس الوقت الذي تغير فيه المستعمرون ولم يصبحوا غزاة ولا حملة لمشعل الحضارة والمدنية. لقد تحول المستعمرون إلي مجرد موظفين يفكرون في مستقبلهم، أو مجرد مستغلين منشغلين بالإنتاج . ونظر الوطني إليهم علي أنهم من المنتهزين وأصحاب الامتيازات ومهما بني المستعمر من المستشفيات والمدارس والطرق وأدخل الوسائل الصحية ونشر التعليم فان هوة سحيقة قد اتسعت بينه وبين الوطنيين أنه الاحتقار أو عدم الثقة والحقد من هذا الجانب أو ذلك .

ولقد أعطي المستعمرون عدداً من الوعود في أثناء الحرب ، حتي يضمنوا ولاء الشعوب لهم فتعهدت إنجلترا وقت الهجوم الياباني علي آسيا سنة ١٩٤٢ تجاه الهند بأعطائها الاستقلال التام. أما فرنسا المنقسمة علي نفسها بين أعوان الهدنة وأنصار الحرب والتحرير فانها قد اضطرت إلي مراجعة سياستها الاستعمارية وإنضمت مواقع كل من تشاد والكاميرون وكاليدوتيا الجديدة سنة ١٩٤٠ ثم سوريا ومدغشقر وريونيون وجيبوتي وشمال افريقية ،

بعد الإحتلال الأمريكي سنة ١٩٤٢ وافريقية الغربية الفرنسيه الي الجنرال ديجول. ولم تبق إلا الهند الصينية خاضعة لحكومة فيشي وتحت إشراف اليابان. ورأت مدينة الجزائر نفسها عاصمة لفرنسا الحرة. وظهر من الضروري إرضاء العناصر الوطنية ، ووضع نظام للأعيان المثقفين في افريقية الإستوائية الفرنسية والسماح للمسلمين الجزائريين بالاشتراك في إنتخابات المجالس الجزائرية . وإجتمع مؤتمر من افريقية الفرنسية في برازفيل سنة ١٩٤٤ وأوصي بضرورة التوسع في تمثيل المستعمرات في المجالس المقبلة، وإنشاء برلمان فيدرالي ، ونظام جديد للعمل وللانشاء والتعمير، والحقيقة أن قرارات برازافيل كانت تعمل علي تدعيم الصلات بين فرنسا والمستعمرات، وكانت ترفض إنشاء حكومات مستقلة ، وتصر علي فكرة الامبراطورية الواحدة ولكن الرأي العام شعر بازدياد أهمية المستعمرات الفرنسية ، وعلي حساب فرنسا، وشعر بأن العلاقات بين الطرفين قد تغيرت. وبدأت فرنسا بعد المؤتمر ببعض الاصلاحات مثل إلغاء الأعمال الشاقة في افريقية السوداء ومشروع التعليم، وإنشاء مجلس تمثيلي في مدغشقر، وأشعرت هذه الاصلاحات نفسها العالم بوجود مشكلات ، لم يكن يجهلها ، وبدأ في الشعور بتفاصيلها ، وبدأ الوطني يفكر في طريقة لحلها.

ولقد قامت الدول التجارية الغربية بنشر مباديء تنص علي ضرورة تحرير الشعوب .وكان الرئيس ويلسون قد أعلن في أثناء الحرب العالمية الاولي حقوق الشعوب في حكم نفسها بنفسها. ونصت نقط الرئيس ويلسون الأربعة عشر علي ضرورة تسوية المشكلات الاستعمارية بروح متحررة، وطبقا لرغبات الأهالي. وتفاوضت امريكا وإنجلترا والممتلكات المستقلة سويا بعد ثلاث وعشرين سنة من إعلان الرئيس ويلسون سنة ١٩١٨ ، وعقدت بينها وثيقة

الأطلنطي التي نصت علي حق كل شعب في إختيار شكل الحكومات التي يرغب في المعيشة في ظلها ورفضت كل توسع اقليمي، وكل طموح استعماري من جانب الدول المتحررة أو الدول المتحكمة وكان ذلك في سنة ١٩٤١.

إجتمع المنتصرون في سان فرانسيسكو سنة ١٩٤٥ وكتبوا وثيقة جديدة وقعت عليها خمسون دولة ، وأصبحت صكا للأمم المتحدة ، وأوصت المادة الخامسة والخمسين منه ، مع توصيتها علي ضرورة رفع مستوي المعيشة والتعاون الدولي علي الاحترام العالمي والفعلي لحقوق الإنسان وللحريات الاساسية للجميع ، دون تفرقة بين الاجناس أو العناصر أو اللغات أو الديانات . وذكرت المادة ٧٢ أن أعضاء الأمم المتحدة الذين لهم أو الذين يكلفون بمسئولية إدارة الأقاليم التي لا يحكم أهلها أنفسهم بأنفسهم، يعترفون بمبدأ أولوية مصالح سكان هذه الأقاليم ويتعهدون بمساعدتهم علي تنمية نظمهم السياسية تدريجياً، وفقاً للامال المشروعة لهذه الشعوب ولم تزد هذه النصوص عن مجرد الفاظ لا تشتمل علي تحديد، أو فترة معينة للتنفيذ، أو عقوبة لمن لا ينفذها ، ولكنها كانت دعائم لنمو الروح الوطنية والقومية في كل مكان.

ولقد وجدت نظرية الأمم المتحدة ميدانين لتطبيقها، الأول هو المستعمرات السابقة للدول المهزومة، والذي بقي تحت نظام الانتداب الذي ورثته الأمم المتحدة عن عصبة الأمم، والذي امتد نظريا علي كل الأاليم التي حاولت الدول الأوربية السيطرة عليها فأضيفت الممتلكات التي أخذت من اليابان والتي أخذت من إيطاليا إلي تلك التي كانت قد أخذت من ألمانيا أو تركيا في الحرب العالمية الأولي، فيما عدا الصومال، الذي عهد به إلي وصاية روما.

وأشرف مجلس الوصاية علي هذه العمليات، وشاركت فيه بعض الدول الوصية وبعض الدول غير الوصية وساعدت هذه الطريقه علي تحول بعض الدول غير المستعمرة إلي دول تحاول التدخل في شئون مستعمرات الآخرين.

والواقع أن الأمم المتحدة قد تحولت سريعا إلي منظمة معادية للاستعمار، وذلك لأن الدول غير المستعمرة، والدول الحديثة الاستقلال أصبحت تشكل غالبيتها العظمي. وكان من بين أول أعمالها التصويت علي إعلان حقوق الإنسان في سنة ١٩٤٨ والذي بنت عليه الهيئة العامة ضرورة البحث عن الطرق والوسائل اللازمة لضمان حقوق الشعوب والأمم في تولي أمورها بنفسها سنة ١٩٥٠ ، وحددت طريقة الاستفتاء، وزادت من لجان الدراسة والتحقيق في البلاد المتخلفة والنامية ، وطالبت بالإشراف علي مجموع المستعمرات سنة ١٩٥٢.

وهكذا ظهرت فلسفة جديدة معادية للاستعمار في القرن العشرين، تشبه فلسفة القرن الثالث عشر ، وتختلف عنها في نفس الوقت .

الفصل الحادى والعشرون

حركات الكفاح الوطنى والتحرر

بعد أن تغني العالم بالإستعمار في القرن التاسع عشر جاء القرن العشرين لكي ترتفع فيه الأصوات بمعاداة الاستعمار، والكفاح ضد الاستعمار ، لقد ظهر الإستعمار علي أنه إخضاع شعوب بغير حق وإستغلال قوي لشعوب أخري دون موافقتها، أو التفكير في حاجاتها ، وإذا كان الناس قد تغنوا في أثناء القرن التاسع عشر بثمار الاستعمار ومحاسنه ، فانهم قد بدأوا يتحدثون عن تأخيره وتعطيله للنمو والإزدهار الاقتصادي في القرن العشرين. ولقد إشتدت قوة الحركة المعادية للاستعمار بشكل أثر في الدول الاستعمارية نفسها وجعلهم يتساءلون عن واجبهم ويعترفون بجرمهم، ويوافقون أنفسهم، علي إنهاء الإستعمار.

(١) حركة الكفاح ضد الإستعمار:

تختلف الأسباب المؤدية إلي الكفاح ضد الاستعمار من اقليم لأقليم، ومن قارة لقارة ، وإن كانت كلها ترجع إلي أسباب واحدة وبسيطة في حد نفسها فترجع أولي الأسباب إلي المساواة التي اعترفت بها كل الديانات السماوية ، وإلي الاخاء التي نادت به ، كما ترجع إلي مبادىء المساواة التي أعلنتها الثورة الفرنسية والتي أعلنتها التقاليد الأنجلوسكسونية، وترجع الي الماركسية التي تعتبر أن الإستعمار يعتبر تعبير عن مرحلة رأسمالية ، كما يقول ماركس، ويمثل مرحلة عليا، بل أعلي مراحل الرأسمالية، علي حد تعبير لينين. وإذا كان المؤتمر العالمي الشيوعي الأول قد ظهر وكأنه يؤجل مسألة تحرير المستعمرات، وبشرطها بمسألة تحرير البروليتاريا الغربية فان المؤتمر

الثـاني، والذي خـابت آمـاله لبطء نشـوب الثـورات في أوربا، قـد نادي علي شـعوب المسـتـعـمـرات أن يهـبـوا للثـورة ولقد حـدد لينين مـوقـفـه من مـشكلة الإستعمار قائلا:

«يجب علي الحزب الشيوعي أن يضع أمامه ... مسألة التفريق الواضح بين الأمم المهضومة المستغلة ورغم كذب الديموقراطية البورجوازية التي تخفي العبوديه الاستعمارية والمالية لغالبية الشعوب العظمي في العالم ولصالح أقليـة صغـيرة من الـدول الإسـتـعـماريه المتقـدمـه» ثم نادي بضرورة تعضيد «جميع حركات التحرر الوطني في المستعمرات» ووضع لينين تكتيكا خاصً يتلخص في أن تقدم كل الاحزاب الشيوعيه معونتها المباشرة للحركات الثورية وللأمم الخـاضـعـه أو المهـضـومـة الحـقـوق ، مـثل إيرلندة وزنوج أمـريكا ... وللمستعمرات ويحتم ذلك علي الوطنيين أن يتحالفوا مع الشيوعيين حتي تؤدي تحرير الشعوب المستعمرة إلي انهيار النظام الرأسمالي. وأكد ستالين في دراسته عن «الماركسية ومشكلة الاستعمار» ان ثورة اكتوبر قد بدأت عهداً جديداً هو عهد ثورات المستعمرات، وفي البلاد المهضومة الحق في العالم ، وفي تحالف مع البروليتاريا ، وتحت إشراف البروليتاريا.

ولقد شارك الكتاب في هذا الهجوم علي الإستعمار ، كما حدث في القرن الثامن عشر، وشارك في ذلك رامبوا، وجي دي هوباسان الذي ذكر أنه إذا ما كان هو الحكومه، لوضع كل المستعمرات من السنغال وجابون وتونس والهند الصينية في حقيبة، وذهب لمقابلة بسمارك وأعطاها له بأكملها وبكل نشكياتها ، وبما فيها من عرب وزنوج وهنود وصينيين ، وان كان ذلك في نظير بضعة كيلومترات مربعة من الالزاس ومن اللورين إن هذا الاحتقار

للمستعمرات يستمر في احتقار أندريه جيد للمستعمرين كما يظهر في كتابه عن «رحلة إلي الكونغو»، وإحتقار ويلز لكل المستعمرين.

ولقد هاجم الكتاب حركة الإستعمار ونقدوها، وحتي جبريل هانوتو الذي كان أول وزير للمستعمرات الفرنسية، والذي كتب مجموعة تاريخ هذه المستعمرات ، قد نادي باستقلال المستعمرات الاسبانية واشاد بالمبادىء الثورية ، دون أن يري في ذلك حكما علي المستعمرات الفرنسة وكم من كاتب وجد أن اللورين أصلح لفرنسا من كندا، وأن فرنسا قد أنشأت إمبراطورية استعمارية كبيرة دون فائدة، وتساءل عما إذا كان من الحكمة لدولة تحتاج إلي الدفاع عن حدودها مثل فرنسا ، الاحتفاظ بامبراطورية إستعمارية واسعه . ورغم ذلك فان المعمرين والمستعمرين لم يروا خطورة هذا التطور الفكري ، ولم يقدروه حق قدره ومرت حركات الكفاح ضد الاستعمار من الرجال النظريين الي الرجال العمليين الذين أخذوا في التنظيم وتقوموا بالمطالب . ووقف غاندي في آسيا يواجه بالحكمة الشرقية جنون المادية الغربية . ولقد اعتقدت لندن في ضرورة وضع خطه للمعونة الاقتصادية لمواجهة موجة التحرر الاسيوي ، فجاء مشروع كولومبو ، والذي مولته إنجلترا والدومنيون سنة ١٩٥٠ يهدف تحسين أحوال المعيشة في الهند وفي بورما وسيام وماليزيا واندونيسيا وكأن في وسع المعونات المادية أن تؤثر في حركة فكرية وجاءت باندونج سنة ١٩٥٥ رداً علي مشروع كولومبو ، واجتمع مندوبوا تسع وعشرين أمة في إحدي مدن جاوة ، وأكدوا حقوق الشعوب ونادوا بالكفاح ضد الاستعمار . وإذا كان أعضاء المؤتمر منقسمين علي أنفسهم في مسائل شتي ، الا أنهم قد أجمعوا ضد أوربا وضد الاستعمار.

ومن آسيا مرت الحمي الي افريقية. وكان عدد من الأفارقة قد شارك في باندونج مثل مصر وليبيا والسودان واثيوبيا وليبريا وغانا ، وشاركوا في مهاجمة الاستعمار وتكتيل المجهود للكفاح ضد الاستعمار.

وظهر الإسلام، وبلاد الإسلام علي أنها اكبر قوة تحارب الاستعمار والتسلطية ، خاصة وأنه دين ينتشر بين شعوب تمتد بلادها من الهند إلي المغرب، ومن السودان الي جزر التوابل. ويشعر المسلمون بترابطهم فيما بينهم، بل وبشخصية خاصة بهم ضد المستعمرين ونمت حركة الكفاح ضد الاستعمار في كل مكان، وقام المفكرون في البلاد المستعمرة بفضح سوء أحوالهم الاجتماعية أمام الجماهير وشرح معرفتهم بأسباب هذا التدهور الاجتماعي. ولقد فضحوا ما تقاسيه الشعوب من سوء التغذية ومن ضغط السكان، وكان تحسن الاحوال الصحية وتزايد الأفواه يعمل علي زيادة الحاجات، دون التمكن من زيادة الإنتاج .

وبدلا من أن تتعاون الدول البيضاء أمام نمو هذه الروح الوطنية ، أخذوا في إضعاف كل منهم للآخرين. لقد قامت الروسيا بهز الدول الرأ[illegible]الية حين استندت إلي آمال الوطنيين في المستعمرات، وأخذ الغربيون في الدس كل منهم للاخرين. فتنافس الفرنسيون والاسبانيون في المغرب، ورفض الانجليز إعادة ليبيا لإيطاليا، بعد أن كانوا قد قاموا في عهد لورانس بمحاولة توجيه حركة القومية العربية ضد فرنسا. فاستمرت المخاصمات والمشاحنات والمنازعات الاستعمارية، وإنتهي الأمر بانجلترا بمعرفة ضرورة تضامن الدول الاستعمارية ضد كل المستعمرات .

أما موقف أمريكا فانه كان يثير دهشة الأوربيين أكثر من ذلك ، خاصة وأن روزفلت قد عمل ضد فرنسا في المغرب، كما ساعدت الولايات المتحدة علي إخراج هولندا من أندونيسيا، وفرنسا من الهند الصينية ، وانجلترا من الشرق الأدني، وقامت أمريكا بعد ذلك بالادعاء بأن باندونج هي طريق التقدم الطبيعي.

لقد وجدت أوربا في هذه السياسة كل المتناقضات، فكيف يمكن لأمة قضت علي الهنود الحمر وأخضعت الزنوج، وإشترت تكساس وإستعمرت الألسكا وهاواي وبنما وبورتوريكو أن تقف ضد حلفائها الغربيين؟

وكيف يمكن لأمة ولدت من المعمرين البيض أن تخلط بين حالتها وحالة المستعمرات التي يحاول الوطنيون فيها طرد المعمرين البيض ؟

ولكن أمريكا تجيب بأنها قد منحت حقوق المواطنين للهنود الحمر وللزنوج، حتي ولو كان ذلك من الناحية النظرية، وأنها قد حررت بعض ممتلكاتها الخارجية مثل كوبا والفلبين بعد أن تقدمت ونمت هذه الأقاليم ، وأن من حق أمريكا المتحررة أن تقف موقفا معاديا للاستعمار، وأنه من واجبها أن تعين الشعوب المتحررة. والتي ترغب في التحرر، حتي يمكنها أن تتحالف معها ضد الروسيا، وتحصل علي تأييدها في الأمم المتحدة ، وتحصل علي ميزات إستراتيجية وإقتصادية ومعدنية وبترولية في أقاليمها. والأدهي من ذلك هو أن أمريكا تدعي بأنها لا تفعل كل ذلك إلا من أجل الغرب، ومصلحة الغرب.

وبعد مذهب مونرو، ونقط الرئيس ويلسون ، جاء روزفلت وأعلن أن سياسته معادية للاستعمار، وحاول أن يمنع عودة المستعمرات الفرنسية إلي

فرنسا بعد الحرب ، خاصة وأن فرنسا مرت في ظروف صعبة ، كما حاول إبعاد بريطانيا عن بعض مناطق نفوذها.

وهكذا تعاونت مواقف لينين وغاندي وروزفلت ضد الاستعمار. ولم تكن القوة الحقيقية لهذه الحركة تكمن في المادية الجدلية ولا في الوسائل الإستعمارية، ولكنها كانت متبادلة بين نمو الوعي في المستعمرات، وسيادة الضعف في أوربا .

(٢) تحرر آسيا:

لقد إمتدت حركات لتحرر في آسيا التي أعطت اليابان فيها مثلا واضحاً لليقظة، والتي قاومت الثورات الصينية والتركية فيها محاولات التوغل الإستعماري .

وكانت الصين هي أول من حقق إنتصارات واضحة في تحرير آسيا وتمكنت حكومة شان كاي شيك، في أثناء الحرب من مقاومة الغزاة اليابانيين، وتنازل الانجليز والفرنسيون عن ممتلكاتهم التي كانوا قد حصلوا عليها هناك في أثناء القرن التاسع عشر ووعدو بتسليمها للصين بمجرد نهاية الحرب العالمية الثانية، ولقد تمكنت الصين من استعادة فرموزا ومنشوريا ، ولم تترك لروسيا إلا حق إستخدام بورت آرثر ولقد تمكنت قوات الشيوعيين الصينيين بقيادة ماوتسي تونج من هزيمة شان كاي شيك، وأقامت الصين الجديدة ابتداء من سنة ١٩٤٩ ، تلك الصين التي طردت الغرب من أراضيها ولم تسمح الصين الشعبية إلا بمركزين تجاريين عند مصب نهر كانتون وببقاء البريطانيين في هونج كونج، وهي مستعمرة للتاج البريطاني، والبرتغاليين في ماكاو. وإنتهي عصر التفوق الأوربي هناك.

ونجحت أندونيسيا في التحرر كذلك من هولندا ، خاصة وأن هولندا كانت قد خضعت للغزو الألماني، وخضعت أندونيسيا للغزو الياباني سنة ١٩٤٢ ، ذلك الغزو الذي أشرف علي حكومة سوكارنو الوطنية، دون أن يترك لها سلطات كبيرة وحينما جلا اليابانيون عن أندونيسيا في سنة ١٩٤٥ تركوا الوطنيين في أماكنهم، مع كميات كبيرة من الأسلحة ، ومع شعور بأنه لا يمكن البيض إعادة حكم الآسيويين. ولكن الهولنديين حاولوا استعادة باتافيا بمجرد خروجهم من الإحتلال الألماني، والتي كان الوطنيون قد حولوها الي جاكرتا ونجح الهولنديون في إبعاد رجال سوكارنو الوطنيين الذين أعلنوا الإستقلال ، ولكن وسائل الهولنديين لم تكن تسمح لهم بالانتصار علي الثوار. ورفضت أمريكا معاونة هولندا ثم فرضت حلا وسطا في سنة ١٩٤٩ ، فاظطرت امستردام إلي القبول، وإعترفت باستقلال أندونيسيا وسيادتها سنة ١٩٥٠. ورغم ذلك فقد ظلت الاتجاهات المتضارية داخل أندونيسيا المستقلة ، من صراع بين عناصر إشتراكية وشيوعية وعناصر إسلامية، هذا علاوة علي بعض القوي والعصابات غير الخاضعة في سومطرة وملقه. كما أن هولندا لم توافق علي ترك إيريان الغربية، وظلت هذه المشكلات تهدد الجمهورية الأندونيسية، وتجبرها علي محاولة إقامة توازن بينها.

أما بالنسبة لمشكلة الهند فان بريطانيا لم تكن تقوي أو ترضي عن التراجع في الوعود التي قطعتها علي نفسها زمن الحرب أمام المطالب الهندية الوطنية . وبعد سلسلة من عمليات التنازل المستمرة توقع الكثيرون رؤية الهند مستقلة إلا أن بريطانيا ادعت أنه يصعب عليها ترك شعبين أو جنسين مختلفين يتحاربان ويمثلهما مائة مليون من المسلمين وثلثمائة مليون من الهندوس وقررت نتيجة لذلك ضرورة تقسيم الهند إلي دولتين ، الهندستان

البرهمانية والباكستان الاسلامية، وحتي هذه الأخيرة كانت منقسمة في أراضيها إلي إقليمين. وترك اللورد مونتباتن، نائب الملك الهند في سنة ١٩٤٧ ، مع القوات البريطانية وتلي ذلك عودة نظم الطوائف وضم بعض الامارات للسلطة المركزية ونقل بعض الأهالي والقبائل من منطقة لأخري وبعض عمليات القتل والإرهاب وسقط غاندي نفسه قتيلا بيد أحد المتعصبين.

ولقد عملت بريطانيا في نفس الوقت علي إعطاء الإستقلال لسيلان وبورما ، فأصبحت الأولي دومنيون داخل نطاق الكومنولث، أما الثانية فانها قد خرجت من المجموعة البريطانية .

وكان هذا تحولا خطيراً لكي يقبل الملك نزع تاج الهند من علي رأسه، وخفض العلم البريطاني من علي دلهي الجديدة. ولم يكن الوقت بعيد عن عصر فيكتوريا، الملكة الامبراطورة.

وكانت أسباب فقد فرنسا للهند الصينية لا تختلف كثيراً عن أسباب فقد بريطانيا للهند. وبدأت المشكلات مع هانوي وسايجون وتكاسلت حكومة باريس في حل هذه المشكلات. وكانت هذه المشكلات قد بدأت نتيجة لانقسام الفرنسيين ولضعف حكومة فيشي التي أضطرت لقبول الوجود ثم الأشراف الياباني علي الهند الصينية وكما حدث في اندونيسيا فان طوكيو قد تركت الأسلحة والذخائر اللازمة للثورة في الهند الصينية. ولم يكن الفرنسيون هم الذين استلموا الهند الصينية بعد إستسلام اليابان بل لقد قام بذلك الجيش الصيني في الشمال، والبريطانيون في الجنوب، وفي الوقت الذي أعطت فيه أمريكا بعض التصريحات والوعود للاستقلال سنة ١٩٤٥، والذي قام فيه

حزب إشتراكى من الفيتمين بتنظيم خلاياه في كل البلاد وإستولي علي السلطة في هانوي.

واضطرت فرنسا، لكي تنزل إلي الهند الصينية من جديد في سنة ١٩٤٦، إلي أن تتفاوض مع الصينيين، «وتنظف» البلاد، وتتفاوض مع الفيتمين، وتعد بأن تصبح الفيتنام - وهي تشتمل علي تونكين وآنام وكوشين صين - دولة حرة داخل الاتحاد الهندي الصيني. ولكن الفيتمين نقضوا الهدنة وهاجموا القوات الفرنسية في هانوي، وقاموا بعمليات واسعة للتخريب ولأعمال العصابات. وتطورت حرب العصابات الي حرب نظامية ، وكان الجيش الفرنسي بعيدا عن قواعده ، ولا يشتمل إلا علي عدد من المتطوعين، ورجال الفرقة الأجنبية ومجندي شمال افريقية، فلم يتمكن من السيطرة إلا علي المدن. وانحصرت بعض الوحدات في ديان بيان فو سنة ١٩٥٤ ، وإضطرت إلي التسليم. ولم تكن المعركة فاصلة، خاصة وأن الفيتمين كانوا قد بدءوا في الشعور بالضعف. ولكن الرأي العام الفرنسي أخذ يمج العمليات الحربية في الهند الصينية، وتذكر مشكلة كندا منذ قرنين، ورأي عمليات تهريب العملة من الهند الصينية وفضيحة المطاط، فما هو الداعي لانفاق الأموال وفقد الشبان في بلاد بعيدة، وفي بلاد ستتحرر، ولمصلحة من؟. ولقد أجمعت فرنسا في بضعة أسابيع علي ضرورة ترك الهند الصينية، ولم يناقش أحد ضرورة الاحتفاظ باحدي القواعد في هايفونج أو في رأس سبان جاك. لقد قررت فرنسا إخلاء الهند الصينية. فتأسست جمهورية فيتنام الشعبية في الشمال وباشراف الفيتمين، وبرئاسة هوشي مين. أما في الجنوب فان فيتنام أخري قد حصلت علي الاستقلال. مثلها في ذلك مثل كمبوديا ولاوس ولم يعرف كثير من الفرنسيين شروط حصول دول الجنوب الثلاثة علي إستقلالها

الداخلي أو الخارجي، ولا درجة إرتباطها بالجمهورية الفرنسية في سنة ١٩٥٦. لقد أعلن دستور فيتنام الجنوبية إنشاء جمهورية واحدة مستقلة، طبقا لمبادىء وشعارات الثورة الفرنسية، وأعلن في الوقت نفسه كفاحه من أجل الاحتفاظ بالحرية وضد كل حركة للسيطرة أو الاستعمار، وطبقا لمبادىء وشعارات باندونج .

ولقد تنازلت فرنسا كذلك ، ولكن بدون نقاش عن مراكز ما الخمسة التي ورثتها علي سواحل الهند، فخرجت فرنسا نهائيا من آسيا.

ورغم ذلك فان دولة صغيرة مثل البرتغال لاتزال متشبثة بالبقاء في ماكاو وفي جوا. أما في بريطانيا فقد حاولت الاحتفاظ بماليزيا التي تغل لها المطاط والقصدير اللازم للحصول علي الدولارات والتي تعتبر سنغافوره قاعدة هامة تسيطر منها عي كل الارخبيل. ولكن بريطانيا إضطرت إلي مواجهة الهجرة الصينية، ثم إضطرت إلي إنشاء إتحاد ماليزيا الذي إشتمل علي تسع دول ومركزين إستعماريين، في إنتظار تحوله إلي مملكه إسلامية داخل نطاق الكومنولث سنة ١٩٥٧ ، وأما سنغافورة فانها قد تحولت إلي مستعمرة التاج.

لقد خرجت أوربا بشكل عام من الشرق، خرجت من بكين وسايجون وكراتشي وجاكارتا، وأصبحت آسيا مستقلة ، ولكنها أصبحت تؤثر علي مستقبل العالم بسكانها الذين يمثلون مئات الملايين من الشعوب التي استغلتها أوربا سنوات طويلة، والتي أصبحت تعيش في ظروف متخلفة وتشعر بهذه الظروف ويمثل هذا الشعور خطر علي أوربا نفسها.

(٣) تحرر البلاد العربية:-

لقد هب ريح التحرر علي العالم العربي كما هب علي مناطق أخري من العالم، رغم إرتباط الغرب بمصالح قوية في هذه المنطقة مصالح استراتيجية في القناة وفي الجزائر، ومصالح إقتصادية في البترول وإيران والعراق والصحراء، وحتي مصالح دينية ومعنوية في الأراضي المقدسة وفلسطين.

ولكنا نلاحظ أن أطماع الدول الاستعمارية في هذه المنطقة كانت أكثر من وسائلها. وكم من خطء ارتكبته إنجلترا وفرنسا ساعد علي تقريب نهاية الاستعمار في العالم العربي، وكم من موقف تشددوا فيه وكان يتطلب اللين، وموقف تساهلوا فيه وكان يتطلب الحزم. وكان ذلك ناتج عن تعاقب العمال والمحافظين علي الحكم في لندن، وتعاقب الوزارات قصيرة الأجل في باريس. وخلف ذلك نلاحظ وجود قوي أكبر، تتمثل في عداء ومنافسة كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإتحاد الجمهوريات الاشتراكية الروسية لنظام ونفوذ الاستعمار الغربي في العالم العربي . وأدت هذه القوة الكبيرة، مع تناقضات القوي الاستعمارية ومع نمو وإزدياد الوعي القومي والتحرري إلي إنهاء النظام الاستعماري في البلاد العربية .

لقد ظهر التناقض مركزاً في منطقة الشرق الأدني العربية مع مشكلة فلسطين التي أدخل الغرب فيها عناصر اليهود عاملا جديداً لضرب العرب، مسلميهم ومسيحييهم والاحتفاظ بهم في مركز التابعين. لقد ضحي الغرب بالمسيحيين الشرقيين وبمصالحهم أمام مصالح وأطماع اليهود الصهيونيين، وقطع بذلك كل رباط روحي يمكنه أن يستند إليه في الاتصال بالعناصر المسيحية العربية، ووطد دعائم الروابط بين المسيحيين والمسلمين كقوميين

عرب، يكافحون كلهم ضد الاستعمار. وكانت حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وموقف الغرب الاستعماري منها عاملا هاما في إتمام يقظة العالم العربي الأساسية، وبدأها في الكفاح الفعلي ضد الإستعمار.

حقيقة أن الحرب العالمية الثانية كانت قد سمحت للفرنسيين والبريطانيين بالتعايش سلميا في سوريا ، ولكن تشرشل رفض أن تحتفظ فرنسا بمركزها السابق في هذا الإقليم العربي، وكان يرغب في حيقة الأمر في أن يرث مناطق الانتداب الفرنسية السابقة أو يحولها علي الأقل إلي مناطق نفوذ بريطانية مع مجموع دول الجامعة العربية التي كان يرسم أمر إنشائها. وشجع ذلك الحركة التحريرية في سوريا التي كسبت الانتخابات، وأنتهي الأمر بعمليات شد وجذب، بين سياسة اللين وسياسة الشدة، مما أدي إلي الاضطراب وتدخل بريطانيا سنة ١٩٤٥ ومما أضطر فرنسا إلي إخلاء دمشق والاعتراف باستقلال سوريا ولبنان سنة ١٩٤٦.

لقد تحررت البلاد العربية بسرعة ، فتحرر العراق وشرق الأردن وسوريا ولبنان، واحتفظت بريطانيا ببعض القواعد العسكرية وبالمصالح الاقتصادية، في عدن والبحرين وجنوب الجزيرة وعمان وقطر والكويت.

أما مصر فانها قد اهتزت منذ حرب فلسطين ونشبت فيها ثورة وطنية سنة ١٩٥٢ أنهت الحكم الملكي وطالبت بجلاء القوات البريطانية من منطقة قناة السويس. ووجدت بريطانيا أن من مصلحتها إخلاء قواعدها قرب القناة. ولكن روح التحرر دفعت مصر إلي تأميم قناة السويس في سنة ١٩٥٦ حتي لا تخضع لمساومات الغرب في عملية تمويل السد العالي. ودفع الضعف حكومات لندن وباريس الي استخدام القوة ضد حكومة القاهرة ، فكانت حرب

السويس التي أثارت اشمئزاز العالم والأمم المتحدة، والتي أنهت بتأكيد هزيمة الغرب الاستعماري، وإنتصار حركات الكفاح والتحرر الوطني، وساعدت علي أن تصبح مصر مركز إشعاع وطني ومركز عالمي للكفاح ضد الاستعمار.

وكانت بريطانيا قد حاولت ، قبل أن تترك مصر أن تحصل علي قواعد أخري في ليبيا، التي كانت قد رفضت إعادتها لإيطاليا، ولكن حركات التحرر امتددت إلي ليبيا، واضطرت فرنسا إلي إخلاء قواعدها في منطقة فزان سنة ١٩٥٦ ، تلك القواعد التي كان الجنرال ليكليرك قد إحتلها حينما سار في أثناء الحرب العالمية الثانية من تشاد إلي تونس.

أما السودان الذي يسيطر علي مياه النيل فان إنجلترا لم تتمكن من البقاء فيه، خاصة وأن استفتاء السودان لم يعط لبريطانيا أي أمل في البقاء فيه.

وكما تحررت بلاد الشرق الأدني العربية وصلت روح الثورة إلي بلاد شمال افريقية. وبدأت العملية في تونس التي عمل فيها الحبيب بورقيبه مع الحزب الحر الدستوري الجديد، ثم امتدت للمغرب التي عمل فيه حزب الاستقلال. ولقد فشلت فرنسا في أن تتفاهم مع الدستوريين ومع الإستقلاليين ، خاصة وأن أطماعها الاستعمارية كانت تتعارض مع في نمو هذه الاتجاهات الوطنية. والتي تمثل المصالح البورجوازية. فانتشرت أعمال الارهاب وإضطرت فرنسا سنة ١٩٥٥ ، وبعد أن قررت الانسحاب من الهند الصينية، إلي أن تعد تونس بالإستقلال الداخلي. ولكن هذا الوعد تطور في بضعة أشهر إلي إستقلال تام، وأصبحت تونس عضوا في الأمم المتحدة . فكيف يمكن لفرنسا أن ترفض للمغرب ما منحته لتونس؟ وإرتكبت فرنسا نفس الأخطاء وكما قبضت علي

بورقيبة وسجنته ثم تركته لكي يعود منتصرا إلي تونس، قامت بعزل الملك محمد الخامس ونفته إلي مدغشقر ، ثم أرجعته إلي بلاده لكي يحتل عرشه المستقل.

لقد حاولت فرنسا أن تلعب بالألفاظ وجعلت الإستقلال مشروطا بالتكامل والترابط معها. ولكن المغرب وتونس رفضتا هذه الديلوماسية، كما رفضتا بقاء قرات الإحتلال الفرنسية ، والتعاون مع فرنسا، وخاصة وأنها كانت تنفرس في الجزائر.

ولقد تمكن المغرب من استعادة المنطقة التي كانت خاضعة لاسبانيا، ولم تحتفظ اسبانيا فى المغرب إلا بافني وسبته ومليلة. أما طنجة فانها قد انضمت إلي المملكة المغربية وألغي النظام الدولي فيها.

ونصل بعد ذلك إلي الجزائر الذي لم يكن من المتوقع بقائها بعيداً عن حركات التحرر العربية. وبعد تطورات كثيرة في العلاقات الفرنسة الجزائرية نشر فرحات عباس البيان الجزائري، ثم نشأت جبهة التحرير الوطنية الجزائرية التي تمكنت من الاستناد الي اخوانها العرب المتحررين، والمكافحة ضد الاستعمار، فاستندت إلي مصر وإلي تونس وإلي المغرب، ونظمت رجالها ونزلت بهم إلي المعركة. وكانت معركة طويلة عجمت فيها عودها لمدة سبع سنوات وتمكنت بعدها من انتزاع حقوقها وإستقلالها من الاستعمار. وإذا كانت إتفاقيات ايفيان قد حددت بعض الشيء من مظاهر الاستقلال الجزائري، أو ربطت بين الجزائر وفرنسا، فان هذه الاتفاقيات لم تعش لمدة طويلة.

ومن خلال عمليات تحرر البلاد العربية شعر الغرب بنقطتين أساسيتين هامتين يحتاج فيهما للعالم العربي، ويخضع فيهما له : قناة السويس كطريق

ملاحة عالمي يربط الشرق والغرب ، والبترول الذي يشتمل العالم العربي علي أكبر مودع منه في العالم . وبعد كان الغرب يفرض نفسه علي غيره، أصبح في وسع البلاد العربية أن تفرض نفسها علي الغرب، وفي هذين الموضوعين .

(٤) تحرر افريقية السوداء:-

اعتقدت أوربا أن في وسعها الاحتفاظ بأفريقية لأطول مدة ممكنة ، ولكن روح التحرر الوطني والكفاح ضد الاسعمار امتدت إي هذه القارة ، وعملت علي تحريرها. ولم تأت عمليات الكفاح ضد الاستعمار من اتحاد جنوب افريقية الذي يظهر من الخارج وكأنه أكثر المناطق الافريقية ارتباطا بالحضارة والمدنية الغربية، ذلك أنه لايزال يحتفظ في داخله بالتفرقة العنصرية ويحرم الوطنيين من حقوقهم المشروعة، حتي كمواطنين. وتمتد هذه السياسة الاستعمارية متدرجة صوب الشمال في روديسيا الجنوبية، ثم روديسيا الشمالية وياسالاند.

ولم تأت عمليات الكفاح ضد الاستعمار من شرق افريقية، رغم أن أثيوبيا قد تمكنت من الحصول علي استقلاها، كما تمكنت الصومال من انهاء الوصاية الدولية عليها.

ولكن هذه العمليات بدأت من كينيا وأوغندة والتي كان المعمرون الأوربيون فيها يستغلون أحسن الأراضي ويرفضون اعطاء السلطة للافريقيين والهنود ولقد استخدم البريطانيون العنف في أقصي معانيه ضد حركة الماو ماو وثورة شعب كينيا، وكانت هذه المطنقة نبراسا لحركات التحرر وللكفاح ضد الاستعمار في افريقية السوداء .

أما في افريقية الغربية فان بريطانيا قد استخدمت وسائل متحررة، وتركت الاهالي يصلون إلي بعض المناصب في الادارة وتركتهم يمتلكون الأراضي، ولكن بشرط أن تضمن بريطانيا لنفسها تصدير القطن والكاكاو والفول السوداني وزيت النخيل. وكانت أولي الدول التي استقلت في هذه المنطقة هي ساحل الذهب التي تحولت فيما بعد إلي غانا. وساهم كوامي نكروما في انجاح حركة الكفاح المتحرر من الاستعمار في بلاده وكان قد تعلم تعليما أتمه في أمريكا ووضع نفسه علي رأس العناصر الوطنية غير الراضية وطلب بحكومة تمثلية. وبعد حوادث الشغب في أكرا سنة ١٩٤٨ قبض عليه وسجن. ثم وافقت بريطانيا بعد ثلاث سنوات علي اعطاء الاستقلال الداخلي لساحل الذهب وسمحت بالانتخابات التي انتهت بفوز نكروما، فخرج من السجن لكي يصبح رئيسا للوزراء، ولكي يضع دستورا يعطي لبلاده الاستقلال التام وفقدت انجلترا إحدي المستعمرات واعتقدت أنها ستضمها إلي الكومنولث، ولكن نكروما حضر حفلة عيد الاستقلال بملابس المساجين، وكانت في الحفلة أميرة تمثل التاج البريطاني، ونائب رئيس الولايات المتحدة، الدول التي سارت بعد ذلك إلي باندونج.

وجاءت نيجيريا بعد غانا، ولمع فيها نجم أزيكوي الذي كان قد تعلم كذلك في أمريكا، والذي مر كذلك بالسجون الإنجليزية قبل أن يحصل علي استقلال بلاده وبعد محاولات دستورية أصبحت نيجيريا سنة ١٩٥٧ اتحادا من ثلاث دول، لكل منها مجلسه ، ثم وعدت لندن باعطائها الاستقلال داخل حدود الكومنولث.

وحصلت سيراليون كذلك علي حكومتها، ولم تتحرك بريطانيا كثيرا أمام هذه الموجة العارمة التي اجتاحت كل مستعمراتها السابقة.

أما في افريقية الفرنسيه فقد حصلت توجو علي استقلالها في سنة ١٩٥٦، وكانت مجاورة لغانا ، وأصبحت جمهورية مستقلة وعجزت فرنسا بعد ذلك من أن تحرم أقاليم افريقية الاخري مما منحته لتوجو، خاصة وأن الحركات الوطنية أخذت تشتد في الكاميرون وفي داهومي وفي ساحل العاج وغينيا والسنغال . وطالب سكان افريقية الاستوائية الفرنسية بما منحته فرنسا لسكان افريقية الغربية. أما مدغشقر فانها كانت قد أعلنت الثورة التي كبتت بشدة، ولكن فرنسا اضطرت إلي منحها دستور ومجالس إقليمية ومجلس حكومة في سنة ١٩٤٧. وهكذا حصلت أقاليم افريقية كثيرة علي ماتصبو اليه، وكانت كل افريقية قد صممت علي الحصول علي حريتها الكاملة.

وجاءت سنة ١٩٦٠ لكي تشهد حصول كثير من الدول الافريقية علي استقالها وتحررها من النظم الاستعمارية الغربية. ورغم تباين الاتجاهات والارتباطات بين الدول الافريقية ، صوب أوربا أو أمريكا أو باندونج، فان فكرة مؤتمر الوحدة الافريقية وإنشاء منظمة إقليمية للدول الافريقية كانت تراود عقول معظم أبناء افريقية.

ويعتبر بذلك تاريخ الاستعمار قد وصل إلي مرحلة حاسمة، إن لم تكن نهائية في حياته، ولكن نهاية التحكم العسكري والسياسي لم يكن يعني نهاية التحكم الاقتصادي ، وهو شكل جديد من أشكال الاستعمار التي ظهرت ، وفي القرن العشرين .

الفصل الثانى والعشرون

التخلــف

تواجه القوي الوطنية اليوم مشاكل عويصة في كل من آسيا وأمريكا الجنوبية وبخاصة في إفريقية . فهي في الوقت الذي تحاول فيه بناء استقلالها الوطني والتحرر من القيود السياسية والإقتصادية والإستعمارية تجد ان حالتها قد أصبحت يرثي لها وخاصة من الناحية الإجتماعية. وهذا هو ما يسمي «التخلف» الذي يظهر واضحا في مستوي المعيشة وفي مشكلات السكان والإنتاج ويتميز بانتشار الجوع وقلة الأغذية وتفشي الامراض والجهل. وعلينا أن نحاول رسم الخطوط العامة لهذه الحالة قبل التحدث عن موقف القوي الوطنية من الاستعمار المقنع ، والخطة التي يجب عليها إنتاجها .

١- مستوي المعيشة:

إن أستطاعة الأوربي أو الأمريكي أن يزور الآن وفي شهر واحد نفس المناطق التي قضي ماركوبولو عدة سنوات في زيارتها وتفهم أحوالها. ولكنه يجد أن شعوب هذه البلاد لازالت تعيش معيشة العصور الوسطي وهي في قلب القرن العشرين . فهناك مئات الملايين من البشر لم ينعموا بالذهاب الي المدارس وليست لديهم أي أدوات حديثة للعمل ويعيشون في فقر مدقع. إن حوالي ٦٠٠ مليون ينعمون الآن بنتائج التقدم الحديث وخاصة في أمريكا الشمالية وأوربا واستراليا، أما بقية العالم فيعاني الشقاء ويبلغ تعداد أهله حوالي ثلاثة أضعاف هذا العدد موزعين عن افريقية وأمريكا الجنوبية ، ومكدسين في آسيا.

بلغت قيمة الانتاج العالمي في سنة ١٩٥٥ ، ٩٣٥ مليارا من الدولارات (باستثناء الدول الشيوعية)، وكان نصيب الولايات المتحدة منها ٣٨٧ مليارا، ونصيب أوربا ٣٤٥ مليارا، والباقي للدول المتخلفة ولا يتعدي ١٤٥ مليارا بكثير.

ويبلغ متوسط دخل الفرد في الولايات المتحدة ١٨٧٠ دولارا وفي فرنسا ٧٤٠ دولارا ، ولكنه ينخفض فجأة إلي ١١٠ دولارا في بيرو و٧٠ دولارا في باكستان و٦٠ في الهند و٥٠ في بورما.

وهكذا يظهر أن ١٠٪ من سكان العالم يستهلكون ٨٠٪ من الإنتاج العالمي. حقيقة أن بعض راجات الهند يعتبرون من أغني أغنياء العالم وتوجد إلي جوارهم الملايين من الأهالي بدون طعام يسد رمقهم. ولكن هناك أيضا وسائل التقدم العلمي والفني الذي ينعم بها الأوربيون والأمريكيون في الوقت الذي لا يجد فيه الآسيوي طعاما ولا مأوي هناك من يقاسون التخمة وهناك من يتضورون جوعا[1].

٢- السكان والإنتاج:

ويساعد زيادة عدد السكان في مناطق كثيرة ، نتيجة لتقدم الطلب وازدياد الوسائل الصحية ، علي زيادة تدهور الحالة .

وعلينا أن نلاحظ أن تقدم الحالة الصحية تكلف أقل بكثير من مشروعات التنمية الاقتصادية فقد انخفضت الوفاة في سيلان بنسبة ٤٪ بعد انفاق نصف دولار لكل فرد، ولكن يلزمنا ٢٥٠ دولارا لكل هندي لتحسين ظروف الانتاج الزراعي في بلاده.

(١) أنظر:- Drogat, Noel, Pays sous deve;loppes or cooperation techni-due, paris, 1959 pp. 12-13.

وتنبأت إحدي هيئات الأمم المتحدة بأنه يمكن أن يصل تعداد السكان في العالم إلي أربعة مليارات في عام ١٩٨٠ ومابين ستة وسبعة مليارات في نهاية القرن ولازال أكثر من نصف سكان العالم يعيشون في المناطق الموسمية المزدحمة في آسيا، ويعيشون علي الكفاف . أن زيادة السكان بطيئة في البلاد المتقدمة وتتميز في نفس الوقت مع التقدم الفني ومع زيادة وسائل الانتاج، ولكن المناطق الآسيوية والافريقية ومناطق أمريكا الجنوبية تري تضاعف عدد سكانها وتدهور الحالة الإقتصادية فيها.

وليست زيادة السكان هي المسئولة الوحيدة عن بعد المسافة واتساعها بين المتقدم والمتخلف، بل هي مسألة «وسائل» وأدوات فيمكن لمن يمتلك هذه الوسائل أن يزيد من دخله ويجابه زيادة السكان، أما المتخلف فيعجز عن الإنتاج اللازم لمواجهة زيادة السكان. ويمكننا أن نشبههما بقاطرتين أحداهما لا تقدر علي السير إلا بسرعة عشرة كيلومترات في الساعة والثانية بسرعة مائة. وبدأت السريعة سيرها وهي متقدمة عن البطيئة ، فتزداد المسافة بينهما اتساعا، وباستمرار، رغم سيرهما علي نفس الخط.

ان هذا التشبيه ينطبق علي الإنتاج ويزيد الفرق علي الواقع إذا لاحظنا أن الشعوب المتخلفة هي أشد تكاثرا وأسرع من الشعوب المتقدمة.

٣- مناطق الجوع:

لم تتقدم حالة التغذية في المناطق المتخلفة بل زاد الحال سوءا في بعض المناطق رغم المجهودات التى استخدمت في السنوات الأخيرة .

وكان انتاج المواد الغذائية قد انخفض في سنة ١٩٥٥ - سنة ١٩٥٦ بنسبة ٥ إلي ١٠٪ عن كمية الانتاج قبل الحرب العالمية الثانية في أمريكا اللاتينية والشرق الاقصي وانخفض بنسبة ٢٥ إلي ٣٠٪ في نفس المدة وفي المنطقة جنوب آسيا الممتدة من باكستان حتي بورما وماليزيا ، هذا الوقت الذي زاد فيه إنتاج المواد الغذائية في المناطق المتقدمة من العالم.

وتشهد منظمة الأغذية الدولية .F.A.O بأن زيادة الانتاج الزراعي قد حدث في البلاد الحديثة التجهيز والأعداد مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، مما اضطر هذه الدول إلي إعادة النظر في سياستها الانتاجية ، ويقاسي ثلث سكان العالم من نقص الغذاء الاساسي، أي أنه لا يتمكن من الحصول علي الحد الأدني الغذائي اللازم للاحتفاظ بسلامة جسده . ونجد أن كمية الاغذية ونوعها تنقص شعوب البلاد المتخلعة ، ويظهر هذا واضحا في قلة المواد البروتينية والفيتامينات والاملاح المعدنية التي تتناولها أهلها.

ويمكننا أن نشاهد الآن في الهند قبائل أو قري بأجمعها وقد شابه أهلها الهياكل العظامية أكثر من شبههم بالآدميين، ويزيد انتشار هذه المناظر كلما قل المطر. وإزداد الجوع، وهناك الكثيرون ممن يهيمون علي وجوههم في المدن الكبري، بحثا وراء الطعام.

أما في افريقية السوداء فان الطعام فقير في مواده الغذائية إذ لا يكفي ملء المعدة بالموز مثلا في الوقت الذي يحتاج فيه الجسم إلي قطعة، ولو صغيرة ، من اللحم. وإن قلة البروتينات بين عناصر الطعام

لتؤثر علي صحة الأطفال فنجد زيادة نسبة الوفيات بين الأطفال قبل عامهم الخامس، أما بعد هذا السن فيمكن للطفل أن يغذي نفسه ببعض ما يجده من الفواكه أو الجراد أو بيض الطيور. وتبلغ نسبة الوفيات بين الأطفال من أهالي رواندا الذين هاجروا إلي أوغندة ٥٠٪ وفي منطقة مناجم الماس في سيراليون ٦٣٪ وفي بعض مناطق تنجانيقا ٥٠٪. ويضطر الأهالي في بعض المناطق الإفريقية إلي أكل حبوب مخزونة ومليئة بالحشرات، ورغم ذلك فهم يتناولون منها وجبة واحدة كل يومين أو ثلاثة حتي تكفيهم طول العام، ويزودون في وجباتهم الأخري بما يجدونه في الغابات من خضروات وحشائش وبعض الحيوانات الصغيرة وبيض الطيور .

وتصل مشكلة الجوع في بعض المناطق إلي درجة أن يفكر البعض في عدم تحسين الحالة الصحية حتي لا يزيدوا من عدم الأفواه التي تنادي بالطعام وليس ارتفاع نسبة وفاة الأطفال هي النتيجة الوحيدة لسوء التغذية، بل إن العامل لا يستطيع إتقان عمله ما لم يتزود جسمه بما يلزمه من عناصر غذائية كافية .

وهكذا نجد ١٫٦٠٠ مليون بشري في مناطق متخلفة لا يأملون في أن تمتد حياتهم إلي أطول من ٢٨ سنة ويموت ١٢٠ طفلا قبل عامهم الأول من بين كل ألف طفل في آسيا بينما لاتبلغ هذه النسبة في الولايات المتحدة إلا ٢٩ فقط . أما في أوربا وأمريكا الشمالية فيبلغ متوسط العمر ٦٣ سنة .

٤- الأمراض:

يزيد انتشار الأمراض الوبائية بشكل خاص في المناطق الحارة التي يمتليء جوها بالحميات وينتشر فيها الجذام وتكثر بها البلهارسيا وتجتاحها الطواعين ويقاسي أهلها من السل.

ويقدر عدد المرضي بالسل في الهند بثلاثة ملايين في كل عام وفيها مليونان من مرضي الجذام خلاف ما يجتاحها من الكوليرا والطاعون.

ولا تمتلك الهند إلا ٠٠٠ر٧٠ طبيب وعشرة آلاف مستشفي بها ٠٠٠ر١٢٦سرير أي بمعدل سرير لكل ثلاثة آلاف مواطن في هذا الوقت الذي يتسبب فيه سوء الجو وقلة المياه الصالحة للشرب وسوء الحالة الصحية وقلة التغذية وسوئها، في حصد المرضي حصدا وبدرجة تفوق أي منطقة أخري في العالم .

ولا يختلف الحال كثيراً في أندونيسيا الذي يفوق تعدادها تعداد اليابان، وليس لديها سوي ٢٠٠ر١ طبيب ، في الوقت الذي نجد فيه أكثر من ٠٠٠ر١١ طبيب في هولندا، ولا يبلغ تعداد سكانها إلا عشرة ملايين. ليس في استطاعة هذا العدد من الأطباء مواجهة أي وباء يجتاح البلاد. ويؤثر هذا بطبيعة الحال علي حياة السكان وعلي قدرتهم الإنتاجية وبالتالي علي مستوي معيشتهم.

أما في افريقية السوداء فان الحميات والأوبئة والجذام تنتشر في كل مكان. وقدرت السلطات الفرنسية عدد المرضي بالجذام في افريقية الاستوائية الفرنسية في عام ١٩٥٣ بـ٠٠٠ر٣٠ ، ولكن هذا الرقم ارتفع في أربع سنوات إلي ٠٠٠ر١٤٣ نتيجة للنزول إلي ميدان محاربة هذا

المرض والقيام بعمليات احصائية تستند إلي أسس علمية . ولا يكفي عدد الأطباء لمعالجة الأمراض في هذه القارة إذ أن هناك طبيب واحد لكل ٢٠٫٠٠٠ أفريقي في افريقية الإستوائية الفرنسية وطبيب واحد لكل ٥٨٫٠٠٠ أفريقي في نيجيريا (١) .

أما في أمريكا الجنوبية فان الحالة الصحية أسوء مما عليه في أي مكان آخر، وخاصة بين الأهالي الوطنيين في الداخل الذي تبلغ نسبة وفاة الأطفال لديهم فيما بين ٢٥٠ و ٧٠٠ في الأف ، وليست في مناطقهم أي وسائل صحية أو علاجية تقريبا .

٥- الجهل :-

في الوقت الذي تقدمت فيه نسبة التعليم في كل من اوربا وأمريكا نجد بقية العالم تقاسي من الجهل. فنجد أن ٧٠ إلي ٨٠٪ من الأطفال في افريقية السوداء لا يجدون فرصة للتعليم، لعدم وجود المدارس ولعدم وجود المدرسين ولتفرق الأهالي في مساحات واسعة من القارة. ونجد أن نفس هذه النسبة تقريبا موجودة في المناطق الجبلية في الجزائر حتي يومنا الحالي، بل إن مناطق كثيرة منها تعيش بدون رؤية المدرس أو ساعي البريد أو وسائل المواصلات الحديثة.

ورغم أن الاحصاءات التي يستند إليها في هذا الشأن تأتي من الأمم المتحدة إلا أنه لا يمكن الركون اليها مادامت بعض الدول تعطي نسبا للتعليم تختلف عن الحقيقة، حتي لا تظهر بمظهر المتبربرة وهناك أيضا مرحلة التعليم ومستواه إذ أن هذا المستوي يختلف من بلد لآخر، حتي بالنسبة لتعليم الدرجة الأولي.

---

(١) أنظر:- Drogat, Noel, Pays sous deve;loppes or cooperation techni-due, paris, 1959 pp. 14-19.

وعلي أية حال، فان بعض دول أمريكا اللاتينية تذهب إلي أن ٣٥ أو ٤٠٪ من أطفالها يذهبون للمدارس أما في آسيا فان هذه النسبة قد تنخفض إلي ١٠٪ كما هو الحال في الهند وأندونيسيا.

وليس في مقدور الدول المتخلفة بما لديها من متعلمين أن تبدأ جديا في تنمية مواردها الاقتصادية واستغلالها بدرجة تكفي أهلها وتسد حاجاتهم، إذ أن العمال المهرة ينقصونها دون التحدث عن المهندسين اللازمين لإدارة المصانع.

xxxxx

وبهذا العبء الثقيل تعمل الشعوب الافريقية والآسيوية علي الكفاح من أجل الحياة. إنها تعمل علي التخلص من الاستعمار والتسلط وتحاول بناء بلادها علي أسس تسمح لها بمواصلة الحياة واعطاء فرص أفضل لأبنائها وتمكن لهم العيش في ظل الحرية والكرامة.

ولكن الطريق طويل ومحفوف بالمخاطر، خاصة وأن الدول الغربية الاستعمارية تدعي أنها قد أنهت عهد الاستعمار ، وتعرض ألوانا جديدة لربط هذه الدول الحديثة الاستقلال بعجلتها، إن الدول الغربية تحاول في حقيقة الأمر أن تواصل استعمارها واستغلالها للدول الحديثة الاستقلال وتستغلها من النواحي الاقتصادية والاستراتيجية . فعلي هذه القوي الوطنية أن تجد لنفسها الطريق رغم وعورته، وكثرة العقبات فيه، وثقل العبء الذي تئن تحته. ولقد وجدت هذا الطريق بعد تجارب ، ونتيجة ليقظتها.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الصفحة

الباب الثاني

الاستعمار فى العصور الوسطى

الصفحة

الصفحة

الباب الرابع

عصر الشركات الاستعمارية

الصفحة

الباب الخامس

الثورات والاستعمار

الصفحة

الباب السادس

الامبراطوريات الجديدة

الصفحة

الباب السابع

غروب الاستعمار الأوربي